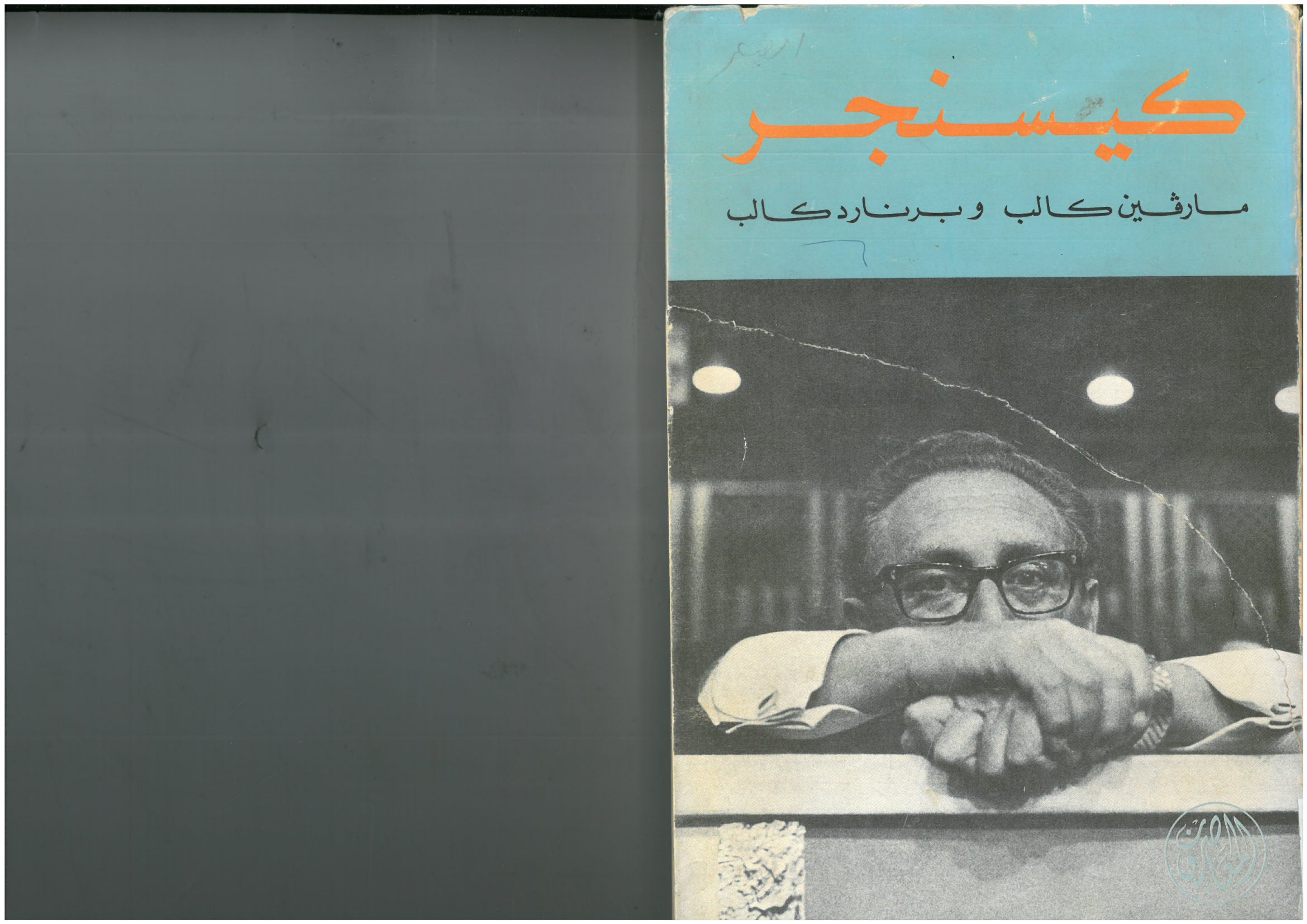

كيسنجر
مارڤين كالب و برنارد كالب

مارفين كالب و برنارد كالب

كيسنجر

الأهلية للنشر والتوزيع

الاهلية للنشر والتوزيع
بيروت ١٩٧٥

الاهلية للنشر والتوزيع ص. ب ١٥٥٤٣٣ بيروت هاتف ٣٥٤١٥٦

المحتويات

المقدمة

هنري الفرد كيسنجر نسيج فريد في فورة نشاطه المميّزة . ففي سنّ الحادية والخمسين ، وبعد مرور خمس سنوات على وجوده في واشنطن ، انطلق هذا المقتدر بحيوية على موازنة القوى ، من منصب مغمور نسبيّاً على مقاعد الاستذة في جامعة هارفورد ليصبح أشهر ديبلوماسيي عصرنا وأكثرهم اثارة للجدل . وبات رمز الديبلوماسية الاميركية على النحو الذي تقترن فيه صورة جورج واشنطن بالدولار الاميركي .

غدا خلال نصف عقد اسطورة تنهال عليها الاوصاف والنعوت التي من بينها : « ثاني أقوى رجل في العالم » ، و« وجدان الحكومة » و« محامي الدولة الرسمي » ، و« الصقر الرحيم » ، و« الحمامة المتيقّظة » ، و« دون جوان الجناح الغربي للبيت الأبيض » ، و« ماترنيخ نيكسون » ، و« عميل نيكسون السرّي » ، و« استاذ رئاسة الولايات المتحدة » ، و« جاكي اوناسيس حكومة نيكسون » ، و« فارس حرب نوبل » ، و« زوبعة الغرب الاوسط » ، و« مسترّق الاسلاك على مضض » ، و« وزير خارجية العالم » — وهي لائحة طويلة من النعوت وخصوصاً في واشنطن ، حيث لا يكال المديح الا في حدود محسوبة .

ومنذ البدء اثار كيسنجر غضب الرجال الشيب الذين يحرسون ممرات البيت الابيض عند نيكسون. فكنيته وألمعيته ونزعته الى الترفيع الذاتي وصَمته جعلته كلّها، في نظرهم ، الهرطقي المقضي عليه بالنفي . غير أن الأمر انقلب الى عكسه بحيث أن هالدمان وارليخمان ومن انجرف معهما في سيل وترغيت العارم هم الذين ذهبوا ، بينما اخذ هو يصعد الى القمم العليا.ومنذ انطلاقه من الطابق الأرضي في الجناح الغربي من البيت الأبيض كمساعد الرئيس في شؤون الأمن القومي ، كان سيثب الى الطابق السابع لوزارة الخارجية وزيراً يحتل منصباً توالى عليه رجال من وزن توماس جفرسون ودانيال وبستر وجون فوستر داللس .

ولقد كان ما بلغه قفزة لم يسبق لمثيله — لاجيء من المانيا النازية ويهودي — ان قفزها من قبل . وفي السياق حاز كيسنجر على صيت عريض حتى بات في مطلع ١٩٧٤ ، في نظر العديد من ناقدي نيكسون أنفسهم ، الرجل الوحيد الذي يبرّر استمرار رئيس شوّهت فضيحة وترغيت سمعته .

وبعد انقلاب علاقتهما رأساً على عقب غدت متداخلة الى حدّ انه بات ينظر الى

الاكاديمي الواقف الى جانب نيكسون على انه الحصن الأخير الذي يحول دون خلـع الرئيس .

وصل هنري كيسنجر الى واشنطن في فترة ناضجة دولياً . فقد كانت الولايات المتحدة ، والعالم ، في مجرى مرحلة انتقالية . للمرة الأولى كانت القوتان النوويتـان العظيمتان قد اخذتا تقدّران حدود قوّتيهما وتتلمّسان الحاجة الى ايجاد وسيلة لخفض التوتّر بينهما . ولم تعد القنبلة التي يمتلكها الطرف الآخر ، ويزداد حجمها باستمرار ، حجة الاقناع الوحيدة . وهكذا حيث نقّل كيسنجر طرفه كان يقع على تغيّرات بارزة آخذة في الحدوث سواء ضمن البلد الواحد او في علاقات البلاد بعضها ببعض الآخر .

بدّلت سنوات الحرب الطويلة المضنية في الهند الصينيّة صورة اميركا ازاء نفسها فلم تعد الولايات المتحدة تعتبر شرطي العالم . ويفوق ذلك اهمية أن اميركا كانت قد فقدت الافضلية الاستراتيجية المرجّحة لكفتها والتي كانت تتمتع بها من قبل . ثم ان الاتحاد السوفياتي والصين بات احدهما أكثر عداء للآخر ،منهما بالنسبة الى الولايات المتحدة . وغدت صورة الوحدة المونولوثية للعالم الشيوعي بقيادة موسكو وارشادها ، قراءة غير صحيحة للتاريخ . وفضلاً عن هذا ، فان النزاع بين موسكو وبكين ومـا صاحبه من مشكلات كل منهما المحليّة حفز روسيا على تليين سياستها القائمة على المواجهة الفجّة مع الغرب ، كما حثّ الصين على اعادة النظر في سياسة العزلة الدولية التي وجدت نفسها فيها .

وكانت اوروبا واليابان قد تجاوزتا مرحلة استعادة حيويتهما الاقتصاديّة الى امكان اداء دور اعظم في الشؤون الدوليّة . وبدأ بعض القادة العرب يدركون ان الحرب مع اسرائيل ليست النهج الوحيد المتيسّر امامهم . والبلاد الحديثة التي برزت الى المسرح الدولي باندفاعاتها القومية الاولى اصبحت تتوق الآن الى تعامل مجز أكثر مع بقية العالم . وكان ثمة توترات ولكنّها لم تكن خطرة على الاطلاق . وبدا العالم يتلمّس طريقه نحو علاقات جديدة .

بالنسبة إلى كيسنجر فان هذه الحقائق المتغيّرة من الحياة الدولية هي مضافة الى لحظة فريدة من التاريخ . ذلك ان التوقيت كان عنده ذا شأن حاسم . « السوانح لا يمكن اختزانها ، فهي اذا ما مضت ، يصبح ، في اغلب الاحيان ، متعذراً اعادتها » . هكذا كتب ذات مرّة . وبات توقيت الفعل لا مجرد مضمونه ملمحاً مميزاً لاسلوبه الدبلوماسي . كان يكثر التنقّل ذهاباً واياباً محاولاً اقتناص اللحظات السوانح . وهو يعمل في نطاق خطر ولكنّه يزخر بالامكانات المنتجة ، الا وهو النطاق الفاصل بين الآمال الجديدة المعقودة على السلم وبين المخاوف القديمة النابعة من خطر الافناء، فاذا به يرعى سياسات

تسعى لخلق عالم أكثر انفراجاً وان يكن لم يزل حسن التسلّح .

كانت السياسة الخارجية موطن قوة الحكومة وكيسنجر مفاوضها الجوّالة . فهـو يحتسي الشامبانيا مع قادة الكرملين ملطفاً الاجواء بعد جيل من الحساسيات في الحرب الباردة . ويحاول ارساء قواعد حوار جديد معهم على اسس أكثر عقلانية ومسؤولية جاعلاً الوفاق – وثمة محاولة جديدة لبلوغه – هدفاً ذا قيمة للسياسة الاميركية ، واضعاً القيود في حال تيسّر ذلك، على انتاج الاسلحة النووية المميتة وانتشارها. وهو يسافر الى بكين فيستبدل عقدين من العداوات بمسعى جديد للتواصل مع ربع الجنس البشري . ويطير عبر الأطلسي اثنتي عشرة مرة على الأقل بصورة سرّية ومراراً عديدة أكثر من ذلك بصورة علنية ، ليفاوض في سبيل تسوية لحرب فيتنام ، محارباً الصقور باليد الواحدة والحمائم باليد الأخرى ، حتى توّج مساعيه اخيراً في كانون الثاني ١٩٧٣ ، بانجاز صفقة مع هانوي تقوم على عودة الأسرى الاميركيين من فيتنام الشمالية وانسحاب القوات الاميركية من جنوبي فيتنام . وفي الشرق الاوسط يدشّن ديبلوماسية الطيران ذهاباً واياباً بين القدس واسوان والقدس ودمشق في مسعى رئيسي لاستبدال النزاعات التي لا نهاية لها في المنطقة بنمط من المفاوضات ، ويحقق على الاقل بداية فصل القوات بين الجيوش العربية والاسرائيلية في منطقة الحرب .

واجمالاً ، فان مساعيه غير الاعتيادية لتعبئة امم العالم ، صغيرها وكبيرها،حول قواعد جديدة من السلوك غدت مادة الدراما الدولية ، وبلغت قمتها في اواخر ١٩٧٣ عندما منح جائزة نوبل للسلام تقديراً لدوره في مفاوضات وقف اطلاق النار في فيتنام.

لكن ليس كل ما مسّه انقلب ذهباً . فأكثر من واحدة من اتفاقاته التي حملت البشائر بدت ، عند تفحّصها في ضوء الفجر البارد ، فاقدة لبعض وهجها . وادّى ولعه بالسرّية والمفاجآت الى وضع عدد من حلفاء اميركا في حالة فتور غير ودّية .

وكان من نتائج اسلوبه المتفنّن في الديبلوماسية في ولايـة نيكسون الاولى أن وزارة الخارجية – التي لم يكن يشغلها – خسرت معنوياتها وغدا الكونغرس متفرجاً آخر بين المتفرجين . حتى جائزة نوبل التي حازها صارت موضع تحدي منتقديه على انّها جاءت قبل أوانها نكتة سمجة خاصة طالما ان الحرب لم تزل مستعرة في فيتنام .

وكان ثمة انتقادات أخرى أكثر تحديداً في طابعها . فمن اليسار ارتفعت جوقة من الاتهامات تقول إنّه فشل على الصعيد الأخلاقي والسياسي في تبرير تلك السنوات الاربع الاضافية من حرب الولايات المتحدة في فيتنام والانقسام داخل الوطن الاميركي . ومن اليمين جاء الاتهام القائل انه قد تنازل كثيراً للروس خلال مفاوضات نزع السلاح فعقد التسويات على حساب الأمن الاميركي في سعيه للوفاق . ومن اصدقائه على اليمين واليسار كانت الخيبة مرة لأنه انحرف ومال الى جانب باكستان ضد الهند في ١٩٧١ بينما كان

عسكر اسلامباد يرتكبون ما يمكن وصفه بالمجازر الجماعية ضد البنغلاديشيين في شرقي باكستان .

ولم يكن ذلك كل شيء . فقد احاط به الشك المتزايد في مدى تورطه في استرقاق اسلاك موظفي مجلس أمنه القومي ورجال الصحافة. ولم تنجح محاولاته في ايضاح علاقاته بالمتلصلصين على الهاتف والتنصّل من التقارير عن التجسّس العسكري ضمن مجلس الأمن القومي في تبديد شعور الضيق بتناقض نزاهته . واعتبر المعجبون به دفاعه عن الدور الذي أداه واقعية صريحة بينما اعتبره منتقدوه خداعاً واضحاً .

ان انتخاب الرئاسة في ١٩٦٨ قد عبّد طريق كيسنجر الى السلطة ؛ فقد فاز نيكسون وكان كيسنجر متيسّراً في متناول اليد. وعلى الرغم من ان كيسنجر كان في الاصل ضد نيكسون الا انه وجد الدعوة للانضمام الى البيت الأبيض لا تقاوم . وكانت المسألة في تغليب الفرصة السانحة على الشك . فمنذ رئاسة ايزنهاور وكيسنجر يتنقّل ذهاباً واياباً بين كامبردج وواشنطن عارضاً آراءه في السياسة الخارجيّة بوصفه مستشاراً يتكلّم من هوامش حدود السلطة ، الا ان الرئيس المنتخب الجديد أراد المجيء به الى قلب السلطة . فقد كان نيكسون يبحث عن خبير بالسياسة الخارجية يشاركه رؤياه في اختيار انجع الوسائل وابرعها لمعالجة سلطان اميركا المتداعي بتحقيق توازن عالمي جديد – وهو ما سيدعوه فيما بعد « بنية السلام » . ولقد ضاعف من اقتناع نيكسون بصواب اختياره اعتبار « المؤسسة الشرقية » المشكّكة عبور كيسنجر الى ضفة نيكسون على انه ارتداد وانحراف .

انطلق نيكسون وكيسنجر من خلفيات ومنطلقات متباينة . فنيكسون جاء الى خضم السياسة العمليّة من كاليفورنيا وهو محافظ التفكير وشوفيني النظرة ، بينما جاء كيسنجر من موقع الانجاز الاكاديمي ، مهاجراً ، متشدداً مع ميول دوليّة . وعلاوة على هذا ، فقد كان بوسع كيسنجر ان يضفي على مناورات نيكسون الديبلوماسيــة المفاجئة اطاراً من المفاهيم المتناسقة . وفي دورهما الجديد كحفاري قبور العقائد والافكار، كانا يتشاركان في نظرة واقعية للسياسة العالمية تولي التجريبيّة الأولوية على الأخلاقية . وبدا كأنهما ملتقيان على اعتقاد مشترك هو ان هذا السيار ليس بالمكان المأمون العيش على سطحه ، بحيث اعتمدا الزامية السرّية والتشكك بالبيروقراطية واقنيتها ، والتوجه النخبوي الى الدبلوماسية ، وتفضيل مواجهة العالم بالأمر الناجز المفعول على الافصاح مسبقاً عن المقاصد والنيّات .

الا ان تمايز شخصيتيهما كان حقيقة ثابتة وكان كلاهما يرتاح الى شيوع هذا الأمر بين الناس . فكيسنجر شخص حار وودود ومرهف الاحساس ، بينما انكماشية شخصية نيكسون لا يرقى اليها ريب . وكيسنجر يستطيع اداء دور النقاوة للتفاصيل والدقائق ، كما انه يتمتع بموهبة اعطاء الايضاحات البارعة وعند الضرورة يتقن الكلام الذي يرضي

الطرفين . اما نيكسون فيتخصص بأسلوب الغلو المفرط بحيث تكون جمله مطليــة بالأسود والأبيض . وبامكان المرء ان يلاحظ احياناً كيسنجر وهو في ضيق من كبت النفس بينما هو يصغي لخطبة من خطب الرئيس . وكلاهما متوحد منعزل يخامره وهو في القمة شعور المطارد غير المطمئن غير ان احدهما يفضّل الاختفاء في اللقاءات الاجتماعية الحاشدة وغالباً بشهرته الواسعة بينما الآخر يتّبع الاساليب التقليدية في الاختفاء .

انهما ، بالتأكيد ، ثنائي شاذ . فبعد انقضاء خمس سنوات عليهما في تواصـل مستديم ، بقيت علاقتهما الشخصية تتسم بالانضباطية دون ان تغدو حميمة . غير ان كيسنجر لم يعد يأبه للتدليل على ولائه او القلق على مصيره من مؤامرات رفاق الرئيس لاقصائه . وهكذا ، كان تعامل كيسنجر مع نيكسون تعامل عمل لا تعامل علاقات اجتماعية. وعلى الرغم من ان الرئيس كان يدعو، بين الحين والآخر، مستشاره للشؤون الخارجية لتناول طعام الغداء معه في البيت الأبيض الا أن ذلك لم يجعله ، باي حال ، صديقاً حميماً من وزن شارلز ريبوزو . وكان طابع علاقة كيسنجر بنيكسون يتسم بالشكليات والاصول الرسمية التي يضعها الرئيس .

غير انّه على الرغم من اختلاف الامزجة بينهما فان الرجل الذي سمّاه نيكسون وزيراً للخارجية في آب ١٩٧٢ ، أيّد سياسة رئيسه الخارجية من اعماق القلب . « بامكانكم الافتراض » ، قال كيسنجر ذات مرّة ، « انّه اذا لم استطع تأييد سياسة من السياسات الرئيسيّة فانني سأستقيل » .

وبالامكان القول عن هنري كيسنجر ان الحكومة توفّر مالاً كثيراً بمحاسبته بالجملة لا بالساعة . ذلك بأنّه من الذين يطول يوم عملهم في واشنطن الى أبعد حدود . فيومـه يبدأ بالنهوض من نوم غير متقطع مدة ست ساعات – وهي الفترة التي يستطيع العالم ايضاً التمتع خلالها بليلة هادئة – ثم يتجه سريعاً خارج بيته المؤلف من ست غرف والمشرف على حديقة روك كريك ، وغالباً يتأبط غسيله باليد الواحدة وحقيبته باليد الأخرى . ويقود سيارة مرسيدس بيضاء مسافة ميلين ، وفي اشد اوقات ازدحام السير ، الى البيت الأبيض . غير انّه سرعان ما اضطر الى استبدال ذلك بالاستسلام الى سيارة ليموزن يقودها سائق وذلك تحت ضغط متطلبات العمل والسلامة . وهو غالباً يتناول فطوره في مكتبه . وبينما يمكن وصف ديكور منزله بأنه على نمط الغرب الاوسط « لهوليدي إن » ، فان مكتبه مزيج من النمط الاميركي القديم ونمط البيروقراطية المعاصرة . ومنذ ١٩٧٠ ومكتبه في الأمن القومي يقع على محاذاة الشارع وعلى منتصف المسافة من « المكتب البيضاوي » . وله نوافذ فرنسيّة عالية لطالما تأطّر احداها ، وقدمه مثبتة في عتبة النافذة بينما هو يتكلّم على الهاتف ، ويلوّح للمراسلين الصحافيين الذين يمرّون به في طريقهم ، على بعد ياردات منه ، الى غرفة الصحافة في البيت الأبيض . وتزدان

الجدران والرفوف ووجوه الطاولات بلوحات زيتية متنوعة وطُرف ذات عتق وتذكارات من رحلاته العالميّة . وابرز هذه اللوحات معلقة فوق إريكة ، وهي عبارة عن قماش الكنفا المطرّز بالوان قرمزية متموّجة تبرز من دائرة حمراء محوريّة . ويجد كيسنجر هذا الجو مريحاً .

اما الرسم الزيتي المعار من صديق في كامبردج ، فهو من صنع جوليس اوليتسكي ، رسّام تجريدي من مدرسة نيويورك للرسم . « لا تخبر اوليتسكي اين هو الرسم » قال الصدق ذات مرّة ابّان احتدام التورط الاميركي في فيتنام ، « فهو ضد الحرب ولن يطيق ان يعرف ان رسمه معلق في مكتب هنري في البيت الابيض » . وثمة لوحات أخرى هي تذكارات رحلاته الى موسكو وبكين ، وقد اهداه ليونيد بريجنيف لوحة كبرى لباقة زهور من رسم ب. كونغولفسكي ، وهو فنان « اشتراكي واقعي » . وأهداه الصينيون لفة من الرقّ مرسوم عليها زيتياً حصان بريشة الفنان هسوبي – هونغ الذي اصاب شهرة عالمية قبل موته في ١٩٥٣ . اما الرفوف فملأى بالكتب وبعضها من تأليفه . وعلى طاولة خلف مكتبه تنتصب صورة للرئيس ضمن اطار كتب عليها : « الى هنري عرفان جميل وتقدير لمشورته الحكيمة وخدماته المخلصة التي تعدّت تلبية نداء الواجب ، من صديقه ريتشارد نيكسون » . وعلى مكتبه خط تلفوني مباشر يصله بالرئيس .

ورث ، عندما سمي وزيراً للخارجية ، جناح مكاتب اوسع وأكثر ملائمة في الطابق السابع من البناء الحكومي الضخم في « فوغي بوتوم » ، وهو ما كان في السابق قد سعى جاهداً لتجنبه . وسرعان ما ادخل زخرفاً داخلياً أكثر عصرية على غرفة الاستقبال الرئيسية يتسم بالفن التجريدي المشتمل على لوحات من صنع روثكو وبوسيت دارت ، مضاءة من ارض الغرفة ، مستبدلاً بها الرسوم الشخصية لعدد من رجال التاريخ الاميركي الذين كانوا يحتلون جدران الغرفة ابان ولاية سلفه وليم روجرز . وان نظرة من خلال نافذة مكتبه تقدّم مشهداً لمنظر شامل عريض لنصب واشنطن ولنكولن . ويقضي كيسنجر الآن وقتاً في هذا المكتب أكثر مما يقضيه في مكتبه في مجلس الأمن القومي ، لا لمجرد تلبية متطلبات العمل في وزارة الخارجية ولكن ربما لأنه يريد أن يبقي بعض المسافة الفاصلة بينه وبين رئيس البيت الأبيض المصاب .

وعند الغسق يذكره سكرتيره بما في روزنامة العمل للنصف الثاني من يومه . وقد يكون ذلك استقبالاً دبلوماسياً في احدى السفارات في ماساتشوستس افينو ، او حفلة كوكتيل في جورج تاون ، او افتتاح تمثيلية جديدة في مركز كينيدي ، او احياناً الثلاثة معاً . وان مجرد ظهوره في اي حفل يضفي عليه طابع الانتصار حتى ان معظم المضيفات يفضلن ، مثلاً ، ٢٣ دقيقة يقضيها في حفلتهن هنري على قضاء سائر اعضاء الحكومة والكونغرس مجتمعين السهرة كلها . وهو ، بحسب جو الحفل ، فامّا ان يتصرف

كمفكر تحاصره مشكلات العالم كله او كمن لا يلوي على شيء ، قاذفاً بالمعتمد من جعبة ادواره التي احسن الاستعداد لادائها لمثل هذه المناسبات . وما ان تنتهي الحفلة حتى يعود كيسنجر الى عمله . وكثيراً ما يلوّح مودّعاً مضيفته ويدخل الى سيارة حيث يأخذ في درس حزمة من الوثائق سلّمها له مساعده الذي كان ينتظره في الهواء البارد في الخارج .

وعلى الرغم من الساعات الطويلة المضنية التي يقضيها في عمله فهولم يبدُ من قبل أحسن حالا مما هو عليه الآن. ومنذ وصوله الى واشنطن ازدادت كثافة شعره وازداد خصره قليلاً . ويبدو ان محيط خصره يبدل مع كل رحلة عبر البحار . ففي تشرين الثاني ١٩٧٣ عاد من جولة ٢٥ الف ميل في عشرة بلاد تنقل فيها بين الشرق الاوسط والصين ، وبدا كأنما شو آن لاي قد اضفى عليه السمنة من علفه زعنفة القرش في ثلاثة مزق من خيزرانة اسفنجية مع شوربا بياض البيض .

واقر كيسنجر قائلاً : « عندما افاوض اصبح عصبي المزاج . وعندما أصبح عصبي المزاج تزداد شهيتي للأكل . ولعله بانتهاء المشكلة العربية – الاسرائيلية قد يصبح وزني ٣٢٠ بونداً » . وهو في واشنطن يتناول عادة طعام الغداء في مطعم سان سوسي العصري والباهظ التكاليف حيث يقضي باقي رواد المطعم وقتاً في الحملقة فيه وتأمله اكثر مما يقضونه في تفحص فواتير حسابهم . ولقد كان تبدّل محيط خصره مصدر نفع لاحدى المؤسسات المحلية لتأجير الملابس الفاخرة الرسمية . ذلك بأنه ما دام غير واثق من وزنه في اية مرّة يقام فيها حفل عشاء رسمي في البيت الابيض ، فهو مضطر الى استئجار ملابسه الرسمية بسبعة عشر دولاراً في الليلة .

وفي ولاية نيكسون الاولى تبدّل قياسه لا أقلّ من ٣٣ مرّة وكان حجم خاصرته قبل العشاء نحو ٤٢ .

وصاحب تبدل ثياب الجامعي السابق من نسيج الصوف الخشن في هارفرد الى الملابس الدبلوماسية في واشنطن ، حيث وصف بزير النساء الذي يحكم الامّة . «انني مرتبك ومصعوق »، اسرّ بروفسور من اصدقائه في كمبردج، « فهذا ليس هنري الذي عرفناه هنا » . بينما صديق قديم آخر تساءل « وما في كونه لعوباً ؟ او زير نساء ؟ فذاك يجعله أكثر تأنساً » . وكان لكسنجر نفسه تقييمه الخاص لجاذبيته : « انهن نساء ينجذبن فقط لسلطاني » . وتابع قائلاً ، « ولكن ماذا يحدث عندما يزول سلطاني ويتلاشى ؟ انهن بالتأكيد لن يتحلقن حولي ويلاعبنني بالنرد » . وكان اشهر تحليل لنجاحه قوله : «السلطة اكبر مثير للشهوات » .

قبل ان يصبح وزيراً للخارجية كان قد تكرس الانطباع على انه زير نساء لعوب، فكان يظهر على حين غرة الى جانب هذه الحسناء او تلك ويترصده مصوّر يلتقط المشهد

وهما جنباً الى جنب ، ثم ينشر الرسم في صحف الصباح مما يعزّز الانطباع بانه زير نساء . اما كيسنجر نفسه فكان يتحدث عن الموضوع ببرود . وشاعت قصة مفادها انه ذات مرّة سأله بترسون الذي كان انذاك وزيراً للتجارة واحد اقرب اصدقائه المقربين في المدينة: « قل لي بربك عندما تخرج مع الصبايا ... » فقاطعه كيسنجر وهو يبتسم ابتسامة عريضة « مت حسداً يا بترسون ! » قالها وهو يضحك . الا ان مثل هذا السوأل الضمني كان من الافضل توجيهه الى الحسناوات انفسهن فهن اجدر بالاجابة عنه . واحداهن تتفرد بمعرفته على النحو الافضل ، وتقول : « هنري بالتحديد من الجيل المحافظ ويتمسك بفضائل يتجاوزها العصر وهو ذو ايمان راسخ بالحياة العائلية . انه رجل مناقبي جداً ، فزير النساء اللعوب هو في الواقع مستقيم ومتزن على قدر ما تكون الاستقامة والاتزان » .

وبعد ان اصبح كيسنجر وزيراً للخارجية غدا زير النساء مستقيماً ومتزناً . فقد اختفت نجوم هوليود من حواليه . وفي ٣٠ اذار ١٩٧٤ تزوج من نانسي شارون ماجينز ، النيويوركية الفارعة الطول الجذابة الملامح التي كان قد عرفها منذ اوائل الستينات .

وبالسرية نفسها التي احاط بها رحلاته الاولى الى بكين وموسكو خرج من وزارة الخارجية واجتاز البوتوماك الى ارلنغتون في فيرجينيا حيث اقيم حفل زواج مدني للعروسين. وعندما أعلنت وزارة الخارجية نبأ زفاف العروسين كانا قد طارا الى اكابولكو في المكسيك لقضاء عشرة ايام من شهر العسل . كان ذلك خبراً اجتماعياً الا انه احتلّ صدر الصفحات الاولى في صحف العالم .

« هل تملكك الخجل لأي سبب كان ؟ » سأله مرة صحافي ايطالي . « أجل احياناً ... » اجاب كيسنجر على الرغم من انه لم يزعجه تسجيل للتعبير الذي ارتسم على وجهه عندما تكلّم . واردف قائلاً : « ومن ناحية أخرى على اي حال ، فانا اعتقد انني متوازن الشخصية . فهناك من يصفني بالشخص الغامض المعذّب وثمة من يراني شخصاً مرحاً دائم الابتسام والضحك . . ان هاتين الصورتين غير صحيحتين . فانا لست واحداً من اي منهما . انا ... كلا لن اخبرك ما انا ... لن اخبر احداً بذلك » .

ولعله بالنسبة لرجل يمتد سلطانه الى حيث يذهب ، ولا يستطيع ان يلبي كل مطالب عصره ، وهو الذي اشرقت نفسه بمتعة نادرة هي اكتشافه ان العالم يحتاجه اكثر من قدرته على تلبية هذه الحاجة ، يصبح الغموض أكثر سحراً من كتابة سفر الحياة الحقيقية . لكأنما تفاصيل حياته لاجئاً ومهاجراً وبروفسوراً كانت دخيلة على عالم السلطة والتوهّج الذي يعيشه الان . من هنا ولعه بالفوز في مباريات الحياة ولو باساليب مريبة ، وتعظيم صورته الاجتماعية التي يتعزز فيها أكثر ما يكون ، صورة الرمز المبهم الجذاب .

غير أن امرأ مثله تعرّض لفيض من الاضواء لا يستطيع ان يبقى ملثّم الشخصيّة . ومراراً في السنوات الاخيرة كان يكشف بعض طبقات نفسه الكامنة تحت السطح . « عند التأمّل في حياتي » اسرّ في مطلع سنة ١٩٧٤ قائلاً « من كان بامكانه التخيّل انني سأصبح وزير خارجية اعظم بلد في العالم ؟ اعني عندما لم يكن بامكاني حتى الالتحاق بالمدارس الالمانية ... عندما اتأمل انني كنت وانا صبي أعمل موزعاً في نيويورك ... ».ان شعور تعرّضه المستديم للسقوط والانكسار الذي لازمه منذ طفولته لم يُستأصل منه كليّاً بعد ، فهو دوماً يبحث عن الاعداء اكثر من اي رسمي آخر في واشنطن او استاذ في هارفرد . ومن الطبيعي انه حوّل ذلك الى فكاهة .

« ان السوأل الاول الذي اطرحه على نفسي قبل ان آوي الى فراشي كل ليلة وعندما اتطلع تحت سريري : « هل ثمة من يريد القبض علي او قتلي ؟ » . وهو عندما يلمح بوادر عداوة كامنة عند احد الاشخاص يسعى بصورة غريزيّة لربح ذلك الشخص بجاذبيته وظرفه . اما اذا ثبت خلاف الرأي بينه وبين صديق لا يرقى الى ولائه شك يكون كيسنجر صريحاً في جداله وفجّاً . وعندما يكون الصديق تابعاً له فقد يتصرّف تصرّف الناظر الذي يرهق غيره بالمهمات بفظاظة وضيق . وهو يتطلّب ويتوقع ، ان يحصل على ولاء العاملين معه وإخلاصهم .

إنّ اسلوبه في التعامل مع رجال الكونغرس والزعماء الاجانب لمزيج من الظرف والجاذبية والشدة والصراحة يعلوها قدر غير قليل من المكر . وهو يملك القدرة المميّزة على حمل شخصين ، لكل منهما رأي مناقض للاخر ، على الاقتناع بانه متفق مع رأي كل منهما دون ان يتنازل قيد شعرة عن موقفه الخاص .

وافضل الامثلة على نهجه هذا قصته مع كل من السناتورين هنري جاكسون و.ج. وليم فولبرايت لدى استماع كل منهما على انفراد لتحليل كيسنجر لرسالة بريجنيف حول الشرق الاوسط والتي ادت الى الاستنفار النووي في تشرين اول ١٩٧٣ . فجاكسون المشكك بسياسة الوفاق اطمأن الى وصف الرسالة المشار اليها « بالمتوحّشة » ، بينما فولبرايت الذي يدعو الى وفاق أكثر مما هو قائم ، حصل على مزيد من الاطمئنان بان الرسالة اعتبرت « معقولة » . وقد انكر كيسنجر فيما بعد أن يكون قد كلّم اياً منهما .

ان شهرة كيسنجر اصبحت اليوم حقيقة ثابتة ، ولكن عند مطلع حكم نيكسون في واشنطن لم يسمح له حتى بان يكون « هنري كيسنجر ».فعلى الرغم من انه كان دوماً واضع الخلاصات في الشؤون الخارجية لم يكن يعرف بغير « رسميّ البيت الابيض » او « مصدر حكومي عال » . كان ثمة سببان للاحتفاظ بكيسنجر سراً مكتوماً . فمن جهة لم يرد المحيطون بنكسون ان ينافس الرئيس اي صوت آخر من الحكومة . ومن جهة

ثانية ، لم يكن يرغب كيسنجر نفسه ، نظراً للكنته ، في ان يسجّل صوته . ويضيف احد المساعدين السابقين في البيت الابيض : « وكان هناك ايضاً بعض الاهتمام بالانطباع عن هنري اللعوب ، زير النساء » . وكان هنري شديد الحساسية ازاء ذلك كلّه . ولكن ما ان اثبت كيسنجر وبسرعة على انه افضل واضع خلاصات في تاريخ واشنطن الحديث، وانه البحاثة العالم القادر على ايضاح سياسة الرئيس الخارجيّة ، وما ان اخذت ثقته بنفسه تكبر ، حتى خرج من دهاليز البيت الابيض ليظهر امام الجسم الصحافي فيه . ورتب ظهوره الاول على المسرح الرسمي في نهاية تشرين اول ١٩٧١ بعد رحلتين ، احداهما سريّة والاخرى علنيّة ، الى الصين .

ورغم ان مختلف النعوت من « العبقري المقيم » في البيت الابيض الى « رجل الدراسات والاستقصاء الصامت » قد انهالت عليه ، فقد فضّل كيسنجر تجنّب التنميق في وصف دوره الخاص . وذات مرّة في مطلع ١٩٧٤ ، بينما كان يقود سيارته على طريق سان دياغو من سان كليمنت الى لوس انجلوس، سئل ان يتذكر آماله ومطامحه فقال برقّة : « ارغب في ان أخلق عالماً يكون مسالماً أكثر من العالم الذي عرفناه ، وأكثر خلقاً وابداعاً بمعنى تحقيق المطامح الانسانية» . وتلفّت من النافذة يراقب المدينة وكان يجتاز المسافة في سرعة ٥٥ ميلاً في الساعة . واردف قائلاً : « كلاّ ، ان عندي غروري وذاتيّتي وكل ما نسبه الناس اليّ . وانا متأكد من انّ هذا حق . غير ان سياستي ، في الواقع ، مشدودة الى تفكير الناس في ١٩٨١ وليس الى ما تقوله الصحف ، غداً » .

غير انّه عندما اعتلى مسرح الحوادث، وقوبل بالتهليل، وجرت تحيّته كمروض السباع العالميّة، لم يصمد لاغراء المشاركة في هذا التهليل الذاتي . وذات مرّة في مأدبة كبرى في واشنطن توجّه اليه رجل قائلاً : « دكتور كيسنجر اريد ان اشكرك على انقاذ العالم » . « لا شكر على واجب » ، كان جواب كيسنجر .

١ – استخدام هنري

« تلك كانت من بنات افكاري » قالت كلير لوس متذكرة » بعد انقضاء سنوات على رئاسة ريتشارد نيكسون ، وبعد أن اصبح هنري كيسنجر ظاهرة ديبلوماسية . « لقد اردت تقديم هنري الى نيكسون ، وقمت الى حدّ ما بترتيب اللقاء بينهما . كنت اعرف ان هنري لا يطيق نيكسون ولا يثق به ، فقد كان من مؤيدي روكفلر المستمرين . الاّ انني كنت واثقة من انهما سيلتقيان حول امور عديدة ببراعة وسرعة . فقلت لنيكسون: اعتقد انك معجب بهنري . وكنت على يقين من انه لو جلس اليه هنري متحدثاً ساعة ، لتوصلا الى تفاهم ووفاق » .

ان السيدة لوس ، وهي الراسخة الايمان في مختلف ادوار حياتها، سواء كمؤلفة مسرحية او عضوة في الكونغرس او سفيرة في ايطاليا ، بأن الجمهورية الاميركية لا تسلم الاّ في ايدي الجمهوريين ، اقدمت في محاولتها هذه على مغامرة الجمع بين النقيضين . وكان المشهد في شقتها الانيقة في نيويورك ، والتاريخ ١٠ كانون الأول ١٩٦٧ ، والمناسبة حفلة كوكتيل في شهر عيد الميلاد . كان هنري كيسنجر اول الوافدين ، وتلك ميزة في ضبط المواعيد لم تلازمه الى ايام سلطانه وتوهّجه في البيت الابيض . لم يكن يعرف الاّ قلّة من الضيوف ، وهذا الأمر مضاف الى موهبته المحدودة في الخوض في احاديث الصالونات جعل « الظروف الموضوعيّة » ، وهذا تعبير مفضّل لديه ، تشير الى انصرافه السريع .

وكان يوشك ان ينصرف عند وصول ريتشارد نيكسون . واهتمت السيدة لوس بترتيب خلوتهما في مكتبتها بعيداً عن الحاضرين . استغرقت محادثتهما خمس دقائق ، وذلك في لحظة بارزة من حياة كليهما : فنيكسون الذي كان قد خسر انتخاب ١٩٦٠ امام جون كينيدي وشاهد باري غولدواتر يفوز بتسمية الجمهوريين في ١٩٦٤ كان يسعى لبعث سياسي جديد ، عاقداً الآمال على ان يفوق خصومه دهاء وحيلة فيفوز بتسمية الجمهوريين له للرئاسة في الصيف القادم ؛ ومن الجهة الثانية كان كيسنجر استاذ مادة « الحكومة » في هارفرد وصاحب الكفاءة الذائعة الصيت ، يقوم بمسؤولية مستشار في السياسة الخارجيّة لأكثر منافسي نيكسون

مثابرة وتحدّياً : نلسون روكفلر ، حاكم نيويورك . غير ان الرجلين لم يتطرقا الى الموضوع الأكثر اثارة للحساسيات ، موضوع انتخابات الرئاسة وسياساتها . وبدلاً من ذلك تحدثا عن كتابات كيسنجر. فقد تذكر نائب الرئيس السابق اعجابه بكتاب كيسنجر الرئيسي الأول « الاسلحة النووية والسياسة الخارجية » الذي كان اكثر الكتب بيعاً في ١٩٥٧ . وكان هذا الكتاب المثير للجدل قد أرعب الاكاديميين واغضب الجنرالات بتركيزه على امكان خوض حرب نووية محدودة . وتذكر كيسنجر ان نيكسون قد أرسل اليه بطاقة تهنئة بصدد كتابه . وقد قدّر كيسنجر تلك البطاقة .

لم يتخطّ لقاؤهما الاول حدود اللياقات الشكليّة الى اي حديث وديّ . « لم يكن اي منا بارعاً في احاديث حفلات الكوكتيل » تذكر كيسنجر في السنوات التالية . وتذكر ان نيكسون كان جامداً بينما كان هو منطوياً على نفسه . ترى أكان روكفلر هو الشخص الثالث غير المرئي الحاضر بينهما ؟ ام أن كيسنجر الذي لم يسبق له لقاء نيكسون من قبل كان على الرغم من ذلك يشارك رأي الاكاديميين المنحاز ضده ؟ في محادثتهما الموجزة لم يتفوّه نيكسون بما يؤكد تلك الخلفيات المنحازة بل على العكس اضطر كيسنجر الى تعديل انطباعه المشوّه عنه ، اذ دهش لاكتشافه ان نيكسون «تحدّث باسلوب ارقّ وأكثر تفكيراً » مما توقّع .

اما نيكسون فقد غادر شقة السيدة لوس مسروراً بلقائه الشخصي الاول بكيسنجر . اعجبه هذا المثقف من هارفرد ذو الروابط الجمهورية والشخصيّة المستقلة بين ال بندي وشليزنغر في المؤسسة الشرقيّة المشكوك في امرها .

لم يلق كيسنجر نيكسون ثانية حتى ٢٥ تشرين الثاني ١٩٦٨ اي بعد بضعة اسابيع من انتصار نيكسون على هيوبرت همفري وبعد انقضاء ثلاثة اشهر على فوز نيكسون الساحق على روكفلر في الدورة الاولى في المؤتمر الجمهوري المنعقد في ميامي بيتش . ولكن بينما كان نيكسون يتذوّق نشوة النصر كان كيسنجر يتجرّع مرارة تلك الفترة الكئيبة بانهزام روكفلر .

وعلى الرغم من ان لقاءه الأول بنيكسون كان ممتعاً ما فيه الكفاية، كان كيسنجر شأنه شأن العديد من المثقفين منقبضاً من تصوّر فوز نيكسون بالرئاسة . فنيكسون كان يبدو بالنسبة فارغاً ، مجنون سلطة ، يفتقر الى القيم ، ويصل في عدائه للشيوعيين الى حد الهوس مما قد يؤدي به الى قيادة الولايات المتحدة الى مواجهة نووية مع موسكو وبكين . « ذلك الرجل نيكسون غير مؤهل لأن يصبح رئيساً »، كان يقول كيسنجر لاصدقائه المعادين لنيكسون . وعشية مؤتمر ١٩٦٨ نقل عن كيسنجر قوله : « ان ريتشارد نيكسون اخطر المرشحين المنافسين في الرئاسة » .

كان كيسنجر يعتقد ان اميركا ١٩٦٨ بلد يبحث عن رئيس يوحده ويكون

قادراً على تقييم الاولويات الوطنية وتمييز التحديات الدولية . كان يأمل أن يملأ روكفلر الفراغ ويلعب هذا الدور . وكان روبرت كينيدي هو السياسي الوحيد الذي اثار في كيسنجر في مطلع ١٩٦٨ حسّاً موازياً من الثقة.« ان في احشاء بوبي لناراً »، قال كيسنجر ذات مرّة ، « ان بامكانه تولي القيادة » .

وكان كيسنجر قد عمل مع روكفلر أكثر من عقدين بدءاً من اواسط الخمسينات حين كان يدير مجموعة حلقات دراسية في السياسة الخارجيّة يمولها الاخوان روكفلر. غير ان الصلة تخطت الدراسات الاكاديمية الصرف اذ أصبح كيسنجر متورطاً في عالم روكفلر السياسي ايضاً . وبوصفه مستشاراً في السياسة الخارجية للجنة برنامج الحزب الجمهوري شهد في مؤتمر ١٩٦٤ الجناح الايمن يحيي باري غولدواتر ويقذف حاكم نيويورك بسخريته .

بعد اربع سنوات، وكانت حرب فيتنام قد اضافت الرئيس ليندون جونسون الى لائحة ضحاياها ، حاول روكفلر الوصول الى الرئاسة من جديد . وفي ايار تصدّى لنيكسون الذي كان يتقدم سائر المرشحين في التنافس في تسمية الحزب الجمهوري . ودفع كيسنجر بكل قدراته الجسدية والعقلية الى حملة روكفلر . وكان يوم عمله يطول ، اذ يعطي روكفلر محاضرة في السياسة الخارجية في الصباح ، وتلامذته في هارفرد محاضرة مشابهة بعد الظهر ثم يعود الى نيويورك في رحلة الطائرة الاخيرة من بوسطن .

ولقد ادى كيسنجر دوراً فريداً . فغالباً عندما كان يوجه المرسلون الصحافيون الاسئلة حول فيتنام او الحلف الاطلسي او الاسلحة الاستراتيجية كان مرافقو روكفلر يحيلونهم على مكتب كيسنجر . « اذهبوا وقابلوا هنري ، فهو الشخص الاوحد الذي يستطيع ايضاح موقفنا بصورة سليمة » .

ولقد اعترض عدد من مستشاري روكفلر الاخرين على هذا التوجه الاحتكاري . وبين هؤلاء المعترضين كان اميت جون هوغز ، كاتب خطب ايزنهاور ومستشار روكفلر الموثوق والناطق باسمه . « كان هنري مسؤولاً عن شؤون السياسة الخارجية عند الحاكم وكان مفروضاً ان يكون تابعاً لي » ، قال هوغز فيما بعد ، « ولكن كان متعذراً الحصول على تصريح سياسي اردت ان يصدره روكفلر عن فيتنام بواسطة هنري . اخيراً حصلنا على التصريح ولكنه لم يكن جازماً بالقدر الذي اردت . ذلك ان من ادهى اساليب كيسنجر قدرته على حمل الناس على الاعتقاد الدائم انه ضد الحرب ... » .

عبر الدخان المتصاعد من مناوشات هوغز المستمرة مع كيسنجر سرت قصص تروي « كم هو صعب العمل مع كيسنجر » . ولكن حتى لو صدقت كل هذه الحكايات والاقاويل الا انها لم تصب النقطة المركزية في جوهر الموضوع . ذلك بأنه لم يكن من

الصعب بتاتاً على روكفلر ان يعمل مع كيسنجر ، فقد حاز الحاكم على التزام كيسنجر وولائه التامين . وهذا الشعور بوقف النفس على رئيسه والاخلاص له كانت ميزة افاد منها رجل آخر فيما بعد ووجد ان لا غنى له عنها .

وفي آب رافق كيسنجر روكفلر الى مؤتمر الحزب الجمهوري في ميامي بيتش . وكان اركان الحاكم ما زالوا يأملون ان يبسم الحظ لمرشحهم فيأتي فلتة الشوط ويحظى بترشيح الحزب رغم رجحان كفة نيكسون . وكان كيسنجر يحتل جناحاً كبيراً في الطابق الرابع عشر من فندق « امير كانا » ، تفصل بينه وبين جناح روكفلر الردهة . وقد ادهشته اجراءات العملية السياسيّة سواء في ادارة معركة الرئاسة اوفي تعامل الناس بعضهم مع بعض في اثناء الولائم ، أو المناورات ، أو الاحاديث العامة والخاصة بين المرشحين والسياسيين ، وبين السياسيين ورجال الجهاز الانتخابي ، وبين هؤلاء ورجال المال ، وبين رجال المال والمراسلين الصحافيين ، وبين هؤلاء الاخرين والرأي العام — كل ذلك في كواليس الفندق ، في الغرف الخلفية والامامية وعلى التلفزيون . فبالنسبة لبروفسور يقضي عطلة الصيف ، كان ذلك حلقة دراسية ، بل درساً في الحكم لم يكن بامكان هارفرد ان تقدم مثيله .

« لقد احب هنري حقاً شاطىء ميامي بيتش» ، تذكر فيما بعد احد معاوني روكفلر . « فقد كان هو الخبير الذي يعمل مع سياسيين احاطوه بالاحترام وبدا كأنه ينتعش في مناخ المكايد . ولكنه كان يدرك دوماً الجوهري من التفاصيل في عمليات الاخذ والعطاء التآمريّة الجارية في مساومات موائد الفطور في الصباح او بعد منتصف الليل ».

والجوهري في نظر كيسنجر كان فوز روكفلر او ، على الاقل ، انتصار وجهة نظر روكفلر حول فيتنام . وكان لاسابيع قليلة خلت قد اقترح الحاكم ، في صفحة كاملة ظهرت كاعلان في « النيويورك تايمز » مشروعاً محدداً للانسحاب من فيتنام اعتبر متقدماً لاسيما بصدوره عن جمهوري ، وكان في اغلبه حصيلة تفكير كيسنجر . وقد دعا فيه الى عملية ذات مراحل اربع تبدأ بانسحاب من طرف واحد يشمل ٧٥ ألفاً من القوات الاميركية ، وتمر بقوات سلام دولية وتنتهي بتسوية سياسية بين الطرفين المتحاربين . ولقد كان رد فعل نيكسون الاعتصام بصمت استراتيجي . فتجاهل اقتراحات روكفلر المحدّدة ، مشيراً ضمناً الى ان لديه فكرة افضل غير انه لا يستطيع افشاءها . وكان نيكسون يريد ان يترك انطباعاً يصوره على انه الرجل المحافظ الحذر المعقول والعارف بما هو افضل للحزب والبلد ، مشيراً ضمناً الى ترويج روكفلر عن فيتنام قد يكون مفيداً للحاكم في الحصول على الاصوات ولكن ليس مفيداً للبلاد في سعيها الى السلام .

واحتدمت المواجهة بين المرشحين في المؤتمر بتوزيع البند المختص بفيتنام في ما

وصف بانه البرنامج شبه الرسمي للحزب والذي اتسم بطابع التشدّد ، ممثلاً آراء جماعة نيكسون لا روكفلر . وكان ان كيسنجر اخذ الضوء الاخضر من مرشحه للاتصال حول هذا الموضوع المثير للانقسام مع معسكر الخصم — مع قيادة نيكسون . وعملية جس النبض هذه التي قام بها كانت في نظره تقع تحت عنوان رسم السياسة العامة لا السياسة الخاصة : فلم يكن كيسنجر راغباً في الانتقال من معسكر مرشح الى معسكر منافسه . وخلال المؤتمر ، بل قبله ، حاول بعض عملاء نيكسون — وما كانوا من الذين يؤخذون على محمل الجد كما لاحظ كيسنجر فيما بعد — حمله على الانفصال عن روكفلر بمختلف الاغراءات ومنها المال . وبحسب احدى الروايات ان هؤلاء السماسرة رفعوا عرضهم الاصلي الى ثلاثة اضعافه في محاولة كسب كيسنجر وتبديل ولائه ولكنهم « أثاروا غضبه الشديد وشعر بالمهانة لمجرد انهم اعتقدوا امكان شرائه » .

كان كل هم كيسنجر ان يفوز بتأييد معسكر نيكسون لبند في البرنامج حول فيتنام ينسجم مع تفكير روكفلر . وكانت المحاولة في البداية غير مشجعة . ذلك بأن انداده في جبهة نيكسون ما كانوا في اكثرهم مطلعين على تعقيدات مشكلة فيتنام — ومعظمهم من رجال العلاقات العامة في جنوبي كاليفورنيا — فعالجوا المسألة في اطار السياسات المحلية المحض . ولكن ظهر اخيراً البند المتعلق بفيتنام مؤكداً باسم الحزب الجمهوري على المفاوضات لا على القنابل ، اما القصف فيأتي لاحقاً .

غير ان التسوية التي تمت على صعيد لجنة البرنامج تراجعت الى الظل بسرعة ازاء الحسابات السياسية على منبر المؤتمر . فقد اثبتت آلة نيكسون الانتخابية أنها لا تُصَد وسقط روكفلر . وملأ وجه ريتشارد نيكسون على التلفزيون البلاد كلها .

ولقد اثرت هزيمة روكفلر بكيسنجر الى حدّ انه بحسب احدى الروايات بكى وعاد الى شقته في مانهاتن ونام ملء عينيه نوماً عميقاً حتى الصباح . ويذكر مراسل صديق أيقظه بمخابرته التلفونية انه بدا « مرتجاً وخائباً ومنقبضاً أكثر من أي وقت مضى » وكان بين الحين والاخر يشير بانتقاص وتسخيف « الى ذلك الرجل نيكسون » الذي يحسب قوله « لا يحق له ان يحكم » .

غير انه اذا كان كيسنجر معادياً لنيكسون ، فنيكسون لم يكن معادياً ليكسنجر . فقد رن الهاتف ثانية في وقت لاحق من ذلك النهار وكان على الخط احد معاوني نيكسون يستفهم اذا كان متيسراً ان يعمل الدكتور كيسنجر مع المرشح الجمهوري للرئاسة وجاء جواب كيسنجر مشروطاً . « فبوصفه خبيراً » قال انه مستعد لاعطاء اجابات عن اسئلة محدّدة في السياسة الخارجية ، ولكن لن يشارك في اجتماعات رسمية .

ولكن لم هذه القفزة غير الاعتياديّة بين ليلة وضحاها ، من العداء المكشوف الى التعاون المشروط ؟ لقد وصف خصومه فيما بعد هذا التصرّف بقمة الانتهازيّة :

« اننا نعجب من هو كيسنجر الان ؟ ».امّا المعجبون به فقد دافعوا عنه بانّه دوماً كان يتملّكه احساس بتغلب الواجب الوطني على مشاعره الشخصية . ولقد سبق له أن ساهم بمشورته في السياسة الخارجيّة في عهد الرئيسين السابقين فضلاً عن عهد الرئيس الحالي . وكان عمله في خدمة مرشح الرئاسة امتداداً لمبدئه في السياسة الخارجيّة . وفضلاً عن هذا كلّه فثمة شائعات ملأت الاجواء مفادها ان نيكسون سيعرض على روكفلر منصباً رفيعاً في حكومته . وكان كيسنجر متأكداً ، انه حيث يذهب روكفلر ، اذا ما ذهب ، يذهب هنري ايضاً .

وخلال شهري آب وايلول توالى دفق متتابع من الاتصالات الهاتفية من معسكر نيكسون – كأنه يحمل التذكير المستمر باهتمام الفائز بالبروفسور الذي لم يزل اميناً للخاسر . وكان الديمقراطيون – جماعة هيوبرت همفري – بين الحين والاخر يتصلون بكيسنجر لسؤاله عن هذا الجانب او ذاك من السياسة الخارجيّة.غير ان هذه الاتصالات الديموقراطية لم تذهب بعيداً . اذ كان الجميع يعتبرون كيسنجر جمهورياً حتى لو صنف هو نفسه « في المستقل » .

ومرة اتصل جون ميتشل الذي كان يتولى ادارة حملة نيكسون سائلاً عن رأي كيسنجر في مفاوضات فيتنام الجارية في باريس واتصل معاونون آخرون من جهاز نيكسون للاستفهام عن آراء« البروفسور في اوروبا والحلف الاطلسي والغزو السوفياتي لتشيكوسلوفاكيا» ، وكان كيسنجر يجيب بمعزل عن الاعتبارات الحزبية .

وفي مرة تالية اتصل احد مساعدي نيكسون وسأل كيسنجر كيف يعيد تنظيم وزارة الخارجية . وهذا موضوع لم يكن من الطبيعي ان يبقى ازاءه مربوط اللسان ، فقد كانت لديه تحفظات عدة حول تشعب بيروقراطية وزارة الخارجية . وكان في تلك السنة عينها قد ذكر في اطروحة قدّمها لحلقة دراسية في جامعة كاليفورنا ما يلي : « وعلى العموم ، لو استطعنا الاستغناء عن النصف الادنى من جهاز وزارة الخارجية يصبح الحال أحسن ». غير أنّه في عرض غير اعتيادي لقدرته على ضبط النفس ، اشار كيسنجر الى ان الأمر أكثر تعقيداً من ان يبحث على الهاتف .

امضى كيسنجر معظم اوقاته في الفترة ما بين المؤتمر والانتخابات متنقلاً ذهاباً واياباً بين عالمين معادين لنيكسون – عالم روكفلر السياسي وعالم هارفرد الاكاديمي . واستمر محافظاً على علاقته الحميمة بروكفلر ، فداوم على الطيران الى نيويورك بصورة منتظمة ليتناول الغداء على مائدة الحاكم . وكانت تملأ نفس روكفلر آنذاك ضغينة مرّة ضد نيكسون وإن كانت المصالح الموقوتة لوحدة الحزب قد لجمت هذه المشاعر في الظاهر . اما عالمه الآخر فكان اشد معارضة للمرشح الجمهوري . فبالنسبة للعديد من اصدقاء كيسنجر في هارفرد ،

كان نيكسون يجسّد الصفات الاقل جاذبية في السياسة الاميركية . وكانوا يرفضون المشاركة في تصوّر « نيكسون الجديد » . فقد وجدوه كائناً سياسياً حاسباً يستنفر الغرائز الدنيا ، متوسلاً تكتيك العداء للشيوعية ليتاجر بالغوغاء . فهو ارتداد الى مرحلة سابقة سيئة السمعة من التاريخ الاميركي – هي مرحلة الماكارثية . واسوأ من ذلك كله أنهم وجدوا نيكسون صقراً في قضية فيتنام التي مزّقت اميركا .

اما مشاعر كيسنجر ازاء نيكسون فقد كانت معروفة جيداً بين زملائه ، وكان بعضهم يعد نفسه للالتحاق بجهاز حكومة همفري في حال فوز المرشح الديمقراطي الذي كانت التقديرات ترجح انه قريب جداً من آخر شوط . وفي تشرين الأول، اي في الأسابيع القليلة قبل الانتخاب ، حاضر كيسنجر في الكلية البحرية في نيويورك ، رود ايلند، وبعد المحاضرة تحول الحديث على مائدة الغداء الىالحملة الانتخابية . وذكر احد المشاركين في ذلك اللقاء ان البروفسور الزائر حلل شخصية نيكسون على انه مصاب بجنون العظمة وعقدة الارتياب بالاخرين وتساءل اذا كان مثل هذا الشخص يستطيع تحمل ضغوط العمل في البيت الابيض .

حتى انتصار نيكسون في تشرين الثاني لم يؤدِ الى لجم كيسنجر عن الادلاء بآرائه في الرئيس المنتخب . فآراء كيسنجر الصريحة التي ادلى بها ابّان زيارته لشركة راند في سانتا مونيكا – كاليفورنيا ، ادهشت مستمعيه الذين كان بينهم دانيال ألسبرغ . وألسبرغ – وذلك كان قبل رشوح « اوراق البنتاغون » – يذكر ان كيسنجر صب انتقادات عنيفة جداً ضد نيكسون . « ولقد دهش الجميع ان رجلاً له علاقات برجال السياسة يكون صريحاً الى هذا الحد في الادلاء بآرائه في الرجل الذي تمّ انتخابه للتو رئيساً » . واضاف ألسبرغ : « لعل السبب يعود الى علاقته بروكفلر » .

وفيما بعد ، غداة التحاقه بنيكسون ، كان كيسنجر يقول انه لا يذكر الادلاء بمثل هذه الملاحظات الا انه لا يستطيع نفي « امكان » صدورها . ولكن بالنسبة لشخص من وزن كيسنجر عرف بالذاكرة الحادة ، فان عدم تأكده من الأمر ، حمل منتقديه واصدقاءه المعجبين على حد سواء على تفسير ما حدث بانه انقطاع في الذاكرة موقوت ومفهوم . ويفضّل كيسنجر تذكره الخاص للحوادث الماضية:« ان انطباعي الاغلب عن مشاعري ازاء الرئيس هو انني لم أكن اعتقد انه غير مؤهل ولكنه لم يكن يبعث في نفسي الارتياح ولم أكن اعرف الاشياء الحسنة عنه بل كنت اصدّق ما هو سيء . غير اني لم أكن املك مصادر للمعلومات مستقلة . ولم أكن قد شاهدته فعلاً من قبل » .

وفي ٢٢ تشرين الثاني ، وكان يوم جمعة ، طار كيسنجر الى نيويورك ليتناول غداءه التقليدي مع روكفلر وتحدّثا عن التخمينات الشائعة عن أنه سيعرض على الحاكم منصب وزير الدفاع في حكومة نيكسون ، « وما اذا كان سيقبل هذا العرض . ولم تخطر

ببال أحد فكرة إمكان عرض اي شيء عليّ ».ويتابع كيسنجر : « لأنه لو خطرت الفكرة لكنّا بحثنا فيها» . وبينما هما في منتصف حديثهما رن الهاتف . فاذا الصوت على الطرف الآخر من الخط غير مألوف وكذلك اسم صاحبه : « دويت شابين » احد مساعدي نيكسون الشبان . « هل بامكان الدكتور كيسنجر مقابلة الرئيس المنتخب يوم الاثنين القادم في فندق بيير في العاشرة صباحاً ؟ » « أجل » جاء جواب كيسنجر . فبالامكان التوجه الى الموعد لأن ليس لديه اي ارتباطات يوم الاثنين الاّ حلقة دراسية في هارفرد في الرابعة بعد الظهر موضوعها « سياسة الأمن القومي » وهي مندرجة في مادة « الحكومة ٢٥٩ » التي يعطيها في جامعة هارفرد منذ ثماني سنوات . وعلى اي حال فقد كان مصمّماً على البقاء في نيويورك طوال عطلة الاسبوع ، فكلّ ما هو مطلوب الآن هو ان يمكث ايضاً صباح الاثنين في الخامس والعشرين منه .

وخلّف الاتصال الهاتفي وراءه طائفة واسعة من التخمينات . ويصرّ كيسنجر حتى اليوم على انه اعتقد ان نيكسون استدعاه لمجرد « التحدث في السياسة الخارجية».ووجد كيسنجر نفسه صبيحة يوم الاثنين يدخل الى جناح نيكسون في الطابق التاسع والثلاثين في فندق بيير — تسبقه مؤهلاته الملفتة للأنظار : كتبه الخمسة، وعشرات المقالات ، وخبرته بالسياسة الخارجيّة، ومعرفته بالزعماء الاجانب . وانقضى أكثر من ثلاث ساعات على خلوة نيكسون بكيسنجر وهما يبحثان حقل اهتمامهما المشترك : سياسة الولايات المتحدة الخارجيّة . ان تبادل وجهات النظر في المواضيع المطروحة اخفى ما كان يجري على صعيد آخر : رجلان حذران يقيس احدهما حجم الآخر . ولقد كان الأمر بالنسبة لكيسنجر اختباراً غريباً . وخلف التقييم المتبادل ، كان يكمن السؤال الواضح : هل كان نيكسون يعرض عليه منصباً ؟

ولكن نيكسون اكتفى باسماعه تعابير عامة عن رغبته في ان يعمل كيسنجر معه في الادارة الجديدة . وان التوجه البطيء في هذا المجال لربما عكس طبيعة نيكسون المتحفّظة ، او حساسيته ازاء مشاعر كيسنجر المعلنة المعادية له ، او ادراكه لعلاقة كيسنجر الخاصة بروكفلر . وكان رد كيسنجر على عدم العرض عدم الالتزام . فقد توقف الالتزام على طبيعة المنصب وعلى ما يحلّ بالحاكم ، فاذا انضم روكفلر الى الحكومة كان سيعتمد اولاً على خدمات كيسنجر . في اثناء ذلك وافق على طلب نيكسون المحدّد في المساهمة بالسعي لملء المراكز الرئيسية في حقل الشؤون الخارجيّة .

وفي احدى مراحل مباحثتهما استدعى نيكسون هـ.ر. هالديمان الى الغرفة مما اتاح لكيسنجر ان يلقي النظرة الاولى إلى مساعد نيكسون الكاليفورني الذي كان سيصبح مساعد الرئيس الذي لا يُستغنى عنه حتّى ٣٠ نيسان ١٩٧٣ عندما اطاحت به فضيحة وترغيت . وطلب الرئيس المنتخب من مساعده تأمين خط اتصال هاتفي مباشر بالدكتور

كيسنجر في هارفرد حتّى يتسنى له الاتصال السهل والسريع به . غير ان كيسنجر لاحظ ان وجود خط مباشر مع الرئيس دون ان يُسند اليه احد المناصب الرسمية الكبرى ، يشكل افراطاً لا مبرر له ، فاشار الى سهولة الاتصال به عبر مركز التوزيع الهاتفي في جامعة هارفرد .

بانتهاء المقابلة مع الرئيس هرع كيسنجر من فندق بيير ، الى المطار فالى هارفرد سكوير ليحافظ على موعده مع تلامذته في الجامعة في الساعة الرابعة .

وفي اليوم التالي عندما اتصل بروكفلر ليخبره عن لقائه مع الرئيس المنتخب ، علم ان الحاكم كان قد تلقى لتوه من نيكسون اعلاماً بعدم استدعائه للمنصب الوزاري في الحكومة المقبلة . وعلى ما تذكّر روكفلر ان نيكسون لم ينبئه بشيء عن امكان استخدام كيسنجر . ولم يتسن لكيسنجر الوقت الكافي حتّى يرثي فيه استبعاد روكفلر . فقد رنّ الهاتف عنده وكان « شابين » على الخط من جديد — مخابرة تجارية من نيويورك الى كامبردج : هل بامكان الدكتور كيسنجر العودة الى فندق بيير يوم الاربعاء لمقابلة جون ميتشل ؟ « عندها عرفت ، انه ربما الآن سيتكلمون عني » يتذكر كيسنجر فيما بعد . وهرع الى الاتصال بصديقه القديم في هارفرد ، ماك جورج بندي ، رئيس مؤسسة فورد الذي عمل مع الرئيسين كينيدي وجونسون كمستشار للأمن القومي . « من الممكن ان يعرض علي منصب فماذا تشير عليّ ان اختار ؟ » فاقترح بندي عليه ان يحاول الحصول على منصب مدير هيئة التخطيط السياسي . وكان كيسنجر في هذه الحالة من التوقعات عندما طار في ٢٧ تشرين الثاني من هارفرد الى فندق بيير . وما ان خرج من المصعد في الطابق التاسع والثلاثين حتّى وجد نفسه وجهاً لوجه امام ميتشل وجرت كوميديا من الاخطاء على النحو التالي :

ميتشل (بلهجة رجل الاعمال) : « حسناً هل ستقبل منصب مستشار الأمن القومي ؟ ».

كيسنجر (مخفياً شعوره بالاغتباط والتيه) : « ولكن هذا المنصب لم يعرض علي ، بحسب علمي » .

« ميتشل » (صوت يناديه باسمه) : « بحقّ المسيح! » (ويخرج مهرولاً ثم يعود بعد دقائق عديدة مبتسماً) « الرئيس المنتخب سيقابلك خلال ١٥ دقيقة » .

وتلقّى كيسنجر العرض الرسمي في جناح الرئيس المنتخب . فقد اقترح نيكسون على كيسنجر ان يصبح مساعده لشؤون الأمن القومي ، وتوقف كيسنجر لحظة ثم قال ان هذا شرف كبير له غير انّه بحاجة الى بعض التفكير . « حسناً » قال الرئيس المنتخب : « خذ اسبوعاً » .

وما أن انتهى أمر هذا العرض حتّى انصرف نيكسون وكيسنجر الى بحث مطول في

الاتجاه الاساسي لسياسة الرئيس المقبل الخارجية . وجاء وقت الظهيرة ومضى ، فكان ان نيكسون الذي قلما تناول طعام الغداء وكيسنجر الذي قلّما تخلّف عن تناوله ، تجاوزا وجبة الظهيرة واستمرا في الحديث نحو أربع ساعات متوالية . وقد تحدثا عن فيتنام . وكان الرئيس المنتخب يريد توريط الاتحاد السوفياتي ،وكان كيسنجر قلقاً من الانقسام الداخلي الذي تسببت به الحرب في الوطن . وتحدثا عن الصين وسياسة المثلّث ، ومفاوضات تحديد الاسلحة الاستراتيجية ، والتوازن النووي . وعبّر كيسنجر عن شعوره بان اوروبا الغربيّة قد اهملت طويلاً بسبب انهماك واشنطن في الهند الصينية . وحلّل نيكسون المقاصد السوفياتية في الشرق الاوسط ،ولاحظ انه مزمع على ارسال حاكم بنسلفانيا السابق وليم سكرانتون في رحلة استقصاء للحقائق في المنطقة . ورأى كيسنجر ان على الولايات المتحدة اعادة ترتيب اولوياتها الديبلوماسية والمحليّة . وكان مصدر رضى مشترك ان الرجلين وجدا نفسيهما منسجمين حول معظم النقاط خلال ابحاثهما الطويلة .

في هذه الفترة أصبح كيسنجر وجهاً مألوفاً في فندق بيير وان كانت طاقاته لم تزل مجهولة من مساعدي نيكسون . فكتاباته لم تكن ما يقرأه هؤلاء قبل نومهم . ولم يترك اي انطباع في نفس رونلد زيغلر الناطق الرسمي بلسان الرئيس كما اشار هذا فيما بعد عن بداية معرفته بكيسنجر . وردد هذا الرأي من بعد جون ارليخمان ، وهو محام محلي سابق من سيتل كان سيصبح احد رجال القصر الرئيسيين حتى ٣٠ نيسان ١٩٧٣ ، عندما اطاحت به ايضاً وترغيت . « كنت اتوقع ان أرى امرءاً أكثر تأثيراً »، اسرّ فيما بعد ارليخمان، « ولم أكن قد قرأت قط اي من كتابات هنري لذلك لم أكن ادرك جيداً مدى قوته العقلية . كنت قد سمعت عن ألمعيته ومزاجيته ، وصعوبة العمل معه ، واننا سنجد أنفسنا بالنتيجة في علاقة خصومة » .

وفي اليومين التاليين بينما كان كيسنجر يتأمل عرض نيكسون الجدّي لتوليه المنصب الأمثل وجد نفسه فجأة يتخلّص من العديد من خلفياته الاكاديمية السابقة المنحازة ضد نيكسون . ونقطة البدء نجدها في تعليق كشف فيه ذات مرة عن مكنونات صدره للمعلق الصحافي جوزيف كرافت « بالنسبة لاشخاص من جيلي »،قال كيسنجر،« كانت لنيكسون سمعة معيّنة . وكان عليّ طمأنة نفسي ان هذه السمعة لا يستحقها » .

من الملامح المميّزة ان كيسنجر اعتمد كثيراً على ردود فعله لنيكسون . « لقد ترك انطباعاً جيداً في نفسي »،هذا ما تذكّره فيما بعد .

ففي السياسة الخارجية وجد أن نيكسون اوسع اطلاعاً من جميع مرشحي الرئاسة الذين قابلهم منذ ١٩٥٦ ، وقد قابل جميع هؤلاء المرشحين باستثناء باري غولد ووتر . ان تقييمه لهم لم يكن سرّاً ، فحتى اولئك الذين وصفهم بانهم على نسبة عالية من الذكاء وجدهم جهلة بالسياسة الخارجيّة . فقد كان ايزنهاور بطل الحرب : « جندياً عظيماً

ولكن رئيساً محدوداً . وكان ستيفنسون فصيحاً وأنيقاً ولكن متساهلاً الى حد الرخاوة وخصوصاً مع الروس».اما كينيدي فقد ترك في نفس كيسنجر مشاعر مزدوجة من الانبساط والانطواء معاً . فقد كان جون كينيدي كثير الجاذبية – ولكن كثير التردّد ايضاً . وعند اغتيال كينيدي كان كيسنجر يعتقد انه لو اتيحت للرئيس الراحل ولاية ثانية لكان قاد البلاد امّا الى قمم العظمة او الى حضيض الكارثة. ولم يعرف غولد ووتر عن كثب، ولكن بدا ان جوهر اعتقاد هذا الاخير يقوم على الاستخدام الكامل للقوة العسكريّة في عصر نووي ودون اي صقل ديباوماسي . وهي وجهة نظر اعتبرها كيسنجر ساذجة وخطيرة في آن واحد . اما فهم جونسون للسياسات العالميّة فقد كان ضئيلاً جداً .

اما همفري الذي كشف بعد انقضاء سنوات انه هو ايضاً كان سيسمي كيسنجر مستشاره في السياسة الخارجية ، فقد اعتبره كيسنجر مؤهلاً لأن يكون رئيساً ممتازاً لولا تورطه مع جونسون مما شوّه صورته في اذهان الناس واساء الى طاقته في القيادة.وعلى الرغم من ان روكفلر « كان ذا عقل من الدرجة الثانية » الاّ انه صاحب حدس متفوق في الناس. ولكنه استطاع الهام المحيطين به دون ان يستطيع استلهام النصر في انتخابات الرئاسة .

هذا الاستعراض للرؤساء يعود بكيسنجر الى نيكسون ، الرئيس الذي سينصّب في ٢٠ كانون الثاني ١٩٦٩ .

وهرع الى روكفلر يستشيره في القرار قبل اتخاذه . وجاءت مشورة الحاكم عفوية ودون تردد. فحثّ كيسنجر على القبول. « انا حدسي بالطبيعة »،قال الحاكم، « وقد شعرت ان الأمر حسن وانا مع هذا الاختيار » . وهكذا لم يسمح روكفلر لهزيمته على يدي نيكسون ان تؤثر في ما اوصى به كيسنجر . « لقد كنت دوماً أؤيّد عمل كيسنجر مع الرئيس اياً كان . ان يساعده ما استطاع الى ذلك سبيلا . لقد فعل ذلك مع كينيدي ومع جونسون من بعده وكنت دوماً اشجعه واحثّه على جعل مواهبه وافكاره تحت تصرف الرئيس أيّاً كان » .

بعد روكفلر طاف كيسنجر على زملائه في هارفرد طالباً مشورتهم ، وهم ماك جورج بندي ، ارثر م. شليزنغر الابن ، ستانلي هوفمان ، جون كنيث غالبريث ، ادم يارمولنسكي ، ريتشارد نوستادت ، توماس شيلنغ ، غيدو غولدمان وسواهم . وقد نصحوه جميعاً دون استثناء تقريباً بقبول المنصب ، واعتبروه ممثلهم في بلاط نيكسون ، بل وطبقهم الرئيسي المفضّل على مائدة الحكم الجمهوري .

اما صديقه من الحرب العالمية الثانية ، فريتز كريمر ، الذي وصف احياناً بانه مرشد كيسنجر الخاص ،فقد كان يتملّكه مزيج من المشاعر . قال لكيسنجر : « كصديقك لا استطيع الا ان اقول ان هذا سيكون محنة وعذاباً . فاليمين سينعتك باليهودي الذي افقدنا جنوبي شرقي اسيا ، واليسار سيصمك بخيانة القضية . اما كمواطن فدون ريب،

عليك ان تقبل المسؤولية لأن ليس من هو اكثر منك كفاءة.وفي هذا المجال لا يقام اعتبار لسعادتك الشخصيّة » .

وفي يوم الجمعة من ذلك الاسبوع نفسه – ٢٩ تشرين الثاني – زار كيسنجر مكتب نيكسون وطلب موعداً من الرئيس المنتخب . ولم تستغرق الرحلة الدائرية من نيكسون الى نيكسون التي قام بها كيسنجر ٤٨ ساعة . « لقد فكرت بالأمر وباستطاعتنا عقد اتفاقية فيما بيننا » أعلم كيسنجر نيكسون . « قررت ان أقبل المنصب وسأتوقف عن التحدث للناس عن ذلك » .

وتقرر ان يكون الاعلان الرسمي عن استخدام هنري في الاثنين التالي ٢٢ كانون اول . ولكن خاب أمل نيكسون في ان يتمتع بالاعلان – المفاجأة . فقد اثبت الطابق التاسع والثلاثون انه يرشح كالاسفنج . ففي ٣٠ تشرين الثاني ، اي اليوم التالي ، حملت « النيويورك تايمز » على صفحتها الاولى قصة التعيين بقلم روبرت . ب. سيمبل وبعنوان « سمي كيسنجر مستشار نيكسون في السياسة الخارجيّة » .

وهكذا عندما قدم أخيراً الرئيس المنتخب مستشاره الجديد في ٢ كانون الأول الى مؤتمر صحافي حاشد في فندق بيير ، لم يكن يعلن امراً جديداً بل كان يثبت قصة « التايمز ». وكان كل من نيكسون وكيسنجر يبتسم غير ان ابتسامة كيسنجر كانت هي الأعرض . اوضح الرئيس المنتخب انه اعطى اوامره لكيسنجر للتخلص من دبلوماسية الازمات « حتى لا نتصرف من موقع رد الفعل على الحوادث عند وقوعها » . وكان نيكسون واثقاً من نفسه فألمح الى انه ينوي غالباً استقدام خبراء من غير موظفي الحكومة الى البيت الأبيض للمشورة،واضاف ان « له معارف واسعة حول العالم كله من المثقفين على اختلاف اتجاهاتهم » . « انني ارغب في الحصول على مدى واسع من الآراء »،أضاف نيكسون،« وان الدكتور كيسنجر قد أقام – او هو يعمل في الوقت الحاضر – على إقامة نمط جديد من الاجراءات المثيرة جداً من شأنها أن توفر لرئيس الولايات المتحدة تخطي الاستماع الى ما يود سماعه ، وهي التجربة التي يتعرض للوقوع فيها الجهاز العامل في البيت الأبيض » .

واوضح نيكسون بالنسبة للذين قد تتملكهم الدهشة في جسم الصحافة وفي كل مكان من تعيين كيسنجر قبل تعيين وزير الخارجيّة « ان الدكتور كيسنجر حريص على ان لا يقيم من نفسه حاجزاً بين الرئيس ووزيري الخارجية والدفاع . وانني انوي ان أعيّن وزيراً قوياً للخارجيّة » .

وانهال المديح من مختلف اتجاهات المسرح السياسي . فمن اليسار حيت التعيين صحيفة « الجمهورية الجديدة » . وعن اليمين، كتب وليم بكلي:« منذ فلورنس نيتنغيل لم تلق شخصيّة عامة الاجماع نفسه » . وفي الوسط وصف جيمس راستون من « التايمز »

التعيين بأنّه « اشارة مطمئنة » الى ان الحكومة المقبلة ستعمد الى « اعادة تقييم جدّية وموضوعية لمشكلات الامن والاولويات » .

اما عبر البحار ، فاوروبا المنقسمة على نفسها صدرت عنها ردود فعل متباينة . فقد عم شعور بالارتياح النصف الغربي حيث لكيسنجر صداقات عديدة في مراكز عالية. اما الجزء الشرقي من القارة فقد حبس انفاسه . واعتبرته الصحيفة البولونية « زيشي وارسوفي » مدافعاً رئيسياً عن « فلسفة الحرب الباردة » .

واما رد فعل المجتمع الاكاديمي فقد جاء على العموم مؤيداً بحماسة . وكان ثمة من لا يزال على عدائه لفكرة ارتباط مثقف له هذا الاحترام الواسع بسياسي واسع الحيل ومخادع . الاّ ان الرأي الأكثر انتشاراً مال الى اعتبار اختيار كيسنجر تصرفاً يدل على نضج موضوعي ونقطة ايجابية للرئيس الجديد .

وبادر كيسنجر فوراً الى القيام بدور السفير الى مجتمع المفكرين المشكك . فلم تمض ايام قليلة على تعيينه – في ٦ كانون الأول حتى كان يقود سيارته الى جامعة برنستون حيث حضر عشاء عمل للمؤسسة الدولية للحريات الثقافية . وبعد ان تخلص من رجال الصحافة طمأن كيسنجر الكتّاب والمفكرين المجتمعين بانه من الآن فصاعداً، ستكون ابواب البيت الأبيض مشرّعة دوماً لهم .

لم يكن الرئيس المنتخب عندما قرر التعاون مع كيسنجر يعرف الكثير عنه . قرأ بعض مؤلفاته ولكن ليس كلّها. اما بصدد المراجع الشخصية ، فيمضي كيسنجر قائلاً : « ان اصدقائي – واستطيع القول معظمهم – كانوا من الديموقراطيين الليبراليين . فمع من كان بوسعه التحقّق عني . لو اعطيته لائحة من عشرة اشخاص ليزكّوني ، فان ثمانية من أصل هؤلاء كانوا ممن لا يركن الى قرارهم . كنت سأعطيه اسماء ماك جورج بندي ، ارثر شليزنغر ، كن غالبريث،وربما جيري وزنر . فلو كنت غير مخلص او غير كفؤ كان ذلك سينعكس على رئاسته ولم يكن يعرف شيئاً عني » .

ان صداقة كيسنجر بالتحديد مع امثال هؤلاء « الليبراليين » هي التي ازعجت المحافظين المتحمسين الذين وقفوا حياتهم على قضية نيكسون . كانوا هم اصحاب الطبخات السياسية والنصر هو مبدأهم المرشد الأوحد . وقد كافحوا الى جانب نيكسون الكفاح الطويل فخاضوا المعارك واكتووا بجراحها وتجرعوا مذلات الهزائم في انتخابات رئاسة ١٩٦٠ وحاكمية كاليفورنيا في ١٩٦٢ والفراغ في اواسط الستينات حتى أخيراً استطاعوا تذوق طعم النصر اللذيذ في ١٩٦٨ .

وفجأة ، طالعهم هنري الدخيل على وسطهم ، وهو الاجنبي المولد ، ذو اللكنة ،

والثقافة الجامعية من هارفرد ، الآتي متأخراً بعد كل هذا العراك المضني لينضم الـى نيكسون في لحظات النصر الاخيرة . ولم يكن كيسنجر هو من تصوروا ان يكون في البيت الابيض عندما يحكمه نيكسون . كانوا مرتابين فيه وممتعضين منه ، فضلاً عن انهم في الاصل كانوا لا يثقون بالعديد من المثقفين الذين عملوا في حكومة جونسون ، وكان كيسنجر يفكّر في ضمهم الى ملاكه . غير ان شكوكهم في كيسنجر التي كان يعرفها الرئيس المنتخب لم تنتقص من ارتياحه العام الى أنه تمكّن من اغواء البروفسور ليتخلى عن هارفرد . ولقد كانت صلة نيكسون بكيسنجر في نظره ذات مردود متنوّع . فهو استطاع مفاجأة المحللين السياسيين بمستشار رئيسي لم يكن من اتباعه النظاميين كما انه أول مرة في حياته السياسية استطاع جذب مثقف واسع الاحترام الى خدمته . « عليك ان تذكر » ، حذّره وليم سافير الذي كان كاتب خطب الرئيس ، « ان نيكسون ـ اذا شئنا استخدام تعبير مخفف ـ لم يكن موضع شغف المثقفين » . وكان قد سمع بكيسنجر كجوهرة في تاج مملكة روكفلر . وعرف انه بحاجة الى مضمون فكري لحكومته . وكان غنياً ، غنياً جداً بالسلطان . كان بامكانه ان يقدم لكيسنجر « شيئاً لا يستطيع رفضه » ، بحسب تعابير فيلم « العراب » . كان بوسعه ان يعرض عليه : الفعل ، والسلطة ، والمركز . ولم يكن بامكانه من قبل عرض شيء من هذا ليجذب كيسنجر من روكفلر . ولقد ادخل ذلك البهجة الى نفسه .

اما بالنسبة إلى كيسنجر فان قبوله عرض نيكسون لم يورطه في مقامرة . « كل ما كنت سأخسر هو انني كنت سأنتهي كروستو » . هذا ما كان يقوله كيسنجر . وروستو هو مستشار ليندون جونسون لشؤون الأمن القومي الذي اقترن اسمه بتصعيد حرب فيتنام . وقد ختم حياته السياسية بالالتحاق بجامعة تكساس نظراً إلى أن جامعته الاصلية « الأم اي تي » لم ترحب برجوعه اليها . وكان كيسنجر كلما تعرض لعاصفة من الانتقادات بسبب سياسات نيكسون في فيتنام يردد ضاحكاً : « آه ، ما رأيكم بجامعة في ولاية اريزونا ؟ » .

ولقد قبل كيسنجر فرصة العمل في البيت الابيض نظراً إلى أن اعتراضاته على نيكسون تغلّب عليها امكان ممارسته سلطات واسعة . وكان كيسنجر طوال سنوات في قلق مستمر حول مسألتي الحرب والسلم ، وحول اميركا في صنع عالم يستطيع تجنّب الكارثة النووية . على الرغم من انه عالج هذه المشكلات الا ان افكاره لم تكن بعد قد خضعت للامتحان العملي . ان هارفرد على اعتدادها بنفسها ، هي في الاخير موطن اكاديمي لا يؤدي به الخطأ في التفسير الى أكثر من فقدان ماء الوجه لا فقدان الوجود . وان المسافة الفاصلة بين كامبردج ومركز السلطان النهائي هي المسافة الفاصلة بين النظرية والواقع . وكـان كيسنجر قد قدّم مشورته لثلاثة رؤساء مع احتفاظه بصلته الاكاديمية بهارفرد . اما الآن فقد كانت له فرصة نادرة في ان يعطي كامل اوقاته للعمل مع الرئيس الذي فاجأه

بمشاركته معظم آرائه حول العالم . فاي بروفسور من هارفرد كان بوسعه مقاومة فرصة سانحة للمساهمة في صنع سياسة اميركا الخارجية من منعطف فاصل في التاريخ ؟

٢ – انضاج الغرّ

هانز الفرد كيسنجر – هانز اصبح هنري في اميركا – لم يختر طوعاً دورسه الاولى في الدبلوماسية . ولكن الحوادث هي التي وجهّت اختصاصه . ولد هانز في فورث من اعمال ولاية بافاريا في المانيا ، في ٢٧ ايار ١٩٢٣ وهو العام الذي قام فيه ادولف هتلر بانقلابه الفاشل في ميونيخ . وكان والدا هانز قد تزوجا في العام الذي سبق . ووالده لويس كان في الخامسة والثلاثين عند زواجه من بولا ستيرن .
وكان لويس كيسنجر يهودياً محافظاً ورث تقاليد دينه من ابويه، وكان يعمل ناظراً في كلية بنات ثانوية في فورث . اما والدته فمن عائلة يهودية من الطبقة الوسطى، وكانت خبيرة ذواقة بالطهي لاسيما اصناف الطعام اليهوديّة . وكان هانز يذهب وشقيقه والتر الى المدرسة معاً . ويتذكر والدهما لويس ان هانز كان المفكر بين الأخوين بينما والتر كان صاحب التنفيذ والفعل ، ولقد اصبح والتر الان رجل اعمال ثري في لونغ ايلاند بينما تبوأ كيسنجر وزارة خارجية اميركا .

وفي ١٩٣٨ ، وكان هانز في الخامسة عشرة من عمره ، غادر مع العائلة المانيا الى لندن اولاً ثم الى اميركا. ويتذكر هانز طفولته فيقول انها ليست مدخلاً لفهم حياته وان الاطفال لا يعون كل شيء . ويعلّق بعض اليهود على هذا الموقف بأنه افراط في الهرب من الواقع ، كأنما كيسنجر في رأيهم ، يعفي نفسه من آلام العهد النازي حتى تصبح وجهات نظره الدبلوماسية مقبولة وذلك باظهارها متحرّرة من الخلفيات الشخصيّة .

واستقرت عائلة كيسنجر بعد حلولها في الولايات المتحدة في شقّة في مستعمرة المهاجرين في الحي المعروف بمرتفعات واشنطن في الطرف الشمالي من مانهاتن . وكانت ضاحية متنوعة الاجناس والاديان ضمّت المهاجرين على اختلاف فئاتهم .

ولم تجر عملية تأمرك عائلة كيسنجر بيسر ، فكل ما في محيطهم الراهن جديد ومتحد : اللغة والعمل والمدرسة . ولم يجد لويس كيسنجر عملاً يلائمه في حقل التدريس فعمل كاتباً وعاونته زوجته بنفقات البيت باستخدام مواهبها في الطهي لاسيما

المآكل اليهودية في المناسبات الخاصة للجالية العبرية هناك .

اما الولدان فقد التحقا بثانوية جورج واشنطن . وعانى هانز – الذي سيصبح هنري قريباً – من ضعف في اللغة جعله حيياً ومنكمشاً . وكان ان تغلب على هذا النقص في الآتي من الايام وباتت لغته الانكليزية موضع اعجاب الديبلوماسيين في العالم . غير ان لفظه – الذي وصفه ذات مرة احد اصدقائه المولودين في المانيا بانه ينحى منحى اللهجة البافارية ويثير الضحك – استمر يصحبه بعد بلوغه سن الرشد . « كنت كثير الحساسية من لكنتي هذه »، قال كيسنجر فيما بعد. غير ان كيسنجر أخذ يضرب الارقام القياسيّة في تفوقه بالتحصيل المدرسي الثانوي . ولم تتراجع علاماته حتّى بعد أن وجد لنفسه عملاً في النهار وتابع المدرسة الليلية . وكان متفوقاً في الرياضيات اكثر منه في التاريخ ، مما حفزه على الاتجاه نحو التخصص بالمحاسبة.

خلال تحصيله الثانوي وجد لنفسه عملاً في مصنع لفراشي الحلاقة في مانهاتن . كانت مسؤوليته الأولى اعتصار الحامض من الهلب . ورفع فيما بعد الى موزع للبضاعة . ويعلق على هذه المرحلة من صباه فيقول بانه على عكس ما يقدر البعض بانها كانت مرحلة مضنية بالغة القساوة عليه فهو قد الفها لأنه نشأ في بيت متمرس بالعمل ولم يتعوّد الانصراف الى اللهو . من هنا كان الأمر طبيعياً بالنسبة إليه حين عمل في اثناء دراسته .

وما ان حصل على شهادته الثانوية حتّى غدا حلمه الأكبر ان يصبح محاسباً . والتحق فعلاً بكلية المحاسبة في مدينة نيويورك. ولكن ذات مساء وقبل اسابيع من بلوغه العشرين عاد كيسنجر من درس المحاسبة الى البيت ليجد دعوة من الجيش للتجنيد . وهكذا بدا ان عملية انضاج الغرّ ستحصل باسرع مما كان متوقعاً .

وفي شمالي كارولينا مرّ كيسنجر بتدريب عسكري رئيسي طوال ستة عشر أسبوعاً، ثم استدعي الى ايستون في بنسلفانيا حيث كان من المجلّين في دورة امتحانات للكفاءة العقلية ، فضمّ الى دورة تدريب ذات منهج تثقيفي خاص لم تلبث ان الغيت . وعاد الى المعسكرات ، هذه المرة في لويزيانا كجندي في المشاة . وهناك التقى بفريتز كرايمر ، مهاجر الماني مثله ، متحدر من عائلة بروتستنتية ، وفي الخامسة والثلاثين من عمره وحائز على دكتوراه في الحقوق من جامعة غوته في فرانكفورت الحقها بدكتوراه في العلوم السياسية من روما . وقد التحق كرايمر بالجيش الاميركي بعد غارة بيرل هاربر ، فعهد اليه تنظيم معهد للتوجيه العسكري السياسي للضباط والجنود في الفرقة ٨٤ . واصبح كولونيلاً في الاحتياط . وهو اليوم يشغل منصب المستشار الخاص للشؤون السياسية – العسكرية في البنتاغون .

التقى كيسنجر بكرايمر وهو يحاضر في الفرقة عن الموجبات الاخلاقية للحرب

فالهب في نفسه مشاعر من التجاوب عميقة. وما ان وضع نفسه في تصرف كرايمر وتم لقاؤهما حتى كان الاعجاب متبادلاً . وقال كرايمر في مواطنه الالماني السابق : « هذا رجـل نظام ومبادرة . لقد وجدت في ابن العشرين الذي قابلت الفتّى الذي وان لم يعرف من الحياة كثيراً بعد الا انـه يملك مؤهـلات كبيرة . انه ظاهـرة فذّة . كأنمـا هو يملك الحاسة السادسة مموسقـة : انـه يملك الموسقة التاريخيّـة . وقد اطلق في السنوات التالية على كرايمر لقب «مكتشف كيسنجر» ،فكان يجيب : « لم أكتشفه — ذاك ادعاء مغتـر — كل ما فعلت هو انّني حفزته على اكتشاف نفسه . كنت اقـول له ، هنري ، انك فذ وموهوب بصورة غير اعتياديّة » .

وعمل كرايمر في ان يصبح كيسنجر الترجمان الالماني لقيادة الفرقة ٨٤ عند نزولها في اوروبا . وتمركزت الفرقة في كريفلد ، وهي مدينة المانية عدد سكانهـا الاصلي ٢٠٠ الف نسمة ولكن الحرب اجتاحتها ودمرتها . أظهر كيسنجر موهبته في الادارة الحكومية فالحق خلال عـام بجهاز المخابـرات الاميركية فتنقـل من برغشتراسي في ولايـة هيس الى قيـادة المخابرات الاوروبية في اوبرامـرغو حيث تـم ترفيعه الى مسؤولية توجيهيّـة هي تعلم ضباط الميدان فن استئصـال النازيين الذين آثروا البقاء في الخفاء . وقد حـاز على وسام تقديراً لسرعتـه في انجـاز اعتقال وحدة غستابو محليّة . فقد لجأ كيسنجر ، منطلقاً من فهمه للعقلية الالمانية ، الى حيلة ماكرة هي الاعلان في الصحف المحليّة عن دعوة جميع ذوي الخبرة البوليسيّة السابقة. فمن كان يريد العمل عليه أن يتوجه الى ادارة شركة وهميّة في وقت محدّد. وفي اليوم التالي وفي الموعد والمكان المضروبين ، جاء جميع افراد الغستابو السابقين الى المكتب ووقعوا طلبات العمـل فتمّ اعتقالهم بالعشرات .

استمرت علاقته بالجيش بعد تسريحه من الخدمة بانتهاء الحرب . ففي ايار ١٩٤٦ احتفظ به معهد الاركان مدرساً مدنياً للتاريخ الألماني . وقد بدأ حياته المدنيّة بعد الحرب وهو نقيب احتياطي في المخابرات العسكريّة وبراتب قدره عشرة الاف دولار سنوياً . ومثـل هذه الرتبة والراتب كانا أمراً نادراً لمن توقف تحصيله العلمي عند المرحلة الثانوية. ولكن كيسنجر ابى إلاّ العودة الى الولايات المتحدة، وحثّه صديقه ومرشده كرايمر على العودة مؤكداً عليه ان لا ينضمّ الى احد معاهـد نيويورك المحليّة كما كان حاله قبـل الحرب بل ان يلتحق بافضل جامعات اميركا حيث وجدت . وكان أن قبل في هارفرد وحصل على منحة وهو في الثالثة والعشرين من عمره . وكان قد كبر خلال فترة الحرب عن معدّل السن العادية لدخول الجامعة . وبعد انقضاء ثلاث سنوات ، اي في ١٩٥٠ ، حاز على البكالوريوس علوم بتفـوق، واهلّه ذلك للحصول على منحة جديدة . وبعد سنتين حاز على شهادة الماجستير وتلتها سنتان تخرج في نهايتهما بشهادة دكتوراه، وقد

تزوج وهو في الجامعة ، في شباط ١٩٥٤ ، من آن فليتشر .

استطاع كيسنجر دوماً ان يحظى بمن يتعهّده في المنعطفـات الفاصلة في حياته . وجد في هارفرد وليم ياندل اليوت أحد ابرز اساتذة الجامعة الذي كان يدرس مادة « الحكم » . وكان اليوت من رعاة الحرب الباردة والعداء للشيوعية يدعو لدور فذ لاميركا في العالم . وقد التصق كيسنجر بالاستاذ الكبير الذي أحاطـه برعايته وتقديره ، وقال فيه : «هنري اقرب الى كونه زميلاً ناجحاً منه تلميذاً » . ولقد قيّم كرايمر صديق هنري ومرشده الأول علاقة اليوت بهنري بقوله : « كان كل ما فعلته هو حفز هنري ، أمّا اليوت فقد عاونه . وهذا اكثر بما لا يقاس — مما فعلت » .

وكانت هارفرد في تلك الآونة توسع دوائر ابحاثهـا واختصاصها . ومن بين هذه الدوائر الجديدة مركز الابحاث الروسيّة . وكان السجال محتدمـاً على قدم وساق بين اليوت ومنافسه البروفسور كارل فردريك . وانقسم التلامذة بين الاثنين الاّ كيسنجر الذي حافظ على علاقات الودّ بالخصمين المتنافسين . غير أنّه وجد في اليوت أكثر من مجرد مرشده الاكاديمي ، فقد كـان بالنسبة اليه صديقه ومصدر إلهامه . وتأثر كيسنجر ، في ذاك المجال الفكري ، بموقف اليوت دفاعاً عن دور المؤرخ الفيلسوف في وجه المدرسة السلوكية في علم الاجتماع وتبريراتهـا لكل الحوادث والاشخاص في التاريخ المعاصر من زاوية التحليل النفساني . ومـع ان المدرسة السلوكية جذبت اليهـا العديد من المثقفين الاّ ان كيسنجر صمد في موقف اليوت الرافض اخضاع حوادث المجتمع للآلة الحاسبة ، والمؤمن بالطابع الملحمي للتاريخ .

وكان كيسنجر يشعر وكأنه مشدود شخصياً الى الحوادث الكبرى. وخلافاً لكل اتجاه آخر فقد آمن بدور القوة الفذ في صنع التاريخ . وكان العالم يمرّ بموجة الحوادث الفاصلة بعد الحرب العالمية الثانية من اجتياح الجيش الأحمر لاوروبا الشرقية الى مشروع مارشال لانقاذ اوروبا الغربية الى انتصار حرب القومية والشيوعية في فيتنام الى ارتفاع الرايات الحمراء في بكين . وكـان اعتقـاد كيسنجر الراسخ انه لا يمكن انتصـار الديموقراطية بمعزل عن فعل القوة ، وان القوة ليست شراً في حدّ ذاتهـا ولكن المسألة الجوهرية هي في كيفية استخدامهـا .

وفي ١٩٥٠ قدّم اطروحته للبكالوريوس علوم بعنوان « معنى التاريخ — تأملات في سبنغلر وتوينبي وكانت» ، وحاز على علامة متفوقة من اليوت. ولكن بعد سنوات تقدّم باطروحة الدكتوراه التي اشتملت على بذور تفكيره الناضج المسؤول ، وكان عنوانها « فترة السلام الممتدة مئة عام ، من مؤتمر فيينا ١٨١٤–١٨١٥ الى بدء الحرب العالمية الاولى ١٩١٤» . وقد كانت دراسة لقيام النظام الدولي في تلك الحقبة وانهياره. ولكن الموضوع كان أكثر اتساعـاً من أن تلمّ به اطروحة واحدة ولذلك اقتصر في اطروحته

على الفترة الممتدة من ١٨١٢ الى ١٨٢٢ وجعل عنوانها « عالم يعاد بناؤه : كاستليري ، ماترنيخ واعادة بناء السلام ١٨١٢–١٨٢٢ » . وفي هذه الاطروحة تتجلى الخيوط الاولى من تفكيره السياسي .

وقد رأى كيسنجر ان التسوية السياسية التي توصلت اليها اوروبا بعد خمس وعشرين سنة من الحروب النابولينية والتي كانت من صنع كاستليري وماترنيخ ، ووصفها نظريو القرن التاسع عشر المثاليون « بالتسوية الرجعيّة » ، كانت بحسب تقديره ، التسوية العاقلة المتوازنة ، « لأنها ، وان لم تحقق جميع اماني جيل مثالي ، الاّ انها اتاحت لذلك الجيل ما هو أثمن : فرصاً من الاستقرار تتحقق الاماني عبرها دون اللجوء الى حرب رئيسيّة او ثورة دائمة » . وقد تحقق ذلك في رأي كيسنجر بإنشاء ميزان قوى أصبح من مصلحة الجميع الحفاظ عليه كضمان لأستمرار الاستقرار الذي كان اقرب شيء لبلوغ السلام الحقيقي ، واتاح افضل الفرص لاستمرار بقاء الجنس البشري . ولبلوغ هذا الهدف كان لا بد لرجال الدولة العاكفين على هذا الأمر من خوض لعبة القوى بسرية وتكتم ، لا تعيقهم البرلمانات التي لا قبل لها بفنون الديبلوماسية ولا قوانين السلوك الحديدية ، ولا يتجنبون استخدام القوة متى وجدوا ضرورة للحفاظ على النظام الدولي ، ولا يتورعون عن استخدام الحيلة والدهاء والضرب على وتر المصالح ولو مجرداً من المبادىء الخلقية ، لأن ذلك كله ادوات مقبولة في فن السياسة الدولية . ولا يجوز لرجال الدولة هؤلاء حرق الجسور خلفهم ، وعليهم ان يكونوا ، ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، من ذوي الجاذبية والحنكة والقدرة على التصور والوضوح .

وفي رأي كيسنجر ان ماترنيخ حتى ١٨٤٨ ومن بعده بسمرك في اواخر القرن قد نجحا في أداء هذا الدور بمهارة فائقة وحالا دوماً دون تداخل العلاقات العاطفية بضرورات السياسة ، وكانا دوماً مستعدين للتضحية باشكال التسوية في سبيل مضمونها . وكان ان عندما تولى كيسنجر منصب مستشار الرئيس واخذ يمارس دبلوماسية الاسرار والمفاجآت ، ان انعقدت المقارنات الصحافية بينه وبين ماترنيخ وحاز على صيت واسع على انه تتلمذ على ماترنيخ في الجغرافيا السياسية وبه حنين الى اواخر القرن التاسع عشر ونظامه الدولي .

ولكن كيسنجر كان يغضب من هذه المقارنات مؤكداً ان ماترنيخ ليس مثله الاعلى وانه اقرب الى اعتبار كاستليري بطله المفضّل . غير انه كان يستفيض في الحديث عن ماترنيخ وكيف ان ميزته الكبرى — مع اختلاف الظروف والمواضيع — هي ان ظروف الوضع الراهن مهما ساءت لم تكن تجرفه عن تصور المستقبل .

ويبدو أن كيسنجر كان متجهاً في الاصل الى ابراز دور ماترنيخ الشرير انطلاقاً

من الاعتقاد السائد القائل بادانته كممثل للرجعية في عصره . غير انه خلال كتابته اطروحته ، تبدّلت نظرته الى ماترنيخ . ووجد أنّه في زمن تصادم القوى المحافظة والثورية وبروز امكانات استخدام العنف على نطاق واسع ، كان هدف السياسة الخارجيّة اقامة بنية للسلام — وما حققته الدبلوماسية حينئذ من توازن بين القوى المتنافسة كان في رأي كيسنجر ، انجازاً كبيراً .

وبينما كان كيسنجر يكتب اطروحته في ١٩٥٢ عهد اليه اليوت بمنصب اتاح له اتصالات واسعة بعواصم العالم، اذ جعله القيم على دورة دراسية حملت عنوان « دورة هارفرد الدولية »، وكان يدعى اليها كل عطلة صيف نحو ٣٥ من ألمع الشخصيّات الاجنبية وأكثرها نفوذاً وذلك كجزء من حملة الحرب الباردة . واتاحت هذه الدورة، على مرّ السنين، لكيسنجر ان يوثق صلاته بمئات السياسيين والمفكرين الاجانب الذين كانوا يقضون تموز وآب في كامبردج، هارفرد . وكانت هذه الدورة تجري برعاية وكالة المخابرات المركزية الاميركية . وعندما هتك الستار في ١٩٦٧ عن دعم وكالة المخابرات للدورة الدراسية ، تنصّل كيسنجر من معرفة هذه الصلة .

غير ان بروز كيسنجر في مطلع الخمسينات كمحارب صلب ، على الجبهة الجامعية ، ضد الشيوعية في الحرب الباردة ، هيأ له الانتقال الى دوائر واشنطن . فمنذ ١٩٥١ عمل مستشاراً في دائرة عمليات الابحاث في الجيش، كما ارسل الى كوريا لدرس وقع الاحتلال على السكّان . وفي ١٩٥٢ سمّي مستشاراً لهيئة التخطيط الاستراتيجي النفساني لهيئة الاركان المشتركة . وبدأ يحفزه الطموح والمواهب ارتقاء سلالم السلطان .

٣ – الارتقاء الى السلطة

كان الحظ يبتسم لكيسنجر ، فقد حازت اطروحته للدكتوراه على جائزة الصيف لافضل انجاز اكاديمي . كما لفت الانظار بحسن ادارته لدورة الدراسات الدولية في هارفرد ، واتسعت دائرة المعجبين به في الوسط الجامعي . اما علاقاته بواشنطن فمع انها كانت لم تزل في اولها الاّ انها انبأت بمستقبل زاهر . واستمر الرسم البياني في الصعود حتى ١٩٥٤ عندما اصيب كيسنجر باول صدمة رئيسية في حياته اذ رفضت هارفرد التعاقد معه كاستاذ اصيل في ملاكها . ولم يكن ذلك لنقص في ألمعيته او كفاءاته كما قال معاصر لكيسنجر من هارفرد ولكن بسبب الاعتقاد الذي ساد اوساط الجامعة وهو «ان كيسنجر لن يخدم هارفرد ولكنه سيستخدمها » ذلك بأن علاقاته خارجها كانت في اتساع .

على الرغم من هول الصدمة ، ظلّ تماسكه وتشبّثه سلاحه الأقوى في الصمود. وهذا ما ردده صديقه كرايمر فيما بعد . ولقد عرضت عليه جامعة شيكاغو الاستذة فيها ولكنه رفض مفضّلاً ان يبقي خيطه غير مقطوع مع هارفرد .

وانفتحت امامه مجالات خارج الوسط الاكاديمي المحض ، فتسلم عملاً جديداً مع مجلة « فورن أفيرز » التي يتولّى نشرها مجلس العلاقات الخارجية ، وهي مؤسسة خاصة ذات نفوذ واسع . ولكنه لم يتسلّم رئاسة تحرير المجلّة كما سعى اصلاً ، ذلك لأنهم وجدوا اسلوبه في الكتابة تعوزه الرشاقة الصحفية . الاّ ان اعضاء مجلس العلاقات الخارجية اعجبوا بمؤهلاته الثقافية وطاقته الفكريّة فما لبثوا ان استخدموه في إدارة ندوة دراسية تضم أربعة وثلاثين من كبار الشخصيات امثال دافيد روكفلر ، والجنرال والتر بدل سميث ، وماك جورج بندي ، وغوردن دين (رئيس الندوة) وسواهم . وكان غرض الندوة البحث — خارج وسيلة الحرب الشاملة — عن اساليب مواجهة التحدّي السوفياتي في العصر النووي .

وقد قبل كيسنجر في ٨ آذار ١٩٥٥ المنصب الجديد في رسالة أكدّ فيها انه يقبل المنصب لأنّه ينسجم مع تفكيره الأساسي ، كما أنّه يتيح له الاحتكاك بمجتمع

انساني جذّاب . وكان هذا منعطفاً جديداً في حياته ادخله الى المؤسسة الشرقيّة التي اصبحت ذائعة الصيت .

المؤسسة الشرقية

كانت المؤسسة الشرقيّة عالماً في حد ذاته، بدوراتها الدراسيّة في الشؤون العالمية ومآدبها الرسميّة المقامة على شرف رؤساء الوزراء ووزراء الخارجيّة من ضيوفها . وهكذا اخذ كيسنجر يتعرّف الى رجال النفوذ والسلطان في العالم . وكان افراد المؤسسة الشرقيّة يشاركون الرأي السائد في السياسة الخارجيّة بوجوب احتواء الاتحاد السوفياتي بنظام عالمي من المحالفات المضادة للشيوعية بقيادة الحلف الاطلسي . غير ان العديد منهم كانوا يرتابون في جدوى مبدأ ايزنهاور — دالاس الاستراتيجي في الرد النووي الشامل . فقد وجدوا في شن الحرب النووية الشاملة استجابة لاي اعتداء في اي مكان من العالم ومهما كان حجمه ، سياسة تفتقر الى المصداقية . وادى ذلك الى تفويض المؤسسة لجماعتها الدراسية البحث عن البدائل .

وكان كيسنجر ، المتولي الان منصب الامانة العامة لهذه الجماعة ودورتها الدراسية ، يعاني القلق نفسه من الاستراتيجية الرسمية المعتمدة. وصدر عدد « الفورن أفيرز » في نيسان ١٩٥٥ يحمل اولى مقالاته في الموضوع التي عنوانها « السياسة العسكرية والدفاع عن المناطق الرمادية » وهي عبارة عن مناقشة عنيفة لفكرة الرد النووي الشامل . وخلال مداولات المجلس وبعدها ، اخذ كيسنجر يكوّن لنفسه موقفاً وسطاً بين الحرب النووية الشاملة وسياسة السلم والاسترضاء .

وفي ١٩٥٧ وبرعاية مجلس العلاقات الخارجية نشر باكورة انتاجه في كتاب بعنوان « الاسلحة النووية والسياسة الخارجيّة » . وقد اعتبر الكتاب هذا منعطفاً ومعلماً بذاته في الجدل القائم حول الموضوع ، احدث ضجة في اوساط العسكريين والسياسيين لم يحدثها كتاب مثله في الموضوع واعتبر أكثر الكتب رواجاً وبيعاً طوال اربعة عشر أسبوعاً متوالياً بعد صدوره . وفاز الكتاب بجائزة ولسن . ووصفته « الواشنطن بوست » بانه أهم كتاب صدر في ١٩٥٧ وربما في السنوات الاخيرة كلّها . وارسل نائب رئيس الجمهورية حينذاك ريتشارد نيكسون كتاب تهنئة للمؤلف ، كما ان جون فوستر دالاس الذي تحدّى الكتاب نظريته في الرد النووي الشامل قبل بما دعا اليه المؤلف من امكان الحرب النووية المحدودة. وشوهد اعضاء نافذون في مجلس الشيوخ وهم يحملون الكتاب ، كما درسه البنتاغون .

كانت نظرية الكتاب كما شرحها المؤلف تقوم على وجوب امتلاك الولايات

المتحدة للرادع النووي واستعدادها لاستخدامه في نطاق محدود ، وعلى امكان شن حرب نووية محدودة للتأثير في ارادة الخصم وليس لسحقها ، وعلى اقناع الخصم بأن خسارة الحرب المحدودة افضل من شن حرب عالمية شاملة تؤدي الى كارثة تفوق نتائج خسارة الحرب المحدودة . غير ان البعض رفض ما دعا اليه المؤلف واعتبر « تعاون » الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة لحصر نطاق الحرب قمة التناقض الذاتي . وتساءلت « النيويورك بوست » : « هل الحرب المحدودة هي الطريق من الحرب غير المحدودة أم إليها ؟ » وتساءل جورج كينان ودين اتشيسون ما اذا كان بوسع قادة الاتحاد السوفياتي التعامل بعقلانية في هذه القضايا ، وكيف يمكن افتراض ردود فعل متشابهة من نظامين وعقليتين في التفكير مختلفتين ؟

ولقد دفع الكتاب والمشادة التي اثارها على نطاق الامة واوساطها النافذة ، كيسنجر الى الطليعة المعنية بالاستراتيجية النووية والقومية ، فاصبح بين خبراء شؤون الدفاع والسياسة الخارجية . وهكذا عند عودته الى هارفرد صيف ١٩٥٧ كان قد حصل على ما لم يكن بالامكان الحصول عليه في نطاق حرم الجامعة الضيق من صيت عريض وشهرة واسعة لها بعدها العالمي . وكان في الرابعة والثلاثين من عمره عندما استقبلته هارفرد مغتبطة بعودته وكرسته استاذ مادة الحكم فيها .

ولكن كيسنجر بعد عودته الى هارفرد لم يقطع صلاته بالعالم خارجها . فاستمر يعمل كمستشار في مؤسسة الاخوين روكفلر . وكان قد قابل نلسون روكفلر في مطلع الخمسينات في مؤتمر عن الاستراتيجية العسكرية في كوانتيكو من اعمال فرجينيا ، ثم التقيا ثانية في مجلس العلاقات الخارجية . وقد انسجمت آراؤهما المتصلبة . وما ان انهى كيسنجر كتابه حتى طلب اليه نلسون روكفلر ان يتولى ادارة مشروع الدراسات الخاصة بالقضايا المحلية والخارجية الذي كان يموله . ووجد كيسنجر نفسه مجدداً يشرف على مجموعة من الاميركيين ذوي النفوذ تضم روبرت اندرسون وارثر بيرنز وانا روزنبرغ ودين راسك وسواهم .

وفي ٦ كانون الثاني ١٩٥٨ ظهر التقرير الاخير لهذه الدورات الدراسية الذي اعدّ باشراف كيسنجر . وقد خصصت له الصحف صفحاتها الأولى وعنوانه « الأمن الدولي : الجانب العسكري » واشير اليه بعنوان غير رسمي : « الرد على سبوتنك » . وقد نقل التقرير وجهة نظر كيسنجر بارساء الاستراتيجية على اسلحة نووية تكتيكية . وجاء فيه « ان ارادة خوض حرب نووية عند الضرورة جزء من ثمن الحرية » . ودعا التقرير انطلاقاً من تفكير روكفلر « باقامة ملجأ في كل بيت » الى توسيع نظام الدفاع المدني ورفع مخصصات الدفاع الى ثلاثة ملايين دولار سنوياً . ولاقى التقرير ترحيب البنتاغون ، وكان في طليعة مؤيديه في مجلس الشيوخ الشيخان هنري جاكسون ولندون

جونسون . واصبح تقرير روكفلر على كل شفة ولسان حديث الساعة بين الاميركيين ، كما اصبح اسم كيسنجر متداولاً على نطاق قومي في اميركا .

لم يمض شهران على صدور « تقرير روكفلر » حتى كان كيسنجر على المنصة امام المؤتمر القومي للتعليم العالي في شيكاغو يشن أعنف هجوم على صانعي السياسة في العاصمة الذين وصفهم بمجموعة من المحامين ورجال الاعمال العديمي التخصص بالتخطيط السياسي والاستراتيجي . واستمر كيسنجر في هجومه على السياسة الدفاعية الرسمية التي اعتبر أن العصر تجاوزها ، اذ لا يمكن اعتماد سياسة الحرب الشاملة في العصر النووي. وردد دعوته الى الرد المرن المقيّد في الحالات والتحديات موضوع المواجهة. وقال بصدد ازمة الشرق الاوسط في ١٩٥٨ « ليس بامكان رئيس الولايات المتحدة ان يضحي بثلاثين مليون اميركي دفاعاً عن بيروت مثلاً » . وهكذا اكّد رأيه الاساسي في انتهاج سياسة الحرب المحدودة والرادع النووي دون التورط في حرب شاملة. اما على صعيد هارفرد فقد عين كيسنجر مساعداً لمدير مركز الشؤون الدولية الجديد في الجامعة . وادى تسلمه لهذا المنصب الى اصطدامه المتتالي بمدير المركز روبرت بووي مساعد جون فوستر داللس .

حوّل كيسنجر برنامج الدراسات الدفاعية الذي كان يدير حلقاته الدراسية الى مركز استقطاب لذوي النفوذ في واشنطن فأخذ يدعو الوزراء ونوابهم من وزارتي الدفاع والخارجية لندوة دراساته . وكان كيسنجر يجني من هذه الدعوات اغناء طلابه بالاتصال الحميم بصانعي السياسة في واشنطن واغناء نفسه بتعميق الصلات والروابط بأصحاب النفوذ في العاصمة . اما المحاضرون الرسميون فقد وجدوا في البرنامج فرصة للتخلص من روتين البيروقراطية والاتصال بالجيل الجامعي الجديد .

كان كيسنجر طوال اواخر الخمسينات منهمكاً في مسألة الاستراتيجية النووية . غير ان الاستراتيجية التي طرحها حول الحرب النووية المحدودة استهدفت لحملة نقد واسعة ووصمت بالتناقض الذاتي « لانها تعتمد على الاسلحة النووية لحل معضلة اوجدتها الاسلحة النووية نفسها » . وأدّى هذا النقد الى تحوّل رئيسي في تفكيره الاستراتيجي فتخلّى عن اعتباره الحرب النووية المحدودة « استراتيجيتنا الأكثر فعالية ». وظهر هذا التخلّي في كتابه الرئيسي الثاني « ضرورات الخيار : امكانات السياسة الاميركية الخارجية».

وصادف نشر الكتاب في كانون الثاني ١٩٦١ انه جاء متزامناً مع موعد تسلم كيندي مسؤوليات الرئاسة الدستورية. وفي كتابه الجديد تراجع كيسنجر عن استراتيجية الحرب النووية المحدودة الى وجوب حمل الاتحاد السوفياتي على الاعتقاد ان الولايات المتحدة « قد » تستخدم الاسلحة النووية ، ولكنه وافق على زيادة طاقة اميركا من الاسلحة التقليدية . وساعد كيسنجر على هذا التحول جوّ الخلافات الواسعة الذي عصف

بالمؤسسة العسكرية حول طبيعة الحرب النووية المحدودة ، ومدى تأثير المفاوضات لتحديد الاسلحة على الاستراتيجية العسكرية ، واهمية الصواريخ البعيدة المدى المتزايدة ، ومدى نمو المخزون النووي السوفياتي .

واعرب كيسنجر في كتابه عن عدم ثقته بمفهوم الوفاق مع الاتحاد السوفياتي الذي اخذ يشيع بعد لقاء ايزنهاور وخروشوف في كامب دافيد . كما اعرب عن رفضه لامكان تطور المجتمع السوفياتي ليبراليا . ودعا الى معالجة الديبلوماسية السوفياتية لا الشؤون المحلية في روسيا . ومع ان اوروبا استأثرت باهتمامه الكبير الاّ انه خصص فصلا في كتابه توجه فيه الى الرئيس الجديد داعياً الى الاهتمام بالعالم الثالث على اساس التركيز في كل قارة على بلد : الهند في آسيا، البرازيل في اميركا اللاتينية، ونيجيريا في افريقيا . ودعا الى ان تصب المساعدات الاميركية في اطار اقليمي لمناطق باسرها بدل ان تضيع بتوزيعها على الدول الصغرى منفردة . وختم كتابه بفصل لا يخلو من المكر حول العلاقة المتبادلة بين المثقف وصانع السياسة داعياً الى تعاونهما معاً لوقف «الجمود البيروقراطي » و«اطلاق قوى الخلق والابداع » . وحذّر المثقف من أنّه اذا لم يبق متصلاً بمخبره او مكتبته للتزود بوقود الفعالية المتجدّدة فقد يقع فريسة المعايير البيروقراطية المفتقرة الى الحكمة العلمية فيتحكم بمصائر الالوف بفعل الواجب المجرّد دونما خفقة حب او مشاعر كره . وقد استخدم ناقدوه فيما بعد هذه العبارات نفسها وخصوصاً عند قصف فيتنام الشمالية .

بمجيء كينيدي الى الرئاسة صحبه الى مركز النفوذ فريق عمل من زملائه في جامعة هارفرد بينهم ماك جورج بندي كمساعد خاص لشؤون الأمن القومي ، وارثر شليزنغر الاصغر كمساعد خاص للرئيس، وجاء كيسنجر مع هؤلاء ليقف على عتبة الباب الذي سيدفعه بعد سنتين الى الداخل . اتاحت له رئاسة كينيدي فرصاً عديدة . فعلى صعيد السياسة العامة تخلى الرئيس الجديد عن مبدأ الحرب الشاملة وتبنّى سياسة الاستجابة العسكرية التدريجيّة للتحديات الشيوعية . اما على صعيد الشخصي فقد نفعت توصيات شليزنغر فعيّن كيسنجر مستشاراً حكومياً لثلاث مجموعات نافذة : مجلس الأمن القومي ، وكالة تحديد الاسلحة ونزعها ، وشركة راند .

ولكن الفرص المتاحة انقلبت عند كيسنجر خيبة امل بسياسة الرئيس وشخصه . فقد وجد الرئيس غير ملمّ بمحدودية القوة ، سريع التعهد بالمساعدات الاميركية ، ورومانسي النظرة في تقديره لجبروت اميركا . ووجد كيسنجر في هذه المواقف والتصرفات تغليباً للوهم على الواقع ، وللذاتية على التحليل الموضوعي . ونشب خلاف في الرأي حول مشكلة برلين الحساسة عندما رفع الروس فجأة الحائط المشهور في آب ١٩٦١ . وكان كيسنجر منزعجاً لأنه سبق ان حذّر مراراً من التساهل الذي يؤدي

الى ازدياد وضع برلين سوءاً . وكان بناء الحائط في نظره فعل عدوان يتوجب ردعه حتى لا يتصاعد الى حرب عالمية . بينما رأى كينيدي ، كما اسرّ الى معاونيه ، في الحائط اداة استقرار للوضع في اوروبا الشرقية . وخالف سياسة الرئيس الداعية لبريطانيا الى الانضمام الى اتحاد اوروبي لتعارضها في رأيه مع سياسة ديغول من جهة ولتجاهلها موجة القوميات الصاعدة في اوروبا .

حاول كيسنجر عبثاً الوصول الى الرئيس لتبادل وجهات النظر ولكن بندي مستشار الأمن القومي كان يحول دون ابداء مساعد له اراء معارضة للرئيس ، تماماً كما اخذ يتصرّف كيسنجر في السنوات اللاحقة مع معاونيه . ولكن كيسنجر ، حسب رأي بعض رجال كينيدي ، تحول الى معارض من داخل البيت ، مما جعل كينيدي يشير اليه بانه بات « مزعجاً قليلاً » . وفي هذه الفترة زار كيسنجر الهند ضمن برنامج التبادل الثقافي وادلى بتصريحات حول باكستان وتحالفها مع الصين وحول مشكلة بلوخستان اثارت موجة سخط في كل من باكستان وافغانستان، واضطرت بندي الى الابراق اليه بالتزام الصمت والاّ استدعاه على عجل .

برّر كيسنجر تصرفات التحدي التي صدرت عنه في الشؤون الدولية باعادتها الى سببين : اولاً حداثة عهده بمستويات الحكم العالية ، وثانياً طبيعة العهد الذي كان شديد التفاؤل الى حد الغرور احياناً .

وعاد كيسنجر الى هارفرد مكرساً كل اوقاته للجامعة بين ١٩٦٢–١٩٦٥ ما عدا فترة وجيزة في ١٩٦٤ صحب فيها روكفلر في حملته الانتخابية للتسمية الجمهورية للرئاسة . وظهرت في هذه المرحلة مجموعة من مقالاته في السياسة الخارجية في كبرى المجلات والصحف الاميركية والاجنبية، في « الفورن أفيرز » ، و «الريبورتر » ، و «الهاربر »، و «دي فلت » ، و «البولوتيك اترنجيه» ، و «ريس بوبليكا » . واصدر كتاباً جديداً عنوانه «الشركة المضطربة : اعادة تقييم للحلف الاطلسي» نشره في نيسان ١٩٦٥ . وشكلت مقالاته مع كتابه الجديد ادانة للسياسة الاميركية ازاء غربي اوروبا في عهدي كينيدي وجونسون . واعتبر ان واشنطن لم تدرك بعد ان اوروبا قد نمت منذ مشروع مارشال الشهير الى حد أنها لم تعد تقبل الوصاية ، وان على الولايات المتحدة ان لا تحاول فرض حلول اميركية لمشاكل اوروبا .

ولم يقبل كيسنجر كذلك فكرة كون الولايات المتحدة وصيّة على مصير العالم الاخلاقي والسياسي او فكرة العهد الكينيدي المؤمنة بأن قوة اميركا تستطيع كل شيء ، والتي عبّر عنها دين راسك في شباط ١٩٦٨ بقوله :«عندما تمارس الولايات المتحدة ضغطها على اي شيء فلا بدّ لهذا الشيء من ان يستسلم لها » . قال كيسنجر للشيخ فرانك

كراتش بينما كانت اميركا متورطة في فيتنام : « آن الاوان ان نقلع عن اداء دور الله في كل مكان من الكرة الارضية . ان ذلك لأبعد عن طاقتنا النفسانية » .

معمودية فيتنام

كانت فيتنام مدخل هنري كيسنجر الى ادارة جونسون بتثبيته، للمرة الثالثة، مستشاراً في السياسة الخارجيّة . وهذه المرّة جاء تعيينه في الخدمة الحكوميّة بواسطة هنري كابوت لودج الذي كان رفيق نيكسون على لائحة انتخابات الرئاسة (مرشحاً لنيابة الرئاسة) ضد لائحة جون كينيدي، ثمّ عمل في عهد كينيدي سفيراً في جنوبي فيتنام . وفي تموز ١٩٦٥ ثبته الرئيس جونسون لدورة ثانية سفيراً في سايغون بقصد اظهار دعم الحزبين للالتزام الاميركي المتوسع في حرب ازداد الجدل والخلاف بشأنها حدّة يوم بعد يوم . وجاء تعيين كيسنجر تأكيداً جديداً لرغبة جونسون في الاستماع الى كيسنجر من قبل اذ هو انصرف في السنوات الماضية الى مواضيع الاستراتيجية النووية واوروبا والحلف الاطلسي . ولكنه كان من جهة مطلعاً على الرأي المعارض للحرب في هارفرد كما كان مطلعاً على الرأي الحكومي الرسمي الذي يتوقع باستمرار ان يصل الى النور في اخر النفق المظلم الذي تجتازه الحرب . وكان كذلك مطلعاً على رأي الفرنسيين في هذه الحرب ووصفهم اياها «بالحرب القذرة ».وكانت رحلة كيسنجر الاولى الى فيتنام في تشرين الأول ١٩٦٥ يرافقه محام من واشنطن واسع النفوذ ومستشار دائم للرؤساء الديمقراطيين هو كلارك كليفورد . كانت مهمتهما تقييم الاتجاه الذي على سياسة الولايات المتحدة اتخاذه في فيتنام . وكان الجديد الذي قام به كيسنجر في رحلته انه بعد لقائه مع الرسميين الاميركيين في فيتنام وكبار المسؤولين الفيتناميين في سايغون تجاوز هذا الاطار الرسمي الى لقاءات غير رسمية مع قادة البوذيين ، والمثقفين المحليين، والصحافيين ورؤساء القرى. فهو لم يحصر نفسه بالمدينة لأنه علم ان دنيا الريف مختلفة نوعاً . وراح يطرح الاسئلة عن التاريخ والمجتمع والتقاليد والثقافة الفيتنامية وعن جيش فيتنام ووسائل تحسينه وعن القاعدة السياسية ، واهم من هذا كله كان سؤاله : هل بامكان الولايات المتحدة المساهمة في الحرب دون تدفق قواتها واعتدتها ؟ ووضع كيسنجر في ضوء هذا كلّه تقريره الذي رفعه الى السفير لودج. غير انه بعد ايام ظهرت في لوس انجلس تايمز عناوين في الصفحة الاولى ان الموفدين الاميركيين يعودان بخيبة كبرى من حالة الافتقار الكلي للنضج السياسي او الاستهدافات السياسية النزيهة التي وجدا عليها قادة الحكم في جنوبي فيتنام على الرغم من تدفق المساعدات الاميركية . وفي طريقه الى واشنطن توقف كيسنجر في مؤسسة راند في سانت مونيكا

في كاليفورنيا لتشاركه في تقييم بحثه عن فيتنام . وقال الخبراء المقيمون رأيهم في ذلك وهو انه « افضل تحليل للحرب صدر حتى الان» ، و«ان الاستراتيجية التي نتبعها في هذه الحرب كانت على خطأ فادح لأننا لم نكن نقمع عصياناً بل نشن حرباً كلاسيكية ضد عدو غير سياسي. وقد ربطنا مصيرنا الى مجموعة من السياسيين والجنرالات التافهين في فيتنام » . وعند عودة كيسنجر الى العاصمة اخذ يقدم تلخيصاً عن نتائج مهمته بطريقته الخاصة في عقد لقاءات فردية مع اولي الامر . وقصد كيسنجر من هذا الاسلوب ان يترك الاثر الفكري الاقصى في مستعميه اذا ما قابلهم منفردين . وقد كان له ما اراد فانعقد الرأي على تقدير تقريره . وفي صيف ١٩٦٦ ظهر ملخص لتقييمه في مجلة « لوك » جاء فيه : « ان الحرب في فيتنام يتحكم فيها عاملان : الانسحاب — الكارثة والمفاوضات المحتومة». وقد مضى كيسنجر يرفض فكرة الانسحاب، لأنها تكرس انتصار دولة فلاحين شيوعية من الدرجة الثالثة على الولايات المتحدة ، كما انها تترك مضاعفات سيئة في دول جنوبي شرقي آسيا كلاوس وماليزيا والفلبين وتايلاند، واخيراً يؤدي اظهار عجز اميركا في جنوب شرقي آسيا الى اضعاف هيبتها في العالم كله وتجريد عهودها والتزاماتها العالمية من اية قيمة .

وفي هذا المعنى توافق رفضه للانسحاب مع الرأي الرسمي السائد . ولكنه من جهة ثانية لم يكن يشارك الحكومة في رأيها المستمر لاحراز انتصار عسكري في فيتنام . اذ اعتبر مثل هذا الانتصار في حكم المستحيلات . وهنا يقول « ان المشكلة الرئيسية في فيتنام ليست عسكرية بل سياسية وسيكولوجية » . والخطة التي يقترحها هي «تشكيل وتوسيع مناطق آمنة » تحتوي على اكبر مجموعة من السكان مما « يعطينا رصيداً» للمفاوضة يمكن الاعتماد عليه في مؤتمر سلام .

عاد كيسنجر ثانية الى فيتنام في تشرين اول ١٩٦٦ مصحوباً هذه المرّة بدانيال دايفدسون الذي كان يعمل مع وليم بندي. وكانت لكيسنجر هذه المرة مهمة محدّدة هي اقامة منهج عمل لاجتذاب عناصر قياديّة من الجانب الشيوعي . ولكن فيتنام كانت خبرة مخيفة بالنسبة اليه . فقد زار احدى القرى التي صور له المسؤولون الاميركيون المحليون انها قد اصبحت مسالمة بنسبة ٨٥ بالمئة من سكانها . وعرف هناك ان السكان يرسلون الضرائب بالبريد الى الفيتكونغ. فلما عاد يستفهم عن الأمر من المسؤولين الاميركيين اجابوه بان دليل الوضع السليم في القرية ان الفيتكونغ لا يجرؤون على جباية الضرائب بصورة مباشرة بل يتلقونها عبر البريد !

وطار كيسنجر من سايغون الى مانيلا ليرفع تقريره الى بندي ولودج حيث كان جونسون سيعقد لاحقاً مؤتمر قمة لحلفائه الآسيويين . وادى سفره الى الفليبين الى تخلفه عن احدى دورات تدريسه في هارفرد . فابرق افريل هاريمان الى الجامعة بان مهمة بالغة

الاهمية عهدت الى كيسنجر قبل انعقاد مؤتمر مانيلا . وقد ادى اكتشاف الطلاب المعترضين على الحرب في الجامعة بعد سنوات لهذه البرقية في مكتب رئيس الجامعة الى اتهام كيسنجر باوثق العلاقات «بحرب جونسون» في فيتنام .

صحيح ان بروز كيسنجر على المسرح الدبلوماسي كأشهر منفذ للسياسة الخفية ، تم فيما بعد ، في عهد نيكسون الا انه بدأ فعلاً تمارينه الاولى في السياسة السرية بادارة الرئيس جونسون . وكانت تجربته الاولى في عملية عرفت «ببنسلفينيا» وهو الاسم السري لتبادل الرسائـــل السرية بين واشنطن وهانوي بواسطة مسؤولين فرنسيين . وكان الغرض من هذه الاتصالات وقف القصف الجوي الاميركي مقابـــل موافقة هانوي فوراً على عقد مفاوضات منتجة ، وكان مسرح هذه الدراما بين حزيران وتشرين اول ١٩٦٧ ومع ان هذه الاتصالات لم تحقق غرضهـــا إلا أنها كانت التمهيد للمناورات الدبلوماسية السرية اللاحقة التي اوصلت الفريقين المتحاربين الى طاولة المفاوضات في باريس .

ولقد طار الوسيطان الفرنسيان، وهما اوبراك وماركوفيش، بموافقة الرئيس ديغول الى هانوي بعد حصول كيسنجر الذي عرفهما على تفويض واشنطن له بان يتصرف بالعملية كطرف مستقل مهتم وليس كموظف في حكومة الولايات المتحدة حتى لا يعرض سمعة حكومته في حال الفشل .

واجتمع الوسيطان ، وقد كان احدهما اوبراك يعرف هو شي منه منذ ٢١ سنة ، الى رئيس وزراء فيتنام فام فان دونغ وعرض ماركوفيش «فكرته الخاصة» بوقف القصف الاميركي من جهة ووقف التموين الحربي الفيتنامي الى الجنوب بالمقابل . ولكن دونغ اصر على الوقف غير المشروط للقصف الاميركي الذي اذا ما تم انتفت كل العراقيل في وجه المفاوضات . وقال دونغ انه اذا ارادت اميركا توسيع الحرب الى الشمال فليكن، فنحن مستعدون لها، وقد حاربنا في سبيل استقلالنا منذ الاف السنين وهزمنا المغول وليس جيش اميركا على قوته اشد رهبة من جيش جنيكزخان . «نحن لا نريد اذلال الولايات المتحدة ولا فرض نظام شيوعي على الجنوب او الاسراع لتحقيق توحيد البلاد» . وفي اليوم نفسه قابل اوبراك هو شي منه يصحبه رئيس الوزراء . ولم يخض هو شي منه حديثاً مطولاً حول الموضوع مع اوبراك الذي لاحظ كم اصبح الزعيم الفيتنامي طاعناً في السن ، بل اقتصر قوله على انه لا يوافق على استخدام عبارة «السلام في فيتنام» لأنها تضع الولايات المتحدة وفيتنام الشمالية على قدم المساواة مع أن الواقع ان الولايات المتحدة هي المعتدية ويجب ادانتها . اما بصدد التفاصيل فقال ان امرها في يد رئيس الوزراء، واردف : «تذكر ان العديدين حاولوا خداعي ولكنهم فشلوا وانا اعرف انك لا تريد ذلك» . وعاد يسأله عن عائلته وشؤونه البيتية . وقال فان دونغ بعد انتهاء المقابلة

التي استغرقت ٥٠ دقيقة «نحن نحاول تجنيب الرئيس الخوض في التفاصيل ما استطعنا الى ذلك سبيلاً . انه رجل عجوز الان ونريده ان يحيا ليرى بلاده موحدة» .

وفي آب بينما كان الرئيس جونسون يعلن تصعيد عدد القوات الاميركية في فيتنام الى ٥٢٥ ألفاً ، ويأمر بضرب ستة عشر هدفاً استراتيجياً جديداً فيها ، طلب من كيسنجر بعد عرضه نتائج الاتصالات أن ينقل الى الجانب الاخر عن طريق الوسيطين الفرنسيين أن الولايات المتحدة مستعدة لوقف القصف الجوي والبحري في فيتنام الشمالية اذا كان هذا يؤدي فوراً الى الشروع في مباحثات منتجة بين ممثلي الولايات المتحدة وجمهورية فيتنام الديمقراطيـــة شرط ان لا تستغل الاخيرة فترة الهدوء لمصلحتها العسكريـــة . فطلب كيسنجر من الوسيطين العودة الى هانوي لنقل هذه الرسالة غير ان الوسيطين الفرنسيين حاولا عبثاً الحصول من السفارة الفيتنامية في باريس على تأشيرة دخول الى فيتنام . وجرت على الاثر اتصالات قام بهـــا كيسنجر يصحبه شستركوبر مساعـــد هاريمان وقدما عن طريق الوسيطين عرضاً جديداً بوقف القصف الجوي الاميركي عشرة ايام كدليل على حسن نية الولايات المتحدة . ولكن الوسيطين لم يمنحا تأشيرة الدخول . وفي ١٠ ايلول اتصل بهما بو، رئيس البعثة الدبلوماسية الفيتنامية في باريس، وأبلغهما رسالة جوابية من هانوي على عروض كيسنجر جاءت مخيبة للآمـــــال اذ نصت على رفض المقترحات الاميركية لاتسامهـــا بطابع التهديد والانذار ولورودها بعد تصعيد الغارات على هانوي . واكدت فيتنام الشمالية طلبهـــا بوقف غير مشروط للغارات الاميركية .

وفي ١٣ ايلول عاد كيسنجر الى باريس حاملاً عرضاً اميركياً يقضي بان يتم لقاء مباشر بين بو وكيسنجر . ولكن بو رفض مثل هذا اللقاء ما دام الوعيد بالغارات لم يزل قائمـــاً . ووجه كيسنجر رسالة جديدة مفادهـــا ان الولايات المتحدة لا توجه تهديداً ولا تضع شروطاً وان الوضع بات محيراً لأنه اذا اوقفت الغارات اظهاراً لحسن النية او استمرت فالأمر سيان عند الطرف الآخر . ولكن بو استمر في رفض لقاء كيسنجر او منح الوسيطين الفرنسيين تأشيرات دخول الى فيتنام .

بذل كيسنجر محاولة اخيرة في سبيل تحقيق لقائه ببو فوجه اليه رسالة مؤكداً ان الوسطاء مهما كانوا موثوقين الا انهم لا يستطيعون ان يكونوا بديلاً من اللقاء المباشر الذي يقتضيه السعي لتبديد سوء الفهم الكبير القائم بين واشنطن وهانوي . ولكن الجانب الفيتنامي استمر رافضاً . وعاد كيسنجر على الاثر الى كامبردج . ولكن مساعي الوسيطين استمرت واستمر اصرار بو على رفض اللقاء في ظل تصعيد الغارات. ويقول جونسون انه في ١٨ تشرين اول اجتمع الى وزير الخارجية راسك ووزير الدفاع مكنمارا والى والت روستو والدكتور كيسنجر ، ورغم التأكد من موقف هانوي المتصلب

لم يرغبوا في التخلّي عن بذل المساعي ، « وبناء على تزكية مستشاري وافقت على وجوب عودة كيسنجر الى فرنسا وبذل محاولة اخيرة للتوصل الى مفاوضات جديّة » . وهكذا عبر كيسنجر الاطلسي ثانية. وجرت المحاولة مجدداً عن طريق اتصال هاتفي اجراه اوبراك مع بو. ولكن رئيس البعثة الفيتنامية في باريس استمر في عناد مصّراً على موقفه: « لا جديد يوجب اللقاء » . وهكذا حصد كيسنجر الخيبة وعاد ادراجه الى كامبردج . ودفنت عملية بانسلفينا .

ولكن كيسنجر رغم فشل المهمة بسبب موقف الجانب الفيتنامي خرج من هذه المساعي والمفاوضات ، وهو الحديث الخبرة في هذه المهمة ، مكللاً بنجاحين : حسن الاداء للمهمات التي اوكلت اليه والاحتراف الدبلوماسي . ولقد كان توكيل جونسون له باجراء مفاوضات لها طابع السرّية الفائقة ، رغم معرفة الرئيس بعلاقته الحميمة بروكفلر ، في حد ذاته دليل ثقة ثبت انها كانت في موضعها اذ ان كيسنجر مثّل بلده بمنتهى الدقّة والحصافة وبالتزام تام بالتعليمات وباستقامة نادرة ازاء الجانبين . وقد مكنته هذه الاتصالات السريّة من الاطلاع على صعوبات التعاطي مع « الجانب الآخر » ، وبصرّته باغوار حالة انعدام الثقة بين الطرفين ، واهلّته ، لاحقاً ، لاداء دور رسول نيكسون الى الفيتناميين الشماليين . ولقد ادّى استمرار الحرب الى فوز رئيس جمهوري كان شعار حملته التعهّد بانهاء الحرب وربح السلام . وعندما دخل كيسنجر البيت الابيض مع الرئيس المنتخب عكف على اعداد المسوّدة وتهيئة الملاك الشخصي لما عرف فيما بعد « بآلة هنري الرائعة » .

٤ — آلة هنري الرائعة

حتى ثلاثين سنة خلت لم يكن في اميركا مجلس أمن قومي ، ومع ذلك كانت الجمهورية مزدهرة ، والحروب ، حتّى العالمية منها ، تخاض وتربح ، والتاريخ يصنع ، وغالباً ، ببراعة .

ان مجلس الأمن القومي ، هذه المؤسسة الوقورة، حديثة العهد، لم يمض بعد على قيامها ثلاثون عاماً ، او ما يوازي مدّة ولاية خمس رؤساء . غير انّ هذه المؤسسة ، بفعل اسلوب الرئيس السابع والثلاثين في اتخاذ القرارات ، غدت في ولايته الاولى أقوى مؤسسات الأمة في تخطيط سياستها الخارجيّة،وكان هنري كيسنجر محركها الرئيسي .

كان مجلس الأمن القومي قد بدأ باتخاذ شكله الراهن ، في مطلع عهد نيكسون خلال ايام الرئاسة الاولى في فندق بيير. فقد أدّى تعيين كيسنجر المبكر كمساعده الجديد لشؤون الأمن القومي الى تحويل بنية مجلس الأمن غير المتماسكة الموروثة عن اسلافه الى نموذج الهيئة المركزية الحسنة التعبير عن صنع السياسة .

نشأ نموذج مجلس الأمن القومي الأول في ١٩٤٧ « ليشير على الرئيس في مسألة توحيد السياسات المحلية والخارجية والعسكرية للأمن القومي بحيث يتيح التعاون بفعاليات افضل بين القوات المسلّحة وسواها من الدوائر والوكالات الحكومية في القضايا ذات المساس بالأمن القومي » . ويتألف مجلس الأمن القومي من رئيس الجمهورية ونائبه ووزيري الخارجية والدفاع ومدير مكتب التخطيط للطوارىء . ويحضر الجلسات كل من مديري وكالة المخابرات المركزيّة، ورئيس هيئة اركان الحرب المشتّركة بوصفهما مستشارين للمجلس ، كما بالامكان دعوة سواهما .

ولما كانت العبارات التي صيغ بها التشريع المنشىء للمجلس غامضة فقد استخدمه الرؤساء باساليب مختلفة كل بحسب شخصيته وأسلوبه الخاص .

انشىء مجلس الأمن القومي كرد فعل لأسلوب عمل الرئيس فرانكلن روزفلت خلال الحرب العالمية الثانية ، اذ كان يدير السياسة الخارجية من جيب صدرته حتّى ان الدوائر الرسمية كانت تجد نفسها خارج دائرة اتخاذ القرارات الحاسمة . فعندما جاء

هاري ترومن الى البيت الابيض طلب من جيمز فورستال ، وزير الدفاع الاول في البلد ، ان يضع نظاماً يؤمّن اخذ وجهات نظر وزارتي الدفاع والخارجية بعين الاعتبار . ونتج عن ذلك انشاء مجلس الأمن القومي الذي عرف في ايامه الأولى « بانتقام فورستال » .

استخدم ترومن مجلس الأمن القومي أداة تنسيق بين مختلف جوانب دور الولايات المتحدة الذي يتوسع بسرعة في مواجهة القوة السوفياتية الصاعدة بعد الحرب ويحاول احتواءها . الاّ انه وجد نفسه يعتمد وبصورة اولية على مشورة وزيري خارجيته القويين : مارشال اولاً ، ودين اتشيسون فيما بعد .

ولقد اخضع الرؤساء من بعد ترومان شكل مجلس الأمن القومي لاسلوب عملهم الخاص . فلقد عمل دويت ايزنهاور على تقويته بتركيز اوسع السلطات في البيت الأبيض جاعلاً منه نمطاً من مركز القيادة العسكرية للسياسة القومية . غير ان اسلوبه في طلب التوصل الى قرار بالتراضي في كل شأن حوّل مجلس الأمن القومي الى ساحة مفاوضات مطوّلة كانت تنتج ما وصفه دين اتشيسون « بالتوافق الناتج عن الارهاق » . وفي التحليل النهائي ، كان ايزنهاور يستشير نفسه في الشؤون العسكرية ويترك ما تبقى لوزير خارجيته القوي الارادة ، جون فوستر داللس .

اما الرئيس كينيدي الذي استأثرت باهتمامه الشؤون الدولية فقد هدم الكثير من مصنع ايزنهاور الكرتوني وادار السياسة الخارجيّة من مكتبه ، وجعل دين راسك يتولى مسؤولية وزير الخارجية الاسمية الشرفية ، كما تولى ماك جورج بندي ادارة هيئة مجلس الأمن القومي . وفي حالات الازمات الرئيسية كان اجتماع هيئات العمل يعقد عادة في الرقم ١٦٠٠ من بنسلفينيا افينو . ولم يعد « فوغي بوتم » ، مبنى وزارة الخارجية ، نقطة الثقل والارتكاز في اتخاذ القرارات . وخلق استحواذ هاجس فيتنام على الرئيس جونسون جوّ الازمة في البيت الابيض ، ولم يعد مجلس الأمن القومي أكثر من ستار المسرح الخلفي للقرارات التي ترتجل على التو في غداء يوم الثلاثاء في البيت التنفيذي .

اما نيكسون فقد كان ضد سياسة ارتجال القرارات والقرارات بالتراضي ، حتى القرارات في المآدب . أراد ان يعمل مجلس الأمن القومي كهيئة يستند اليها الرئيس ولا يرشح منها شيء ، ولا تمتّ بادنى صلة الى وضع التحرّك الذاتي الحرّ في عملية الأخذ والعطاء السياسي على النحو الذي اتسم به مجلس الأمن القومي في عهد جونسون يوم كان كبار المستشارين يتردّدون على البيت الابيض للقيام بعملية « التحليل المشترك » مع الرئيس باسلوب يغلب عليه الطابع الشخصي المكثّف . لقد اراد نيكسون سيطرة تامة على الجهاز وانقطاعاً كلياً عن الماضي الديمقراطي .

«قرر نيكسون ان يكون عقد الاجتماعات محصوراً في الحد الادنى المطلوب » بحسبما يتذكّر الجنرال الكسندر هايغ الذي عمل نائباً لكيسنجر في هيئة مجلس الأمن القومي

قبل ترقيته في اواخر ١٩٧٢ الى نائب رئيس اركان الجيش ، وفي اواسط ١٩٧٣ ، في اعقاب فضيحة وترغيت ، الى خلافة هالديمان في رئاسة اركان البيت الابيض . ويمضي هايغ في تعليقه على نهج نيكسون : « اراد الرئيس تجنّب ما كان يدعوه بحلول الوفل (كعكة محمّصة) ، وهو اسلوب التقطير البيروقراطي للسياسة الذي يستهدف ان تقتصر الاساءة على اقل عدد من الموظفين. بدل ذلك اراد نيكسون ان يزوده مجلس الأمن القومي بمجموعة من الخيارات تتيح له رؤية الحالات كالضوء منحلاً الى الوانه المتعدّدة » . فيكون على كل دائرة ــ الخارجية والدفاع والمخابرات ــ تزويد مجلس الأمن القومي بتقييمها المستقل والمدروس بأدق عناية ، مقترحة اتجاهات عمل محدّدة . ووجد نيكسون في كيسنجر تلميذاً متحمساً يشاركه الاتجاه النخبوي في العمل السياسي وعدم الثقة بالبيروقراطية.وكان كيسنجر حتى قبل ايامه في فندق بيير مع الرئيس قد ركّز جزءاً غير يسير من اهتمامه على الحاجة الملحّة الى تنقيح بنية مجلس الأمن القومي في التخطيط السياسي . ولقد تميّزت طريقة جونسون في هذا المجال ، بحسب رأي كيسنجر ، « باتساع مستمر للهوّة بين الكفاءة التقنيّة للهيئة التي تتولى الابحاث» وبين«قدرة الزعماء السياسيين الواقعين تحت ضغط الحوادث على الاستيعاب ».وكان المطلوب ، في رأيه ، استبدال « ديبلوماسية الازمات » بطريقة في العمل تستشرف المشكلات قبل ان تصبح عناوين الاخبار ، وتستنبط الحلول الممكنة . وفي رأيـه ان مجلس الأمن القومي يكون « بنك المقاصة » النهائي الذي تصفّى فيه مختلف « الخيارات » قبل رفعها الى الرئيس . وقد تطابق تفكير كيسنجر ونيكسون حول طبيعة مجلس الأمن القومي ومهماته. فوافق الرئيس المنتخب فوراً على خطة مستشاره الرامية الى الحصول على إقصى الفوائد من المجلس . وقد اشتملت هذه الخطة على اعتقادهما المشترك أن مجلس الأمن القومي سيكون المنبر الوحيد لمراجعة وصنع السياسة على أعلى مستوى، كما انها ستحصر الاشراف على تنفيذ السياسة تقريباً بصورة كليّة فيالبيت الابيض . وفوق ذلك كلّه، فالتوكيد سيكون على استبدال سياسة الانفعال بالازمات ورتق فتوقها على نحو افرادي وموزّع ، بتوجه أكثر شمولاً نابع من مفاهيم عامة يوحّد استجابات ومبادرات الولايات المتحدة المتعدّدة في استراتيجية عالمية بعيدة المدى . ويكون دور كيسنجر كمساعد للأمن القومي القيام بمهمة مزدوجة ، اولاهما ، القيام بدور «شرطي السير» في توجيه الخيارات المرفوعة الى مكتب الرئيس او منه الى هيئة مجلس الأمن القومي لاعادة تحليلها ثانية ، وثانيتهما ان يقوم بدور مستشار الرئيس في قضايا السياسة الخارجية كلّما استعان الرئيس بآرائه .

عبّأ كيسنجر ، لمساعدته في اداء دوره المزدوج هذا ، هيئة مكافحة من الخبراء في السياسة الخارجيّة . وكانت الهيئة ، رغم روابط كيسنجر بجامعة يتوافر فيها عدد كبير من الاساتذة الكفاة ، غير مستوردة بالجملة من كامبردج ، بل جاءت مزيجاً

من الامكانات البشرية ذات الخبرات المهنيّة المتنوّعة . فقد استخدم عدداً من المثقفين من خارج ملاك الحكومة ، ولكن معظم الذين استعان بهم كانوا من ضمن اطار البيروقراطية : بعضهم من موظفي البنتاغون ذوي التوجه السياسي وبعض العاملين في وزارة الخارجية من ذوي المراس سواء من الموظفين او المنظّرين او التقنيين ، من بقايا العهود السابقة .

وقد اختارهم كيسنجر لكفاءاتهم لا لمواقعهم السياسيّة — وهي حقيقة ازعجت هالديمان الذي كان يفارقه شعوره بالارتياح كلّما التقى برجال الفكر ، فضلاً عن ارتيابه بكلّ من لم يكن موالياً لنيكسون كلياً .

في تلك الشهور الاولى ، تملّكت العاملين في مجلس الأمن القومي حماسة عارمة مصدرها الفرصة المتاحة لتفحص السياسة الخارجية الاميركية بدقة واصلاحها . وكانت اندفاعاتهم هذه موضع حسد جميع موظفي دوائر الدولة العاملين بحسب طقوس الوظيفة ودوامها الرسمي. وقامت علاقة تفاعل خلاّقة بين الرئيس وجهازه. واوضح كيسنجر ذلك فيما بعد بقوله : « كانت الفكرة تقوم على إشعارهم بانهم يقومون بمهمة فريدة في اهميّتها ، والحصول منهم على وقف النفس على نحو يقارب التّرهّب . واعتقد انه من الانصاف القول اننا نجحنا في ذلك » . وبعد فترة انتقالية تحولت مجموعة الخبراء هذه الى ما اطلق عليها كيسنجر « تنظيم متماسك جداً ومخلص » . ولقد أعاد الاطراء الى كيسنجر عدد ممن عبأهم بقولهم « انك تعمل باشراف كيسنجر ما لم يكن يخطر في البال ان لك القدرة على عمله» ، هذا ما قاله ونستون لورد وهو شخص متعدد الإبداع وسريع الكتابة ، وخريج يال ومعهد فلتشر في القانون والديبلوماسية . وقد انتقل من وزارة الدفاع الى خدمة كيسنجر ثم اصبح بالنتيجة مرافقه في رحلاته السرّية الى بكين وموسكو. قال : « انني اتصور هنري كأنه فنس لمباردي في سعيه الى الكمال» .

ولقد كان انتقال هؤلاء الموظفين من دوائرهم الى مجلس الأمن القومي هجرة فذة . تذكر هلموت سونينفلدت ذلك فيما بعد فقال : « لقد كنت اول من اتى من وزارة الخارجيّة ». وهذا امتياز بات يدعيه لاحقاً عدد لا بأس به من الملتحقين الاوائل بمجلس الأمن القومي. وكان سونينفلدت حينئذ رئيس مخابرات اوروبا الشرقية ودائرة ابحاثها في وزارة الخارجيّة. وبينما كان يحضر مؤتمراً في وست بونت قرأ خبر تعيين صديقه كيسنجر في «النيويورك تايمز» ، فاتصل هاتفياً ليزجي التهاني اليه ، واتفقا على موعد لاحق في ذلك اليوم في نيويورك. وأكّد سونينفلدت لصديقه على الفور انه لا يعتبر لحديثهما قبل أشهر خلت عندما ساقهما التخمين الى توقع تعيين كيسنجر في « منصب روستو » ، اي طابع الزامي، وليس كيسنجر بالتالي ملزماً بأن يعرض عليه العمل في هيئة مجلس الأمن القومي . ولكن كيسنجر اوضح ان رغبته في تولي سونينفلدت شؤون اوروبا انتقلت

الآن من حيّز التمنّي الى حيّز الواقع . فبحثا امكان تقسيم اوروبا ، عند معالجة قضاياها ، الى شرقيّة وغربيّة ، ولكنهما اتفقا على الاحتفاظ بها موضوعاً موحداً . وغادره سونينفلدت بعد ذلك لقضاء عطلته الشتوية في انتيغوا . وعند ايابه اجاب صديقه هنري بالموافقة على العمل معه .

اما الكولونيل الكسندر هايغ فقد جرى الاتصال به في وست بونت حيث كان يزور في مطلع كانون الاول المعهد الذي تخرّج منه في ١٩٤٧ . وتلقى اتصالاً هاتفياً من الجنرال اندرو غود باستر وهو من معارف الرئيس المنتخب القدامى ايام ايزنهاور — نيكسون في البيت الابيض. وكان غود باستر يساهم في وضع مسودة البنية الجديدة لمجلس الأمن القومي على اسس أكثر جدية عندما دعا هايغ الى فندق بيير . ووجد هايغ ان صديقين قديمين قد زكياه هما جوزيف كاليفانو ، وهو من مساعدي جونسون الرئيسيين وقد سبق لهايغ ان عمل بأمرته في البنتاغون ، والدكتور كرايمر الذي عمل مع هايغ في وزارة الدفاع في مطلع الستينات عندما كان الاخير المسؤول المكتبي في الجيش عن برلين والحلف الاطلسي . وكان هايغ ايضاً من قدامى المحاربين في كوريا وفيتنام ويحمل اجازة ماجستير في الشؤون الدولية من جامعة جورج تاون . ويقول هايغ عن لقائه الاول بكيسنجر : « كان يبحث عن رجل عسكري لا يكون ذا ثقافة عسكرية كلاسيكية بل ضابط قتال اولاً ، ثم يتمتع بخلفية سياسية — عسكرية ».ولقد انطبقت على هايغ شروط كيسنجر . واعتقد بادىء ذي بدء أنه سيعمل مستشاراً عسكرياً لمجلس الأمن القومي ولكنّه وجد ان مسؤوليته الاولى تتركز بصورة رئيسيّة على « جمع وتنسيق التقرير الصباحي عن الاوضاع » للرئيس — وهو عبارة عن عشرين صفحة تقريباً ويشتمل على آخر ما جمعته المخابرات عسكرياً وسياسياً عن التطورات في أنحاء العالم خلال الليل .

حاز هايغ بنظاميته المتفوقة ودأبه المتواصل وخبرته المشهودة على مزيد من المسؤوليات فضلاً عن النجوم — اربع منها — التي استقرّت على كتفيه عندما غادر مجلس الأمن القومي في نهاية ولاية نيكسون الاولى . وسرعان ما اصبح يعرف « بكيسنجر » كيسنجر .

وجاء روجر موريس ، وهو شاب يحمل شهادة دكتوراه من هارفرد ، من مجلس الأمن القومي ايام روستو . وقد جرى تعيين كيسنجر له خلال ركوبهما السيارة معاً من مكتب كيسنجر الى البنتاغون . فقد كان موعدهما في الصباح ولكن كيسنجر جاء متأخراً — وهذا نذير بما سيصبح عليه سلوكه في المواعيد في المستقبل — فاقترح على موريس ان يصحبه في السيارة حيث يتاح لهما الحديث وهو في طريقه الى البنتاغون حيث كان موعده التالي مع مجموعة من الجنرالات . ويتذكر موريس الذي كان حينئذ يحمل انطباعاً قاتماً عن نيكسون أن كيسنجر قال له : « اصغي الي. انني اريد احاطة نفسي برجال

صالحين وانا لا اعتبر انك تعمل للرئيس . وكما تعلم فانا كنت اؤيد نلسون روكفلر . انني الآن هنا لأنني اعمل للرئاسة وليس لريتشارد نيكسون شخصياً . فاياً كانت مشاعرك وقناعاتك الايديولوجية بالنسبة لهذا الرجل فانا اطلب اليك تعليقها في الوقت الحاضر . وراقب ما سنعمل » . وقد خلّف كيسنجر في نفس موريس انطباعاً حسناً لا سيما « بسلوكه الجاد المنزه عن السياسة » . وقبل ان تتوقف السيارة في البنتاغون كان موريس يقول : « حسناً لماذا لا أقوم بمحاولة استطلاع خاطفة؟». وذهب لتوّه يستطلع آراء الافراد العاملين في هيئة مجلس الأمن القومي وكان ان علّق مشاعره المضادة لنيكسون — على الاقل حتى حملة كامبوديا في ربيع ١٩٧٠ .

اما بالنسبة لمورتون هالبرن فقد اتاه العرض ليعمل في هيئة مجلس الأمن القومي مباشرة بعد استضافته محاضراً في آخر دورة دراسية عقدها كيسنجر في هارفرد . وكان ذلك في ١٦ كانون الأول وقد وصل كيسنجر متأخراً عشرين دقيقة عن الحلقة الدراسية . قدّم كيسنجر هالبرن الذي كان حينئذ في الثلاثين من عمره واستاذاً سابقاً في هارفرد. كان يحاضر بانتظام في هذه الحلقة قبل ذهابه الى واشنطن ليشغل منصب مساعد نائب وزير الدفاع لشؤون الأمن الدولي . وحاضر هالبرن في الأمن الاسيوي بعد فيتنام . وكان كيسنجر يرتشف الماء وينظف نظارتيه ويسجّل ملاحظات في دفتر اصفر . ثم قام بدور المناظر الخصم متحدياً عدداً من احكام هالبرن . وما ان انصرف طلاب صف الخريجين ، حتى كان كيسنجر يعرض على زميله الانضمام اليه في مجلس الأمن القومي . ورغم ان هالبرن كان ضد نيكسون وضد حرب فيتنام الا انه وافق ، منتقلاً من البنتاغون الى فندق بيير ليبدأ العمل في موضوع فيتنام والقوات الاستراتيجيّة .

وحصل لورنس ايغلبرغر ، وهو موظف ممتهن في وزارة الخارجية ، على منصبه مع كيسنجر بواسطة صديق مشترك هو فرانيس باتور الذي عمل سابقاً في هيئة مجلس الأمن القومي في عهد جونسون وغدا الآن في عمدة هارفرد . وبناء على تزكية باتور ، دعا كيسنجر ايغلبرغر الى لقاء . وكان بين اوراق اعتماد ايغلبرغر عمله في مهمة محدّدة مع والت روستو في اوسط الستينات وخبرة عبر البحار في مراكز متنوعة كبلغراد وتيغوسيغالبا . وصادف ان مكتب الرئيس المنتخب طلب من وزارة الخارجية تزويدها بموظف من الكادر يلحق بالمقرّ في فندق بيير ليعالج أمر البريد الديبلوماسي المتدفّق . واختير ايغلبرغر ووافق هالديمان الذي كان حينئذ رئيس اركان نيكسون ، على الاختيار. وثبّت كسنجر التعيين . وفي اواسط كانون الاوّل كان ايغلبرغر قد بدأ العمل معالجاً كل شيء من بنية مجلس الأمن القومي الى الزوار الاجانب التواقين الى مقابلة الرئيس المنتخب.

وطلب الى لورنس لين، وهو حائز على شهادة دكتوراه من جامعة ييل، وفي مطلع الثلاثين من عمره، ان ينتقل من منصب نائب مساعد وزير الدفاع الى هيئة مجلس الأمن

القومي . وبناء على تزكية هالبرن تم لقاء كيسنجر ولين . وكان البروفسور السابق يعالج عمله بوقف نفس مميّز ، فقال ان الحكومة العتيدة تريد أن تقوم بمراجعة شاملة للسياسة الدفاعية العسكرية والاستراتيجية : فهل يرئس لين هذا الدرس ؟ واراد كيسنجر ايضاً من لين ان يدير دراسات في علاقات الولايات المتحدة بعدد كبير من البلاد . فطلب لين بعض الوقت حتى يقلب الامر على وجوهه. « فكّر اسبوعاً » ، قال كيسنجر مردداً صدى اقتراح نيكسون له قبل بضعة اسابيع . ودقق لين الموضوع مع عدد من الاصدقاء . ولكن واحداً فقط من اثني عشر صديقاً نصحه بقبول العرض . اما الباقون فحذّروه من العمل مع كيسنجر الذي هو في رأيهم « رجل يستحيل العمل معه » . وهذا المستثنى بين اصدقائه كان ماكنمارا الذي اشار الى كيسنجر بانه « رجل ذو مقدرة غير اعتيادية قد يكون مصدر قوة هائلة لحكومة نيكسون » . وانضمّ لين الى الهيئة المتوسعة لمجلس الأمن القومي في اواخر كانون الاول .

اما دانيال دايفدسون الذي كان قابل كيسنجر في ١٩٦٦ فجرى ضمّه الى العاملين في مجلس الأمن القومي بينما كان طريح الفراش تنتابه الحمى وقد بلغت درجة حرارته ١٠٣ (فرنيهيت) . وكان قد عاد لتوّه من باريس حيث كان واحداً من فريق السفير هاريمان في مفاوضات السلام وكان يبحث عن تعيين لمنصب جديد . فاتصل هاتفياً بكيسنجر ، وتكلّل ذلك اليوم الميمون بالنجاح. ففي يوم الجمعة، ٢٩ تشرين الثاني، اسرّ كيسنجر له بانه سيعلم الرئيس المنتخب قريباً بقبول المنصب المعروض عليه في مجلس الأمن القومي . وفي اليوم التالي عندما نشرت « النيويورك تايمز » الخبر ، اعاد كيسنجر الاتصال بدايفدسون وبذلك تم ملء منصب آخر في هيئة المجلس. فما أن أبلّ دايفدسون من الأنفلوانزا حتى تسلّم مكتبه في هيئة مجلس الأمن القومي .

وبين الذين انضموا الى العمل في هذه المؤسسة في الاشهر الأولى فيرون ب . فاكي الذي كان يشغل حينئذ منصب المساعد بالوكالة لوزير الخارجية لشؤون اميركا اللاتينية وقد مضى عليه أكثر من عشرين سنة من الخدمة في وزارة الخارجية ؛ وجون هولدريدج وهو موظف ممتهن يتكلم الصينية وقد عمل في القنصلية الاميركية العامة في هونغ كونغ واماكن أخرى في جنوبي شرقي اسيا ؛ وريتشارد سنيدر وهو ايضاً من قدامى العاملين في الشؤون الاسيوية ويعتبر في طليعة خبراء وزارة الخارجيّة بشؤون اليابان . وقد ترأس هؤلاء على التوالي الادارات التابعة لمجلس الأمن القومي في شؤون اميركا اللاتينية والصين وآسيا . وانضم ريتشارد مور الذي عمل في هيئة مساعدي روستو في مجلس الأمن القومي الى فريق كيسنجر في المؤسسة نفسها ليشرف على دفق المراسلات والشؤون المكتبيّة . واضاف وليم واتز الى فريق كيسنجر خبرته كموظف سابق في السلك الخارجي وخبرته في هذا المجال في موسكو ، وكان يعمل في هيئة مساعدي روكفلر في نيويورك

متخصصاً بشؤون المدينة . وجاء و. انطوني لايك ، الذي كان حينئذ موظفاً في السلك الديبلوماسي، من برنستون حيث كان يقضي عطلته ليوقع عقد وظيفة المساعد الخاص لمساعد الرئيس .

كان ما يجري له طابع التألب العام حول ما اعتبره هؤلاء جميعاً فرصة جديدة لسياسة الولايات المتحدة الخارجيّة . ولكانت تعقد الدهشة ألسنتهم لو أن احدهم اشار يومها الى أن بعض المنضمين الى الهيئة الجديدة سيتركونها خلال عام او أقل — لاسباب تتراوح بين رفض نزعة كيسنجر للاستبداد واسلوبه في العمل السرّي ، والنفور من تحركات الولايات المتحدة في كامبوديا .

وجرى تقسيم العاملين في هيئة مجلس الأمن القومي الى هيئات متفرعة صغرى : « مكتب الواجهة » ويضم ستة من المعاونين المقرّبين ، ومركز الازمات ، وفريق التخطيط وفصيل الابحاث ، وقسم التحليل ، فضلاً عن خبراء في شؤون اميركا اللاتينيّة واوروبا وشرقي آسيا والشرق الادنى وجنوبي آسيا ، وافريقيا ، والامم المتحدة ، والشؤون الاقتصادية الدولية والشؤون العلمية .

وكان في طليعة مهمّات الهيئة واخطرها الاشراف على دراسات تشمل افقاً واسعاً من المشكلات السياسية . ويبدأ بالدراسة عادة فريق يضم ممثلين عن مختلف الدوائر . ويرئسه مساعد وزير الخارجيّة المختص بالمنطقة قيد البحث — اوروبا ، افريقيا ، اميركا اللاتينية الخ. — ويشمل الفريق مساعدي وزراء الدفاع والتجارة والمال والدوائر الأخرى ذات العلاقة ، او من ينيبون عنهم ، واحد اعضاء هيئة مجلس الأمن القومي الذي يتولى مهمة التثبت من أنه قد جرت مراجعة كل الخيارات ثم يقدّم حصيلة الدرس الى كيسنجر.

وليس لهذا الفريق ان يقدم توصية ثابتة ، ذلك بأن مهمته هي عرض مجموعة واسعة من الخيارات على مجلس الأمن القومي للدرس . وهذه الخيارات يجري فيما بعد ايضاحها او صقلها من قبل هيئة مجلس الأمن القومي قبل عرضها على فريق المراجعات الاعلى الذي يرئسه كيسنجر ويتألف من وكيل وزير الخارجية، ونائب وزير الدفاع ، ومدير وكالة المخابرات المركزية، ورئيس هيئة رؤساء الاركان المشتركة، او من ينوب عن هؤلاء ، وذلك وفقاً للموضوع الذي في قيد الدرس. وتكون مسؤولية فريق المراجعات الأعلى التثبت من أن « جميع البدائل الواقعيّة » قد عرضت على الرئيس . وعلى اي حال ، اذا لم يجد كيسنجر بديلاً معيّناً يحوز شروط الواقعيّة — وهـذا تعبير يمكن تحديـده بطرق لا حدّ لها — فلا يمكن عبوره باب الرئيس . عند هذا الحدّ ، ترفع هذه « البدائـل » بصورة رسمية الى الرئيس والى الاعضاء الآخرين الثابتين في هيئة مجلس الأمن القومي ، ويتولى كيسنجر عرض الخيارات المتنوّعة . ويوضح كيسنجر طريقة العمل بقوله : « ان الأمر كله يبحث في مجلس الأمن القومي بينما الرئيس يقلّب الأمر في رأسه . وهكذا

يصيب الجميع من القضية نصيباً . والرئيس يرغب في ان ترفع اليه البدائل خطياً بحيث يتولى تقليبها واستيعابها واتخاذ القرار لنفسه » .

وبعد أن يتخذ القرار على المستوى الرئاسي يعاد الى كيسنجر الذي يتولى بدوره عرضه على لجنة مساعدي الوزراء المختصين التي يتولى رئاستها مساعد وزير الخارجية وتضم نائب وزير الدفاع ، ورئيس هيئة رؤساء الاركان المشتركة ، ومدير وكالة المخابرات المركزية ، وكيسنجر . وعلى هذا الفريق ان يتولى تنفيذ القرار ، الذي يكون وضعه موضع التنفيذ أصعب أحياناً من اتخاذه . « الناس في الخارج يعتقدون ان الأمر الرئاسي ما أن يصدر حتى ينفذ حالاً »، قال كيسنجر موضحاً : « هذا هراء. ذلك انني امضي وقتاً غير قليل في متابعة التنفيذ حتى يأتي بالروحيّة التي قصدها الرئيس » .

ومنذ البداية كان لكيسنجر سلطان اوسع كثيراً مما كان لبندي او روستو . ان أمر نيكسون الاداري الاول في اعادة بناء مجلس الأمن القومي قد وضع كامل السلطات البيروقراطية في حقلي السياسة الخارجية والدفاعية بين ايدي كيسنجر . ولقد جرّد هذا الأمر وزير الخارجية من صلاحيات كانت له في الادارات السابقة ، ولكن وليم روجرز وزير الخارجية لم يثر في البدء اي اعتراض ، وعندما ثار لصلاحياته المسلوبة فيما بعد ، كان القطار قد فاته .

وعلاوة على سيطرة كيسنجر على عملية جمع الخيارات الى الرئيس فقد تسلـم مسؤولية عدد من اللجان المشكّلة من مختلف الدوائر . وكلّما نشبت ازمة ، جرت اضافة لجان جديدة ذات صلاحيات قوية الى اللائحة . وكان كيسنجر يتصرّف ، كما عبّر ذات مرّة : « كمدير تنفيذي ومهماز للعمل » .

وسعت لجنة مراجعة البرنامج الدفاعي الى جعـل الموازنة متوافقة مع اهداف الحكومة في السياسة الخارجية. وان حجم موازنة الدفاع — وهي ،مثلاً ، خمسة وثمانون بليون دولار للسنة المالية ١٩٧٤ — يقدّم مفتاحاً لمقدار أهمية هذه اللجنة التي يرئسها كيسنجر .

تضع لجنة المخابرات سياسة عامة لجميع اجهزة المخابرات — المخابرات المركزيّة ووكالة الأمن القومي ووكالة مخابرات الدفاع وسواها من الاجهزة — ويرئس كيسنجر هذه اللجنة ايضاً .

ان « لجنة الاربعين » ، المعروفة بهذا الاسم وفق القرار الرئاسي بانشائها ، تعالج حصراً عمليات المخابرات الاميركية السرّية ، ويرئسها هي ايضاً ، كيسنجر .

إن فريق واشنطن للعمليات الخاصة أعلى هيئة لمعالجة الازمات . وقد انشىء في نيسان ١٩٦٩ عقب ازمة رئيسيّة هي اسقاط كوريا الشمالية لطائرة تجسّس اميركية . وهذه الهيئة يرئسها ايضاً كيسنجر . اما هيئة التدقيق والتثبت التي انشئت في تموز ١٩٦٩ فهي « مركز عمليات » البيت الابيض للتدقيق في تفاصيل المفاوضات مع الاتحاد السوفياتي

حول انتشار الاسلحة النووية ومراقبتها ، وهي برئاسة كيسنجر ايضاً ، وغالباً ما تضمّ هذه اللجان المتنوعة الاعضاء انفسهم ، الاّ ان اسماءها تتبدل بحسب الاهداف المقصودة. غير انه يندر اتخاذ قرار في السياسة الخارجية دون المرور بهذا النظام المتقن . وخلاصة الأمر انه ما دام كيسنجر قابضاً على هذا النظام فهو يقبض عملياً على عملية اتخاذ القرارات. « فالكلّ مسؤول امام كيسنجر وكيسنجر مسؤول ازاء الرئيس » هذه هي الخلاصة البارعة الايجاز لاسلوب عمل مجلس الأمن القومي منذ قيامه على هذا النحو .

وهذا التوجيه الجديد لمجلس الأمن القومي – بحسب رؤية الرئيس وتنفيذ كيسنجر – كان على حساب جهازين توليا تقليدياً صنع السياسة الخارجية، هما وزارة الخارجية والدفاع اللتان ارتفعت صيحاتهما بالاعتراض عالياً على عملية سلب سلطاتهما . كان اول عمل قام به هنري كيسنجر عند ولوجه مكتبه في الطابق الارضي من البيت الابيض في ٢٠ كانون الثاني ١٩٦٩ ، أن أمطر البيروقراطية الرازحة تحت وطأة عملية انتقال السلطة من جونسون الى نيكسون بوابل من الاسئلة بلغت الخمسين . والادهى أن العديد من هذه الاسئلة كان مصحوباً بحد زمني للإجابة عنه ، غير معقول . فقد اراد كيسنجر خلال شهر او أقل الحصول على اجوبة تفصيلية من دوائر الخارجيّة والدفاع ووكالة المخابرات المركزية والتجارة والمالية ومكتب الموازنة عن اسئلة كهذه : ما هي اوضاع العلاقات الاميركية بالصين ؟ بالاتحاد السوفياتي ؟ بالهند وشطري فيتنام واندونيسيا؟ هل الاتحاد السوفياتي والصين متجهان نحو الحرب؟ ومضت اللائحة الطويلة بطرح الاسئلة التي لا حدّ لها . وارتفع التبرّم والشكوى وشاعت عبارة « من تراه ، بحق جهنّم ، يعتبر نفسه ؟ » بين اروقة البيروقراطية .

وكان كيسنجر مدركاً ان لائحته الطويلة هي « عبء ثقيل » دون ريب ، ولكن كما قال لمجموعة من مراسلي البيت الابيض في ٦ شباط : « ان مردودها سيكون كبيراً خلال الاشهر الآتية بينما نحن نعكف على اتخاذ القرارات » . وتابع كيسنجر قوله مشيراً الى أن الفكرة لم تكن من عندياته بل هي من بنات افكار الرئيس . فقد قرر نيكسون « ان تجري مراجعة سنوية للحالة الدولية مشابهة للمراجعة الاقتصادية التي يقوم بانجازها للكونغرس » ، اي التوصل الى نظرة شاملة « لموقع الولايات المتحدة والى اين تسير » . وكانت مقرراً في الاصل خلاصة سنوية تصدر في مطلع ١٩٧٠ غير ان الرئيس تساءل ما اذا كان الافضل ان نتزوّد بمعرفة « ما تسلمناه في مطلع الولاية ... وكيف كانت الحالة الدولية في ٢٠ كانون الثاني ١٩٦٩ » .

وقد اعتبر كيسنجر اقتراح الرئيس أمراً . واوضح للبيروقراطيين انه لا يريد منهم توصيات سياسية بل حقائق خاماً : « علاقات هادية نستطيع ضرب توصياتنا على محكّها» . وقد امتعضت من هذا العبء أكثر ما يكون وزارة الخارجية . وشكا الموظفون هناك

من أن كيسنجر انما يريد « تشغيلهم » . وارتفعت شكواهم واصبحت جزءاً من ظاهرة عندما ادركوا انهم اخذوا يعزلون عن عملية اتخاذ القرارات من قبل هيئة صغرى ذات مركزية متشدّدة في البيت الابيض . وقرروا ان يردّوا الكيل كيلين .

قاد حملة رفض « فوغي بوتم » – مقر وزارة الخارجيّة – وكيل وزارة الخارجية اليوت ريتشاردسون وهو النائب العام السابق لولاية ماساشوستيس يؤازره جوناثان مور ، وهو متخصص بالسياسة الخارجية وكان احد نواب ريتشاردسون، فضلاً عن انه صديق قديم لكيسنجر . وقام مور بتذكير كيسنجر انه لاشهر قليلة خلت تحدث في هارفرد بعطف عن مشروع لعمل مجلس الأمن القومي مختلف اختلافاً بيّناً عما هو حاصل الآن . وكان ذلك المشروع من إعداد مور في دراسات مؤسسة السياسة ، وقد اعتبر ذلك المشروع وزارة الخارجية الهيئة المنسّقة بينما مجلس الأمن القومي المنبر المفتوح الذي تتشارك على منصته جميع الدوائر في نيل نصيبها العادل من التأثير في قرار الرئيس النهائي . وفي رأيي مور ان مجلس الأمن القومي غدا اليوم له طابع مختلف كلياً الا وهو طابع الرجل الواحد .

ونافح ريتشاردسون بضراوة عن مشروع مور او على الأقل دعا لنسخة معدّلة عنه . خسر الرهان . فحاول بعد ذلك ان يعدّل نظام كيسنجر لتعزيز دور الوزارة ، مقترحاً ان يتولى هو الاشراف على فريق المراجعات الاعلى ولكنه خسر هذه المناوشة ايضاً . وعندها اخذ يعدّد فيما بعد حسابات الربح والخسارة ويقيّم انتصاراته وهزائمه فوجد ان هزائمه بلغت ضعفي انتصاراته وان هذه لم تكن الاّ جزئيّة . « كان عند كيسنجر ميل الى السيطرة ولكنني اعتقد اننا توصلنا الى اتفاق في مطلع الأمر وسارت الأمور في مجاريها الطبيعية سيراً حسناً » ، هكذا لخّص ريتشاردسون الموقف، لاحقاً، محرفاً الوقائع وطامساً الحقائق . وكان ريتشاردسون قد نظّم بمساعدة مور غداءً اسبوعياً مع كيسنجر بات هو وسيلة الاتصال الوحيدة بين وزارة الخارجيّة والبيت الابيض . ولقد توصل ريتشاردسون وكيسنجر الى انجاز العديد من الاعمال على مائدة الطعام ونمت بينهما رابطة شخصية ومهنيّة غدت موضع امتعاض روجرز . وعندما جرى تعيين ريتشاردسون وزيراً للصحة والتربية والخدمات الاجتماعية في حزيران ١٩٧٠ تباطأ روجرز عن قصد شهوراً عدّة قبل ملء مركزه الشاغر . وسرى اعتقاد ان روجرز يريد اعلام كيسنجر بأن ريتشاردسون بضاعة مستهلكة يستغنى عنها. وكان ذلك ظاهرة تبجح غير مفيدة . ولقد عانت خلال ذلك الوزارة كما عانت علاقات روجرز المتداعية مع كيسنجر، حتى ان الرجلين وصلا الى حدّ لم يعد احدهما يكلّم الآخر الاّ بتكلّف شديد . وكان كيسنجر يسخر في محيطه الخاص ، وبين اقرب معاونيه ، من روجرز . بينما اخذ روجرز يقلّل من انجازات كيسنجر ، كذلك بين اقرب معاونيه . وحافظ الطرفان على المظاهر .

راهن روجرز رهاناً خاسراً على صداقته القديمة مع نيكسون مفترضاً انها دوماً تكون في خدمة صيانة هيبته – وهيبة الوزارة – وتبديد اي دسيسة بيروقراطية تستهدف تقليص صلاحياته في الحكم . وبعد ان انقشع غبار المعركة تبيّن لريتشاردسون ومور معاً ، في تقييم لاحق لما حدث ، ان كيسنجر لم يكن يصدر اوامره الخاصة لينشىء قاعدة نفوذ شخصي بل كان ينفّذ تعليمات الرئيس . واوضح مور ذلك بقوله : « ما ان عيّن الرئيس هنري وروجرز حتّى بدا ان بامكان المرء تبيّن قاعدة تفرض نفسها بالحاح على كيفية تصرّف نيكسون. فقد اراد الرئيس ان يكون هو وزير خارجية نفسه ، لذلك عيّن افضل من يؤدي دور وزير الخارجية الواجهة – صديقاً قديماً ، موثوقاً ، وليس محترفاً – ثم عيّن افضل عقل في السياسة الخارجية ليعمل حصراً له . وهذا كان منطقياً تماماً » .

وردّد ريتشاردسون تقريباً الفكرة نفسها : « كلّما كنت اشاهد الرئيس وكيسنجر يعالجان مواضيع السياسة الخارجيّة يزداد يقيني بان البنية الراهنة لمجلس الأمن القومي هي على حالها بتوجيهات الرئيس وليس لأن هنري خطط لها ان تكون كذلك » .

أمّا علاقات كيسنجر بوزير الدفاع ليرد فقد كانت مختلفة كلياً . فرغم انه لم تنشب بين رجلين خلافات حادة الا ان كلاً منهما كان يكنّ للآخر الاحترام المتبادل . وكانا قد التقيا أول مرّة في ١٩٦٤ في المؤتمر الجمهوري عندما كان ليرد يدير لجنة البرنامج الحزبي وكان كيسنجر احد مستشاري اللجنة في السياسة الخارجيّة. واعجب يومها ليرد بموقف كيسنجر المتصلّب ضد الشيوعيّة ، كما اعجب كيسنجر بحسّ ليرد العملي في السياسة. شغل ليرد طوال ستة عشر عاماً مقعداً في الكونغرس عن وسكونسن وبات قوة يُحسب لها حساب في « كابيتول هيل » وكان يطمح الى تزعم الاقلية في الكونغرس عندما عرض عليه نيكسون منصباً في البنتاغون . وخلافاً لروجرز الذي قاتل كيسنجر وخسر ، فان ليرد حارب كيسنجر بضراوة وكرامة. فقد اختلفا على فيتنام وعلى اكلاف الاسلحة وعلى جوانب من حرب الهند وباكستان في ١٩٧١ . وتقاتلا « كنمرين شرسين » بحسب وصف دانيال. ز. هنكن الذي كان حينئذ الناطق الرسمي في البنتاغون ، ولكن لم يغلب احدهما الآخر ، وكانا ينسحبان دوماً من المعركة وكرامتهما موفورة واحترامهما المتبادل محفوظ . وكان المستشار الرئاسي يذهب مرة او مرتين في الشهر لتناول الفطور في البنتاغون مع ليرد بينما لم يكن يكسر خبزاً مع روجرز .

اما جنرالات البنتاغون الذين كانوا في السابق يشتكون الى حلفائهم في الكونغرس من نظام هنري في الاشراف على كل المعلومات فلم يلبثوا ان توصلوا الى خلاصة وهي أن هذا ما يريده القائد الاعلى وليس كيسنجر سوى منفّذ لرغبة الرئيس. ويقول كيسنجر في هذا الموقف : « ان خبرتي بالعسكريين جعلتني اتوصل الى اقتناع بانهم اقرب من

اية فئة أخرى الى قبول قرارات لا تعجبهم » . ومن الواضح ان كيسنجر هنا لم يحسن تقدير امكانات البنتاغون في اقتناص أكثر المعلومات سرّية من البيت الابيض . ففي مطلع ١٩٧٠ وبعد مرور عام على سياسة نيكسون – كيسنجر الشديدة التكتّم ، زرع قادة البنتاغون احد رجال البحريّة في وحدة ضباط الاتصال بمجلس الأمن القومي مكلّفاً باختلاس الوثائق التي يحصر الاطلاع عليها بالعين والمتعلقة بمواضيع حسّاسة كفيتنام والصين ومفاوضات الحدّ من انتشار الاسلحة الاستراتيجية ليذهب بهذه الوثائق الى البنتاغون . وقد استمر هذا الاسلوب من العمل السرّي حتى نهاية ١٩٧١ .

اشار كيسنجر في دفاعه عن تمركز السلطة في مجلس الأمن القومي الى ان ذلك تمّ بحسب رغبة الرئيس ، واوضح ان للرئيس « افكاراً قويّة في التنظيم » ، وان الرئيس هو الذي لم يرد ان يرئس وكيل وزارة الخارجية فريق المراجعات الاعلى . ذلك ان ترك هذه المسؤولية في عهدة كيسنجر من شأنه تبسيط الامور وتجنّب الحاجة الى رفض بعض المقررات . لقد اراد الرئيس ان تكون السلطات في يد مستشاره الخاص في السياسة الخارجية المسؤول مباشرة امامه . « اما انا » ، يقول كيسنجر ، «فقد كنت حيادياً في موضوع التنظيم لأنني رأيت ان بامكان الرئيس تسيير الدفة اياً كان التنظيم المعتمد » .

ورغم ان كيسنجر وشّى دفاعه عن كيفية عمل مجلس الأمن القومي بامتداح مساهمة الدوائر الاخرى الاّ ان مشاعره الاصيلة منذ البدء كانت تتجه الى احتقار الجهاز البيروقراطي كلّه . ففي ١٩٧٢ قال : « ان في وزارة الخارجية عشرين الف موظف وفي وزارة الدفاع خمسين ألفاً ، وكل من هؤلاء يحتاج الى استئذان الآخر حتى يتحرّك ، وكلهم يريد ان يتولى القيام بما انا مكلف بعمله . وتغدو المشكلة في كيفيّة حملهم على نقل ورقة من مكان الى آخر ، وتدوير عجلاتهم حتّى ينجز العمل المطلوب».

ان هذا الموقف الذي يرشح من كياسته الشفافة شعور عارم بالتفوّق ، كان موضع قلق العديد من الناس الذين اعتبروا ان السياسة الخارجيّة موضع اهتمام عام ولا يمكن ان تكون ملكاً شخصياً لنخبة من مجموعات المتخصصين . واظهر السناتور وليم . ج. فولبرايت رئيس لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ انزعاجه منذ ١٩٦٩ من فكرة انتزاع مجلس أمن قومي متمتع بكافة السلطات « مسائل مهمّة جداً من ايدي الوكالات والاجهزة التقليديّة التي كانت بمعظمها تشعر بالمسؤولية ازاء الكونغرس » ، بينما ليس بامكان الكونغرس ، والحالة هذه ، محاسبة كيسنجر واعتباره مسؤولاً تجاهه .

ولاحقاً ، في ١٩٧٠ ، اعترض السناتور ستوارت سيمنتون على طلب كيسنجر التحصّن بالامتيازات التنفيذيّة كلما استدعي للشهادة في كابيتول هيل . وقال سيمنتون منتقداً « انه وزير الخارجية الفعلي في كل المجالات خلا اللقب » ، ومع ذلك فهو معفى من تدقيق الكونغرس .

وحاول كيسنجر طمس هذا الانتقاد المبكر بالتقليل من دوره الشخصي والسخرية من نفسه. قال لفريق من المراسلين الصحفيين: «انا لا اعتقد انني استطيع بسبعة افراد السيطرة على وزارتي الخارجيّة والدفاع» .

وفي المجالات الأكثر جداً ، كان يصرّ على ان الرئيس ، لا هو ، يتخذ القرارات. فرغم انه ، كرئيس مجلس الأمن القومي ، كان يضع الخيارات الاخيرة امام الرئيس ، فقد اصرّ على انه لم يكن ليسمح لافضلياته ان تتدخل للتأثير في عرضه الموضوعي لكل الخيارات المحتملة . وكان يردد «ليس ثمة شيء اسمه سياسة كيسنجر في المواضيع الجوهرية. ان مهمتي هي عرض المدى الكامل لخيارات السياسة للرئيس . ولو أن ثمة «سياسة كيسنجر» لكان من المفروض الاطاحة بكل التنظيم الراهن الذي يعمل بموجبه مجلس الأمن القومي – فضلاً عن العلاقات بين الولايات الحكومية المختلفة» .

وبينما كان يعتبر ان امرأ في وضعه اذا ما اقدم على رعاية سياساته الخاصة دون التدرّع بموافقة الرئيس يكون كمن يقدم على عملية انتحارية ، الاّ ان كيسنجر لم يكن من ناحية ثانية، «مجرد وسيط لعرض الخيارات». «عندما يبادرني الرئيس في نهاية اليوم قائلاً : حسناً يا هنري لقد عرضت عليّ جميع الخيارات فزوّدني الآن بما تراه مناسباً ، عندها اقول له دون تردّد ، ما اعتقد انه الأصلح . ولكنني لا احاول الالحاح عليه لتبني اية فكرة . وعلى اي حال فليس الرئيس بالرجل الذي يشجع حصول مثل هذا الالحاف» .

ولكن لم يكن ثمة حاجة لعملية الالحاف والتطبيق هذه ، ذلك ان الرئيس وكيسنجر كانا يشتركان منذ البدء في نظرة واحدة الى العالم تأكّدت خلال عملهما المشترك الحميم منذ أن تسلّم الرئيس صلاحياته الدستوريّة . وكان كيسنجر يعلم ، بالبداهة ، ان بامكانه السيطرة على البيروقراطية – وبالتالي المساهمة في اعادة تنظم السياسة الاميركية – ما دام انه لا يميّز نفسه من الرئيس وسياساته .

وكان يتعامل مع الرئيس باحترام كلّي ، ساعياً لمحو الصورة السابقة السائدة قبل بضعة أشهر ، عندما كان يصرّح بانتقاداته العلنية لنيكسون . ولم تكن عملية اخضاع ذاتيته المشهورة لنيكسون بالأمر السهل . فقد كان يتطلب الحصافة والعقل والاتصالات والصلابة في العمل وفيض من الأفكار العمليّة .

وغالباً في نهاية يوم من ايام كانون او شباط بعد ان يغادر معظم موظفي البيت الأبيض مكاتبهم الى بيوتهم كان كيسنجر يتوجه الى مكتب الرئيس متذرعاً بتدقيق بعض التفاصيل معه . ولا تستغرق عملية التدقيق هذه وقتاً طويلاً ثم يأخذ الرجلان بخوض الاحاديث في شتى الأمور الأخرى واحياناً يستغرقان ساعات طويلة في حديثهما المستفيض . ويقول كيسنجر «بنتيجة الأمر فقد كنت احد القلائل الذين يستطيع الرئيس

محادثتهم ويعتبرهم انداداً له في المعرفة» . واحياناً يسير الهوينا الى مكتب ه. ر. هالديمان أو رونالد زيغلر، الناطق بلسان البيت الابيض الجديد، ويصغي الى الحديث بعض الوقت. وبينما الرئيس ومستشاره يرسمان المجرى المستقبلي للديبلوماسية الاميركية ، كانا يتندّران بطرائف رحلاتهما وخبراتهما السياسيّة وانطباعاتهما عن قادة العالم : خروشوف و«مشادة المطبخ» ، ديغول ، فيتنام ، الحلف الاطلسي ، الصين ، السنتو ، الفارق بين الدولتين العظميين في الرؤوس النووية ، بريجنيف ، الازمة الكوبيّة . وكانا يتشاركان في آراء متشابهة حول العالم ودور اميركا المتغيّر فيه . وكان كيسنجر يعطي الأمور بعدها الفلسفي بينما يعالجها نيكسون ببعدها السياسي . فكان الأول يحك المشكلة بمعايير معرفته النظرية الواسعة بينما كان اتجاه نيكسون الغريزي هو اتجاه المحارب الشجاع الذي عاد بجراح ثخينة من معاركه السياسيّة . غير ان تقدير حوادث الستينات المضطربة قادتهما الى ادراك ان ايام مسؤوليات اميركا العالمية قد انطوت . وقال كيسنجر لفريق من اصدقاء الرئيس في ١٩٦٩ «ايّاً كان الرئيس الذي يأتي الى البيت الابيض فان عليه اعادة تقييم الفرضيات التي ارسيت عليها سياستنا»، وكان على حكومة نيكسون ان «ترئس بدايات مرحلة جديدة من السياسة الخارجية في الفترة نفسها التي تتولى فيها تصفية احدى معالم السياسة الاميركية السابقة»، وكان بذلك يشير الى فيتنام ، ويضيف «بالنتيجة فان بعض اسباب دخول الحرب يعود الى النظرية القائلة بان العدوان اينما حصل، يفرض علينا مهمة التصدّي له». واتفق الرجلان على ان وجهة النظر هذه قد انطوى عهدها . ان فيتنام على اهميتها لم تكن بالسبب الوحيد الداعي الى التغيير . فقد استعادت اوروبا الغربيّة حيويتها – وهي حقيقة تبدّت لكيسنجر قبل ثماني سنوات وسعى لحمل كينيدي على تبنيها . والأمر نفسه ينطبق على اليابان بحيث آن الأوان ان تتخلى الولايات المتحدة عن اتجاهها الابوي ازاء هذه المناطق لتجد اساساً جديداً للتعامل معها . والعالم الشيوعي ، كذلك ، تبدّل تبدلاً عميقاً بحيث لم يعد الاتحاد السوفياتي والصين يمثلان خطراً واحداً بل خطرين مختلفين .

غير انه بالنسبة لكيسنجر، وهو الاستراتجي النووي ، كان أبرز تغيير في السنوات الاخيرة هذا الاختلال الجذري في توازن القوة العسكرية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي . فقد ادرك ان السبب الاوحد الذي مكّن الولايات المتحدة من تحمّل اعباء الدفاع عن مجموع العالم غير الشيوعي بين ١٩٤٥ ومطلع ١٩٦٠ كان امتلاكها تفوقاً استراتجياً . ولقد كانت هذه الحقيقة ، لا جاذبية كينيدي الشخصية، هي التي ارغمت خروشوف على سحب الرؤوس النووية السوفياتية من كوبا في ١٩٦٢ . ان الاهمية التاريخية لازمة الصواريخ تكمن في انها دفعت الاتحاد السوفياتي الى انتهاج برنامج اللحاق بالولايات المتحدة على نطاق موسع في انتاج الصواريخ والرؤوس النووية.

وهكذا فقد واجه الرئيس نيكسون في ١٩٦٩ حالة جديدة كلياً عندما اعاد تقييم التزامات الولايات المتحدة، واسس بنية مجلس الأمن القومي على اسس جديدة .

ان نظام مجلس الأمن القومي المعقد وضع باكراً موضع الامتحان. فبعد منتصف ليلة ١٥ نيسان ١٩٦٩ بلغ البنتاغون نبأ اسقاط طائرة تجسس اميركية من طراز اي سي ١٢١ وعلى متنها ثلاثون رجلاً ، في بحر اليابان مع ترجيح ان الكوريين الشماليين هم الذين اسقطوها . وفي الساعة الواحدة وخمس دقائق صباحاً أعلم البنتاغون غرفة الحالات الطارئة في مجلس الأمن القومي بالحادث. وبعد دقيقتين اتصل الضابط المناوب بهايغ وأعلمه بالنبأ . وبعد اربع دقائق اتصل هايغ بكيسنجر .

في ادارة جونسون كان رد الفعل الفوري لروستو ان يعلم الرئيس . بينما في ادارة نيكسون انتظر كيسنجر حتّى حصل على تقرير أكثر تفصيلاً . وفي الثانية والدقيقة الخامسة والعشرين اتصل البنتاغون بكيسنجر ليقول ان كوريا الشمالية ادعت مسؤوليتها عن اسقاط الطائرة . وحتّى الان لم يزعج كيسنجر الرئيس بل طلب معلومات عن عمليات الانقاذ وخطط الطوارىء العسكريّة . في الرابعة صباحاً أكّد البنتاغون ان الطائرة قد اسقطتها كوريا الشمالية . عندها فقط اتصل كيسنجر بالرئيس وأعلمه بالحادثة .

« هل مطلوب مني ان افعل اي شيء ؟ » سأل الرئيس . «كلا» قال كيسنجر « اننا نجمع المعلومات». وفي السابعة صباحاً اتصل كيسنجر بالرئيس ورتّب اجتماعاً في الثامنة في مكتب الرئاسة . ووصل كيسنجر حاملاً خرائط وتقارير أولية من وزارتي الخارجية والدفاع . « ثمة شيء واحد اريد معرفته » قال الرئيس ، « هل حدث الأمر داخل أم خارج حد الاثني عشر ميلاً ؟ ». « بل حدث الأمر على بعد تسعين ميلاً من الشاطىء » ، اجاب كيسنجر . « هل انت متأكد ؟ » فاجاب كيسنجر بالايجاب . عندها قال نيكسون انه لا يريد تفحص الخرائط ولكنه يريد تقريراً شاملاً عن ردود الفعل العسكرية والسياسية الممكنة . وأمر كذلك بوقف عمليات الطيران المشابهة بانتظار نتيجة مداولاته وتقليبه الأمر على مختلف وجوهه .

إن من ألف سجل نيكسون السابق في معالجة مثل هذه القضايا كان يتوقع ان يبادر الرئيس الى اتخاذ تدبير ثأري عسكري سريع . ففي العام السابق ، في كانون الثاني ١٩٦٨ عندما اسرت سفينة التجسّس بابلو حمل نيكسون على رد فعل جونسون المعتدل على هجوم الكوريين الشماليين بقوله « لقد سقطت هيبة الولايات المتحدة الى ادنى المستويات ، الى حدّ أن دولة عسكريّة من المرتبة الرابعة مثل كوريا الشمالية تجرأت على خطف بارجة اميركية في عرض البحار » . ولكن نيكسون الرئيس اخذ ينظر الى الأمور من زاوية مختلفة .

منذ السادسة من مساء الثلاثاء حتّى الثالثة من صباح الاربعاء كان كيسنجر يرئس

فريق المراجعة في مجلس الأمن القومي واعدّ تقريراً عن خيارات العمل البديلة . ورفع هذا التقرير الى الرئيس فدرس في جلستين منفصلتين يوم الاربعاء . واوصت هيئة رؤساء الاركان المشتركة بقصف ثأري ضد كوريا الشمالية . ومال كيسنجر الى الموافقة على توصية هيئة رؤساء الأركان، غير ان وزير الخارجية روجرز حثّه على الاخذ بعين الاعتبار امكان احساس الاتحاد السوفياتي او الصين انهما مجبران على نجدة كوريا الشمالية والهروع الى الدفاع عنها .

وترأس كيسنجر طوال يوم الخميس فريقاً دراسياً آخر تابعاً لمجلس الأمن القومي قام باعداد حوارين مفصلين تفصيلاً واسعاً حول ما قد يحدث اذا ما قصفت الولايات المتحدة كوريا الشمالية واذا لم تقصفها . واوصى وزير الدفاع ليرد ان يصار الى تحويل هذه اللجان المنشأة لمعالجة الازمة الراهنة ، وهي مؤلفة من ممثلين عن دوائر الخارجية والدفاع والمخابرات ، الى هيئة دائمة « ترفد ادارة الطوارىء بمصل النظام » ، وكانت هذه بداية قيام فريق واشنطن للعمليات الخاصة .

واستمر الرئيس يدرس الخيارات والبدائل دون ان يعطي امراً بالقصف. وبدلاً من ذلك دعا الى مؤتمر صحافي ظهر الجمعة أعلن فيه انه قدم احتجاجاً لكوريا الشمالية وأنّ رحلات إي سي ١٢١ الجوية سيجري استئنافها ولكن في ظل الحماية العسكريّة . وأكّد أن قراره هذا هو « قرار اولي » . وعلى الفور صدر من اذاعة بيوانغ يانغ شجب لبيان نيسكون ووصف بأنّه « لعب بالنار» . وقد حذّر الكوريون الشماليون من « اننا لن نجلس مكتوفي اليدين » .

في تلك الامسية بحث الرئيس الازمة مع كيسنجر بحثاً مستفيضاً وطلب منه ان يسأل اعضاء مجلس الأمن القومي آراءهم . وبعد ساعة اتصل كيسنجر فاعلم الرئيس ان اكثر هؤلاء ، وهم من كبار موظفي الحكومة ، قد عارضوا القصف الثأري . وعندما طلب من كيسنجر أن يدلي برأيه ثانية ، قال إن دخول الحرب اسهل من الخروج منها . واضاف قائلاً للرئيس إنّ هذه الازمة هي الاولى التي لم نرثها من الماضي لذلك اقترح ان تكون استجابة الولايات المتحدة متناسقة ونابعة من تخطيط مستشرق . وقد ادرك كيسنجر أن نيكسون يميل الى رفض جميع التوصيات التي تدعوا الى قصف ثأري سريع لقواعد كوريا الشمالية ، لذلك بدّل موقفه بسرعة ، والتقط دعوة روجرز الى ضبط النفس في وجه الاستفزاز الكوري وجعلها وجة نظره فأخذ يناقش كون القصف الثأري قد يربك الهدف الأكبر في الوصول الى تكييف جديد لعلاقات اميركا بالصين وروسيا .

في ذلك المساء قرر الرئيس طي المسألة . وسرّ كيسنجر لأن قرار الرئيس جاء حصيلة مدى واسع من الخيارات التي جرى تفحصها .

وما ان انتهت هذه الأزمة الاولى حتّى كان كيسنجر قد برز على المسرح الوطني الاميركي شخصية عامة . وكان له اثره المباشر في الصحافة ، فلم تمضِ عليه ثلاثة اسابيع في ادارة الحكم الجديد حتّى كانت صورته على غلاف « التايمز » — انجاز سريع لم يحقق مثله استاذ سابق في هارفرد ، جمهور ناخبيه يقتصر على نفسه .

ولكن فرحته بظهور اسمه مطبوعاً في كبريات الصحف كان في كفة يقابلها فزعه من تسريب بعض معاونيه اسرار السياسة الى تلك الصحف. ومن الحكايات الطريفة أن كيسنجر افتتح اجتماعاً لمعاونيه في اليوم التالي لتسرب بعض المعلومات المصنّفة السرية الى الصحف بقوله: « من منكم هنا يمثّل النيويورك تايمز ؟ » ولقد اخفى سؤاله الموشح بالمرح همّاً عميقاً يتآكله من مخاطر تسرّب المعلومات على ايمانه الراسخ بديبلوماسية النخبة من جهة ، وعلى احساسه بالحاجة ، من جهة ثانية ، الى اثبات ولاء معاونيه لجماعة هالديمان في البيت الابيض. وكان كيسنجر قلقاً كذلك من حاجته هو شخصياً الى اثبات ولائه . وهكذا قبل مضي سنة عليه في الوظيفة كان سبعة على الاقل من هيئة مجلس الأمن القومي قد أخضعت اتصالاتهم الهاتفية للتلصلص ، دون معرفتهم ولكن بموافقة كيسنجر نفسه . واصبح جوّ المكتب لا يطاق بالنسبةلعدد من المعاونين الذين وقفوا ولاءهم على البلد لا على نيكسون ، الى حدّ انهم عافوا الوظيفة .

« انه يكره ان لا يُحبّ ».

« انه لا يطيق التفاصيل . وبامكانه ان يكون بالغ الفظاظة وعديم اللياقة بل متوحشاً مع الاشخاص الذين يزعجونه والاشياء التي تزعجه . ومن ناحية أخرى عندما يواجه صعوبات حادة فان طبعه يصبح مختلفاً اختلافاً كلياً . فهو اذا ما جوبه بحالة خطيرة ثقل جوّها وتصاعدت حرارتها، يصبح ليّناً في منتهى الهدوء.وهو يملك أيضاً هذا الاحساس المرح الحسن التوقيت الذي يستخدمه ليكسر طوق التوتر ثم يمضي في اللحظات التالية في التعاطي مع افضل ما في البشر ومع افضل تفكيرهم . »

« انه امرؤ لا يحبّ ان يترك اجنحته غير محميّة » .

« هنري يتعرّف الى النوعية كما يتعرّف الى التفاهة والصيغة . انه حقاً يريد أن يحصل على افضل الناس ، ولكنه يريد الحصول عليهم وفق قواعده او لا يريدهم اطلاقاً ، وقواعد العمل معه تفرض ان يكون هؤلاء الناس دون هوية يعملون له وحده ، يتكلمون معه وحده ولا يحق لهم المساهمة في اية عمليّة الاّ على اساس شروط موضوعة لهم . ولذلك فإنه لا يحصل دوماً على الاشخاص الصالحين ، وذلك نقص في القواعد التي يعتمدها لعملية الاختيار » .

«بوسعه ان يكون صبوراً فوق التصوّر ، راغباً في اعادة ايضاح المقترحات بل اعادة صياغتها . ولكنه يخرج عن طوره اذا تعذر حصوله على ما يرغب من اوراق فيما

لو مرّت ساعتان فقط من الزمن على طلبه ».

« كنت ذات مرّة منهمكاً في كتابة تقرير كان من أكثر تجارب حياتي مشقّة وابداعاً . وكان هنري يقرأ بضع صفحات ثم يعيدها اليّ قائلاً « هذا خطأ فالصفحة الثانية يجب ان تكون محل الرابعة ». واغادره خائباً. واعود الى مكتبي واعمل تفكيري جاهداً ، وفجأة تتراءى لي فكرة هنري فأدونهـا وتبدو أمامي صحيحة وواضحة . هنري يفكر في اطار نظري ثابت . فكلّمـا مرّت موجة من الطرف الشرقي للشاطىء ربط تموّجها بعلاقة سببيّة تشدها الى الضفة الغربيّة » .

« عقل نابغ ولكنه مفرط في القلق والسريّة . وهو قادر على استحداث أكثر التبدلات الفجائية تطرفاً في الشخصيّة . يملك ذاكرة جبّارة ولكنه عندما لا ينطلق من رأي ثابت في أمر ما ، يصبّ افضل الحكم التي سمعهـا » .

« اني احيطه باعجاب واحترام فائقين ولكنني اخالفه بعنف في عدد من الاشياء، » هكذا يكون افضل الاصدقاء .

«كنت في بعض الاحيان ارغب في الرجوع اليه قائلاً : بربك اين هي تلك النزاهة التي كنّا نتحدث عنها معاً ؟ اين غدت الان ؟ لقد تحولت الى عقل يعمل ببعض التحفظات والمزايا في خدمة ذلك الرئيس الالمعي الذي لا يعرف الاّ الله ما هو ؟ » .

« ما توصل هنري الى جمعه كان الفضل يعود فيه الى موهبته المجرّدة . لم يعطه احد شيئاً . فقد تصوّر أنّ هذه هي اللعبة وكان محقاً . ولكن تصوّر الأمر يختلف جداً عن تنفيذه. غير أنّ هنري منذ العام الأول لوجوده هنا كان يفعل ما لم يسبق له فعله في حياته كلّهـا — كان يعمل على الذروة المطلقة للسلطان ، كمحرك لا كمفكر . كان عليه أن يدير البيروقراطية، وكان عليه التثبّت أن الرئيس ، فضلاً عن عدم تأثره باي شخص آخر غير هنري فكرياً ، يتمتع حقاً وبصورة عفوية بحل المعادلات العقلية للسياسة الخارجية معه — وليس وحده كما يفعل مع اي شيء آخر يخطر في بالي . واخيراً كان عليه ان يصارع لابعاد هؤلاء الناس الذين يمقتونه بسبب الصلة الحميمة التي تشدّه الى الرئيس » .

« بامكانك ان تشهد كيف ان عمله الجديد بات بمثابة دفق الدم في شرايين حياته . فمنذ أن تسلّم هذا العمل بات أكثر انفراجاً وسعادة، ومع أن صوته ازداد ثقلاً الا انه انخفض قليلاً . اي امرىء سواه تحت وطأة عمله كان يبدو شاحباً مهزوزاً محطّماً أمّا هو فمنتعش ، واعتقد انه عرف انه سينتعش في هذه المسؤولية » .

وهكذا حتّى في الاشهر الاولى من قيام الحكومة الجديدة ، كان كيسنجر المستقبل ، المفكر المقيم في البيت الابيض ورجل المهمات السرّية ، قد أخذ بالبروز وكانت منافسته في اوساط الجمهوريين العليا نادرة . وانحصر الأمر بمارتا ميتشل . وادى صعود نجم

كيسنجر الى ان يصفه جون ميتشل في ١٩٧٠ علناً بأنّه « مهووس محبّ لذاته » . وعلى الفور استطاع كيسنجر الذي لم يجزعه ذلك ، على الاقل علناً ، ان يحول هـذا الوصف المؤذي الى اطراء ، فاعلن : « في هارفرد استغرق اذكائي روح العدواة لبيئتي عشر سنوات ، واريدكم ان تعلموا انني استطعت انجاز ذلك هنـا في ثمانية عشر شهراً » .

٥ – مفاوضات الحد من انتشار الاسلحة الاستراتيجية

في خطبة الافتتاح التي دشّن بها ريتشارد نيكسون رئاسته في ٢٠ كانون الثاني ١٩٦٩ قال : « بعد مرحلة المجابهة ندخل الان عصر التفاوض » . واستجاب الكرملين لهـذا العرض استجابة مفاجئة لم يقم لها رجال البيت الابيض حساباً ، وفي طليعتهم مساعد الرئيس لشؤون الأمن القومي هنري كيسنجر ، فقد أعلن الاتحاد السوفياتي استعداده لتبادل وجهات النظر حول الحدّ من الاسلحة النووية للقوتين الكبريين .

ان العرض السوفياتي الذي اذاعه كل من ل. زاميتين رئيس دائرة الصحافة وكيريل نوفيكوف من دائرة المنظمات الدولية خلّف انطباعاً حسناً لدى العديد من الاميركيين الذين سئموا الحرب الباردة واكلافها الباهظة البالغة بلايين الدولارات والتي تنفق على تطوير التكنولوجيا النووية . كما تفاعل العرض السوفياتي ايجابياً في الجامعات وبين المثقفين الذين روّعتهم برامج تصعيد القوة النووية الاميركية ، فقال البروفسور جورج راثجينز من معهد « الأم اي تي » الهندسي الشهير : « نحن والسوفيات نملك الآن افضل الفرص التي قد لا تتوفر لنا في المستقبل لاتخاذ قرارات تمكّننا من تجنّب او على الاقل تخفيف حدّة الدورات اللولبيّة في سباق التسلّح الاستراتيجي » .

وكان ليندون جونسون قد خطّط للشروع في مفاوضات الحدّ من انتشار الاسلحة النووية في اجتماع قمة كان ينوي عقده في مطلع خريف ١٩٦٨ غير ان الهجوم السوفياتي على تشيكوسلوفاكيا اطاح بهذا المخطط . ولكنه كان مشوقاً لعقد هذه المفاوضات الى حدّ انه حتى بعد انتخاب نيكسون حاول عقد هذه القمـة قبل تسلم الرئيس الجديد صلاحياته غير ان الرئيس المنتخب اشار عليه بانّه غير مستعد للموافقة على هذه الخطوة قبل تسلم صلاحياته الدستورية في ٢٠ كانون الثاني .

وفي ١٨ كانون الثاني حذّر وزير دفاع جونسون ، كلارك كليفورد ، في مؤتمر صحافي عقده قائلاً ان الاتحاد السوفياتي قد يسبق الولايات المتحدة في عدد الصواريخ الارضيّة الاستراتيجيّة ، ودعا الادارة الجمهورية الجديدة الى الاسراع في عقد مفاوضات الحد من انتشار الاسلحة الاستراتيجية .

غير ان ادارة نيكسون الجديدة لم تأخذ بهذا الضغط المتصاعد من الادارة السابقة ورجال الكونغرس وعدد من الجامعيين للمباشرة في عقد هذه المفاوضات، بل رأت التريّث في الأمر ضمن استراتيجية اخذت معالمها تتكشّف مع الزمن ، هي استراتيجية « الترابط » بين مفاوضات الحد من الاسلحة الاستراتيجية وحل عدد من القضايا السياسية التي يهم واشنطن حلها مع الاتحاد السوفياتي .



ان سياسة « الترابط » هذه كانت تطبيقاً معاصراً لنظريات كيسنجر في توازن القوى التي بدأ بعرضها في اطروحته لشهادة الدكتوراه في ١٩٥٤ والتي تساءل فيها : « هل بامكان دولة ما بلوغ جميع رغباتها ؟ ».واجاب بان مسعى الدول لبلوغ الأمن والسلامة المطلقين يبقى في حيّز عملية توازن مستمرة بين سلامة هذه الدول وعدم سلامة الدول الأخرى . من هنا كانت « السلامة النسبيّة » لا السلامة المطلقة هي الأمر المعقول تحقيقه . وهذه السلامة النسبيّة يمقتها نظام عالمي يقوم على توازن المزاعم المتناقضة بين الدول . وفي عالم اليوم يرى كيسنجر ان الاتحاد السوفياتي هو القوة الوحيدة القادرة على الاخلال بالميزان القائم ، وهي الدولة التي قادت على الدوام قوى الاضطراب في النظام العالمي . والمطلوب هو حمل الاتحاد السوفياتي على إدراك ان مصالحه لا تقوم الاّ ضمن توازنها مع مصالح الدول العظمى الأخرى ، وبالتالي فان كل مشكلة بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة مرتبطة بالمشاكل الأخرى بينهما ، بحيث اصبح مفروضاً ان التقدم لحل مشكلة ينعكس على التقدم لحل سائر المشاكل المعلّقة . من هنا اذا اراد الاتحاد السوفياتي الحصول على القروض والتبادل التجاري والتكنولوجيا من الولايات المتحدة لتحقيق اندفاعته في التجديد ، واذا ما اراد الشروع في مفاوضات الحد من انتشار الاسلحة الاستراتيجية ليحوّل جزءاً من نفقاتها الباهظة الى الانفاق على انتاج السلع الاستهلاك ، كان عليه ان يدفع ثمن ذلك كلّه . واذا كان كيسنجر قد وضع الاطار النظري لهذه الاستراتيجية فان نيكسون كان رجل التنفيذ العملي والاهداف المحدّدة . فقد اراد صفقة مقايضة ديبلوماسية مآلها تسليم الروس بان مصلحتهم القومية تقضي باحتواء الحروب المحليّة لا اذكاء نارها طريقاً لبلوغ مرحلة جديدة من العلاقات مع الولايات المتحدة يسودها التعاون بدل المجابهة .

وهكذا التحمت نظريات كيسنجر في توازن القوى ورغبة نيكسون في اشراك موسكو في تسوية قضية فيتنام بحيث اصبحت استراتيجية الترابط بين المشاكل وحلّها اساساً لسياسة الولايات المتحدة الخارجية ازاء الاتحاد السوفياتي . ولخّص ذلك كيسنجر بقوله : « أردت التحرك على جبهة واسعة » لتحقيق « التوازن السليم بين المصالح » ولحمل موسكو على التعاون في حل عدد من المشاكل . ورفض كيسنجر الوقوع في فخ « النيات الحسنة » التي كان يروّج لها بعض الاميركيين للتعجيل في عقد مفاوضات الحدّ من انتشار

الاسلحة الاستراتيجية بل على العكس اخذ يدرس التوقيت المناسب للمباشرة في مفاوضات محدّدة تكون الحائل دون اغراءات النكوث عن القبول بحل المشكلات المعلّقة بين الدولتين العظميين . وكانت مهمته الاولى تثقيف رجال مجلس الأمن القومي بهذا التوجه الجديد الى المشكلات العالمية . وعقدت اولى الاجتماعات المغلقة في هذا المجال في اليوم نفسه الذي تسلّم فيه الرئيس الجديد صلاحياته وضمّ ذلك الاجتماع الرئيس ونائبه اغنيو وروجرز وزير الخارجية ، وليرد وزير الدفاع ، والجنرال ارل ويلر رئيس هيئة رؤساء الاركان المشتركة ، وريتشارد هلمز مدير المخابرات المركزيّة ، والجنرال اندرو غودباستر نائب القائد العام لقوات الولايات المتحدة في فيتنام والجنرال جورج لنكولن رئيس مكتب التخطيط للطوارىء، وكيسنجر . وتدارس المجتمعون العرض السوفياتي للشروع في مفاوضات الحدّ من انتشار الاسلحة الاستراتيجية . وتلا ذلك اجتماع ثان بعد يومين في البيت الابيض فاجتماع ثالث بعد يومين تاليين . ومهّدت هذه الاجتماعات لاعلان الرئيس في اول مؤتمر صحافي عقده في ٢٧ كانون الثاني وبناء على سؤال وجهه اليه احد الصحافيين انه يرغب« في ان تقوم محادثات الحدّ من الاسلحة الاستراتيجية على نحو يؤدي الى تعزيز التقدم نحو حل المشكلات السياسية البارزة » . واعطى نيكسون الشرق الاوسط مثلاً للمشاكل السياسية المعلّقة ولكنه كان يشير ضمناً الى فيتنام . وهكذا لم يتلفّظ الرئيس بعبارة « الترابط » ولكنّه انطلق من استراتيجيتها التي باتت اساس سياسة الولايات المتحدة الخارجيّة منذ تلك اللحظة . والقى نيكسون بتصريحه هذا بالكرة مجدداً الى ملعب السوفيات . فقد رفض عرضهم لمعالجة الحدّ من انتشار الاسلحة الاستراتجية كموضوع منعزل ولكنه قبل بالشروع في هذه المفاوضات مقرونة بحصول « تقدم نحو المشكلات السياسية البارزة في الوقت نفسه » .

غير ان هذا التحوّل الخطير في الاستراتجية الاميركية – « الترابط » – لم يفهم في حينه على الفور. وتمركز الاهتمام المباشر في ان الرئيس قد رفض الشروع في مفاوضات الحدّ من انتشار الاسلحة الاستراتجية ، فاصيب اعضاء الكونغرس والاكاديميون والصحافيون والكتّاب بخيبة أمل شديدة. كما كان لهذا الاعلان وقع المفاجأة المربكة في الاوساط الديبلوماسية في واشنطن لا سيما السفارة السوفياتية. وانزعج كيسنجر من قرار الرئيس الذي يبدو انه كان وليد ساعته في اعلان مضمون سياسة الترابط على الجمهور بينما كان كيسنجر يرى أن الأفضل عدم عرض هذه السياسة وكأنها تحدٍ للروس بل طرحها في اللقاءات الديبلوماسية الثنائية – مع السفير السوفياتي دوبرنين مثلاً – وشرح فوائدها ومزاياها المشتركة بالتفصيل . ورأى ، بحسب قول ليرد ، أن « الحديث عن الترابط علناً قد يؤذي نجاح سياسته » . واخذ كيسنجر في الاسابيع التالية يقوم بدور مجموعة من

الاساتذة في شرح نظرية الترابط لكبار موظفي البيروقراطية الاميركية الذين اعتقدوا جازمين انها تدفع الدولتين الى فخ المشادة وغاباتها الكثيفة التي يتعذر الخروج منها . كما انه عقد ندوة مع رجال الكونغرس المشككين للغرض نفسه .

ورغم تصريحه في ٩ شباط ١٩٦٩ امام الهيئة الصحافية للبيت الابيض بنفي اي مسعى لدفع الروس الى تسويات غير ملائمة لهم في مكان ما مقابل اعطائهم شيء بديل في مكان آخر ، الا ان السوفيات لم يشعروا بالرضى عن سياسة الترابط هذه . واقتضى الأمر عقد عدة اجتماعات عاصفة بين كيسنجر والسفير السوفياتي دوبرنين لايضاح فوائد السياسة الاميركية الجديدة ولكن على غير طائل . فقد كان السفير السوفياتي يصر على ان سياسة الترابط هذه انما تعني الضغط المؤدي الى ثني ذراع السوفيات لابتزازهم . ولكن الادارة الاميركية اصرت على موقفها وكان السوفيات ابان ذلك في حالة من الهياج والارتباك ازاء ما اعتبروه عناداً في غير محله من الاميركيين . واستمر الأمر على حاله نصف سنة . وكان على كيسنجر ان يواجه ضغطاً داخلياً متزايداً عليه بسبب السياسة الجديدة . فوزارة الخارجية ارادت مد السوفيات بالقروض وتوقيع اتفاقية خطوط جوية معهم ، واراد المنادون بالحد من الاسلحة أن يقبل بعرض الشروع في مفاوضات الحد من الاسلحة الاستراتيجية . وطالب الجمهوريون بوجوب عقد قمة مع السوفيات: « الم يعقد كينيدي قمة مماثلة من قبل ؟ » . اما الحلفاء الاوروبيون فقد ارادوا هنري ان يقبل عرض السوفيات بعقد مؤتمر امن اوروبي . غير ان كيسنجر صمد واستمر في تعمد تأجيل الشروع في المفاوضات ، وشعاره أن اعادة تنظيم العلاقات بين القوتين العظمين ليس اقتراحاً يبصر النور بين ليلة وضحاها بل يتطلب اعداداً دقيقاً . وكان ثمة سبب آخر لمماطلة كيسنجر ،فقد اراد التزود بكامل التفاصيل للمفاوضات : « لأننا لا نريد الشروع في مفاوضات لا نعرف بالتمام كامل جوانب مواضيعها » .

وكان الرئيس المنتخب قد أمر كيسنجر منذ ٢٨ كانون الأول ١٩٦٨ ، اي قبل تسلم صلاحياته الدستورية بنحو شهر ، باعداد مجموعة واسعة من الدراسات حول الموضوع ، بينها دراستان متعلقتان بصورة محددة بالموضوع العام للاسلحة الاستراتيجية : احداهما عن « الوضع الاستراتيجي » للأمة ، والثانية عن «عواقب اتفاقية الحد من انتشار الاسلحة الاستراتيجية » .

وبعد ان اكتملت الدراستان توصل كيسنجر الى ان ما ذهب اليه نيكسون إبان حملته الانتخابية من ان وجوب التوصل الى تفوق عسكري على الاتحاد السوفياتي بات أمراً بعيد المنال. فقد اظهرت احدى اللوائح أن الولايات المتحدة تملك ١٠٥٤ صاروخاً عابراً للقارات و٦٥٦ غواصة من حاملات الصواريخ النووية،و٥٤٠ قاذفة من المدى البعيد، بينما كان يملك الروس ١٢٠٠ صاروخاً عابراً للقارات و ٢٠٠ غواصة من حاملات الصواريخ

ونحو ٢٠٠ قاذفة كبيرة . وعززت الاحصاءات والدراسات توصية كيسنجر للرئيس باستبدال « التفوق » « بالكفاية » كهدف لسياسة الولايات المتحدة العسكرية .

وقبض نيكسون على الفكرة فحاول تغطية تراجعه الاستراتيجي بتركيزه على وجوب الاقلاع عن التمسك بالالفاظ . فقال في ٢٩ كانون الثاني ١٩٦٩ « ان هدفنا هو التأكد من ان الولايات المتحدة تملك القوة العسكرية الكافية للدفاع عن مصالحنا والحفاظ على التزاماتنا التي ترى هذه الحكومة انها في مصلحة الولايات المتحدة في العالم كله . واعتقد ان الكفاية عبارة أفضل من عبارتي التفوق او التعادل » .

اما دراسة كيسنجر الثانية فقد ايدت بقوة عقد اتفاق منع انتشار الاسلحة النووية التي كانت حكومة جونسون قد فاوضت للتوصل اليه . وخلصت الدراسة الى ان هذا الاتفاق لا يشتمل على اي اشتراط مضر بمصالح الولايات المتحدة . وألح كيسنجر على وجوب موافقة الرئاسة على الاتفاق . وفي ٥ شباط ارسل نيكسون الاتفاق الى كابيتول هيل طالباً بت مجلس الشيوخ حالاً . وبعد مداولات استغرقت اربعة ايام أقر مجلس الشيوخ الاتفاق بأكثرية ٨٣ ضد ١٥ ولكن اقترن ذلك بهجوم شنه المجلس على الحكومة لتأخيرها الشروع في مفاوضات الحد من انتشار الاسلحة الاستراتيجية . حتى الشيخ فولبرايت لم يستطع ان يقدر التقدير الوافي مزايا سياسة كيسنجر في « الترابط » . وشاعت شكوك بين عدد من الشيوخ من اعضاء لجنة العلاقات الخارجية في ان سياسة الترابط هذه ليست الا عبارات اكاديمية لذر الرماد في العيون قبل الشروع ببرامج جديدة للتسليح . وزاد في الطين بلة ان نيكسون في اليوم التالي لإقرار مجلس الشيوخ اتفاق منع انتشار الاسلحة النووية المشار اليه ، أعلن برنامج انشاء شبكة مضادة للصواريخ في الولايات المتحدة .

ورغم ان الرئيس اعطى مبررات دفاعية لهذا البرنامج من التسلح الا ان السبب الذي لم يذكره ، وهو أهم الاسباب ، انما هو ما يؤديه هذا البرنامج من تعزيز قدرة الولايات المتحدة على المساومة في مفاوضات الحد من التسلح مع الروس . علاوة على ذلك فقد اسر كيسنجر فيما بعد الى بعض اصدقائه أن الأمر كان محتملاً ان يكون أسوأ لو رضخ الرئيس لكل مطالب هيئة رؤساء الاركان المشتركة وضغوطها لتصعيد قدرة البلاد الاستراتيجية. وتلا ذلك اقرار برنامج آخر للتسلح النووي عرف « بميرف » ، وهذا ايضاً لم يعارضه كيسنجر لأن هيئة الاركان المشتركة اصرت عليه، ذلك لأنه كان يعتقد ان ليست الاسلحة وحدها هي التي تصنع الحروب ، انما الرجال والسياسات والديبلوماسية هي المتهم الرئيسي بينما الاسلحة في حد ذاتها حيادية لا رأي لها. يضاف الى ذلك ان كيسنجر لم يستطع محو عبرة تشيكوسلوفاكيا وكيف اجتاحت الدبابات السوفياتية نظام دوبتشك الليبرالي وسحقته قبل سنة واحدة من اقرار هذه البرامج

الاميركية للتسلّح . واخيراً فان السوفيات كانوا يصعدون برامج تسلحهم في الوقت الذين كانوا يدعون فيه الى عقد مفاوضات للحد من انتشار الاسلحة الاستراتيجية .

في مثل هذه الظروف المعقّدة بذل كيسنجر مساعيه المضنية ، واحياناً ، الخائبة ، لاعداد الولايات المتحدة لمرحلة المفاوضات المذكورة . ولم يستأثر موضوع باهتمامه — عدا فيتنام — كما استأثرت هذه المفاوضات . وكانت الدراسات تدرس في مجلس الأمن القومي اعداداً للمفاوضات . وكان كيسنجر يقول ان « المبادىء العامة الفارغة لا تغني عن الدراسات التفصيليّة » . وتراكمت خلال الاشهر الست التالية ملفات الدراسات المختومة والممهورة « بسري للغاية » . وفي رأي كيسنجر ان هذه الدراسات كانت من افضل الانجازات . وفي ٣ شباط امر بوضع دراسة عن « قوات الولايات المتحـــدة العسكريّة »، وبعد تسعة ايام امر بدراسة عن نزع السلاح ، وبعد احدى عشر يوماً ثلاث دراسات أخرى : عن ميزانية الدفاع ، عن وضع الأمة العسكري ، وعن امكانات توسيع حظر التجارب النووية لشمول التجارب تحت الارض . وبعد أسابيع شرع في دراسة أخرى خصصت كلياً للتهيئة للبدائل الممكنة في مفاوضات الحدّ من انتشار الاسلحـــة الاستراتيجية. وكان كيسنجر يقول انه يجب اغناء الرئيس بمدى من البدائل الواقعية واسع يمكنه من الاختيار .

وكانت الاشهر الثلاثة او الاربعة الاولى مضيعة للوقت في المشادة بين كيسنجـــر والادارة البيروقراطية حول اعداد هذه الدراسات .

وفي فترة الاعداد هذه كانت معظم « مناقشات » كيسنجر مع بنتاغون ليرد ووزارة خارجية روجرز . فقد كان يستحيل على هيئة معاوني كيسنجر ، نظراً لصغر حجمها ان تقوم باعداد الدراسات التفصيليّة المطلوبة للشروع في مفاوضات الحدّ من انتشار الاسلحة الاستراتيجية لذلك قامت بمعظم الدراسات لجنة خاصة من البنتاغون كانت موضع اعتزاز ليرد ، هي ورئيسها جون فوستر .

ولكن بينما كانت مناقشات كيسنجر مع ليرد على ما يتخلّلها من خلاف في وجهات بنّاءة وتتسم بالحيويّة ، كانت المناقشات مع روجرز من جهة ثانية متسمة بالروح العدائية وعدم الثقة . وساد في اوساط مجلس الأمن القومي التعليق القائل : « المرّة الوحيدة التي يفتح روجرز فمه خلالها هي عندما يبدّل موقع قدمه » . وكان موظفو الخارجيّة يردّون الكيل بالتهكّم على « الهردكتور » المصاب بجنون السلطة . وكان الخلاف يكاد يكون يومياً بين مساعد الرئيس لشؤون الأمن القومي ووزير الخارجية حول المضي في مفاوضات الحدّ من الاسلحة الاستراتيجية او التريّث. الوزير يريد الشروع في المفاوضات وكيسنجر يتعمّد التريّث دون ان يفهم روجرز القصد من هذه المماطلة .

وعيل صبر روجرز وقرّر ان يأخذ المبادرة فاستدعى السفير السوفياتي دوبرنين في

١٩ حزيران ١٩٦٩ قبل ان تجهز دراسات كيسنجر ، وأعلمه ان الولايات المتحدة اصبحت مستعدة للدخول في ٣١ تموز في مفاوضات الحدّ من الاسلحة الاستراتيجية. ومنذ ذلك الحين انقسم الرأي في تقييم خطوة روجرز هذه ، فاوساطه في وزارة الخارجية اصرّت على ان الأمر كان مقرراً من الرئيس ولم يقدم روجرز على الخطوة من ذاته بينما تصرّ اوساط مجلس الأمن القومي على ان الخطوة إنما اقدم عليها روجرز وحده .

وهاج كيسنجر وماج لأن الوقت لم يكن قد حان في نظره لمباشرة المفاوضات قبل ان تنضج احتمالات تسوية فيتنام او الشرق الاوسط. غير أن عرض روجرز انقلب لمصلحة كيسنجر عندما جاء يوم الحادي والثلاثين من تموز دون ان تبدر من السوفيات اية بادرة اما لانشغالهم بمشكلات الحدود مع الصين او ، على الارجح ، لأنهم قدّروا أن روجرز ليس هو الذي يفصل في الأمر ويقول الكلمة الحاسمة .

وانقضّ كيسنجر على السانحة فاقتنصها واستغلّها الى أقصى الحدود دعماً لاغراضه . فقد وجد فيها عذره الجاهز في وجه المطالبين من الكونغرس وخارجه بالحد من التسليح او الشروع في المفاوضات فوراً ، فكان يقول متصنّعاً البراءة : « نحن جاهزون ولكن السوفيات هم الذين يتريّثون » . ثانياً استغل كيسنجر السانحة ليعتصر من البيروقراطية المتباطئة المزيد من الدراسات حول الخيارات والبدائل . وكانت البدائل قد أخذت منذ مطلع تموز تنهال على مجلس الأمن القومي ولكن كيسنجر استمر يطالب الاجهزة والدوائر بالمزيد من الدراسات طارحاً سؤاله الدائم : « كيف نتأكد من أن الروس لن يخدعون ؟ » مطالباً بالمزيد من التحاليل . وأخذت وكالـــة المخابرات المركزية تصدر تقريراً دورياً لمجلس الأمن القومي حول ما يملك الروس وما كانوا يملكون قبل ثلاثة اشهر ، وكان ريتشارد هلمز مدير المخابرات يحاول مساعدة مجلس الأمن القومي بابراز اجهزة الاسلحة السوفياتية التي يمكن مراقبتها وتلك التي تتعذر مراقبتها . وافاد كيسنجر من هذا التصنيف فركز اهتمامه على الاسلحة التي يمكن مراقبتها . وانشـــأ كيسنجر لجنة من مجلس الأمن القومي عرفت بلجنة التثبّت والتدقيق اخذت تدرس وسائل المراقبة وخياراتها . واخيراً وجد كيسنجر ان الولايات المتحدة غدت مهيئـــة تقنيا لخوض المفاوضات وان لم يحدث بعد اي تقدم على الجبهات السياسية الأخرى وفقاً لاستراتيجية الترابط .

في ٢٠ تشرين الأول ١٩٦٩ اجتمع الرئيس وكيسنجر سرّاً بالسفير دوبرنين وأبلغاه ان الولايات المتحدة مستعدة للمباشرة في المفاوضات فهل الاتحاد السوفياتي على استعداد ؟ فاجاب دوبرنين بالايجاب . وكان التوتر آخذاً بالانقشاع على جبهة روسيا الشرقية اذ بدأت في ذلك اليوم نفسه المفاوضات مع الصين ،ورأت موسكو ، مستخدمة هي هذه المرة استراتيجية الترابط ، ان توجّهها المشترك مع واشنطن الى مفاوضات الحد من انتشار

الأسلحة الاستراتيجية من شأنه تعزيز موقفها ازاء الصين. فما انقضت خمسة ايام على لقاء دوبرنين مع الرئيس ومساعده حتى أعلن ان موعد الشروع بالمفاوضات في هلسنكي سيكون في السابع عشر من تشرين الثاني .

وحاول روجرز ثانية ان يقطع الطريق على كيسنجر فأعلن في مؤتمر صحافي ان المفاوضات « غير مشروطة » . ولكن كيسنجر ارغى وازبد وجعل الرئيس في اليوم التالي ، وهو شريكه في رسم سياسة الترابط ، يوجّه الناطق الرسمي رونلد زيغلر ليعلن « ان هذه المحادثات لا يمكن ان تجري في الفراغ . ان الرئيس يشعر أن ثمة علاقة بين مفاوضات الحد من انتشار الاسلحة الاستراتيجية وبين ابرز المشكلات السياسية » .

وسعى بعض رجال الكونغرس الى وقف برامج التسلح النووي ولكن كيسنجر كان يرى ان هذا أمر سابق لاوانه . وكان الرئيس يرى ان يطوّر اسلحة الولايات المتحدة قبل التراضي على تجميدها .

في السابع عشر من تشرين الثاني بدأت المفاوضات في هلسنكي وسط قرقعة اقداح الشامبانيا . وكان يرئس الوفد الاميركي جيرار سميث والوفد السوفياتي فلاديمير سيمينوف. وقد تلا سميث رسالة وضعها كيسنجر وموقّعة من الرئيس تنطلق من سياسة الترابط اذ تنص على ان « الحروب والازمات بين الامم لا تنشأ من مجرد تواجد الاسلحة بل من تصادم المصالح او السعي الطموح لتأمين مصالح طرف واحد . لذلك نحن نسعى لبلوغ حلول للمشكلات السياسية الخطيرة المعاصرة » .

وهكذا حدّد الوفد الاميركي وجهة نظره في مسيرة المفاوضات فربطها بحلول المشكلات السياسية الأخرى كما انه لم يأت الى مائدة التفاوض بمقترحات محدّدة بل بمجموعة من الخيارات والبدائل تتراوح بين تجميد انتاج الاسلحة الهجومية وخفض مخزوناتها . وكان العرض مبنياً على اسلوب وضعه كيسنجر الذي كان يدعوه بعملية بناء التفاوض لبنة وحجراً حجراً . فبدل الاسلوب التقليدي في التفاوض الذي يعرض مشروعاً كاملاً يسهل رفضه ومن ثم العمل في وضع مشروع بديل ، كانت سياسة تقديم عدة بدائل ترمي الى توسيع مدى الخيار وامكان اخذ بعض هذا المشروع او ذاك ورصفهما في مشروع جديد خلال التفاوض. فلا شيء جاهزاً سلفاً . وكان كيسنجر يفخر باسلوبه هذا لأنه يوفر الوقت والجهد. فمفاوضات الحدّ من الاسلحة الاستراتيجية كانت اقصر مفاوضات اذ لم تتجاوز سنتين ونصف سنة بينما سابقاتها، كاتفاقية حظر التجارب النووية المحدودة مثلاً استغرقت خمس سنوات . وفضلاً عن هذا فقد كانت محكاً لصدق نيات السوفيات . فان قدّموا مشروعاً جاهزاً واصرّوا على عدم قدرتهم على تبديل حرف منه تتعثر المفاوضات، وان صدقت نياتهم شرعوا في بحث تفاصيل الخيارات المعروضة . وكان من دواعي اغتباط كيسنجر ان السوفيات سارعوا الى بحث

جاد في كل الجوانب التقنية من مشروع الحد من انتشار الاسلحة الاستراتيجية .

وهكذا عندما رفع المؤتمرون جلساتهم في ٢٢ كانون الأول ١٩٦٩ على اساس استئنافها في فيينا في ١٦ نيسان ١٩٧٠ ، أعلنوا في بلاغهم المشترك ان «كل فريق اصبح أكثر تفهماً لوجهة نظر الفريق الآخر فيما يتعلق بالمشكلات التي في قيد الدرس ».وفي ٣٠ كانون الاول ١٩٦٩ ارسل كيسنجر الى لجنة التثبت والتدقيق مذكرة سرّية اصبحت اساس موقف المفاوض الاميركي عند استئناف المفاوضات في ١٩٧٠ . فقد سأل الاميركيون أول مرّة لعل الروس على اهبة لوضع حظر على « ميرف » فضلاً عن تفتيش المواقع . ولكن الروس لم يوافقوا على اي من الاقتراحين . ثم عرض الاميركيون تجميد انشاء الصواريخ النووية الهجومية لكن السوفيات لم يوافقوا بل طالبوا بالاقتصار على تجميد الاجهزة المضادة ،فرفض الرئيس وكيسنجر رغم قبول روجرز وسميث .

وكانت حجة كيسنجر انّه لا بد من اقتران موضوعي الاسلحة الدفاعية والهجومية معاً وان الاقتصار على الحد من الاسلحة الدفاعية غير مقبول . وفي آخر تموز ١٩٧٠ انتصرت وجهة نظر كيسنجر . فالمشروع الذي وضع كيسنجر مسوّدته عالج الصواريخ الدفاعية والهجومية معاً واخذ يعرف في البيت الابيض بشعار «فلنقف حيث نحن» وقد استثنى فقط الحظر على صواريخ ميرف باعتبار أن الروس لن يرضوا به. ولكن الروس عادوا يصرّون على الاقتصار على الحد من الاجهزة الدفاعية المضادة ، وعاد الدوران في الحلقة المفرغة . ثم فاجأ السوفيات الاميركيين بعرض مستهجن هو قيام تحالف بين موسكو وواشنطن « ضد الهجمات الاستفزازية اذا شنّتها دولة نووية ثالثة » وكان المقصود بذلك الصين . وقد رفضت الولايات المتحدة العرض . وقال كيسنجر فيما بعد ، لو كان السوفيات جادّين ، لكانوا اتوا اليّ بعرضهم لا الى سميث . وفي اواخر الصيف ادرك كيسنجر ان الرئيس توّاق لعقد قمة مع السوفيات ويفضّل ان تكون في موسكو ، وذلك في الوقت الملائم سياسياً قبيل انتخابات ١٩٧٢ الرئاسية . ولكن كيسنجر كان يسعى لكسر جمود المفاوضات الدائرة او لبروز بعض الاهتمام من الروس لمساعدة الرئيس في الخروج من فيتنام « بشرف » . وما لم يحدث اي من هذين الأمرين فان فكرة القمة تكون اقرب الى الوهم . ان الترابط بين مفاوضات الحد من انتشار الاسلحة النووية وفيتنام كان في اساس استراتيجية الحكومة . ولكن مساعي كيسنجر لحلّ اي منهما قد باءت بالفشل حتى ذلك الحين . وكان كيسنجر كلّما ذكرت « فيتنام » يتقلص في كرسيه ويبدو كأنما حجمه قد انتصف ، ويأخذ في عضّ اظافر اصابع يديه وهو يتمتم « هذا هو كابوسي ! ».

٦ – ركوب الافعوانية[1] فيتنام

« اعطونا ستة أشهر »

ساد التفاؤل تصرفات نيكسون وكيسنجر في الاشهر الاولى من ١٩٦٩. فقد كان تقديرهما ان بامكانهما التوصل الى انهاء سريع لحرب فيتنام عبر التفاوض . واسرّ كيسنجر لمجموعة من «الكويكرز» الناشطين ضد الحرب « اعطونا ستة اشهر فاذا لم ننه الحرب عندها يصبح بامكانكم الرجوع الى هنا وتحطيم سياج البيت الابيض » .

وكان كيسنجر يعلّل فشـل ادارة جونسون في حل مشكلة فيتنام بردّ الأمر الى افتقارها الى استراتيجية مرشدة سواء للنصر او الانسحاب.وكان واثقاً من انّه سيصيب نجاحاً حيث اخفق سواه .

ولقد ظهرت خطة كيسنجر لفك ارتباط اميركا بفيتنام في عدد كانون الثاني ١٩٦٩ من مجلة « الفورن افيرز » بعنوان « مفاوضات فيتنام ».وفي الوقت نفسه تقريباً او قبل قليل ، جرى استدعاء كيسنجر ليكون مستشار الرئيس لشؤون الأمن القومي . ولقد احدث نشر المقال دوياً في كل مكان وزود الرئيس الجديد باطار نظري للتفاوض .

لم يحدث المقال اثراً مثلما احدث في باريس حيث كان قد انضم الى الولايات المتحدة وفيتنام الشمالية حلفاؤهما : فيتنام الجنوبية وجبهة التحرير الوطنية لاجراء مفاوضات السلام الرباعية . كانت الاطراف الاربعة قد غاصت في مشادة حول تفاصيل اشكال التفاوض بل حتى شكل مائدة المفاوضات نفسها . وجاءت مقالة كيسنجر تقدّم توجيهاً جديداً للمناوضات يرتكز على معادلة اجرائية جديدة تقول باعتماد «مسلكين : الاول تركز خلاله الولايات المتحدة وفيتنام الشمالية على التوصل الى تسوية عسكريّة فيمـا بينهما ، والثاني تركز خلاله سايغون وجبهة التحرير على التوصل الى حل سياسي لجنوبي فيتنام . وقال كيسنجر : « يكون ضرباً من الجنون ان تفاوض الولايات المتحدة فيتنام

(١) الافعوانية : سكة حديد مرتفعة في مدينة الملاهي تتلوى وتنخفض .

الشمالية حول شروط التسوية السياسية في فيتنام الجنوبيّة » . وتضمّن مقال كيسنجر احتياطاً مؤداه انه اذا لم تستجب هانوي لهذا المنطق واستمرت في حربها « فعلينا بلوغ أكبر عدد من اهدافنا منفردين ». ويلخص هذه الاهداف باعتماد استراتيجية خفض الخسائر والتركيز على حماية السكّان وتقوية جيش فيتنام الجنوبية ليتاح تدريجياً انسحاب القوات الاميركية وتشجيع سايغون على توسيع قاعدتها وتقويتها للصمود في الصراع السياسي مع الشيوعيين . وختم كيسنجر مقالته بهجوم على حكومة جونسون لأنها « حاربت حرباً عسكرية بينما اعداؤنا كانوا يحاربون حرباً سياسية . وخلال الحرب غابت عنّا احدى قواعد حرب العصابات الرئيسيّة : ان العصابات تنتصر اذا لم تخسر بينما الجيش التقليدي يخسر اذا لم ينتصر . وبهذا المعيار خسر الجيش الاميركي حرب فيتنام » .

ولكن كيسنجر رغم اعتباره التصعيد المكثف للحرب في اواسط الستينات « خطأ مأساوياً » الاّ انه رفض كل المقترحات التي نادت باعتراف الولايات المتحدة بخطئها وانسحابها ، اذ كان يرى ان عـلى الامـم العظيمة ان تحافظ على التزاماتها حتى ماكان منها خطأ ، وان انهاء الحرب بكرامة هو الحل . وكانت كلمتا اميركا وشرفها ، بالنسبة لكيسنجر ، موضوع الرهان في غابات فيتنام . كما ان حلفاء اميركا واعداءها كانوا يراقبون الوضع بقلق وشغف . ومن هنا كانت سياسة كيسنجر المرنة ترفض المساومة على نقطة وحيدة : « ليس بوسع الولايات المتحدة قبول الهزيمة العسكريّة او حصول تبدل في البنية السياسية لفيتنام الجنوبيّة نتيجة ضغط قوة عسكريّة خارجيّة » . وقد انحى ناقدو سياسته عليه باللوم لاحقاً معتبرين هذه النقطة تصلح صيغة « لحرب لا تنتهي ».غير ان سياسته بمجملها استقبلت بالترحاب في اواسط الصحافة الاميركية، وظهر التمايز واضحاً بينها وبين تصور البنتاغون للنصر العسكري الساحق .

وخلافاً لخطة كيسنجر التي جرى نشرها ، فان خطة نيكسون لانهاء الحرب بقيت طيّ الكتمان مع السماح برشوح انباء ، ابان حملته الانتخابيّة ، عن وجود مثل هذه الخطة . وكاد نيكسون في ٣١ اذار يلقي خطاباً عن فيتنام الاّ ان اعلان الرئيس جونسون عن التعليق الجزئي للحرب الجويّة فوق فيتنام الشمالية وعزوفه عن خوض الانتخابات لولاية جديدة ذهب بالمناسبة . الاّ ان كاتب خطبه ريتشارد وهالن كشف في كتابه « امسكوا بالعلم المتهاوي » ان نيكسون اسرّ اليه ابان كتابة خطابه أن ليس من طريق لربح الحرب ولكننا لا نستطيع قول ذلك الآن بل علينا ان نقول العكس لكي نحتفظ بنسبة من فعالية المساومة » . كان دور موسكو اساسياً في نظر نيكسون في حل المشكلة الفيتنامية .. وكانت الخطة تستهدف حمل الزعماء السوفيات على الاقتناع بان مصلحتهم القومية تقضي بمساعدة الولايات المتحدة على الانسحاب بكرامة من الهند الصينيّة .

وهكذا اعتبرت فيتنام المحك الحيوي الأول لسياسة الترابط — وهو المفهوم الذي سيصبح حجر الزاوية لسياسة نيكسون الخارجيّة .

بدأ الرئيس ومستشاره بالاعداد لحل القضية الفيتنامية ،فيتنام قبل تسلّم نيكسون صلاحيته الدستورية ببضعة اسابيع . فكلّف كيسنجر ، فور تعيينه ، صديقه القديم هنري روين مساعد وزير الدفاع السابق وفي الوقت نفسه رئيس شركة راند للدراسات باعداد تحليل شامل وسرّي للخيارات الممكنة في فيتنام . وعيّن دانيل السبرغ الذي حاضر في دورات عن السياسة الدفاعية في الستينات رئيساً للمشروع . فوضع السبرغ لائحة بالخيارات تتراوح بين الحرب الشاملة والانسحاب الشامل وما بينهما. وشرع نيكسون ، بعد ان طلب من الادارة بمختلف اجهزتها الاجابة عن مختلف جوانب الحرب العسكرية السياسية ، بطرح سياسته الفيتنامية الجديدة . ودشّن الموقف الجديد بتغييرات في الجهاز المفاوض فاستبدل الفريق الديموقراطي بقيادة افريل هاريمان بفريق جمهوري بقيادة كابوت لودج .

وفي ٢٢ كانون الثاني، اي قبل افتتاح مفاوضات السلام بثلاثة ايام، وبينما كان نيكسون يشاهد في الابيض فيلماً سينمائياً عنوانه « الاحذية والصياد » بطولة انطوني كوينغ ، وصلت للرئيس رسالة من هنري كيسنجر يطلب فيها لقاء عاجلاً . فقد اراد كيسنجر ان يدقّق الرئيس في التفاصيل الاخيرة من مسودة تعليمات قرر ارسالها الى لودج ، تضمنت خلاصة افكار نيكسون وكيسنجر حول فيتنام التي ارتكزت على فكرة المسلكين المنفصلين من التفاوض : المسلك السياسي والمسلك العسكري . كما دعت الى خطوة اولى على الصعيد العسكري ترتكز على انسحاب متبادل « لقوات اميركا وفيتنام الشمالية» . وكان هذا يحمل تبدلاً بيّناً عن سياسة جونسون عندما تعهّد في تشرين الأول ١٩٦٦ بانسحاب القوات الاميركية بعد ستة اشهر من انسحاب قوات فيتنام الشمالية وبعد هبوط « مستوى العنف » .

واخذ الرئيس وكيسنجر طوال ساعة كاملة يعملان في وضع التعليمات في صيغتها الاخيرة ثم ابرق بها كيسنجر الى باريس دون ان تمرّ بوزارة الخارجيّة . وهكذا اطلّت اخيراً الحكومة الجديدة بمؤشّرات السلام . وشعر كيسنجر بتحقيق انجاز كبير . وعندما علم وليم بندي ، وهو من بقايا ادارة جونسون وكان يشغل منصب مساعد وزير الخارجية لشؤون آسيا الشرقية،ببرقية كيسنجر،انفجر غاضباً وقال : «هذا يدمّر معاهدة السيتو » ذلك بأن الولايات المتحدة كانت تحارب في فيتنام برعاية شكلية لمنظمة اتفاقية جنوبي شرقي آسيا . ولكن كيسنجر اهمل احتجاج وزارة الخارجيّة لأنه ادرك ان الرئيس يرعى السياسة الجديدة . وكان التحرك الثاني لنيكسون وكيسنجر على جبهة فيتنام موجهاً نحو الاتحاد السوفياتي — « مفتاح السلام »

في جنوبي شرقي آسيا . وكان نيكسون على التوالي يشير تلميحاً في مؤتمراته الصحافية الى نظرية الترابط في مفاوضات الحد من انتشار الاسلحة الاستراتيجية وازالة التوتر في برلين ، وعقد مؤتمر الأمن الاوروبي والمفاوضات التجارية مع الاتحاد السوفياتي . غير انّه في مؤتمره الصحافي الذي عقد في ٤ اذار اشار أول مرّة الى انه قد أخذ في إحراز تقدّم على صعيد الفوز بتعاون السوفيات في تسوية قضية فيتنام . قال نيكسون « بات من المعروف أن الاتحاد السوفياتي ساعد على بدء محادثات السلام في باريس »،ومضى يطرق النقطة الجوهرية في مؤتمره اذ قال : « اعتقد ان الاتحاد السوفياتي يريد استخدام نفوذه على النحو الملائم للمساعدة في انهاء الحرب. اما ما عساه ان يفعل في هذا السبيل فأمر لا يستطيع الا الاتحاد السوفياتي ان يحدّده. ولعله لا يرغب في تحديد الجواب علناً ». وفي الجواب عن سؤال طرحه أحد المراسلين حول ما اذا كان الرئيس قد طلب الى الروس قطع المساعدات عن هانوي تجنب نيكسون الاجابة الصريحة وفضل الاسلوب المداور فابدى تقديره العظيم لاي تقليص في المساعدات لفيتنام الشمالية. ولم يكن بالامكان أرسال اشارة اوضح من هذه. اما التحرك الثالث لنيكسون — كيسنجر فكان هو الابرز. اذ بينما كان يضع لودج على جدول الاعمال في مفاوضات باريس الاقتراح الجديد بالانسحاب المتبادل « للقوات الاجنبيّة » من جنوبي فيتنام كان نيكسون قد اقرّ خطوة أبعد. ذلك بأنه قبل تسلمه سلطاته الدستورية كان قد قرّر الشروع في برنامج انسحاب تدريجي من طرف واحد لقوات الولايات المتحدة من فيتنام . ولم يشرك احداً في تفكيره هذا الاّ كيسنجر . واستخدم الرئيس جلسات مجلس الأمن القومي الاولى لأخذ الاراء حول بعض مقترحاته مؤمّلا التوصّل الى اتفاق اجماعي على سياسته في فيتنام . فاوعز الى كيسنجر بان يطرح على بعض مستشاريه الرئيسيين خمسة احتمالات تتراوح بين اقصى مواقع الصقور واقصى مواقع الحمائم .

وكما توقّع كل من نيكسون وكيسنجر فان توافقاً واسعاً تمّ بين اعضاء مجلس الأمن القومي . اذ رفضوا فوراً احتمال الانسحاب الاميركي السريع كما رفضوا في الوقت نفسه احتمال تصعيد التورط الاميركي في الحرب . ولم يكن اي منهم شغوفاً بالانتصار العسكري او راغباً في الهزيمة السياسيّة . كما اسقطوا الاحتمال القائل ببقاء الأمر على حاله من حيث استمرار التورط العسكري الاميركي . وهكذا بقي الخياران الثالث والرابع : علماً بان الفارق بينهما هو في الدرجة لا في النوعية. فقد دافع ليرد وزير الدفاع عن انسحاب اميركي سريع نسبياً على ان يكون مقروناً بمجهود اساسي « لفتنمة » الحرب ، كما بات التعبير شائعاً فيما بعد ، بمعنى تزويد الفيتناميين الجنوبيين بالمعدات وتدريبهم ليستمروا هم في خوض حربهم . وساند وزير الخارجية روجرز اتجاه ليرد ولكنه فضّل التشديد على محادثات السلام في باريس واعتبر الفتنمة

مسرفة في الجهد ، كبيرة المخاطر ، تستهلك وقتاً كثيراً بينما المفاوضات صفقة افضل للخلاص من حالة ميئوس منهـــا .

وواقف كيسنجر روجرز على تفضيل المسلك الديبلوماسي والانسحاب الاميركي ولكنه لم يكن يؤمن بقدرة فيتنام الجنوبية العسكرية كما كان كثير الشكوك باستقرار سايغون السياسي . واعتبر الفتنمة غير واقعيّة غير ان بالامكان استخدامها اداة في التفاوض .

كان عرض كيسنجر على مجلس الامن القومي للخيارات الخمس اقرب الى حدما الى التمثيلية التحزيريّة . ذلك بأن المجلس لم يدع للبحث في مدى واسع من الخيارات بل لتثبيت قرار الرئيس المبكر في الانسحاب من جنوبي فيتنام . وجاء تثبيت اضافي لهذا القرار في شباط عندما رفعت الاجهزة البيروقراطية اجوبتهـــا عن اسئلة كيسنجر في تقرير سرّي كثيف زاد عدد صفحاته على الالف . فقد حمل هذا التقرير تناقضات اجهزة الحكم حول فيتنام . فهيأة الاركان المشتركة تؤكد القصف وتعتبره مثمراً بينما وزارة الخارجية ووكالة المخابرات لا تشاركانهـــا الرأي .

في الاشهر الاولى من ١٩٦٩ بدت بوادر تفاؤل على الصعيد الرسمي . فقد دعي وليم فولبرايت رئيس لجنة الشؤون الخارجية الى البيت الابيض . وفولبرايت كان ينتقد باستمرار الحرب في فيتنام . قال هذا الديمقراطي الاتي من اركانساس للرئيس انه اذا ما انهى حرب فيتنام أصبح بطلاً وطنياً على غرار ما اصبح ديغول بعد انهائه الحرب الجزائريّة . وخرج فولبرايت من مقابلته لنيكسون وكيسنجر متفائلاً بان الحل قريب . وطمأنه كيسنجر وهو يودعه الى الباب بان الحكومة الجديدة لن تقتفي آثار حكومة جونسون في الهند الصينية. وان الحرب ستنتهي قريباً بحسب خطة الرئيس .

وكانت لدى كيسنجر مجموعة من الاسباب حملته على التفاؤل . فمن جهة اولى ايمانه بان سياسة الترابط ازاء السوفيات ستعطي ثمارها عاجلاً . وكان كيسنجر في تلك الاونة يجتمع سراً الى السفير دوبرينين ويطلب منه تقليص المساعدات العسكرية السوفياتية الى فيتنام ، فكان دوبرينين يشير تلميحاً الى امكان المساعدة في هذا السبيل دون تعهّد. ثم كان يجيب كيسنجر عندما يتوعد باستئناف قصف فيتنام اذا لم توافق هانوي على تسوية سلمية ، بان ليس بامكان الاتحاد السوفياتي تسليم فيتنام الشمالية كخرقة بالية ، وهي الدولة الاشتراكية المستقلة ذات السيادة.وفي هذا الجوّ من التعاطي اراد كيسنجر ان يتصرف ايجابياً فبعد ان شنّ الفيتناميون الشماليون هجومهم الواسع في اواخر شباط ١٩٦٩ شاعت تخمينات بأن نيكسون سيأمر بالقصف الثأري للشمال ولكن كيسنجر نجح في تثبيت سياسة اللاقصف ، فكانت تلك اشارة سلام وحسن نيّة للروس والفيتناميين الشماليين تلقّفها دوبرينين واشار الى كيسنجر بان هانوي لا بد قد التقطتهـــا ايضاً .

ومن جهة ثانية شعر كيسنجر بعد مراسيم افتتاح المفاوضات في باريس انه أصبحت

للاميركيين افكار جديدة يطرحونهـــا على مائدة التفاوض كما اعطي لودج تعليمات مشدّدة بتجنب الاعلام والدعاوة عن الماضي وتوكيد فرص السلام والأمل للمستقبل .

ولكن هذا الجو الايجابي لم يخلُ من صعوبات كان ابرزها تصلّب الفيتناميين الشماليين في قبول معالجة الازمة عبر المسلكين المنفصلين : السياسي والعسكري،وكانوا يصرّون على ترابطهما الكامل ويجعلون اسقاط نظام تيو شرطاً اساسياً، وكذلك يصرون على انسحاب الولايات المتحدة دون قواتهم من الجنوب . وفي رأي كيسنجر الذي ابداه لاحقاً انه لو قبـــل الفيتناميون الشماليون بفصل الشأن العسكري عن الشأن السياسي لكانوا سيطروا على الجنوب في فترة وجيزة وكانت المخاطرة بالنسبة لاميركا لا تحدّ .

اما السبب الثالث لتفاؤل كيسنجر فيعتمد على معلومات المخابرات التي كان يتلقاها من الجنوب ومفادهـــا ان عدداً من الوحدات الفيتنامية الشمالية اخذت تنسحب شمالاً .

وفي ٣٠ نيسان بدت ايماءة من تران بوكييم احد مؤسسي جبهة التحرير والمفاوض الاول في باريس من قبل الجبهة ان لا مانع لدى الجبهة من البحث مع جميع الاطراف لجعل مؤتمر السلام يتقدّم . وكانت هذه اول بادرة قبول من جبهة التحرير بالتفاوض مع نظام سايغون .

اما السبب الاخير لتفاؤل كيسنجر فكان « العملية ميني » وهو الاسم العسكري للقصف السرّي لكامبوديا – واصيبت تجمعات قوات فيتنام الشمالية في منطقة الحدود الكامبودية . وكان كيسنجر ، الى جانب الباعث العسكري لهـــذا القصف مهتماً بالباعث السياسي اذ قدّر ان هذا سيدفع الفيتناميين الشماليين الى مائدة التفاوض وهم أكثر ليونة من ذي قبـــل . وكانت عملية القصف هذه التي بدأت في ١٨ اذار ١٩٦٩ عملية واسعة وهائلة اشتملت على نحو ٣٦٠٠ غارة القي فيهـــا أكثر من مئة الف طن من المتفجرات على كامبوديا التي كانت الولايات المتحدة قد اعلنت احترام حيادها . ولم يفصح رسمياً عن القصف الاّ في ايار ١٩٧٠. وقبل ذلك احيط القصف بالسرية المشدّدة وسجلت الغارات على انهـــا غارات فوق فيتنام الشمالية على نحو لا يفهمه الاّ المطلعون في البنتاغون. أمّا لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ فقد خدعت بالتسجيل الرسمي .

وبرّر كيسنجر هذا الاخفاء والخدع بالتذرع بان دفع عجلة مفاوضات السلام في باريس افترض حمل هانوي على موقف أكثر مرونة ، وان القصف استهدف ذلك ولكن لو أعلن عنه في حينه لكان اعتبر في الولايات المتحدة توسيعـــاً لرقعة الحرب الجغرافية وقوبل بالتنديد والرفض. وفي الواقع ان كلّ الاطراف كانت عالمة بالقصف: المعتدون والمعتدى عليهم على حدّ سواء ، ما عدا الشعب الاميركي الذي ابقي في الظلام. وكانت اولى المعلومات التي تلقاها الشعب تلك التي جاءته عن طريق الصحافة .

ونزل الخبر نزول الصاعقة على نيكسون وكيسنجر اذ أظهرهما بمظهر المرائين الذين يرفعون شعارات السلام اللفظيّة ولكنهم عملياً يوسّعون رقعة الحرب. وانصبّ جزعهما على انتكاسات توقعا حصولهــا على الجبهة الديبلوماسية . وكانت لدى كيسنجر اسباب أخرى للقلق تعود الى شكوك بطانة البيت الابيض الحائمة حول معاونيه في مجلس الامن القومي وامكـــان تسريبهم المعلومات . وهكذا وجد كيسنجر نفسه في موقف الدفاع عن الذات . وتوكيداً لولائه انضم الى الباحثين عن مسرّبي الاخبار وقبــل بعملية التلصلص على مخابرات سبعة من معاونيه في مجلس الأمن القومي من قبل « الاف بي اي » ، واستمرّ هذا التلصلص من ايار ١٩٦٩ الى شباط ١٩٧١ .

وفي ايار كان كيسنجر واثقاً من ان الوقت قد حان لمبادرة اميركية رئيسيّة تطبع المفاوضات باثرهــا . فأعدّ خطاباً رئاسياً لاواسط ايــار . كتب كيسنجر مسودتــه الاولى ، وعيّن الرابع عشر مــن ايــار موعداً لالقائه . وقبــل ساعة استدعى كيسنجر السفير السوفياتي الى مكتبه وقدّم له سلفاً نسخة من الخطاب الرئاسي واخذ يبيّن للسفير الامكانـــات الجديدة التي يطرحهــا واشــار الى فقرة فيه تقول : « ان افدح الاخطاء ترتكب اذا ما اختلط فهم المرونة على انها الضعف ، وان التباطوء في الوصول الى حل واستمرار الآلام الراهنة قد يؤدي الى قرارا ت أخرى . ولن يربح أحد من استمرار التأخير » . وبكلام اوضح قال كيسنجر ان هذا يعني انه اذا لم يتوصل الروس الى تسوية فان الولايات المتحدة ستصعّد الحرب .

اما خطاب نيكسون فقد تضمّن رفض اعتماد الحل العسكري المجرّد كما رفض مطالب المعسكر المعادي للحرب في الولايات المتحدة والتي تدعو الى التخلص من الرئيس تيو والاتفاق على حكومة ائتلاف في فيتنام الجنوبية . ولخصّ كيسنجر للصحافيين الموقف بقوله : « اننا نعرف الفارق بين تسوية مشرّفة وهزيمة مقنّعة » . وكـــان ابرز معالم السياسة الاميركية التي أكدها نيكسون في طرحه الجديد هي :

١ – لا قواعد ولا روابط عسكريّة للولايات المتحدة في فيتنام في المستقبــل .

٢ – لا مانع لدى الولايات المتحدة من اتباع فيتنام الجنوبية سياسة الحياد اذا شاء شعبهــا ذلك .

٣ – يجب تمكين جميع الفرقاء السياسيين في فيتنام الجنوبية من المشاركة الكاملة في الحياة السياسية شرط ان يتخلّوا عن العنف. كما ان الولايات المتحدة تقبل باي حكومة يختارها شعب الجنوب اختياراً حرّاً . ولن تفرض الولايات المتحدة اي حكومة على فيتنام الجنوبية .

٤ – لا مانع لدى الولايات المتحدة من اعادة توحيد البلاد اذا كـــان هذا هو خيار الشعب .

تقدم بعدها نيكسون بثماني مقترحات لتسوية الحرب هي اقرب ما تكون لمقترحات روكفلر في ١٩٦٨ ، مما يدل على مساهمة كيسنجر الاساسي فيها . وتتلخص بانسحاب جميع القوات الاجنبيّة من الطرفين المتحاربين وقيام هيئة اشراف دولية مقبولة من جميع الاطراف لتحقق انسحاب القوات . وتتولى هذه الهيئة ترتيب حالة وقف اطلاق النار في كل البلاد . كما تعاون هذه الهيئة في التهيئة للانتخابات وفق اجراءات متفق عليهــا ، ويجري اطلاق سراح اسرى الحرب في وقت مبكر . واخيراً يتفق جميع الاطراف على التقيّد باتفاقات جنيف لسنتي ١٩٥٤ و ١٩٦٢ .

لم يتوقع كيسنجر ان تولدّ خطبة الرئيس العجائب العاجلة ولكنه كـــان مغتبطاً بإقدام الولايات المتحدة اخيراً على ايضاح اهدافهــا وآمالهــا بصدد فيتنام وعقد الآمال على ان تدرس هانوي هذا التصريح بالدقة نفسهــا التي صيغ بهــا .

اما المبادرة الاميركية الرئيسية التالية فقد تمت بعد بضعة اسابيع عندمــا أعلن قرار الشروع بانسحاب القوات الاميركية مــن فيتنام الجنوبيّة . واثار هذا القرار مشادة كبرى في اميركا، فمن جهة رحب به الشعب الاميركي ولكـــن الاعتراضات اتت من هيئة الاركان المشتركة ومن نظام سايغون . اتفق على ان تكون الدفعة الاولى في حدود متواضعة : ٢٥ ألف جندي. ولكن نيكسون وكيسنجر في تشوقهمــا للتفاوض مع الفيتناميين الشماليين لم يغفلا حليفهم في الجنوب . كـــان كيسنجر حريصاً على الحلفاء ، وسبق له ان انتقد سياسة اميركا في فرض الامر الواقع على سايغون واستنكر اغتيال الرئيس ديم في الانقلاب الذي شجعت عليه الولايات المتحدة في ١٩٦٣ واعتبره خطيئة رهيبة .

واظهاراً للتضامن قرر نيكسون مقابلة تيو في جزيرة « مدوّي » الواقعة في منتصف الطريق بين واشنطن وسايغون حيث جرى هناك اعلان انسحاب الدفعة الاولى من الجنود الاميركيين . وكان القصد مزدوجاً من اقتران الاعلان بلقاء تيو ، فمن جهة أكد استمرار دعمه من واشنطن ومن جهة ثانية التثبت من حصول دعم الجناح المحافظ في الكونغرس لسياسة الرئيس الجديدة . وفي الطريق الى مدوّي توقف نيكسون ومعه كيسنجر وروجرز وسواهما ، في هاواي لاعلام الجنرال كيرايتون ابرامز قائد قوات الولايات المتحدة بالقرار المنوي اعلانه . وكان رأي الجنرال ان يكون الجنود المسحوبون من فرق التموين لا من فرق القتال. اما على الجبهة الفيتنامية فقد جرى انسحاب ثان للقوات الفيتنامية الشمالية من الجنوب، واخذت القوات الشيوعية في الجنوب تنقسم الى عصابات صغرى ، وهبطت الخسائر بنسبة ملحوظة. وتساءل كيسنجر هل هذه اشارات جديدة بقبول التفاوض والتسوية . وكان اميل الى هذا التعليل بينما معظم مؤيديه كان يعتقد ان هذه مجرد عملية اعادة ترتيب القوات لهجوم جديد .

وكان كيسنجر يؤمن ، خلافاً لمعظم زملائه في البيت الابيض ، بجدوى المفاوضات . ذلك بأنه اكثر التصاقاً بجوّ الجامعات المعادي للحرب . وكانت حركة رفض الحرب قد بلغت حدّاً ادرك كيسنجر اتساعه قبل سفره الى ميدوي عندما دعي الى جامعة براون في رودايلند لتلقي درجة فخرية ، فادار له اكثر من نصف الخريجين البالغ عددهم تسعمئة طالب ظهورهم في عملية احتجاج و تحقير صارخة . وعاد كيسنجر الى البيت الابيض من الحفلة الجامعية وهو مصمم على اعادة الحوار بين البيت الابيض والجامعات بعد أن جوبه وهو ابن الجامعات بهذا الاحتجاج المهين . وشعر كيسنجر ان انعدام الثقة الذي بات يتحكّم في علاقة البيت الابيض بالجامعات هو نفسه يتحكّم في علاقته «بالطرف الاخر »، بالفيتناميين الشماليين . وكان يتمنى لو استطاع ردم الهوة واجتياز الجسر الى الطرف الاخر لاعادة الحوار الذي توقف في باريس .

وفي سبيل ذلك اشار على الرئيس قبل سفرته الثانية في منتصف تموز للقاء تيو في سايغون وزيارة رومانيا أول مرة ، ان يبدأ بالتراسل المباشر سرّاً مع هوشي منه ، مقترحاً على الرئيس الفيتنامي عقد اتصالات سرّية بين الفيتناميين الشماليين وكيسنجر في باريس . واقترح كيسنجر ان يحمل الرسالة جين سانتيني احد رجال المصارف الفرنسيين وموظف سابق في فيتنام وممن كانوا على علاقة طيبة شخصيّة بهوشي منه منذ ١٩٤٥ . وقبل سانتيني الذي كان يزور واشنطن المهمة وسلّم الرسالة الى رئيس بعثة السلام الفيتنامية في باريس . وبعد اسبوع جاء الجواب حاملاً موافقة هانوي على عقد اجتماع سرّي بين كسوان ثوي رئيس البعثة وكيسنجر في باريس . وتقرر ان يذهب كيسنجر الى باريس وبروكسل تحت ستار اعلام فرنسا والحلف الاطلسي بنتائج رحلة نيكسون . واحاط رجال الصحافة بكيسنجر يحصون تنقلاته في باريس . فوجدوه في السفارة الاميركية يتحدث الى لودج ،ووجدوه في فندق ماتينيون مجتمعاً الى رئيس الحكومة جاك شابان ديلماس ، وفي قصر الاليزيه يتشاور مع الرئيس بومبيدو . ولكن كيسنجر رغم هذا التطويق المضروب حوله من رجال الصحافة استطاع خرق الطوق ومقابلة كسوان ثوي في شقة سانتيني الباريسيّة في خلوة استمرّت ثلاث ساعات .وصحيح ان الرجلين لم يتوصلا الى نقاط محدّدة ولكن تبادل وجهات النظر كان في حدّ ذاته بداية حسنة.

غير ان لحظات مرّت في ذلك اليوم كادت تهدّد احتراف كيسنجر للديبلوماسية السريّة وهو لم يزل في بداية المسيرة . فقد تصدّت مارلين برغر مراسلة « النيوزدي » الديبلوماسية لكيسنجر وهو يغادر مبنى السفارة الاميركية في ذلك اليوم وطرحت عليه السؤال المحرج : « هل ستقابل سانتيني ؟ » وابتسم كيسنجر للوهلة الاولى ولم يحر جواباً . وانطلق بسيارة الليموزين غير متبوع . وحاول احد مساعديه ان يحمل برغر على تجاهل القضية ولكن عبثاً . وفي المساء حاصرت كيسنجر وهو منطلق من مطار اورلي الى بروكسل

وسألته مجدداً : « هل قابلت سانتيني ؟ » وجاء جواب كيسنجر الفوري بالنفي ثم استدرك بعد لحظات : « اجل قابلته ولكن الأمر لم يتخطّ نزهة عشر دقائق مشياً على الأقدام بين صديقين قديمين »، وطلب منها ان لا تحبك من المسألة قصة صحافية . غير ان مراسل « الاجانس فرانس برس » سمع محادثة كيسنجر – برغر وأعلن عزمه على الكتابة في الموضوع فلم تجد برغر مندوحة من زاوية المهنة الصحافية عن رواية الخبر ، فصدرت النيوزدي في الخامس من آب بعنوان « كيسنجر يقوم بنزهة ديبلوماسية » . واتصل صباح ذلك اليوم سفير الناتو روبرت السورث ببرغر راجياً عدم نشر لقاء كيسنجر بسانتيني فابلغته ان القصة دفعت الى الطبع . وتساءلت برغر بينها وبين نفسها عن هذا الالحاح من المسؤولين الاميركيين على عدم نشر قصة لقاء كيسنجر بصديقه سانتيني فلم تكن تعرف ما عرفته بعد سنوات من ان اللقاء لم يكن مع سانتيني بل مع كسوان ثوي مندوب فيتنام الشمالية . وكان قلق كيسنجر من ان يكون اطلاع برغر على لقائه مع سانتيني مفتاحاً لمعرفتها بالسرّ الاعظم . غير ان البراعة الصحافية وقفت عند حدود الدهليز ولم تخرقه الى الاخير .

بعد انقضاء ثلاثة اسابيع على لقاء كيسنجر وكسوان ثوي تلقت واشنطن نبأ موت زعيم فيتنام الشيوعي الاسطوري هوشي منه . ولم يكن احد يدري اثر موت هوشي منه في سياسة هانوي . ولقد اتخذ زعماء هانوي موقفاً مختلفاً عما توسّم كيسنجر ان تكون استجابة لعروضه التي جعلها ترشح من عدة عواصم عن استعداد اميركا للانسحاب بشرف، وعن ان التأخير يكون لمصلحة تقوية نظام سايغون.

في اواسط ايلول اعتبر الفيتناميون الشماليون في الوفد المفاوض في باريس ان اعلان نيكسون عن سحب دفعة ثانية مؤلفة من خمسة وثلاثين الف جندي من فيتنام الجنوبية مجرد افراط في التظاهر . وفجأة اندلعت ظاهرة جديدة لا في فيتنام الجنوبية حيث ركد القتال بل في كامبوديا المجاورة حيث اخذت الحشود الشيوعية في طريق هوشي منه تتصاعد وتكبر . وكانت أكبر هذه الحشود على بعد خمسين ميلاً فقط من سايغون . ساد القلق واشنطن،ورأى كيسنجر ان مذبحة حقيقية توشك أن تقع في عاصمة الجنوب وهو الأمر الذي كان يستبعده في مطلع السنة . واخيراً ، فان الجماعات المعادية للحرب في الولايات المتحدة اخذت تعدّ نفسها في طول البلاد وعرضها لمسيرة احتجاج جماهيرية كبرى تجتاح اميركا ضد الحرب في ١٥ تشرين الأول .

لقد حلّ الخريف في العاصمة وتبدّد زهر الربيع وانطوت ازهار الصيف المتفتحة امام اقتراب حقائق الشتاء القاتمة .

في الثالث عشر من تشرين الأول، اي قبل يومين من التحرّك الشعبي المضاد للحرب والذي كان موعده في الخامس عشر ، أعلن السكرتير الصحافي للرئيس، رونالد زيغلر، أن نيكسون سيلقي خطبة اساسية في ٣ تشرين الثاني موضوعها : فيتنام .

وكانت الصيحة ضد الحرب تتصاعد من المعاهد والجامعات في طول البلاد وعرضها ومن المعلّقين الصحافيين ورجال الكونغرس الجمهوريين والديمقراطيين على حد سواء ، حتى من الموظفين المحيطين بالرئيس . وبدا كأن أكثرية الشعب الاميركي تريد الانسحاب من الحرب في فيتنام دون سؤال عن الثمن ، بينما وجد نيكسون أن الثمن الذي سيدفع لتحقيق هذا الهدف هو جوهر الموضوع ، ولذلك رفض الانسياق مع الموجة العارمة المطالبة بالسلم باي ثمن وقرر شنّ هجومه المعاكس ضدها .

كان يراهن ، وهو السياسي الخبير بتموجات الرأي العام الاميركي ، على الوصول الى الأكثرية الصامتة التي تلتف عادة في الازمات حول الرئيس اذا ما عرف كيف يستنفر حسّها الوطني . وتخطّى نيكسون كتبة خطبه الستة فعكف بنفسه على صياغة الخطاب بعد ان طلب من كل من كيسنجر ووزيري الدفاع والخارجية والسفير بانكر في سايغون والسفير لودج في باريس تزويده بآخر المعلومات والتفاصيل عن الوضع السياسي والعسكري والديبلوماسي .

وكان يوم الخامس عشر من اكتوبر (تشرين اول) يوماً معبراً تعبيراً درامياً عن تصاعد المعارضة الشعبيّة لاستمرار تورط اميركا في تلك الحرب المقيتة التي لا تعرف لها نهاية . فقامت في طول البلاد وعرضها مسيرات صامتة واجتماعات وصلوات . وفي واشنطن سارت عشرات الالوف من نصب جورج واشنطن حيث توالى الخطباء ضد الحرب الى البيت الابيض في مسيرة سلمية . وفي عدد من المدن جرى تنكيس جزئي للاعلام كما علقت الصفوف في مئات الكليات والجامعات .

بعد ايام ثلاثة قصد كيسنجر هارفرد للاستماع من جهة الى مشورة بعض اصدقائه القدامى ومن جهة ثانية لاشعارهم بأن البيت الابيض يقيم لرأيهم الوزن والقيمة . فواجه هناك حملة عنيفة من زملائه القدامى. بعضهم قال له انه لم يعد ثمة فارق بين سياسته وسياسة سلفه روستو مستشار جونسون السابق، وآخرون وصفوا الحرب الفيتنامية بانها لا اخلاقية، وغيرهم قال بان مهلة الأشهر الستة التي اعطيت لحكومة نيكسون لانهاء الحرب قد انقضت . واجمعوا على الطلب الى كيسنجر ان يحمل الرئيس على اطلاق مبادرة سلام جديدة تحدّد على الاقل جدولاً زمنياً لانسحاب جميع قوات الولايات المتحدة من فيتنام .

يقيناً أن كيسنجر نقل مشورة هارفرد للرئيس ويقيناً ان الرئيس من جهته اغفلها اغفالاً كلياً لأنه كان يعتقد ان هارفرد هي العدو ، وكان يتصوّر على هذا الاساس ان رحلات كيسنجر اليها هي لجمع المعلومات من معسكر العدو قبل نشوب المعركة .

وانهمك نيكسون طوال الاسبوع الممتدّ بين ٢١ و٢٩ تشرين الأول في كتابة خطابه مستدعياً بين الفينة والفينة كبار معاونيه لأخذ مشورتهم . وكان رأي ليرد ان يركز الرئيس على الفتنمة، ورأي روجرز ان يركز الرئيس على محادثات السلام في باريس . اما كيسنجر فكان أميل الى خط التصلّب الذي اعتمده الرئيس . وكان كيسنجر يعتقد ان فيتنام الشمالية تسعى لتحقيق «انتصار رخيص» على حساب الولايات المتحدة وان ليس بوسعها تحقيق ذلك في حومة الوغى لذلك فهي تراهن على الموجة المضادة للحرب المتصاعدة داخل الولايات المتحدة متوقعة ان تحمل الكونغرس على خفض موازنة الحرب. ورأى كيسنجر انه اذا شاءت هانوي التسوية «فنحن مستعدون لملاقاتها في منتصف الطريق، أمّا اذا شاءت هزيمة الولايات المتحدة واذلالها فما علينا سوى الصمود» . وكان يوافق في هذا الصدد قول نيكسون «لا ارغب في ان أكون اول رئيس للولايات المتحدة يخسر الحرب» . في التاسع والعشرين من تشرين الأول استدعى نيكسون كيسنجر وقرأ له خطابه فكان تعليق المستشار انه يشك في أن يحظى هذا الخطاب بالاستماع .

وسّع نيكسون في اليوم التالي دائرة نقّاده واستدعى روجرز وليرد والنائب العام ميتشل واطلعهم على الخطاب فوافقا عليه . فاعاد قراءة الخطاب على كيسنجر مثنى وثلاثاً في اليومين التاليين مدققاً معه في كل جملة حتى انتهى الأمر بالمستشار الى تهنئة الرئيس بحرارة .

في التاسعة والنصف من مساء الاثنين الواقع في الثالث من تشرين الثاني خاطب الرئيس الأمّة . وكان كيسنجر عندما اختلى بمراسلي التلفزيون والراديو ثم بالمراسلين الصحافيين قبل الخطاب منزعجاً شديد التوتر لأنه توقّع موجة عارمة من الأسئلة الغاضبة عند اطلاعهم على نص الخطاب الموزع عليهم وذلك نظراً لعدم اشتماله على اي من مبادرات السلام التي كانوا يتوقعونها . ولكن الاسئلة المحرجة كانت قليلة .

قدّر عدد المستمعين الى نيكسون في الأمّة بنحو ٥٠ مليوناً وقد توجّه اليهم طالباً تأييدهم ودعمهم الجماعي لاعادة جميع القوات البريّة الاميركية الى الوطن الأمّ وفق جدول زمني منظّم ولكن سرّي . وكشف عن سلسلة من اللقاءات السريّة المباشرة وغير المباشرة مع الفيتناميين الشماليين منها ما جرى بواسطة الجنرال ديغول او المسؤولين السوفيات او مباشرة بالتراسل بينه وبين هوشي منه او لقاء السفير لودج مع كسوان ثوي في باريس . وقد أغفل ذكر مقابلة كيسنجر السريّة مع كسوان . ولكن كيسنجر كان قد لمح الى ذلك في لقائه مع الصحافيين اذ قال بان ما اميط عنه اللثام في الخطاب من

اتصالات فهي تلك التي وصلت الى طريق مسدود اما الاتصالات التي لها ادنى حظ من النجاح فقد ابقيت طي الكتمان حرصاً على نجاحها .

وكان خطاب نيكسون مقامرة كبرى. فهو امّا أن يصيب في فهم نفسية « الاكثرية الصامتة » فيربح مزيداً من الوقت لمساعيه في فيتنام ، او يكون اذا جانب الصواب كمن يلقي وقوداً على نار حركة الرفض للحرب التي اراد احتواءها . غير ان المقامرة على ما يبدو حالفها التوفيق فانهالت برقيات التأييد بعد خطابه وخطاب اغينو في ١٣ منه . قيل ان أمر التأييد الشعبي كان مدبراً سلفاً . ووصف اليوت ريشاردسون ، وكيل وزارة الخارجية حينئذ ، الرئيس بانه أكثر المقامرين جسارة .

اما كيسنجر فقد تصرّف بعد الخطاب كالحرباء في تلونه السياسي اذ كان يطري الخطاب امام المؤيدين بقوله : « رائع جداً ، لقد راهن الرئيس وربح ونحن الآن أحسن حالاً » . امّا في « جورج تاون » فكان يبدو متحفظاً ومضطرباً بل يهزّ رأسه موافقاً على انتقادات المنتقدين .

ولكن حقيقة موقفه ، خارج ردود الفعل الآنية ، كان الارتياح البالغ لاثر خطاب الرئيس في ملايين الاميركيين « وتحوّل الرأي العام تحوّلاً تاماً » على حد تعبيره . كما « ان الفيتناميين ليّنوا موقفهم ، وربحنا وقتاً جديداً» ليفعل كل من القنابل والديبلوماسية فعلها في حلّ احجية فيتنام .

لقد كان كيسنجر نسيج وحدة في البيت الابيض ليس بالنسبة للمواقف السياسية فحسب بل بصورته الاجتماعية الزاهية في الاندية العامة . ورغم ما كانت تعانيه حاشية نيكسون الداخلية من عقدة الحسد والحساسية ازاء طغيان صورة كيسنجر الاجتماعية في الاندية والصحف الاّ انه كان لتلك الصورة الزاهية أكثر من فائدة ظاهرة لمصلحة البيت الابيض. فقد ساعدت على تخفيف حدة الرفض والعداء السياسية بين الصحافة والمعارضة التي زرع كيسنجر في اوساطها أكثر من صداقة واقام أكثر من جسر .

غير ان حاشية الرئيس كانت موزّعة بين ادراكها للتأثير الايجابي الذي يخلّفه كيسنجر في الوسط الاجتماعي وبين الامتعاض من طغيان اسمه في العناوين احياناً على اسم الرئيس . « ان علاقة هنري بمعاوني الرئيس هي كعلاقة قيصر ببروتس » . هكذا عبّر بيتر بترسون عن تلك العلاقة الفريدة .

في كانون الأول ١٩٦٩ افادت أنباء موسكو بان هانوي قد تكون راغبة في عقد محادثات جادة . ونقل الصناعي الاميركي سيروس ايتون من هانوي أن القيادة الفيتنامية الشمالية قد استعادت روعها بعد موت هوشي منه في ايلول ، وهي مستعدة لاستئناف المفاوضات.وفي ١٥ كانون الأول في اثناء لقاء مع رجال الصحافة تولى فيه كيسنجر ايضاح الاعلان الرئاسي عن الانسحاب الاميركي الثالث (٥٠ ألف جندي اميركي يتم انسحابهم

في ١٥ نيسان ١٩٧٠). تحدّث كيسنجر من جديد عن « ايحاءات في الجو » تشير الى رغبة هانوي في التفاوض .

ولكن الدلائل لم تكن مشجّعة اذ اشارت تقارير وكالة المخابرات المركزيّة بان مداخل التسلّل مكتظة أكثر من اي وقت مضى بقوات فيتنامية شمالية جديدة . وفي الوقت نفسه حملت صحافة هانوي على برنامج نيكسون « بالفتنمة » فادعت ان المقصود منه تمديد أجل الحرب . وتزايدت « الايماءات » ومعها تصاعد تشوّق كيسنجر للشروع في المفاوضات . واخيراً في كانون الثاني ١٩٧٠ جاءت الاشارة الجادة بالاعلان عن مجيء له دوك تو الى باريس لحضور مؤتمر الحزب الشيوعي الفرنسي في الظاهر، ولكن عملياً ليكون في العاصمة الفرنسية للشروع في المحادثات السرّية . وفي ٣١ كانون الثاني اطل الديبلوماسي الفيتنامي الثوري بشعره الفضّي من طائرة سوفياتية على مطار بورجيه في باريس وأعلن عن استعداده للدخول في « مفاوضات جادة » . وقرن ذلك بشنّ هجوم على الرئيس نيكسون واصفاً اياه بمن يدعو بالقول الى السلام بينما في الوقت نفسه يعمل لسياسة الفتنمة التي تطيل أمد الحرب .

غير ان كيسنجر نعت هذه الاتّهامات بانّها مجرد « لافتات » للاستهلاك الاعلامي. وسرعان ما فاز بموافقة نيكسون على السعي لعقد محادثات سريّة مع له دوك تو . وبعد اسابيع قليلة طار الى باريس لمقابلة المفاوض الفيتنامي . واخذ كيسنجر في الفترة الواقعة بين اواخر شباط ومطلع نيسان ١٩٧٠ يطير بين واشنطن وباريس ذهاباً واياباً فيعقد المقابلات السرّية مع له دوك تو التي تستغرق احياناً ثماني ساعات متوالية دون ان يتجاوز غيابه في المرة الواحدة عن واشنطن أكثر من أربعين ساعة .

وأتقن كيسنجر تقنية التخفّي بحيث كان يتعمّد الظهور في حفلات الكوكتيل والمناسبات الاجتماعية قبل غيابه السريع وبعد رجوعه . وساعده الرئيس على اتقان تقنية التخفّي باصطحابه معه الى كامب دافيد في عطلة الاسبوع ثم يغادرها كيسنجر بالهليكوبتر الى مطار أندروز الحربيّ خارج واشنطن حيث تقلّه طائرة نفاثة الى المطارات الحربيّة في المانيا الغربيّة وفرنسا .

وكانت هذه الرحلات السرّية الى باريس مرهقة جسدياً لكيسنجر ولكنه، رغم هذا الارهاق، لم يكن يشكو . وقد تعرّف جيداً الى المفاوضين الفيتناميين كسوان ثوي وله دوك تو بكل تراثهما الايديولوجي وصلابتهما العنيدة . فكان يقضي ساعات وهو يصغي تارة ، لما وصفه كيسنجر « بملحمة البطولة التاريخيّة الفيتناميّة » في حروب الاستقلال على مدى مئات السنين ، وطوراً للهجمات العنيفة على نظام سايغون مقرونة بمحاضرات ماركسيّة مطوّلة .

ورغم ذلك ففي رأي كيسنجر ان له دوك تو يملك الجاذب الشخصي والقدرة على

التصويب الى الهدف السياسي . وانه ، كما كان يقول كيسنجر : « بينما نحن نقاتل لانهاء الحرب فقد كان تو يقاتل في سبيل اهداف آمن بها منذ نعومة اظافره » . اما كسوان فذو اطلاع موسوعي ودقة في التحديد ولكنه يفتقر الى جاذبية تو ومقدرته السياسية .

ورغم الفارق الاساسي الذي كان يفصل كيسنجر عن تو الا ان طابع التهذيب ساد لقاءاتهما التي لم تكن تنفض الا بابتسامات متبادلة ولو على مضض . غير ان الركود سيطر على جو المحادثات حتى انه لم يحدث تقدم في أكثر المسائل جزئية . وفي نيسان وجد كيسنجر انه من العبث الاستمرار في المفاوضات . وساد اعتقاد في اوساط واشنطن الرسمية شمل كيسنجر ايضاً في ذلك الحين ، بان الفيتناميين الشماليين مصممون على شن هجوم عسكري اياً كانت نتائجه على المفاوضات .

والواقع ان الحالة لم تكن ، في نيسان ١٩٧٠ ، قد نضجت بعد للتسوية السياسية . وزاد الأمر تعقيداً والطين بلة عندما قام انقلاب موال لاميركا في كامبوديا كان له تأثيره البالغ والبعيد المدى في مجرى التصرفات الاميركية في جنوبي شرقي اسيا ، كما ادى الى تأخير استئناف المفاوضات بين كيسنجر وله دوك تو أكثر من سنة .

كامبوديا : مبدأ استخدام القوة

يتذكر احد الديبلوماسيين في فنوم بينغ انه في صباح ذلك اليوم ، ٧ كانون الثاني ١٩٧٠ ،وبينما هم في وداع الامير سيهانوك على المطار وهو يهم بالسفر الى اوروبا اقدم الامير على تصرف بدا مستهجناً . اذ بعد دخوله الطائرة خرج منها ووقف على بابها وكأنه يلقي بنظرة وداع اخيرة على بلاده . كما يذكر ديبلوماسي غربي انه قال : « انا متعب انا متعب ». وقال لاحد مودعيه من الكامبوديين « انك احد الذين يرغبون ان لا اعود البتة الى بلادي »،وتضاحك الموجودون ، وكانت الضحكة الاخيرة .

بدأت الاضطرابات وسيهانوك في فرنسا . وبدأت القصة بتظاهرات قامت بها فرق من الشرطة العسكرية متنكرة في ثياب مدنية امام مكاتب بعثات الفيتكونغ وجيش فيتنام الشمالية في عاصمة كامبوديا مطالبة بانسحاب هذه القوات من البلاد . واستنكر سيهانوك هذه المظاهرات وادانها على التلفزيون الفرنسي ناعتاً اياها بانها من تدبير وكالة المخابرات الاميركية مع اليمين الكامبودي « لادخال البلاد في المعسكر الاميركي » .

في البداية اعتقد الناس قياساً على صيت الامير سيهانوك في الدهاء السياسي ان التظاهرات من صنعه وترتيبه للضغط على موسكو وبكين حتى تضغطا بدورهما على هانوي « لاحترام » الحياد الكامبودي . وعلى اي حال فانه لم يهرع الى بلاده بل

تابع سفره الى العاصمة السوفياتية . ولكنه اخطأ التقدير ، فان سحر شخصيته وزعامته ما كانا ليمتدا عبر القارات لاجهاض حركة الاضطراب .

وفي ١٨ آذار قام المارشال لون نول معاون الامير سيهانوك لسنوات طويلة، بتدبير انقلاب على اميره مدعوماً باقلية صغرى من الارستقراطيين وضباط الجيش ورجال الاعمال . ووصفت الحركة « بانقلاب الطبقة العليا » ، وانهى الانقلاب سياسة الحياد الكامبودي التي انتهجها سيهانوك والتي جنبت بلاده الحرب .

وما ان علم سيهانوك بحركة الانقلاب حتى تابع سفره الى بكين حيث اقام حكومة منفى . اما الانقلابيون فاقدموا على ما حذر منه سيهانوك ، فحولوا حياد كامبوديا الى انحياز مضاد للشيوعية ووجدت البلاد نفسها فجأة وقد تورطت في الحرب المندلعة على الجبهتين الداخلية والأجنبية . ولما كان « المتطوعون » الكامبوديون من القلة وعدم التدريب بحيث لا يستطيعون الصمود في وجه قوات الثورة المدعومة من الفيتكونغ وجيش فيتنام الشمالية فقد أقدم لون نول على طلب مساعدة الولايات المتحدة .

ووجد عسكريو الولايات المتحدة في الانقلاب الكامبودي المخاطر الكامنة من جهة والفرصة المتاحة من جهة أخرى . اما المخاطر فتكمن في ما لو تحولت البلاد كلها الى شيوعية ، الأمر الذي يتيح لقوات فيتنام الشمالية والفيتكونغ حرية العمل على الحدود الكامبودية فتهدد بذلك سياسة « الفتنمة » . اما الفرصة ففي ما يتاح للاركان الاميركية من امكانات تنفيذ حلمها المرتقب في شن « المطاردة الساخنة » و« تمشيط » المخابىء الكامبودية لثوار فيتنام الذين صمدوا فيها في وجه سنة كاملة من القصف الجوي الكثيف .

في اول نيسان قدم الجنرال كرايتون ابرامز القائد العام في فيتنام الى مجلس الأمن القومي ثلاث خيارات لمواجهة الحالة المتفاقمة الخطورة في كامبوديا وهي تتراوح بين شن الغارات من جيش فيتنام الجنوبية على مواقع العدو داخل الحدود ، فالقيام بعمليات اوسع مدعومة بالمدفعية والقصف الجوي الاميركيين ، الى شن هجوم على نطاق واسع يشرف عليه مستشارون اميركيون .

وكانت المفاوضات بين كيسنجر وله دوك تو قد وصلت الى الطريق المسدود . وكان نيكسون الذي كبح جماح الرد الاميركي على قصف الشيوعيين لسايغون في مطلع ولايته ثم على اسقاط الكوريين الشماليين لطائرة التجسس الاميركية قد اخذ يخشى من ان يعتقد الشيوعيون بعد ان تفاقم خطرهم في كامبوديا في اواسط نيسان وأصبحت لديهم فرق عديدة تجوب البلاد من أقصاها الى أقصاها ، أنه حمامة سلام مغلوب على أمرها وعاجزة عن صد التوسع الشيوعي .

وفي ٢٠ نيسان ١٩٧٠ أعلن الرئيس عن موعد انسحاب دفعة رابعة من القوات الاميركية من فيتنام . هذه المرة عدد افرادها مئة وخمسون الف على ان يجري

الانسحاب في اول ايار ١٩٧١ . وهكذا كان الرقم كبيراً لاسترضاء حركة المطالبة المتصاعدة داخل اميركا بانهاء التورط في حرب فيتنام ، كما ان تاريخ الانسحاب جاء متأخراً ، نسبياً ، لطمأنة العسكريين الاميركيين في سايغون . وقرن نيكسون اعلانه بالانسحاب الموسّع بتحذير هانوي من العزم على اتخاذ اقسى التدابير واشدها فعالية اذا ما جرى ما يعرقل هذا الانسحاب . وفي اليوم التالي ، اي في ٢١ منه، بدأت المداولات في البيت الابيض التي انتهت بقرار التحرك الى داخل كامبوديا . وبدأ البحث يتركز على خطة ينفذها جيش فيتنام الجنوبية وتقضي بشن هجوم على المواقع الشيوعية داخل كامبوديا في باروت بيك . غير ان تفكير نيكسون تطور نحو توسيع الهجوم على كل المواقع الشيوعية واستخدام قوات الولايات المتحدة فيه . وكان ليرد وروجرز ضد المزيد من التورط الاميركي في الهند الصينية تحسباً لانعكاسات هذا التورط السلبيّة على الوضع الداخلي الاميركي الرافض .

اما كيسنجر الذي لم يكن يعقد الآمال على قدرة جيش فيتنام الجنوبية فقد وافق الرئيس على ضرورة الحيلولة دون الانتصار الشيوعي في كامبوديا بالتدخل الاميركي الذي كان يرى انه يحول من جهة دون هذا الانتصار ، كما انه من جهة ثانية ، يظهر للعالم الشيوعي مدى تصميم اميركا وعزمها وقدراتها . وكان في رأيه ان يقوم هجوم اميركي كبير على ان يكون محدود المهمّة والوقت ويعقبه بعد تنفيذ اهدافه انسحاب عاجل .

واقترح ليرد استمزاج بعض رجال الكونغرس . فتقرر الاتصال بستنيس الذي وافق بتردد على الهجوم الاميركي . وكان ستنيس رئيس لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ . وفي ذلك المساء بعد اجتماع لمجلس الأمن القومي جرى فيه درس هجوم جيش فيتنام الجنوبيّة على باروت بيك ، دعا كيسنجر خمسة من اعضاء المجلس الى مكتبه وكانوا انطوني لايك ، ونستون لورد ، ولورنس لين ، وروجر موريس ، ووليم واتز . وجرى نقاش عاصف ومتوتر بينهم وبين كيسنجر الذي تولى مهمة محامي الشيطان في تبرير فكرة الهجوم الاميركي على كامبوديا . وكان اعنفهم لايك الذي قال انه اذا ما تورط الرئيس لن يستطيع الانسحاب من كامبوديا فيكون هذا توسيعاً للحرب ، وموريس الذي قال هذه ممارسة جديدة في خط العبث ، وانه اذا ما ذهبنا الى كامبوديا فستسيل الدماء في شوارع الولايات المتحدة . وأعرب واتز عن اعمق التحفظات وقال : اذا تمت غزوة كامبوديا هذا العام فسيكون دور لاوس في العام المقبل وقصف هانوي لاحقاً . واستبد القلق بلين . غير ان لورد لم يفصح عن آرائه . واستغرق اللقاء ساعة . وعند انتهائه أعرب لايك وموريس عن رغبتهما في الاستقالة وكذلك واتز .

في صباح الخامس والعشرين من نيسان عقد كيسنجر اجتماعاً مع ارليخمان فلخّص له مشروع الغزو . ثم قابل لين على انفراد الذي كان اقل اعضاء مجلس الأمن القومي

انفعالاً ولكنه توصل الى قرار بعدم الاستمرار في العمل اذا ما وقع الهجوم، مقدماً حججاً تقول بانه لو رصدت نفقات الهجوم لبلوغ اهداف سياسية بعيدة في جنوبي شرقي آسيا لحقّق الرئيس نجاحاً اوفر من اجتياز الحدود الى داخل كامبوديا . هنا طلب كيسنجر من لين ان يدرس الخطة الكامبودية ويطرح تساؤلاته حولها بصورة منتظمة . فسهر ليلتها لين يؤدي هذا العمل . وقال فيما بعد انه كلّما طرح سؤالاً حول جدوى العمليّة ازدادت شكوكه وتصاعد قلقه . واعطى الاسئلة في اليوم التالي لكيسنجر الذي ارسلها بدوره الى البنتاغون . وقد قطعت احاديث كيسنجر – لين مخابرة هاتفية من الرئيس في كامب دايفد يطلب فيها من كيسنجر خطط وزير الدفاع لعملية فيش هوك (عملية الغزو الاميركي) . فطار كيسنجر على الاثر الى كامب دايفد حيث درس مع الرئيس الخرائط والخطّة ونتائجها وتوقّعات ردود فعلها في موسكو وبكين .

وفي مساء ذلك اليوم، ٢٦ نيسان، انعقد مجلس الأمن القومي بناء على طلب الرئيس وانفض دون ان يتخذ نيكسون فيه اي قرار . صباح الاثنين في ٢٧ نيسان انعقدت الحلقة الداخلية من مستشاري الرئيس معه . وقال له احد مستشاريه ان ملاعب الجامعة ستشتعل برفض الهجوم . فاجاب نيكسون : « اريد ان اسمع هذا الرأي الآن ، ولكن بعد اتخاذ قراري لا أريد سماعه ثانية لأنني اذا ما قرّرت أكون قد وازنت كل الامكانات وعزمت على دفع الثمن كاملاً » . ووافق ليرد بتردد اما روجرز فقال ربما يكون العسكريّون اقترحوا الخطة على سبيل استرضاء الرئيس . فازعجت هذه الملاحظة نيكسون وبادر الى الابراق الى الجنرال ابرامز طالباً « الحقيقة عارية من كل زخرف » . وطلب من كيسنجر ان يتوجه الى البنتاغون للحصول على الخطط النهائية قبل منتصف الليل، كما طلب منه التشاور مع السناتور جون وليامز من اعضاء لجنة الشؤون الخارجية وهو جمهوري محافظ . وقد عارض وليامز مشروع الهجوم .

وفي ليل ٢٧ نيسان اختلى نيكسون بنفسه طارحاً الاسئلة سلباً وايجاباً حول مشروع الهجوم على كامبوديا فلاحظ ان الوقت يمر سريعاً. واراد تجنّب الوقوع في حالة الغموض بالحسم . ولكن الحسم سيؤدي الى توسيع شقّة الانقسام داخل البلاد . وبينما هو في هذه المراجعة بلغه جواب الجنرال ابرامز وفيه ما طلب من « الحقيقة العارية من كل زخرف » : إنّ تدخّل القوات الاميركية ضرورة تفرضها الحرب .

وصباح ٢٨ نيسان استدعى نيكسون كيسنجر واعلمه بقراره القاضي باستخدام القوات الاميركية في كامبوديا . وتداول كيسنجر مع نيكسون حول المحاذير والايجابات فوجد الرجلان ان تقديرهما في هذا الصدد يتطابق . ولكن نيكسون قال انه رغم وعيه الكامل للمحاذير الآن انه اتخذ قراره ولا يود الرجوع الى بحثه مجدداً . ثم أعلم الرئيس هالديمان وميتشل ومن ثم كلاً من ليرد وروجرز . وكانت العملية مزدوجة : يبدأ

الفيتناميون الجنوبيون الهجوم على باروت بيك ليلة الثلاثاء بينما يبدأ الاميركيون هجومهم على فيش هوك ليلة الخميس . ويخاطب نيكسون الامّة في التاسعة من ليل الخميس نفسها . وما ان تقرر ذلك حتى استقال كل من واتز وموريس ولايك من مجلس الأمن القومي .

وقبل ساعات قليلة من توجه نيكسون بخطابه الى الأمة جمع كيسنجر معاونيه واعلمهم بقرار الرئيس في ارسال القوات الاميركية الى كامبوديا، ودعاهم الى الالتفاف حول الرئيس لا سيما وان القرار اتخذ بعد درس شامل للحالة، وان الضرورة الوطنية تقضي بالحفاظ على هيبة الرئاسة وتنزيهها، وان الرئاسة هي غير الرئيس الشخص . ودعا الذين لا يستطيعون المضي في هذا النهج الى الاستقالة . ولم يكن قد علم بعد باستقالات موريس ولايك الخطية .

ومن طرائف خطاب نيكسون التي اثارت ليرد وزير الدفاع الاميركي انه توعّد المكتب المركزي للعمليات الشيوعية في فيتنام الجنوبية الذي يدير الحرب باشراف هانوي. وكانت هذه القيادة متنقلة بين الغابات لا تستقر على قرار او تتمركز في ارض. وعبثاً حاول ليرد وكيسنجر حمل الرئيس على حذف هذه العبارة ولكنه اصرّ عليها. فقد كان يعيش شخصية تشرشل عند اعداد خطابه عن «الدماء والعرق والدموع»، او كينيدي عند نشوب ازمة الصواريخ في كوبا . غير ان كيسنجر عند لقائه بمراسلي التلفزيون والراديو بعد ساعة حذرهم من توقع اعتقال هذه القيادة رغم أن بالامكان تعطيل مواصلاتها ومؤونتها!

وتركز خطاب نيكسون على ان اعظم دولة في العالم اذا تصرفت من موقع الضعف تفقد ثقة اصدقائها وحلفائها، وبالتالي « العالم الحرّ » كلّه . ولم يعلم لون نول بالهجوم الاميركي الاّ بعد ان اجتازت القوات الحدود الكامبودية .

فجّر اعلان غزوة كامبوديا الموقف الداخلي في اميركا فانطلقت على ملاعب الجامعات التظاهرات، وارتفعت الاحتجاجات، وتنادى معارضو الحرب في البلاد الى مسيرة كبرى باتجاه واشنطن . وفي الرابع من أيار اقتحم الحرس الوطني حرم جامعة كنت حيث تمركز الطلاب . واطلق الحرس عليهم النار فسقط اربعة قتلى من الطلاب وجرح احد عشر طالباً . وحزّ في قلب كيسنجر ما حدث لأنه وجد اميركا ممزقة حول حرب لا يفهم احد اغراضها . فاسرّ لاحد اصدقائه ذلك المساء قائلاً : « احسّ ان الموت يلفّني . واذا كان لكل حرب ضحاياها فانا ضحية هذه الحرب » . غير ان هذا التفجع لم يعنِ انه لم يكن موافقاً على سياسة الرئيس في الحرب لأنه لم يحاول ثنيه بصورة جدية عن الهجوم . ولو انه كان معارضاً لكان استقال كغيره . وهذا تماماً ما طالبه به توم لهرر احد زملائه الجامعيين القدامى في كامبردج .

وكان كيسنجر يتذرّع امام اصدقائه بان ما يحمله على عدم الاستقالة انما توقعه ان تؤدي استقالته الى اصابة الرئيس بالذبحة القلبية وحلول اغنيو محلّه . الاّ ان هذه الذرائع كلّها

لم تكن لتجدي كيسنجر أو تقيه غضبة زملائه التي تجلّت في ٨ أيار عندما جاءه ثلاثة عشر من عمدة هارفرد وممن كانوا على صلة حميمة به طوال سنوات عديدة ، يستنكرون غزو كامبوديا ويتوجهون الى كيسنجر طالبين منه وقف « ذلك المجنون » عند حدّه .

وكان على كيسنجر ، ضمن سياسته في مدّ جسور الحوار مع الجامعات والذي اتخذه عهداً على نفسه في ٤ كانون الأول ١٩٦٨، ان يصغي لانتقاداتهم العنيفة متذرّعاً بالصبر ازاء التوتر الذي سيطر على جو اللقاء . وقد عبّر الاساتذة عن قلقهم من اتساع نطاق العملية لأنها عملية غزو لبلد اجنبي بكل معنى الكلمة وابعادها ، ثم انها من جهة ثانية ، كما عبّر عنها توماس شلينغ استاذ الاقتصاد ومؤلف كتاب « استراتجية الصراع » ، عملية حدثت دون مشاورة وزيري الدفاع والخارجية وزعماء مجلس الشيوخ بحيث انها تشكّل منحى خطيراً في نهج اتخاذ القرارات الرئاسية . وتوالى المتكلمون حتى ادلى الجميع بارائهم مرة واحدة على الاقل . قالوا له ان هذا التصرّف لا يبشر بقرب الانسحاب من فيتنام الذي سبق لنيكسون التعهد به . واصغى كيسنجر طويلاً ثم قال انّه يفهم ما يذهبون اليه من قلق ويقدّره ، ولكنّه سألهم ما اذا كانوا مستعدين السماح له بالادلاء بمعلومات سرية ليست للنشر ولا للاذاعة وهو بواسطتها يستطيع تفسير قرار الرئيس . فاجابه شيلنغ والآخرون بالنفي . عندها قال لهم بانه لا يستطيع ، والحالة هذه ، تفسير القرار تفسيراً وافياً، وان كل ما بامكانه القول هو طمأنتهم الى انه لم يغب عن نظر الرئيس الهدف الأصلي، كما انه لم ينحرف عن الجدول الزمني للانسحاب .

وقال فرانسيس باتور من معاوني جونسون السابقين في مجلس الأمن القومي انه اذا كان جونسون وروستو لم يستطيعا السيطرة على عملية تصعيد الحرب فانه يتساءل هل بوسع نيكسون وكيسنجر ، اياً كانت نياتهما، ان يفعلا ذلك ؟ ولقد حزّ هذا التشبيه في نفس كيسنجر . واسكت شيلنغ باتور . وكاد الجو في الغرفة يقترب من الأختناق كأنما الاوكسيجين قد نفد منه . وفي فتور صافح الجميع كيسنجر وانصرفوا . وما ان اقفل الباب بعد انسحاب آخر زملائه حتى القى بنفسه متثاقلاً في كرسيه وشخص ببصره من النافذة .

وتصاعدت موجة الاعتراض والرفض ضد سياسة الحكومة في الهند الصينية. حتى ان كل مؤسسات الدولة كما تراءت لكيسنجر ، باتت تحت الحصار . واحتدم النقاش الغاضب في الكونغرس حول تشريع يقضي بسحب القوات الاميركية من كامبوديا وتحديد صلاحيات الرئيس في خوض الحروب . وفي التاسع من ايار قام زحف شعبي من خمسة وسبعين الف متظاهر معظمهم من الطلبة الجامعيين بالتوجه الى واشنطن . وكانت تظاهرتهم سلمية ولكن مناخ الغضب الذي سيطر على المتظاهرين فاق ما كان في تظاهرة الخريف الماضي . وحاول نيكسون ان يفاجيء المتظاهرين فيختلط بهم

ويحدثهم احاديث شتى ولكنهم لم يتزحزحوا عن موقف الامتعاض والغضب .

في تلك الظروف العسيرة التي عصفت بالحكومة والرئيس لم يكن هالديمان ولا الريخمان على رأس عملية دعم الرئيس وتعبئة الادارة الى جانبه وشدّ ازره معنوياً بكل الطاقات والامكانات ، بل كان كيسنجر هو الذي ادّى هذا الدور بحماسة واندفاع . وتفولذت علاقة الرئيس به اذ وجده الى قربه صامداً بروحية عالية بينما كان الكثيرون ينفضّون من حوله . غير ان كيسنجر لم يستطيع حمل لايك وموريس وواتز واخيراً لين على البقاء . وكان كيسنجر في تلك المرحلة قد افصح عن اقتناعه بالمحافظة العميقة ، اذ كان يخش على البلاد من مصير جمهورية «فايمر» الهزيلة في المانيا. وكان يرى ان الالتفاف حول رئيس الجمهورية في الازمات هو الذي ينقذ البلاد، وان الانقسام والتناقض يؤديان الى سقوط الجمهورية. من هنا كان يطلق على معاونيه الذين استقالوا تعابير تهكميّة فيصفهم « بالقلوب النازفة » الذين تراجعوا عن مسؤولياتهم وانحرفوا الى اليسار . وكان يرى ان زملاءه في هارفرد قد فقدوا الرواية الشاملة للموقف وغاصوا في غضبهم على غزوة كامبوديا دون استيعاب اهمية الالتزامات الاميركية العالمية في الحفاظ على النظام العالمي ضد الطغيان والفوضى ، على حد تعبيره . وكان يرى فيتنام قد تكون مأساة من الافضل تجنّبها ولكن بعد التورط فيها لم يعد جائزاً لدولة عظمى من عيار الولايات المتحدة الانسحاب بمذلّة ، بل عليها السعي لحسن التخلّص الذي يحفظ الهيبة والنفوذ العالميين . وكان يرى ان المؤسسة في اميركا تنفض عن الرئيس كما انفضت مثيلتها عن الديموقراطية في المانيا ابان جمهورية فايمر ، وان المطلوب هو عودة التفافها حول الرئيس، وان تظاهرات الطلاب واعتراض الاساتذة يزيد في التمزق الداخلي الذي يهدّد الديمقراطية واميركا بالويل . ذلك بأن المجتمع الذي يتخذ قراراته في الشارع يكون قد افسح في المجال امّا للفوضى العارمة ان تسيطر او لقيصر ان ينبت ويمسك بيديه الزمام . ومن هنا كما قال كيسنجر لمجموعة من المحررين في هارتفورد :« ان المشكلة المطروحة الان ليست مشكلة هذا الرئيس بالذات بل مشكلة السلطة في المجتمع ككل . ونحن لو القينا نظرة الى تاريخ الرئيسين الاخيرين لرأينا ان احدهما قد اغتيل والثاني سحبت منه الثقة كلياً . من هنا لا تستطيع البلاد ان تشهد تدمير الرئيس الثالث اياً كانت الاعتقادات السياسية المناقضة » .

صمد كيسنجر في موقفه ولم ينقطع عن الحوار مع الطلبة والاساتذة محاولاً تفسير موقف الرئيس . كما عقد سبعة اجتماعات مع المراسلين الصحافيين في المدة الفاصلة بين شروع الغزو في ٣٠ نيسان وانسحاب القوات الاميركية في ٣٠ حزيران . وكانت دعابته وظرفه يعينانه على تدبّر الامور ومواجهة الحملات العدائيّة بالتي هي أحسن. فذات مرّة، في ٩ ايار ، ابان عقده مؤتمراً صحافياً، وجه اليه احد المحررين السؤال الاستفزازي

التالي: « انني لأتساءل من كان يكذب علينا وبالتالي بواسطتنا على الشعب الاميركي ؟ » فتوقف كيسنجر لحظة ثم اجاب « انني معجب بالروح الايجابية التي صيغ فيها هذا السؤال » . فعلا الضحك والهرج بين المراسلين والصحافيين .

وكان كيسنجر في لقاءاته هذه كلها يركز على نقاط اربع :

أولاً : انه لن يحدث التزام اميركي في كامبوديا على غرار ما حصل في السابق في فيتنام وان المهمة محدودة وسيجري الانسحاب في نهاية حزيران .

ثانياً : ان عملية كامبوديا قد خدمت قضية الانسحاب الاميركي من فيتنام بافساح المجال ستة اشهر على الاقل لترتيب هذا الانسحاب بصورة منتظمة يجري خلالها تعزيز جيش فيتنام الجنوبية وتقويته .

ثالثاً : كان يضع نفسه مكان الطلاب فيشاركهم آلامهم بقوله : « هؤلاء هم طلابي واولئك هم زملائي في الجامعات ، فليس الامر بالنسبة إلي مناسبة سعيدة ، ومن هنا نحن نقدّر وندرك غضب واهتمام المعترضين والمحتجين ونأمل ان يدركوا هم ايضاً ان الغضب والاهتمام ليسا مقصورين على فئة بل يشملان البلاد كلها بما فيها رجال الدولة . وانه اذا ما حدثت مواجهة بين شطري البلاد فلن يكون هناك غالبون ومغلوبون بل ضحايا » .

رابعاً : كان كيسنجر يلاحظ انه بانتهاء عمليات كامبوديا سيكون المجال اوسع لعقد مفاوضات توصلاً الى تسوية مشرفة في فيتنام لاسيما وان هانوي كانت قد اخذت تستدعي سفرائها في الخارج لاعادة النظر في الموقف .

وجاءت اخبار الجبهة مشجعة عن انجازات جيش فيتنام الجنوبية . فرغم المساندة الجوية الاميركية غير ان ثمة اسباباً غير عسكرية ادّت الى هذا الانجاز ، منها انه هذا الجيش يقاتل أول مرّة خارج فيتنام ويقاتل شعباً اخر غير مجهز ومدرب بحيث كان ينظر الفيتناميون الجنوبيون الى الكامبوديين نظرة الاميركيين الى الفيتناميين. وكان جيش الجنوب يعتبر نفسه منقذ كامبوديا . وادّى كرهه للكامبوديين الى ارتكاب عمليات نهب واغتصاب وقتل في اوساط السكان المدنيين وحصول ردود كامبودية ضد الفيتناميين المقيمين في البلاد .

اما نتائج القتال فيمكن وصفها بانها لم تكن في مستوى التطلعات . ذلك بأنه بعد انسحاب القوات الاميركية كانت نتيجة المعركة ان اصبح نصف البلاد على الاقل في ايدي « الجانب الاخر » وتحت سيطرته ، وبعد انقضاء ثلاث سنوات كانت قاذفات ب ٥٢ س لم تزل تقصف مواقع التسلل . وفي اواسط آب ، بعد أن القى الطيران المغير نصف مليون طن من القنابل – أكثر من ضعفي ما القي على فيتنام طوال عهد نيكسون – ارغم الكونغرس الرئيس على وقف القصف . وهكذا لم تضيق العملية الحرب

بل وسّعت نطاقهـــا .

اما بالنسبةإلى كيسنجر فان استخدام القوة الاميركية في كامبوديا لم يكن مسألة مناقبية بل امتداداً منطقياً لمبدأ استخدام القوة تعزيزاً لدور الدبلوماسية ، وهي في هذه الحالة ، تستهدف تحقيق الانسحاب الاميركي المشرّف من فيتنام . فقد كانت اميركا تعرض عضلاتهـــا على العالم الشيوعي من موسكو الى بكين الى هانوي لحمـــل فيتنام الشمالية على التخلّي عن حلمهـــا في السيطرة على الجنوب بالقوة .

وكان الوقت قد حان في نظر كيسنجر لمسعى جديد في سبيل عقد مفاوضات جديّة .

الخيبة في باريس

في اول تموز ١٩٧٠ بعد ان غادر آخر جندي اميركي كامبوديا صدرت عن الرئيس نيكسون اشارة علنية لهانوي عن استعداده لاستئناف المفاوضات ، وذلك بتعيين واحد من أكثر ديبلوماسيي البلاد خبرة واحتراما ، دايفد بروس ، لترؤس الفريق الاميركي المفاوض .

ومن جهة ثانية أخذ نيكسون وكيسنجر يعدان مقترحات جديدة تكون صالحة لتخطّي الطريق المسدود الذي وصلت اليه المفاوضات في الماضي . وكـــان فريـــق الدراسات الخاصة بفيتنام في مجلس الأمن القومي قد أعدّ ثلاثة انماط مختلفة لفريق اطلاق النار في عشرين مقاطعة من اصل أربع واربعين مقاطعة في فيتنام الجنوبيّة . وكان النمط الأول يدعو الى انسحاب قوات فيتنام الشمالية من فيتنـــام الجنوبية وهو الهدف الذي سعت لبلوغه على غير طائل الولايات المتحدة طوال سنوات . ودعا النمط الثاني الى تجمع قوات فيتنام الشمالية في مناطق محدّدة في فيتنام الجنوبية . اما النمط الثالث فقد دعـــا الى مجرد وقف اطلاق النار مفسحاً المجال لقوات فيتنام الشمالية ، خلافاً لوجهة نظر سايغون ، بالاحتفاظ بكل المناطق في الجنوب التي تسيطر عليهـــا عسكرياً .

وقد حثّ كيسنجر الرئيس على تبني هذا الخيـــار الثالث انطلاقاً من جهة ، لأنـــه اكثر واقعية وتعبيراً عن الوضع في ساح المعركة ، وانطلاقاً من جهة ثانية لأنـــه قد يحظى في النتيجة بموافقة هانوي .

وقد عارض هذا الخيار كل من الجنرال ابرامز والسفير بانكر في سايغون واعتبراه يشكّل خطرا على نظام تيو .

وكان نيكسون من رأي المعارضين . الاّ انه بعد عمليات كامبوديا لم يعد يرى في مثل هذا الاتفاق اذا ما تمّ اي تهديد لنظام تيو في سايغون اعتقاداً منه أن جيش فيتنام الجنوبيّة قد اثبت جدارته في كامبوديا وقدرته على الصمود في وجه كل المضاعفات .

وهكذا لم ينتصف الصيف الاّ كان اقتراح كيسنجر قد احتل مركز الصدارة بين خطط نيكسون .

وعمل كيسنجر بعد ان حظي مشروعه بموافقة نيكسون على تدبير لقاءات سريّة مع الفيتناميين الشماليين لحملهـــم على تبنّي مشروعه وتبيان فوائده التي تعود لمصلحتهم . فارسلوا كسوان ثوي في ايلول ١٩٧٠ الى باريس. وعبثاً حاول كيسنجر ابراز محاسن مشروعه وما يتيح من « فرص معقولة » لحصول هانوي على سلطة سياسية في الجنوب بواسطة الطريق السلمي المقترح . فقد كان يصطدم بتكرار وجهة نظر هانوي التقليدية بلسان كسوان الذي يبدو انه لم يكن مفوّضاً بخوض محادثات التسوية بل اقتصر دوره على الاصرار عـــلى وجهة نظر هانوي الرسمية التقليدية الداعيـــة الى ضمان واشنطن لانتصارهـــم السياسي في الجنوب قبل سماحهم للقوات الاميركية بالانسحاب . وكان بروس قد عرض رسمياً المشروع الاميركي الجديد للسلام والذي اشتمـــل على الانسحاب الكامل للقوات الاميركية ووقف اطلاق النار في المواقع التي يحتلهـــا الفيتناميـــون الشماليون دون انسحابهم منها، وعقد مؤتمر سلام دولي، واطلاق سراح جميع اسرى الحرب الفوري وغير المشروط . وعندما عرض كيسنجر المشروع عـــلى الصحافـــة سأله بعض الصحافيين اذا لم يكن مشروعه يشكّل تراجعاً عن صيغة الانسحاب المتبادل السابقة، لكنه كان يتهرّب من الجواب المحدّد فيقول « لم نتخل عن المبدأ ولكن المهم تحديد ماذا نعني بالانسحاب المتبادل » . وبقدر سعي كيسنجر لتمويه الأمر عن الشعب الاميركي سعى بالمقابـــل لإيضاحه بكامـــل جوانبه للفيتناميين الشماليين تارة بواسطة سفيري الاتحاد السوفياتي وبولونيا في واشنطن وطوراً بصورة مباشرة في محادثاته معهـــم . ولكن لم يشرف عـــام ١٩٧٠ على نهايته حتّى كـــان الأمل بالتوصل الى تسوية قد غاص في المجهول ، واضطر كيسنجر عشية عيد الميلاد عند مراجعته للسياسة الخارجيّة خلال عام ان يعترف امام المراسلين الصحافيين بخيبة في بطء المفاوضات وتعثّرها .

غير أن الجمود على الجبهة الدبلوماسية ادّى الى تحريك الجبهة العسكريّة . وكانت لاوس هذه المرّة هي الهدف حيث كانت طريق هوشي منه تعج بشبكة من القوافـــل المتسلسلة عبر الغابات على مدى مئات الاميال الى فيتنام الجنوبيّة . وقد حفز نيسكون على تبني هذا التحرك ما بلغه عن جدارة جيش فيتنام الجنوبية ومؤهلاته التي ابرزهـــا في غزوة كامبوديا ، فتقرر ان يقوم جيش الجنوب الفيتنامي بضرب قوافل طريق هوشي منه في لاوس وقطع التموين عن قوات الشمال في فيتنام الجنوبية تحت شعار ان نزف جيش هانوي في لاوس يوفر مزيداً من نزف قوات الجنوب والقوات الاميركية في فيتنام . ولم يكن بوسع نيكسون زجّ القوات الاميركية في عملية لاوس لأن تعديل

كوبر – شيرش الذي اقره الكونغرس حظر على الرئيس اي توزيط عسكري من من هذا القبيل . غير انه لم يكن ثمة محظور في استخدام الطيران فارسله بكثافة لدعم جيش فيتنام الجنوبية في زحفه الى لاوس الذي بدأ في ٨ شباط ١٩٧١ . ولولا التغطية الجوية الاميركية الكثيفة قصفاً ونقلاً وتموينا لما تقدمت الحملة الجنوبيّة شبراً واحداً داخل الحدود .

ولكن لم يكن لحملة لاوس ، رغم هذا الدعم الجويّ، حظ سابقتها في كامبوديا اذ التهمت نيران القوات الشيوعية كتائب الفيتناميين الجنوبيين الذين فرّت الوفهم من ساح المعركة مذعورة . وقاتل الفيتناميون الشماليون بضراوة حتى انهم كانوا يتقدمون على جثثهم المتراكمة دون توقف متعقبين عدوهم المنهزم . وانتهت حملة لاوس قبل أجلها المضروب فلم تبق أكثر من اربعة واربعين يوماً . ورغم هذا وصفتها قيادة جيش فيتنام الجنوبية « باعظم انتصار عسكري » واخذت تبرز الاحصاءات عن مقدار ما انزلته بالعدو من اضرار عدداً وعتاداً. وشدّ البنتاغون ازرها في اطراء العملية كنجاح آخر سجله جيش الجنوب. حتى كيسنجر جرفه هذا التفاؤل فلم يكتمه في تقريره الخاص الى الرئيس مطرياً الجيش الفيتنامي الجنوبي وقدرته على نقل الحرب الى مواقع العدو الخلفية التي يلوذ بها ، دون دعم القوات البريّة الاميركيّة . وتحضرنا هنا شهادة الملازم وليام كالي في محاكمة « ماي لي » اذ قال ان طريقة عدّ الضحايا بالرأس قد تشمل احياناً جندياً صريعاً او جاموساً او خنزيراً او اي كائن حي ارداه الرصاص .

ولم يتورع كيسنجر عن التلويح ولو بصورة مداورة بإمكان نقل جيش فيتنام الجنوبية الحرب الى الشمال وذلك بسكوته عن مثل هذه الاسئلة او اجابته بان « هذا ليس مرجحاً الان » وكأنه قد يصبح مرجحاً في المستقبل . وكان ذلك من قبيل الحرب النفسيّة للتأثير في هانوي .

وفي اذار ١٩٧١ قام كيسنجر على الجبهة الداخلية الاميركية بحرب نفسيّة مشابهة نعتته ماري ماك غروري المعلقة الصحافية في واشنطن بأنه «هجوم ربيعي صغير على حسابه». فاخذ يدعو الاقطاب المعارضين للحرب الى الإجتماع به بدءاً من توم ووليام دايفد والاخت الراهبة بفرلي بيل الى جورج ماك كفورن عضو مجلس الشيوخ والمرشح الديمقراطي للرئاسة الى اوجين ماك كارثي مرشح السلام في ١٩٦٨ واخيراً زميله القديم في هارفرد جون كنيث غالبرايث . وكان كيسنجر يأمل ان تساعده هذه اللقاءات وما يتخللها من تبادل في وجهات النظر على خلق تفهم لسياسة الحكومة غير الشعبيّة فضلاً عن امكان ربح وقت جديد يتاح خلاله للولايات المتحدة الانسحاب التدريجي من الهند الصينية .

وكان كيسنجر ينظر الى كل تشنيج تحدثه عملية عسكرية كمقدمة لمرحلة جديدة من المفاوضات . وهكذا طرح مشروع السلام المعروف بعد عملية كامبوديا . وما أن

انتهت عملية لاوس حتى حمل نيكسون على طرح مشروع سلام جديد يشتمل على بندين اضافيين اعتبرهما الجسر الذي يردم الهوة بين واشنطن وهانوي . اول هذين البندين اقتضى تحديد مدة الانسحاب الاميركي الكامل بستة اشهر بعد توقيع اتفاقية السلام وثانيهما التعهّد باستقالة الرئيس تيو بعد شهر من انتخابات عامة تجري في فيتنام الجنوبية .

ان هذا المشروع الجديد للسلام الذي لم يعلن عنه الاّ في كانون الثاني ١٩٧٢ والمفاوضات التي قامت على اثر التقدم به وتنقّل كيسنجر لاجرائها عبر المحيط الاطلسي ذهاباً واياباً من جديد بين واشنطن وباريس حيث التقى المفاوض الفيتنامي الرئيس له دوك تو ست مرّات ، كل ذلك اكدّ انه السيد غير المنازع للدبلوماسية السريّة . فمنذ آب ١٩٦٨ وهو يعقد المفاوضات مع الفيتناميين الشماليين ولم يستطع جيش الصحافيين الذي يلاحقه ان يظفر منه باي ايماءة تفضح السرّ الدفين . واستمر الحال على هذا المنوال في الدورة الجديدة من المفاوضات .

واعتبر كيسنجر ان طريق السلام بات معبداً ، بل انه قال « أكاد اتذوّق طعم السلام »، وكان يأمل بعد شرحه الوافي لفوائد المشروع الجديد أن يحظى بموافقة الجانب الفيتنامي الشمالي لاسيما بعد تبيانه ان واشنطن قصدت من هذا المشروع ان يكون مجزياً لهانوي، وهي تدرك انه بعد جلاء الجيوش الاميركية بعيداً نحو عشرة الاف ميل عن فيتنام وبقاء قوات هانوي في ارض فيتنام الجنوبيّة سيكون ذلك لمصلحة فيتنام الشمالية دون ريب . غير ان له دوك تو رفض المشروع وقال ان فيتنام الشمالية ترفض اي حل عسكري غير مشتمل على عناصر سياسيّة .

في اللقاء الثاني كشف له دوك تو النقاب عن مشروع فيتنامي للسلام من تسع نقاط . ووجد كيسنجر أول مرّة انه امام امكانات التسوية لأنها المرّة الاولى التي يتقدم فيها الجانب الآخر بمشروع من طرفه رغم ان كلاً من النقاط التسع هذه كانت من الغموض بحيث تحمل وجهتي النظر المتعارضتين. وفاجأ كيسنجر المفاوض الفيتنامي الشمالي باعلانه قبول مشروع هانوي اساساً للتفاوض، واخذ منذ ذلك الحين في وضع المقترحات الاميركية على اساس التسلسل الذي وردت فيه البنود التسعة الفيتنامية .

وقد توصل الجانبان بعد مفاوضات مضنية الى تضييق الهوة بين المقترحات الاميركية والفيتنامية عدا نقطتين : شروط الانسحاب الاميركي والمستقبل السياسي لفيتنام والجنوبيّة. وقد عمل نيكسون وكيسنجر في مشروع سلام اميركي معدل قصدا منه تخطّي الفروق بين الجانبين . وفي اللقاء الخامس عرض كيسنجر المشروع الجديد الذي كان يقع في ثماني نقاط على ندّه الفيتنامي. وأمضى الجانب الفيتنامي ثلاثة اسابيع في درس النقاط الثمان . وخلال تلك الفترة سقط احد البندين اللذين حاول الاميركيون

ايجاد حـــل لهما . ذلك بأن المشروع الاميركي الجديد تضمن تعهداً اميركياً بالوقوف على الحياد في معركة رئاسة جمهورية فيتنام الجنوبية وذلك في محاولة لتضييق الهوة بين الموقف الاميركي وموقف هانوي الداعي الى اسقاط الرئيس تيو .

غير ان تيو وجد نفسه مرشح تزكية بعد انسحاب المرشحين المنافسين له . اما البند الثاني فكان حول تحديد موعد الانسحاب الاميركي وقد تعهّد المشروع الجديد بان يكون في اول آب ١٩٧٢ شرط التوصل الى اتفاق في اول تشرين الثاني ١٩٧١ . وفي ١٣ ايلول جرى اللقاء السادس والأخير في هذه الدورة من المفاوضات بين كيسنجر وله دوك تو . وكانت خيبة كيسنجر ان الجانب الفيتنامي رفض المشروع الاميركي الجديد ، اولاً لأن التعهد بالوقوف على الحياد من معركة رئاسة الجمهورية في الجنوب قد اسقطه انسحاب سائر المرشحين امام تيو ، وثانياً لأن موعد الانسحاب الاميركي من فيتنام الجنوبية بدا مفرطاً في البعد . وهكذا وجد كيسنجر نفسه ازاء سوء تقدير لموقفه من جانب الفيتناميين الشماليين الذين توقعوا من كيسنجر معاونـــة هانوي عـــلى اسقاط تيو ، بينما كان كيسنجر يقترح الشروع « بعملية سياسية » مفتوحة لا تكون مثقلة باتجاه محدّد . وفي ١٣ ايلول وبعد فوات الاوان ادرك كل من الجانبين سوء تقديره لموقف الجانب الآخر . وعندما ادرك كل من الجانبين موقف الآخر انقطعت المفاوضات . فلا كيسنجر كـــان يريد اسقاط تيو ولا هانوي كانت تقبل باقل من ذلك . وسعى كيسنجر من جديد في ٢١ تشرين اول لعقد دورة مفاوضات جديدة في تشرين الثاني حول مشروع سلام جديد ولكن هانوي اجابت بان موفدهـــا سيكون كسوان وليس له دوك تو الذي زعمت انه مريض . فرفض كيسنجر ولم تجب هانوي وعادت المفاوضات الى الطريق المسدود . وجاء عيد الميلاد وقد تبددت مساعي السلام ولم يبق على الجبهة سوى ركام الضحايا. فقد بلغت خسائر الجيش الاميركي اربعة عشر الف قتيل واكثر من مئة الف جريح كما زادت خسائر الفيتناميين من الجانبين على هذا العدد كثيراً . واشتدت الحملة المضادة للحرب في البلاد مطالبة بتحديد موعد لانسحاب القوات الاميركية والتفاوض لبلوغ تسوية سلمية .

٧ – على الشفير في الاردن

لم يكن كيسنجر خبيراً بالشرق الاوسط قبل ان يصبح مستشاراً لنيكسون في كانون اول ١٩٦٨ ، ولم يكن قـــد زار بعد اي بلد عربي كما انه زار اسرائيل مرتين فقط . غير انه كان خبيراً بالعلاقات السوفياتية – الاميركية ، واصبح بصورة غريزيّة يبحث عن الحلول لكل مشكلة دولية في اطار علاقات الدولتين العظيمتين . ولم يكن يجد ان بالامكان استثناء الشرق الاوسط من هذا النهج ، اذ كان يعتقد ان كلاً من روسيا واميركا ملزم برعاية التسوية بين اسرائيل والدول العربيّة .

ولقد كان هذا رأيه طوال سنوات عديدة . ففي تموز ١٩٥٨ ، بينما كانت الحرب الباردة نمـــط العلاقات السائدة ، دعا وهو لم يزل في هارفرد الى ان تبادر الولايات المتحدة فتقترح اعترافاً يصدر عن الدولتين العظميين « بجميع الحدود » القائمة وضد « التغيير العنفي من الخارج » وان يحصل هذا في مؤتمر قمة . وكان كيسنجر عادة يعارض انعقاد مؤتمرات القمة إلاّ لغرض محدد واحد هو التصديق على قرارات حاسمة . من هنـــا جعلته متابعته للتطورات في الشرق الاوسط يقبل بهذا الاستثناء تحت وطأة الهلع من النتائج المترتبة عن تلك التطورات . فقد كان يعتقد ان ثمة امكاناً كبيراً لاقـــدام الرئيس عبد الناصر عاجلاً على مدّ سيطرته على الاردن ولبنان فينشيء جمهورية عربية متحدة عملاقة فيوُدي ، حسب تخوفات كيسنجر ، هذا الامتداد السريع للسيطرة الناصرية الى محاولة اسرائيل سبق الحوادث والاستيلاء على الارض قبل الآخرين فتوجه ضربـــة الى القاهرة ، وتهرع روسيا بحسب افتراض كيسنجر ، لنجدة مصر .

وعندما وصل نيكسون الى الرئاسة بعد عشرين شهراً ، كان الشرق الاوسط لم يزل منطقة تعاني اضطراباً حاداً . وفي اول مؤتمر صحافي عقـــده نيكسون في ٢٧ كانون الثاني ١٩٦٩ ، ارسل صيحة انذار : « نحن بحاجة الى مبادرات جديدة وقيادة جديدة من جانب الولايات المتحدة ، حتّى يتسن لنا تخفيف حدة التوتر في الشرق الاوسط الذي اعتبره خزان بارود شديد الانفجـــار ... انني اعتقد ان الانفجار التالي في الشرق الاوسط قد تنتج عنه مجابهة بين الدول النووية ، وهو ما نسعى لتجنّبه » .

وهكذا اذا كانت فيتنام هي المشكلة المركزية الثابتة الدائمة عند نيسكون فان الشرق الاوسط كان اخطر هذه المشكلات . كان مصمماً على ان الولايات المتحدة نفسهـا ملزمة بدعم اسرائيل – وتكون حصيلة الامر مواجهة بين الدولتين العظميين في المنطقة . غير انه بعد نحو عقد من الزمن، في مطلع حزيران ١٩٦٧ ، بدت مثل هذه المواجهات امكانات بعيدة . فقد حاول عبد الناصر سدّ مرفأ ايلات بعد اخراج مراقبي الامم المتحدة من سيناء . فلم تنتظر اسرائيل . وامر الجنرال اسحق رابين رئيس الاركان الاسرائيلي الطيران الاسرائيلي بشن هجومه على مصر ، فدمّر الطيران المصري في اقل من يوم واحد . وفي أقل من اسبوع استسلم العرب . فسيطرت اسرائيل في حرب الايام الستة على كل سيناء ومدينة القدس القديمة والضفة الغربية وقطاع غزة ومرتفعات الجولان وكان ذلك اذلالاً محرجاً للعرب ولحلفائهم السوفيات ايضاً . ولولا ضبط النفس فوق الاعتيادي والاتصال على الخط المباشر الأحمر بين الرئيس جونسون ورئيس الوزراء السوفياتي للقيام بمبادرة ناشطة لاندلعت الحرب. وقبل ان يتسلم سلطاته الدستوريّة ارسل نيكسون وليام سكرانتون الى المنطقة لينشر رسالته الدبلوماسية الداعية الى اعتماد سياسة التوازن والانصاف في المنطقة مما جعـل النبض يسرع في العواصم العربيّة وبعث القلق في تل ابيب . ثم عيّن جوزف سيسكو وهو موظف بارع في اختصاصه وذو حيوية نادرة ، مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الاوسط وجنوبي آسيا .

اسرع سيسكو الى وضع ورقة عمـل تحدّد السياسة الجديدة في الشرق الاوسط ، اصبحت اساساً لجلسة استغرقت يوماً كاملاً في بحث الموضوع في مجلس الأمن القومي في اول شباط ١٩٦٩ . كما اصبحت اساساً لسياسة نيكسون في الشرق الاوسط حتى اواخر ربيع ١٩٧٠ حين اتضح انهـا لم تكن مجدية .

كان مشروع سيسكو السياسي متعدد الاهداف . اولاً كان لا بد من احتواء صعود النفوذ السوفياتي في المنطقة . ثانياً كان لا بد من اقناع الدول العربية بأن نيكسون يريد ان يلزم جانب الموضوعية بكل دقة مبتعداً عن الانحياز متبعـاً سياسة العدل والانصاف . ولا بد من حمل اسرائيل بالملاطفة واللين على الانسحاب من الاراضي العربيّة المحتلّة مع تعديلات طفيفة في الحدود . وعلى الولايات المتحدة ان تقوم بمسعى مباشر لاقامة سلام « اصيل » ولا بد من اشراك روسيا في هذا المسعى البنّاء.

ايّـد نيكسون وروجرز وريتشاردسون و ليرد وهلمز ومعظم كبار الرسميين عرض سيسكو الذي كان كالمعتاد واضحاً وملمّاً بالقضية . « لقد آن الاوان » قال احدهم « كي تتوقف الولايات المتحدة عن القيام بدور محامي الدفاع عن اسرائيل في الشرق الاوسط » . ولكن كيسنجر لم يشارك المتحمسين حماستهم . لقد حضر اجتماع الاول من شباط لمجلس الأمن القومي كما كان يحضر كل اجتماعاته غير ان شكوكاً كانت تنازعه

في هذه السياسة . ففي رأيه ان نجاح سياسة سيسكو كانت تعتمد اولاً على درجة عالية من التعاون السوفياتي . وهنا كان يتساءل ما اذا كان الكرملين مستعداً لتوفير مثل هذا التعاون . وثانياً على ارادة كل من العرب واسرائيل تجاوز خلافاتهمـا الواسعة وهما لا يتبادلان كلمة واحدة فكيف يقبلان بحل « مفروض » .

وقال لنا كيسنجر « لقد كان رأيي الثابت أن عـلى احدنا ان يعرف متى يكون ناشطاً ومتى لا ينشط . لقد كنت دومـاً اعتقد انه لا بد من فترة جمود تدرك خلالهـا جميع الاطراف حدود ما تستطيع انجازه . هذا لا يعني ان لا يسعى المرء لتجاوزها. ولكني كنت دوماً اقـل تفاؤلاً من الاخرين بإمكانات الانطـلاق الحقيقي » .

لم يكن من عادة كيسنجر ان يكون على هامش ابحاث مجلس الأمن القومي ولكن بناء على اوامر نيكسون تخلّى عن الشرق الاوسط لروجرز وسيسكو.«عليك ان تعطي البيروقراطية شيئاً تستطيع ادعاءه ملكاً خاصاً بها » . وفضلاً عن هذا فهو آثر عن سابق تصميم ، خفض جناحه وعدم تولي اية مسؤولية مباشرة او سياسية في موضوع الشرق الاوسط تجنباً للحملات « المعادية للسامية » (١) التي انهالت من الاعلام العربي من قبل على ارثر غولدبرغ ويوجين ووالت روستو .

ورغم ان كيسنجر قد أرغم لاسباب متنوعة على القبول ، خلافاً لطبعه بالبقاء في الظل بعيداً عن الاسهام في هذه المداولات الحيوية، الاّ انه لم يتردّد في التمسك برأيه القائل بان لاسرائيل على الولايات المتحدة « الزامـاً تاريخياً » وان الحفاظ على اسرائيل هو في مصلحة الولايات المتحدة القوميّة . وهو لم يخف قط اهتمامه البالغ بالدولة اليهودية . وكما قـال لاحد اصدقائه المقرّبين : « اسمعني . ان من عانى ما عانيت لا بد وان يصبح ذا عطف خاص على بقاء دولة اسرائيـل » . وقـال لصديقه انه يعتبر اسرائيل دولة ملجأ لليهود .

وبينما شغل كيسنجر في تلك الاشهر الاولى من عهد الحكومة الجديدة باعادة تشكيل مجلس الأمن القومي وصياغة سياسة فيتنامية جديدة والتنسيق بين جوانب العلاقات المختلفة مع الاتحاد السوفياتي – بما في ذلك الاعداد الدقيق لمفاوضات الحد من انتشار الاسلحة الاستراتيجية – كان روجرز وسيسكو يواليان اجتماعاتهما بالسفير السوفياتي دوبرنين محاولين الظفر بموافقة الكرملين على خطوط مرشدة سوفياتية – اميركية مشتركة للسلام في الشرق الاوسط . وفي الوقت نفسه كـان سفير اميركا الى الامم المتحدة شارلز يوست يلتقي مع زملائه البريطاني والفرنسي والسوفياتي سعياً وراء

(١) يفهم الاميركيون بفضح علاقة بعض اليهود بالحركة الصهيونية وتآمرهم على المصالح العربية حملات معادية للسامية !..

هدف مشابه .

توصل الجانبان في اواخر تشرين الأول ١٩٦٩ الى اتفاق جزئي على الخطوط المرشدة . فقد قبل روجرز وجهة النظر السوفياتية ان ليس بوسع اسرائيل الاحتفاظ باي ارض من شبه جزيرة سيناء في التسوية النهائية ، بينما قبل دوبرنين وجهة النظر الاميركية بامكان اقامة مناطق مجردّة من السلاح تتوافق مع اهتمامات الأمن الاسرائيلي .

واتفق الطرفان على ان « الغزو لا يسبغ حقوقاً على احد ». « الحقوق لا تكتسب بالغزو » . ولم يكن نيكسون مستعداً لمقايضة وجود اسرائيل بالذات توصلاً الى اي اتفاق، غير انه بات جلياً للسوفيات أن نيكسون مستعد للتسليم في عدد من النقاط الأخرى . فقد كان بحاجة ماسة للتوصل الى اتفاق ليس لمجرد شغفه بالسلام في الشرق الاوسط ولكن ايضاً ليكون ذلك سابقة متوهجة يقتدى بها في عقد اتفاقات سوفياتية – اميركية اخرى حول الهند الصينية والحد من انتشار الاسلحة الاستراتيجية . غير ان المفاوضات تعثرت في مسائل كتوقيت الانسحاب الاسرائيلي والضمانات لأمن اسرائيل ووضع الفلسطينيين والقدس . وقد رفضت روسيا مقترحات روجرز حول هذه المواضيع. وبعد أن تسبّب التصلب السوفياتي بخيبة نيكسون قرر اذاعة « مشروع روجرز » فاشار على وزير الخارجية أن يميط النقاب عن مقترحاته في خطاب يلقيه في ٩ كانون الأول.

لم يفاجأ كيسنجر برفض روسيا كما انه لم يهرع لنجدة روجرز . والاسرائيليون بدورهم لم يفاجأوا بل استخدموا الرفض السوفياتي اداة ضغط توصلاً لشراء خمسين طائرة فانتوم نفاثة مقاتلة اضافية . ولاقى الطلب الاسرائيلي اذناً صماء من نيكسون. فقد تعهّد بالحفاظ على توازن القوى في الشرق الاوسط ولكنه رفض بيع المزيد من الطائرات لاسرائيل .

هنا حذّر كيسنجر نيكسون من أن اسرائيل قد تبدأ بمعاناة شعور اليأس وهي ترقب اشادة البناء المتواصل لمواقع الصواريخ السوفياتية المضادة للطائرات على الضفة الغربيّة لقناة السويس والتي يمكن استخدامها غطاء لعملية اجتياز القناة ، فتقدم اسرائيل على التفرد بعمليات عنيفة قويّة . وكان في انذار كيسنجر بعض الصحة ففي كانون الثاني ١٩٧٠ اخذت الطائرات الاسرائيلية تشنّ سلسلة من الهجمات الصاعقة على مواقع الصواريخ واهداف عسكرية اخرى في عمق البر المصري(١) قاذفة حتى ضواحي القاهرة نفسها .

واحس عبد الناصر بانه طعن في صميم كرامته . فطار سرّاً الى موسكو

(١) يتغافل المؤلفان عن قذف الاسرائيليين للاهداف المدنية في العمق المصري كمدرسة بحر البقر وسواها .

طالباً المزيد من العون العسكري . واستجاب الروس بطريقة مؤثرة . لم يكتفوا بارسال المزيد من العتاد العسكري – صواريخ سام ودبابات ونفاثات فوق الصوتية – بل تولوا دوراً مباشراً في عمليات الدفاع عن مصر . أخذوا يقودون الطائرات ويتولى رجالهم ادارة مواقع صواريخ سام وتغلغلوا في وحدات الجيش المصري حتى مستوى السرايا .

ارغم الاسرائيليون على التوقف عن غاراتهم المتوغلة في العمق وجدّدوا طلبهم للحصول على مزيد من طائرات الفانتوم النفاثة . وقام الجنرال رابين الرجل العسكري الذي اصبح سفير اسرائيل الى واشنطن في ١٩٦٨ باقامة اتصال مباشر سري بالبيت الابيض متوجهاً الى الرئيس بطلب المساعدة ومتجاوزاً وزارة الخارجية الاميركية . واصرّ نيكسون على رفض بيع الطائرات النفاثة . وبدل ذلك اصدر في مطلع نيسان ١٩٧٠ أمراً بمراجعة شاملة جديدة لسياسة الشرق الاوسط تتركز على الدور السوفياتي الجديد في العمليات في مصر ، وتفاقم الوجود السوفياتي البحري في المتوسط وامكان طرح مبادرة دبلوماسية أخرى تضع حداً لدورة العنف اللولبية في المنطقة .

غير ان كيسنجر هذه المرة لم يكتف بالجلوس الى طاولته مدوناً الملاحظات كما كان يفعل في جلسات مجلس الأمن القومي عند بحث قضية الشرق الاوسط بل اخذ يلعب دوراً أكثر فعالية وابداعاً في الكشف عن السياسة الاميركية.وقد وفّر التورط الروسي الجديد الاطار لمهمته الرسمية الاولى في الشرق الاوسط . وحاول روجرز وسيسكو التمسك بالتفويض السابق ولكن كيسنجر انتزعه منهما . وبدأ يدير التقييم الجديد لمجلس الأمن القومي للوضع في الشرق الاوسط.ولكن ذلك لم يستغرق أكثر من اسبوعين اذ استأثرت فجأة كامبوديا باهتمام الرئيس واهتمامه . وهكذا لم تطرح المبادرة الجديدة الاّ بعد ان تلاشت ازمتا جنوبي شرقي آسيا وانتفاضات الجامعات .

بالنسبة لكيسنجر بدت مشكلة الشرق الاوسط منقسمة دوماً الى مشكلتين : دمّل الصراع العربي الاسرائيلي من جهة وامكان المجابهة السوفياتية الاميركية الوشيك الوقوع من جهة ثانية . ولم يدخر اخصائيو وزارة الخارجية مناسبة الا واعلنوا فيها ان « كيسنجر يكاد لا يعلم شيئاً » عن الصراعات السياسية والتاريخية في المنطقة – المجابهة العربية الاسرائيلية المستعصية على الحلّ والمتربعة على النزاعات الدامية بين العرب انفسهم .

ولم يبد كيسنجر اي مسعى لمناقشة هذا الزعم بل كان في اغلب الاحيان يقرّ بمحدودية اطلاعه في هذا المجال ولكنه كان يضيف بمسحة من التهّكم : « صحيح ولكن كل علم الاخصائيين وبصيرتهم وخبرتهم لم تجد نفعاً في تحسين المناخ الفاسد في المنطقة » . كان كيسنجر يركز اهتمامه على « الصورة الكبرى » – استراتجية

الدولة العظمى ، مقاصد الكرملين ، ميزان القوى ، امكانات اندلاع حرب عامة من احتكاك لهيب الصدمات المحليّة . وكان راسخ الاعتقاد ان لا روسيا ولا اميركا تريد الحرب في الشرق الاوسط ولكن نظراً لانحياز كل منهما لفريق من الفريقين المتنافسين فامكان جرهما الى الحرب العامة حتّى رغم ارادتهما يبقى وارداً .

اوضح كيسنجر تفصيلياً وجهة نظره في لقاء عقده مع مجموعة من المحررين في ٢٦ حزيران في سان كليمنت — في احدى مساعي الحكومة لاقامة علاقات عامة جديدة وايجابية مع الصحافة بعد حملة كامبوديا . وتوالت هذه اللقاءات في ١٤ و ٢٤ آب و١٦ أيلول و١٢ تشرين الأول في نيواورلينز وسان كليمنت ثانية، وشيكاغو وهارتفورد على التوالي . وكان كيسنجر في كل هذه اللقاءات حين يتطرق الى تبيان اطار الجغرافية السياسية للمنطقة يستعين بمثل البلقان على سبيل المقارنة . « الكابوس المخيف ان احداً لم يتسبب بالحرب العالمية الاولى . اذ لم يكن احد يرغب في اندلاع تلك الحرب لحظة اندلاعها عدا النمسا والصرب . اما زعماء البلاد الرئيسية فقد ذهبوا جميعاً لقضاء عطلاتهم في تموز ١٩١٤ وما عادوا وانقضى اسبوع الا وكانت الحرب العالمية قد اشتعلت ». هكذا كان كيسنجر يقول للمحررين الصحافيين .

وكان الوضع في الشرق الاوسط متوتراً وبالغ التعقيد . ولم يكن ، على حد قول كيسنجر ، بالحالة البسيطة التي « يتواجه فيها الحق مع الباطل » . فقد كان تعداد سكان اسرائيل مليونين ونصف المليون وهي محاطة بدول عربية يبلغ عدد سكانها تقريباً ثمانين مليوناً . وكان لاسرائيل قوة بشرية مدربّة بينما كان العرب يملكون قوة بشرية هائلة بالامكان تدريبها . وكان بقاء اسرائيل يتوقف ، بحسب وجهة نظر كيسنجر ،« على قدرتها على توجيه ضربة قاصمة سريعة » . وأوضح كيسنجر انه في الظروف العادية « لو ان الخصمين متساويان في القوة ، فالمسعى مفروض ان يتوجه لايجاد توازن عسكري بينهما ، ولكن التوازن العسكري هو بالنسبة لاسرائيل الموت بعينه لأن حرب الاستنزاف تعني بصورة حسابية دمار اسرائيل » . اذن ، بحسب خلاصة كيسنجر « علي الاسرائيليين استهداف التفوّق » . ومثل هذا الوضع يفرض « معضلة مستعصية الحلّ » . فالعرب يرفضون فكرة التفوق العسكري الاسرائيلي . وهم لم يقبلوا على الاطلاق وجود دولة اسرائيل . والان بعد انقضاء ثلاث سنوات تقريباً على النصر الاسرائيلي في حرب الايام الستة ، يتابع كيسنجر عرضه : بدأ العرب يشعرون انهم كانوا « يعيشون تحت رحمة » الاسرائيليين وبالتالي يعانون خسارة « احساسهم بالكرامة . من هنا اخذوا يصبحون لا عقلانيين ويائسين». وفي تيار الخيبة الجارف المتصاعد هذا نمت وترعرعت حركات عربية راديكالية مثل « فتح » وغيرها من المنظمات الفلسطينية المتطرفة — التي عاهدت نفسها على قلب الانظمة العربية المعتدلة ثم تدمير

اسرائيل . وسعت هذه الحركات للحصول على الدعم السياسي والعسكري من الخارج وخصوصاً من البلاد الشيوعية التي عطفت على اتجاهات هذه الحركات المعادية للغرب والامبريالية. وكان العامل المزعج الجديد بالنسبة لكيسنجر قرار السوفيات في اذار ١٩٧٠ « بحقن المنطقة بقوتهم البشرية المحاربة ». بحيث انهم « بين شهر وآخر » اخذوا يبدلون ميزان القوى في الشرق الاوسط. كان لهذا القرار وقع المفاجأة التامة بالنسبة لنيكسون والاسرائيليين ولكيسنجر نفسه اذ اوجد خطر « امكان تحوّل شرقي المتوسط الى بحيرة سوفياتية » .

أطل هذا الخطر على نيكسون بينما كان يأمر القوات الاميركية باقتحام كامبوديا . وقام كيسنجر برسم المقارنة المتوازية لنفسه . فقال : « بالتأكيد يكون من السخافة الزعم أن ما قمنا به في كامبوديا استهدف التأثير في موقف الروس في الشرق الاوسط ، غير اننا كنا على يقين بان الروس سيحكمون علينا بمقدار التصميم والحزم اللذين يكتنفان انجازنا في اي مكان من العالم .

«ان ما يقومون به في الشرق الاوسط ايا كانت مقاصدهم يوجه اخطر تهديد في المدى البعيد لاوروبا الغربية واليابان وبالتالي لنا » .

ولقد كان ملفتاً للانتباه صدور مثل هذه العبارات القوية عن مستشار للرئيس له سلطان كيسنجر .وكان كيسنجر ينعم التفكير في امكان حدوث تغيير في الميزان الاشتراكي للقوى وفقدان آلة الصناعة الغربية لمورد النفط الذي تحتاجه اوروبا الغربيّة واليابان والى حد ادنى الولايات المتحدة . وكأنما هو يستشرف في رؤى لها أبعاد التكهن بالحوادث الاتية على نحو ما فعل في ١٩٥٨ : اذا ما استطاع العرب الراديكاليون بتشجيع من الروس السيطرة على لبنان والاردن ، وهو امكان مستبعد في صيف ١٩٧٠ ، عندها يصبح مخزون النفط الهائل في المملكة العربية السعودية عرضة للسقوط تحت السيطرة اليسارية . والمصير نفسه عندها ينتظر مشيخات النفط الغنية في الخليج العربي وبالنتيجة ايران . وتقذف اسرائيل عندها الى البحر بعد معركة مروّعة ، ويحرم الغرب من ثروة الشرق الاوسط وموقعه الاستراتيجي، ويختّل ميزان القوى العالمي بصورة لا تقبل الجدل لمصلحة الروس . وهكذا تفسرّ الاهمية القصوى للاردن ولبنان في تفكير كيسنجر الاستراتيجي .

وختم كيسنجر خلاصته الصحافية في ٢٦ حزيران بملاحظة ملفتة للنظر اذ قال : «اننا نسعى للتوصل الى تسوية تعزّز مكانة الانظمة المعتدلة لا الانظمة المتطرفة . ونحن نسعى لطرد الحضور السوفياتي العسكري،لا المستشارين فحسب بل الطيارين المقاتلين ايضاً قبل ان يتمركزوا في المنطقة بقوّة » .

« الطرد » عبارة عاد فكررّها كيسنجر صبيحة اليوم التالي اذ قال للمراسلين في خلاصة صحافية مطولة تالية انه خلال الحرب العالمية الاولى سادت نظرية حول

استئصال خطر الغواصات الالمانية . وهنــا قال بطريقة دراماتيكية : « اجعلوا المحيط يغلي فتطفو الغواصات الى سطحه وهكذا يكون طردهــا من المحيط » . وقد التقط موري ماردر المراسل الدبلوماسي « للواشنطن البوست » مغزى المقارنة فهرع يصدر الصفحة الاولى من الجريدة في ٢٨ حزيران بخبر من سان كليمنت يعزو فيه الى « رسميين حكوميين » التصريح بانهم يسعون « لطرد الروس من الشرق الشرق الاوسط ». وتلقي معظم زملاء ماردر من مكاتبهم المحليّة طلبات ملحّة بنفي الخبر او وتأكيده. فلم يصدر زيغلر اي نفي كما انه لم يكن بوسعه اصدار اي تأكيد.وانفجر غضب كيسنجر على « ماردر » واستمر نحو عــام كامل من بعدهــا يرفض التحدث اليه علماً بان ماردر كان من أكثر مراسلي واشنطن موضوعية — وذلك نظراً لأن قصة « الطرد » هذه تسببت بدفق من الافتتاحيات التي انتقدت كيسنجر لاستخدامه هذه العبارة القويّة .

وترددت عبارة « الطرد » في مكاتب وزارة الخارجيــة حول العالم كأنمــا هي صاروخ ضلّ هدفه . ولكن هل فعلاً كانت عبارة ضالة ام مسدّدة الى الهدف ؟ وهل كان كيسنجر يلمح ضمناً، في الساعات الاخيرة من المغامرة الكامبودية، الى أن الولايات المتحدة تتحرك عسكرياً ضد الوجود السوفياتي البشري في مصر ؟ ام ان اسرائيل كانت ستتحرك ؟ قطعاً شيء من هذا لم يكن سيحدث . ولكن اذا كان الجواب بالنفي فلم استخدم كيسنجر العبارة ؟

وبادر كبار موظفي وزارة الخارجية الى نشر عبارتهم الخاصة بهم: « اهمــال غير مقصود » . وقالوا للدبلوسيين السوفيات والمصريين ولرجــال الصحافة : « لقــد وقع هنري في خطأ غير مقصود كلياً » . اما البيت الابيض فوجّه بحماسة اقل الرسالة نفسهــا بلسان ناطق رسمي : « هنري لم يقصد أن الولايات المتحدة ستستخدم القوة لارغام الروس على الخروج » . والحقيقة ان هنري لم يقصد ان الولايات المتحــدة ستستخدم القوة « لطرد » الروس من مصر ، رغم انه لم يتورع عن طرح هذا الامكان في الاحجية الدبلوماسية . فجعل الروس يحارون ويقلقون . فقد كان ذلك تكتيكاً غير مألوف اغتبط به السفير رابين ولكنه روّع روجرز وسيسكو وسواهمــا من موظفي وزارة الخارجيّة لأنه تعدّى تقديرهم لحدود اللياقات الد بلوماسية .

أما كيسنجر فرأى انه يستشرف زمناً آتياً يقرأ فيه المصريون اشارات معينّة في الافق الدولي فيقررون بانفسهم « طرد » الروس . والواقع انه بعد سنتين وابان انعقاد قمة موسكو تبدل المناخ الدولي بصورة دراماتيكية. فحلّ جو الانفراج النابع من الوفاق السوفياتي ـ الاميركي محلّ جو المجابهة السابق . واحسّ المصريون بانهم خدعوا . وتوصلوا الى خلاصة مفادهــا ان المستشارين العسكريين السوفيات في مصر انما يخدمون مصالحم القومية الانانية ولا يهيئون مصر للحرب ضد اسرائيل. وخلال اشهر قليلة بعد قمة

موسكو، ادهش الرئيس انور السادات الذي خلف الرئيس عبد الناصر عند وفاته في ايلول ١٩٧٠ ، معظم المراقبين باصداره امراً باخراج الملاك العسكري السوفياتي المحارب من مصر كما اخرج عدداً كبيراً من المستشارين السوفيات. واحسّ كيسنجر عندهــا بتمام الرضى . فقد « طرد » الروس ، فعلاً .

لقد أطلق كيسنجر قذيفته بينما كانت الولايات المتحدة في الطور الاخير من اعداد مبادرة دبلوماسية جديدة . وهذه المبادرة كانت من نتاج سيسكو بينما كان كيسنجر منهمكاً في كامبوديا ولكنها اجيزت من مجلس الأمن القومي . وعرفت بمبادرة « وقف القتال والمباشرة بالمحادثات » . وقدمت الى كل من اسرائيل ومصر والاردن في حزيران . وقد اختلفت عن سابقتهــا من المبادرات في انها تجاهلت روسيا والامم المتحدة وكانت مبادرة محض اميركية .

وتركز الجزء المختص « بوقف اطلاق النار » منهــا على تحقيق هدنة تسعين يوماً على محاذاة قناة السويس.اما الجزء المختص « ببدء المحادثات » فقد دعا الى مفاوضات تعقد بين اسرائيل ومصر والاردن ترتكز على « التزامين محدّدين » بحسب قول سيسكو . اولهما التزام يفرض على مصر والاردن الاعتراف بحقّ اسرائيل في البقاء ضمن « حدود آمنة ومعترف بهــا وبعد سلام مع اسرائيل»؛ بينما الالتزام يفرض على اسرائيل قبول مبدأ الانسحاب علماً بان مسائل الحدودالجديدة والأمن الحقيقي تسوّى في المفاوضات .

ان هذه الشروط غير قابلة التصديق بالنسبة لشعوب كانت طوال عشرين عاماً اسيرة ظروف حرب مستمرة . غير انه نتيجة جهود سيسكو العنيدة وافق الاردن عليها ثم وافقت مصر في ٢٣ تموز واخيراً وافقت اسرائيل في ٣١ منه . وبدأ وقف اطلاق النار الهزيل على قناة السويس بصورة رسمية في ١٧ آب ١٩٧٠ بعد نوبة غضب وتوتر بين سيسكو وكيسنجر .

حصل ذلك على النحو التالي . في ٥ آب طلب كيسنجر من سيسكو ان يطرح بضعة اسئلة حول شروط وقف اطلاق النار . ولا يذكر كيسنجر ولا سيسكو تفاصيل الاسئلة غير ان تقارير ذلك الوقت افادت بان كيسنجر لم يكن راضياً عن بعض الاجراءات القاضية بالتثبت من مدى الحفاظ على وقف اطلاق النار . ولقد امتعض سيسكو الذي كان يجري مفاوضات على اساس مسؤولية الرجــل الواحد ، من تدخــل كيسنجر المتأخر . فافهم كيسنجر ان رجلاً واحداً يجري هذه المفاوضات اسمه جو سيسكو . فاذا نجح تكون الحكومة قد نجحت، واذا فشل عندهــا « لوثوا وجهي بالبيض واجلبوا مساعد وزير خارجية جديد غيري » . ولقد اثار تصميم سيسكو اعجاب كيسنجر بحيث بادر الى سحب شكاويه . وهكذا تعلّم الرجلان رغم خلافاتهما ان يحترم احدهمــا

الآخر (١) .

احد بنود وقف اطلاق النار في آب ١٩٧٠ نص على الامتناع من تحريك القوات او زيادتها على مدى خمسين كيلومتراً في اي من جانبي القناة . بتعبير آخر كان وقف النار يجمّد الاوضاع على حالهـا الراهنة . وقد اصرّ كيسنجر على ان يفهم المصريون هذا البند بوضوح تام وكذلك الروس . غير ان سيسكو في احاديثه مع كيسنجر كان يمانع بشدة ابراز « الدليل » على مدى فهم الروس لهذا البند ، واستمر كيسنجر يشكك في درجة التزام دوبرنين بهذا الجزء من تجميد تمديد وقف اطلاق النار . والواقع انه عندما فاوض روجرز بنود وقف اطلاق النار مع الروس لم يكن مبالياً في ايضاح هذا البند لدوبرنين ، وثمة امكان كبير ان لا يكون الروس قد فهموا هذا البند على حقيقته .

وكما دلت الحوادث فقد انتهك كل من الروس والمصريين هذا البند تقريباً منـذ لحظة بدء العمل بوقف اطلاق النار . فاقاموا مواقع جديدة لاطلاق الصواريخ وحرّكوا غيرها لتصبح أقرب الى القناة . وقد حدّد الاسرائيليون اماكن حصول هذا الخرق وشكوا الأمر بمرارة للاميركيين . وبعد أيام قليلة جلب رابين صوراً فوتوغرافية كدليل لكيسنجر. ولكن اسابيع اربعة انقضت قبل أن أكّد روجرز وسيسكو حدوث الانتهاك .

ورغم ان سيسكو كان قد علم بالأمر قبل اربع وعشرين ساعة من بدء وقف اطلاق النار في ٧ آب الاّ انه لم يصدر حتى ٩ آب أمراً الى طائرة التجسّس الاميركية يو ٢ بالانطلاق فوق القناة لالتقاط الصور لمواقع الصواريخ تمهيداً لتقرير مدى المخالفة . وقد زاد ذلك عملية التثبّت تعقيداً . وقال رابين لكيسنجر : يبدو ان الاسرائيليين قد صدّقوا أمر تنظيف جبهة القناة من الصواريخ استناداً الى مصادر الاميركيين ، وهؤلاء بدورهم نقلوا الخبر عن الروس». وبدا نيكسون موافقاً على هذا التحليل . فغضب على المصريين واحتفظ بقسط من الغضب على الروس الذين كانوا قد رفضوا « مشروع روجرز» في كانون اول ١٩٦٩ ، ثم نقلوا ملاكات بشرية مقاتلة الى مصر ، واخيراً خرقوا وقف النار المجمّد على القناة . هذا كله جعل نيكسون يتساءل ما اذا كان السوفيات يعتبرونه

---

(١) في كانون الثاني ١٩٧١ طلب سيسكو في احدى مراحل المفاوضات الى كيسنجر ان يحمل رابين على الاذعان لما يطلبه سيسكو منه من موقف على اساس ان هذه هي وجهة نظر الحكومة الاميركية الرسمية . وعندما سأل كيسنجر سيسكو عن مضمون ذلك الموقف رفض سيسكو الافصاح أكثر طالباً الى كيسنجر ان يدعمه مع رابين دون الاطلاع على الشروط المتداولة ، لأن المفروض فيه ان يثق بالمفاوض الاميركي الرسمي . فقال له كيسنجر تريدني ان ادعمك وانا معصوب العينين ! اجاب سيسكو : « اجل! ». صمت كيسنجر لحظة ثم قال : « يا ابن اللعينة سأفعل ما تريد! ». وفي اليوم التالي اتصل رابين بسيسكو معلناً له موافقة اسرائيل على ما طلب .

خصماً يسهل التغلب عليه .

يمكن التأكيد ان الروس حتى ايلول ١٩٧٠ ما كانوا يأخذون كيسنجر او نيكسون على محمل الجدّ . فقد كانوا يؤجلون بالتحايل والمواربة مفاوضات الحد من الاسلحة الاستراتيجية . وكانوا يظهرون بمظهر المحارب غير المتعاون في شؤون الهند الصينيّة . كما انهم ذرعوا بذور الاضطراب في الشرق الاوسط ، اذ بدأوا يتحدون المصالح الغربية في الاردن موصلين الازمة الى شفير الهاوية حتى انها كانت فترة تخطّت في خطورتها ازمة فيتنام. لقد سبّبت ازمة كامبوديا الازعاج للجميع ولكن نسبة المواجهة بسببها بين القوتين العظميين كانت ضئيلة جداً . بينما ازمة الاردن، من ناحية أخرى ، اثارت اشد مخاوف كيسنجر من أن تكون بلقاناً جديداً في ١٩٧٠ .

ان مشكلات الاردن هي ، الى حد ما ، نابعة من اسباب جغرافية . فالاردن مملكة صحراوية صغرى سكانها مزيج من البدو والفلسطينيين ، والعديد منهم من اللاجئين نتيجة حربي ١٩٤٨ و١٩٦٧ . ثم ان الاردن محاط باربع دول : اسرائيل وسوريـا والعراق والعربية السعودية ، وكل من هذه تمثل نسبة مختلفة من الخطر على نظام الملك حسين . وفي صيف ١٩٧٠ بلغ الجيَشان البطيء الذي بدأ منذ سنوات حدّ الانفجـار بحرب اهلية . ذلك ان المنظمات الفدائية الفلسطينية بقيادة فتح كانت مصمّمة على اسقاط نظام الملك حسين الميّال الى الغرب حتى يتسنى لها استخدام الاردن منطلقاً لغاراتها على اسرائيل. اما الحسين فكان مصمّماً على الحفاظ على الهدوء المتواجد على الحدود الاسرائيلية الاردنية . وبتزايد خيبات الفدائيين ومراراتهم صعّدو هجماتهم على الجيش العربي .

وهكذا انهارت اتفاقات وقف اطلاق النار بين الفدائيين والجيش الاردني الواحدة تلو الأخرى .

واخيراً في ٦ ايلول انفجرت الازمة عندما اختطفت احدى المنظمات الفدائية — الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين — ثلاث طائرات تجارية في اوروبا الغربيّة وارغمتها على الهبوط في مطار بريطاني مهجور قرب الزرقاء على بعـد خمسة وعشرين ميلاً شمالي عمّان . واحتفظت الجبهة الشعبيّة باربعمئة وخمس وسبعين رهينة معظمهم من الاميركيين العائدين من عطلتهم التي قضوها في اوروبا . وهدد الفدائيون بقتل هؤلاء السياح ونسف الطائرات ما لم يطلق سراح جميع الفلسطينيين المأسورين في غربي المانيا وسويسرا واسرائيل .

وحاول الحسين الرد ولكنه بدا عاجزاً عن مواجهة هذا التحدي المتصدّي لسيادته . وصعّدت الجبهة الشعبية هجماتها الارهابية على قوات الملك فاندلعت الحرب الاهلية في طول البلاد وعرضها . وبينما كانت الرهائن مكتوية بلهب الصحراء الحامية دون ان تدري بين اللحظة والأخرى ما اذا كان آسروهم سيقدمون على رميهم بالرصاص

كانت الامم المتحدة قد التمأت في جلسة طارئة دون التوصل الى حل للمشكلة . واخيراً في ١٢ ايلول نقلت الجبهة الشعبيّة الرهائن الى المخيمات الفلسطينية قرب الزرقاء ثم نسفت الطائرات الثلاث . وخلال الايام القليلة التالية اطلق سراح معظم الرهائن مع الاحتفاظ بخمس وخمسين راكباً يهودياً استمروا في عهدة الجبهة الشعبيّة حتى ٢٩ ايلول . وبعد ايام قليلة سحق الحسين الحركة الفدائية في الأردن وقد عاونه على ذلك بنسبة غير ضئيلة مزيج من الضغط الاميركي والتهديد العسكري الاسرائيلي .

في ١٥ ايلول كان عدد من كبار الموظفين بينهم كيسنجر وباكارد وهلمز وسيسكو ومورير يحضرون مأدبة عشاء رسميّة على شرف ليرد في وارينتن بفرجينيا . وعند الثامنة والنصف تلقّى كيسنجر مخابرة هاتفية من البيت الابيض . فقد جاء نبأ مباشرة من دونيغ ستريت رقم ١٠ — مقر رئيس الحكومة البريطانية — في لندن يفيد بان الملك حسين قد أعلن الحكم العرفي في الاردن واستبدل حكومته المدنية بحكومة عسكريّة من كبار الضباط مما يشير الى عزم الملك على سحق العصيان الفدائي . واعرب البريطانيون عن شعور القلق بخطورة الموقف .

صادر كيسنجر طائرة هليكوبتر تابعة للبيت الابيض وطار هو وبعض زملائه الى البيت الابيض فوصلوه عند التاسعة والنصف . وبادر فوراً الى عقد اجتماع للجنة الحالات الطارئة في مجلس الأمن القومي خصص لبحث هـذا الموضوع . فرأى البعض ان المرحلة الراهنة تبدو وكأنها مرحلة التصفية وحل العقدة المزمنة بينما رأى بعض المجتمعين ان الملك حسين يواجه اخطر التحديات ، وان انفجار الحرب الاهلية من شأنه أن يترك اثاره السريعة في المصالح الاميركية في الشرق الاوسط . وبعد الاجتماع الرسمي تابع كيسنجر وسيسكو مباحثاتهما حتى بعد منتصف الليل عندما انضمّ اليهما الرئيس . وكانت قد وصلت معلومات عاجلة من وكالة المخابرات المركزية تفيد بان المدرعات السورية يصحبها مستشارون سوفيات تحركت الى الحدود الاردنية . تلقى نيكسون مخابرة من لندن . وقام كيسنجر باستدعاء رابين . وبدا الأمر سيئاً ولكن احداً لم يكن يقدّر الى اي حد بلغ سوء الحال .

في السادس عشر من ايلول طار نيكسون وكيسنجر وسيسكو الى شيكاغو ليلخصا الوضع لمجموعة من المحررين في الغرب الأوسط . وكان الاردن يشغل أذهان كبـار الرسميين . وكشـف نيكسون اسراراً طالباً عدم اذاعتها او عدم اسنادها اليه . غير ان « الشيكاغو صن تايمز » خرقت الاصول المرعية ونشرت ما لم يبح نشره . ولكن المفاجأة المذهلة كانت عندما تلقّت الصحيفة اطراء البيت الابيض . والسبب في غاية البساطة : ذلك ان نيكسون كان قد قال بان الولايات المتحدة قد تضطر الى التدخّل في الاردن اذا هددت سوريا او العراق نظام الحسين.وكان يريد ان تسمع هذا الانذار المضمر كل من

موسكو ودمشق وبغداد .

اما سيسكو وكيسنجر فقد تحدثا عن « الخلفيّات » بمعنى انه ابيح للمحررين اقتباس اقوالهما ونسبتها «لموظفي الحكومة». وطرح على سيسكو سؤال محدّد وهوما اذا كانت الولايات المتحدة قد اعدّت خططاً للتدخل في الاردن . فاجاب بدقّة وحذر : « ليس ثمة خطط معدّة للتدخل » ، ثم اضاف جملة ماكرة خطرت له لاحقاً : « من الجلي انه من ضمن الروتين الطبيعي الاعداد لكل الاحتمالات الطارئة ووزن السلبيات والايجابيات لكل خطوة » .

ولم يفصح سيسكو عن نوازع القلق التي تعصف به بصدد الاردن بل وصف الحالة بمجملها للصحافيين بانها «قابلة للاصلاح» ، وركّز على دور الروس في خرق وقف اطلاق النار المجمّد على قناة السويس . وبدا ان حالة التردّد في ادانة التورط السوفياتي التي استحوذت عليه طوال شهر قد تلاشت الآن . قال « ان السوفيات متواجدون على ارض المنطقة وهم متورطون بقوة في الجمهورية العربية المتحدة بالتقنيين والمستشارين حتى برجال مؤهلين لخوض العمليات الحربيّة . وان الانتهاك الحاصل لوقف اطلاق النار لم يكن ممكناً دون مشاركتهم » .

اما كيسنجر فقد طرح تخميناته حول مقاصد السوفيات فقال : « بعض ما يحيرني بصدد التصرف السوفياتي حيال وقف اطلاق النار في الشرق الاوسط ، هو عندما احاول البحث عن المقصد الكامن وراء هذا التصرّف.لماذا سارع المصريون والروس الى انتهاك وقف اطلاق النار ، عملياً ، منذ اليوم الاول حتى الآن ، وعلى نحو فاضح ؟ صدقوني اني وجدت تفسير الأمر بمنتهى الصعوبة » .

في السابع عشر من ايلول زادت الحرب الاهلية في الاردن تفاقماً وخطورة . وشنّ نظام الحسين العسكري الجديد حملة كثيفة ضد الفلسطينيين المتطرفين في محاولة لاعادة تثبيت الهيبة والسلطة الملكيين . واقتربت المدرعات السورية أكثر الى الحدود الاردنية . واجتمع نيكسون مع كبار مستشاريه — كيسنجر وروجرز وليرد وهلمز وسيسكو ومورير وهيغ — لدرس الخطوة التالية الممكنة . وكان السؤال المطروح اذا ما اجتازت المدرعات السورية الحدود فهل تتحرك الولايات المتحدة ؟ واذا كان الامر بالايجاب فباي اسلوب ؟

كان ليرد قلقاً من استخدام القوات الاميركية في الشرق الاوسط . وكان اهتمام كيسنجر اقل نسبياً . اذ كان يرى ان على الولايات المتحدة الحيلولة دون انهيار الحسين — حتى لو اضطر الأمر الى تدخل عسكري اميركي . فلم يكن يخالجه ادنى ريب في انه اذا ما نجح الفدائيون مدعومين بالسوريين والعراقيين والروس بقلب الملك فسيوجه الاسرائيليون ضربة قوية الى العرب ويتعرض ميزان القوى في المنطقة

لتهديد مباشر . اشار موريز الى ان ثمة حدّاً لما تستطيع الولايات المتحدة تعبئته من قوى للتدخل . وطرح سيسكو مفارقة فيها خلاصة سخريات القدر : «ان التدخل الاميركي قد ينقذ الحسين في المدى القصير ولكنه يقوضه في المدى البعيد ويذهب بصداقته بين العرب الآخرين بحيث قد يكون من الافضل درس استخدام قوات اسرائيلية بدل القوات الاميركية لانقاذه».

في تلك الليلة اجتمع نيكسون بكيسنجر وسيسكو للاعداد لزيارة غولدا مئير في اليوم التالي . وكانت رئيسة الوزراء البالغة الثانية والسبعين قد وصلت لتوها الى نيويورك وسط ركام من التخمينات حول استفاقة اسرائيل من وهم الاعتماد على حكومة نيكسون. وكان الضيق يتحكم بالطرفين من موقف الآخر والثقة مهزوزة . وادرك نيكسون انه اذا ما طلب الى اسرائيل انقاذ الحسين فعليه تملق السيدة مئير . فقرر الموافقة على طلب اسرائيلي بمساعدة قدرها خمسمئة مليون دولار وارسال ثمانية عشر طائرة فانتوم نفاثة قبل الأوان المحدّد لتسليمها .

في الثامن عشر من ايلول اجتمعت مئير في واشنطن بنيكسون وكيسنجر ، ومرتين بروجرز وسيسكو . فبحثوا الازمة الاردنيّة بتفصيل واف ولكن نيكسون لم يقترح التدخّل الاسرائيلي بل اكتفى باعلام رئيسة وزراء اسرائيل بقرّاره بصدد المساعدة المالية والطائرات وحثّها على عدم اغفال فوائد الحوار الدبلوماسي مع مصر . فتعهّدت السيدة مئير بالتزام اسرائيل باحترام وقف اطلاق النار على قناة السويس ولكنّها رفضت بصورة قاطعة الدخول في محادثات سلام مع القاهرة قبل تفكيك مواقع الصواريخ المصرية والسوفياتية التي جرى تسللها بصورة غير مشروعة الى قرب القناة وسحبها . ابان مباحثات واشنطن هذه تلقى كيسنجر من كل من رابين وعبد الحميد شرف سفير الاردن الشاب ووكالة الاستخبارات الاميركية ، ان عدداً من المدرعات السورية قد عبر فعلاً الحدود الاردنية واخذ يتقدّم باتجاه اربد الواقعة الى الشمال الغربي من الاردن .

في تلك الليلة واصل كيسنجر ورابين اتصالاتهما الهاتفية المتعدّدة عارضين خلالها مختلف جوانب الازمة المتكشّفة . وطلب كيسنجر من سيسكو الاتصال بالـــروس وسؤالهم عن مدى صحة التقارير ودقتها عن غزو سوريا للاردن . فأكد الروس لسيسكو خلافاً للشائعات ، ان سوريا لم تغزُ الاردن .

في ١٩ ايلول اتصل كل من رابين وشرف اتصالاً منفصلاً بكيسنجر وابلغاه ان مئة دبابة سورية على الأقل قد اجتازت الحدود الى الاردن . وكان اليوم سبتاً ولكن البيت الابيض لم ينشغل يوماً أكثر من ذلك اليوم . ترأس كيسنجر اجتماعاً متواصلاً للجنة الحالات الطارئة في مجلس الأمن القومي في غرفة الطوارىء في الطابق السفلي ، وهي غرفة مزوّدة بجدران وارض ممتصة للصوت وفيها مائدة مستطيلة تتسع لاربعة عشر شخصاً. وأهم

من هذا كلّه فهي مزودة باتصال الكتروني بكل من وكالة المخابرات المركزية ومركز القيادة العسكرية القومية في البنتاغون التي تتابع تحركات القوات حول العالم، ووكالة الأمن القومي . وقام كيسنجر بالتنسيق بين مختلف النشاطات العسكرية والدبلوماسية والسياسية في لعبة الحرب المعقدة البالغة الخطورة .

عند منتصف الليل افادت التقارير ان مزيداً مـــن المدرعات السورية قد اجتاز الحدود الى الاردن . فانفجر غضب كيسنجر على الروس . وأوصى بوضع القوات الاميركية في حالة التأهب . ووافق الرئيس . فاستنفرت اولاً الفرقة ٨٢ المحمولة جوّاً وسرّب خبر استنفارها قصداً ثم حركت قوات محملة جوّاً في المانيا الغربيّة الى المطارات على نحو ملفت لانظار الروس . وكان كيسنجر يريد ذلك . وخلال تمارين عرض العضلات هذه ، جرى تعزيز الاسطول السادس وتحركت سفنه ببطء باتجاه لبنان واسرائيل .

وقام نيكسون بدعم هذه التحركات العسكريّة بانذار شديد للروس يقضي بوجوب ضبط السوريين وردعهم، كما طمأن الحسين بصورة شخصية بان لا يقلق من الاسرائيليين. هذه الاشارات العلنية والشخصية لم تذهب سدى بالنسبة للروس . فالقائم بالاعمال السوفياتي في واشنطن ، يولي م. فورونتسوف الذي ناب عن السفير دوبرنين في غيابه بعطلته السنوية ، قام بزيارة سيسكو منتقداً الاستنفارات العسكريّة والتقارير التي تفيد عن دعم عسكري جديد لاسرائيل . وبدا لسيسكو ان لهجته تتسم بالاعلامية . فقال الدبلوماسي الاميركي لفورونتسوف بان التذرع بالتعقّل والحكمة أكثر فائدة من القيام بهذا الدور الاعلامي . وان المشكلة ، كما مضى يقول سيسكو « هي أبعد من مسألة التورط » في الاردن . ومن الافضل ان تقف عند حدّها لأن الولايات المتحدة لن تسمح بتبدّل ميزان القوى الذي ينتج عن اسقاط الحسين .

يوم الاحد في ٢٠ ايلول — وكان يوماً طويلاً وعصيباً — تلقى كيسنجر تقريراً من الاسرائيليين مفاده ان قوات من المدرعات والمشاة السوريين « تتدفق » الى الاردن . فقد عبرت مئة دبابة سورية او أكثر الحدود مصحوبة « بفرقة » من المشاة السوريين . والقى حسين بكل ما لديه من قوات ضد السوريين فتمكن من وقف تقدمهم بضع ساعات . واصدر روجرز تنديداً « بالغزو » السوري ووصفه بالتصرف « غير المسؤول وغـــير الحكيم » وطالب بانسحاب السوريين . واستدعى سيسكو فورونتسوف الى وزارة الخارجيّة ليسأله بتهكم عن قيمة التأكيدات السوفياتية السابقة ؟ وانذره أنه اذا ما تابعت سوريا هجماتّها فانه يرجح ان اسرائيل ستجد نفسها مضطرة للتدخل — رغم انه غير مخول من اسرائيل الادلاء بهذا التصريح . وكانت هذه الانذارات وفق خطة دقيقـــة تستهدف الضغط على الروس لردع السوريين . وكان سيسكو يعرف حينئذٍ ان المستشارين

العسكريين السوفيات قد صحبوا القوات السوريّة حتى الحدود الاردنية ولكنهـم لم يعبروها . وهذا عنى ان الروس كانوا متورطين على الاقل في تخطيط الهجوم السوري .

« تذكر جيداً » قال سيسكو مخاطباً فورونتسوف « ان عليك اعلام الكرملين بكل دقة اننا لا نستطيع اعطاءكم اي تأكيدات سواء حول مسألة التدخل الاسرائيلي او التدخل الاميركي ».

اما كيسنجر فقد تمركز في غرفة الحالات الطارئة يتابع سير العمليات باشراف مباشر من الرئاسة . وقال احد المراقبين لاحقاً « تلك كانت معموديته الحقيقيّة بالنار وهو يتولى ادارة المواجهة لازمة عصيبة مستشرية ... وكان يشعر ان ما هو حاصل تحد خطير ومباشر لميزان القوى في المنطقة ، وللغرب بصورة عامة . وكان يعرف ان الروس متورطون ويدرك بالتالي ان علينا ، بدورنا ، التورط . فقام بعمله على احسن وجه منسقاً بين مختلف جوانب المسألة الديبلوماسية والعسكريّة » . هل حقاً ان كيسنجر « تمتع » بالمناورة بالقوة الاميركية ؟ طرح هذا السؤال على موظف اميركي كبير فاستهجن كلمة « تمتع » ، وقال « ان هنري يتعبّد بصورة كلية للقوة . وهو يعتقد ان الدبلوماسية عقيمة ان لم تدعـم بالقوة » . وروى احد المساعدين في البنتاغون كيف كان يميل كيسنجر على الخرائط الكبرى فينقل البوارج – النماذج وحاملات الطائرات من طرف في المتوسط الى آخر وهو يناقش امراء البحر موضحاً ومستوضحاً حول التكتيكات العسكرية ثم يلتقط الهاتف ليصدر امراً الى هيئة الاركان المشتركة لتبديل طريقة انتشار الاسطول السادس . وهكذا تحول دفعة واحدة من كانت رتبته في الحرب العالمية الثانية عريفاً الى جنرال او اميرال يؤدي خلال تلك الازمة دور نائب القائد العام .

في هذه المداولات السريعة برزت وجهتا نظر ، فمثّل روجرز وجهة نظر الجماعة الحذرة التي تقدّم الدبلوماسية على التحرك العسكري الذي يتوسل المباغتة والحيلة. واظهر من حسن الادراك ما دعا احد نوابه الى القول ان روجرز «لم يكن مفتوناً بالاسراع في اطلاق النار » . اما كيسنجر فقد قاد الجماعة المؤيدة لاستخدام القوّة والتي تركز اعتقادها على ان الولايات المتحدة ستفقد « مصداقيتها » ازاء الكرملين سواء في الشرق الاوسط او في اي مكان آخر ، اذا لم تكن مهيئة لاظهار القوة – واستخدامها – دفاعاً عن مصالحها. وفي معظم المناقشات من هذا النوع ، كان نيكسون ميّالاً للانحياز الى كيسنجر .

مساء ذلك الاحد في نيويورك كانت غولدا مئير نجمة السهرة في مأدبة عشاء اقامتها هيئة جمع السندات الاسرائيلية لثلاثة آلاف مدعو في « الغراند بول روم » (غرفة المرقص الكبير) في فندق هيلتون في نيويورك . وتكلمت غولدا دون الاستعانة بنص مكتوب او رؤوس اقلام محذرة الجمع بان خطابها سيطول ما لم تشعر بألم في قدميها يدعوها الى الجلوس . وتكلمت ساعة وخمس دقائق . ولم تؤلمهـا قدماها . « اذا لم نحارب دفاعاً

عن حريتنا وأمننا فلا احد يحارب عنّا» . قالت مئير وسط موجة عارمة من تصفيـق الحضور .

وكان رابين على بعد بضعة مقاعد منها ينظر الى رئيسة وزرائه معجباً ، وإذ بأحد مساعديه يسلّمه رسالة تقول « من الضروري الاتصال بكيسنجر بالبيت الابيض حالاً » . وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة ليلاً . وانتقل رابين الى غرفة الهاتف الصغيرة بينما قعقعة الصحون وانفجار موجات التصفيق تملأ سمعه بين الفينة والفينة وهو يطلب البيت الابيض على هاتف الفندق. وبدا صوت كيسنجر مشحوناً. سأل : هل تزود اسرائيل الاردن بالدعم الجوي ضـد المدرعات السورية الزاحفة ؟

وابدى رابين ملاحظتين سريعتين . اولاً انه لا يملك الآن معلومات اخيرة مـن المخابرات حول الوضع ولكنه سيحصل عليها عاجلاً . وثانياً انه يود ان يعلم حقيقة الموقف الاميركي من هذا الطلب فوق الاعتيادي . وهل ان كيسنجر يعني ضمناً تأييد فكرة هجوم اسرائيلي جوي ضد المدرعات السوريّة ؟ واذا كان الجواب بالايجاب، فما عسى أن تفعل الولايات المتحدة اذا ما صعّدت الحرب ؟

وقال كيسنجر لرابين ان الحالة « عصيبة وعاجلة » وكان انطباعه ان كارثة وشيكة الوقوع . ولكنه سلّم ان اسئلة رابين في محلّها . واتفق ورابين على معاودة الاتصال خلال خمس واربعين دقيقة . وسجل كيسنجر رقم الهاتف .

وعندما عاد رابين الى غرفة المأدبة استرعى انتباه مئير . وفي لحظة مناسبة لا تثير الفضول انسحب المسؤولان الاسرائيليان الى الغرفة الصغيرة المجاورة . فأخبرها رابين عن مكالمة كيسنجر . فسرعان ما قررت الاتصال بنائب رئيس الوزراء الاسرائيلي ايغال الون الذي يتولى الرئاسة بالوكالة في غيابها طالبة منه التشاور حالاً مع الزعماء الاسرائيليين الآخرين وان يرسل طائرة استكشاف لتلتقط صوراً من منطقة المعركة .

اتصل كيسنجر ثانية بحسب الاتفاق . ولم يكن مزوداً « باجوبة مدروسة » عن اسئلة رابين ولكنه الحّ نظراً لضرورات السرعة التي يقتضيها الوضع الخطير ان يطير رابين الى واشنطن حالاً . وكانت آخر رحلة جوية بين نيويورك والعاصمة الاميركية قد أقلعت قبل قليل. فاشار كيسنجر على رابين بالسفر في طائرة نفاثة تكون في تصرفه في مطار خدمات النقل العسكري في مطار لاغوارديا نحو الساعة الواحدة صباحاً وتقلّه الى مطار اندروز العسكري في ماريلنـد حيث تكون سيارة من البيت الابيض بانتظاره . وكرّر كيسنجر تأكيد حراجة الموقف .

وعاد رابين الى التشاور ثانية مـع مئير ، وهي بدورها شاورت وزير الخارجية ابا ايبان الذي كان حاضراً مأدبة العشاء معها . في الواحدة بعد منتصف الليل كان رابين مسرعاً باتجاه مطار لاغوارديا بينما كانت مئير بدورها تسرع باتجاه مطار كينيدي حيث

كانت طائرة من خطوط العال الاسرائيلية بانتظارها لتعود بها الى اسرائيل .

كانت الساعة قد بلغت الثالثة صباحاً تقريباً عندما آب رابين الى منزله في حيّ فورست هيلز في واشنطن . اما كيسنجر فكان لا يزال ساهراً في غرفة الحالات الطارئة في البيت الابيض. وكان سيسكو هو الآخر لا يزال في مركز العمليات في وزارة الخارجية. واتصل رابين بهما ليخبرهما ان الوزارة الاسرائيلية ستنعقد في اجتماع طارىء في اية لحظة ، وان الطيران الاسرائيلي مستعد لضرب المدرعات السورية . ولم يكن يخامر رابين ادنى شك في ان بامكان النفاثات الاسرائيلية تدمير المدرعات السورية اذا ما اعطت تل أبيب الضوء الاخضر للهجوم. فالح كيسنجر ثانية على حراجة الموقف ووجوب اتخاذ قرار سريع. وهكذا فعل سيسكو. فقال رابين انه يدرك ذلك ولكنه لم يزل يطلب معرفة حقيقة موقف الولايات المتحدة وما عساها تفعل ، مثلاً ، اذا ما شن المصريون هجوماً على اسرائيل مدعوماً بالمساعدة السوفياتية . فقال كيسنجر وسيسكو انهما متفهمان لاهتمامه ، وسيتصلان به في الصباح . عندها اتصل رابين باسرائيل لينقل آخر مداولاته مع الاميركيين ثم أخلد الى النوم . اما كيسنجر وسيسكو فلم يغمض لهما جفن في تلك الليلة . وارسل حسين رسالة ثانية . لقد سقطت اربد في ايدي السوريين . وأبرق بنجمان والز الى نيويورك تايمز ان حسين بدا مذعوراً عندما اتصل بالسفارة الاميركية في عمان التي كانت مطوقة بالفدائيين طالباً المساعدة — من الاميركيين والبريطانيين . واستخدم الشيفرة التالية « انا بحالة حسنة من فوق ولكن في حالة سيئة في الادنى من تحت » . اي ان طيرانه لم يزل في حالة جيدة ولكن قواته المدرّعة تواجه الصعاب .

واشارت آخر معلومات المخابرات الى ان ثلاثمئة دبابة سورية باتت الآن في الاردن. وفي الشمال الشرقي كان للعراق عشرون الف جندي في حالة تأهب للتدخل . وكان حسين في وضع يائس والفلسطينيون المتطرفون ما زالوا يقبضون على الخمس والخمسين رهينة من ركاب الطائرات وهم يوشكون الاقدام على تصرّف خطير . ووضعت خمس فرق اميركية متمركزة في غربي المانيا في حالة تأهب مكشوف وملفت للنظر . وعزّز الاسطول السادس فاصبح يضم خمس حاملات طائرات بدل اثنتين .

اما البريطانيون الذين يذكرون التدخل البريطاني — الفرنسي — الاسرائيلي ضد مصر في ١٩٥٦ فقد بدا عليهم الهلع . واعلم السفير البريطاني جون فريمن روجرز ان بريطانيا لن تتدخل عسكرياً . واعرب عن أمله في ان لا تتدخل الولايات المتحدة كذلك . ولكن بدا بوضوح أن نيكسون قد اتخذ قراره بالحيلولة دون اسقاط الحسين ودون تبدل ميزان القوى الراهن . وادرك انه يواجه تحدياً محرجاً . كان بوسعه ان يتوجه الى الشعب عبر التلفزيون كما فعل سلفه جون كينيدي ابّان ازمة الصواريخ في كوبا ولكنه بعد انقضاء اربعة اشهر فقط على التدخل في كامبوديا آثر ان يبقي الازمة الراهنة خافتة ، ما استطاع

الى ذلك سبيلا . وعندما اوصى روجرز بتوجه دبلوماسي جديد الى الرو.س يدعو الى مسعى سوفياتي اميركي مشترك لتهدئة العواطف الفائرة في المنطقة بادر نيكسون مدعوماً من كيسنجر بقوة الى نقض هذا الاقتراح . وبدل من ذلك أُنذر فورونتسوف ثانية انه اذا لم تنسحب المدرعات السوريّة فالسلام في خطر جدّي ولا يمكن استبعاد اي احتمال « ادعوا جماعتكم للانسحاب » ، كانت كلمات نيكسون .

وكان جلياً ان الولايات المتحدة اذا ما أقدمت على عمل ما فسيكون لديها حليف واحد هو اسرائيل . وبادر نيكسون الى اصدار أمره لكيسنجر بان يتولى الدور الاميركي الرئيسي بتأمين التنسيق الاميركي الاسرائيلي مع رابين . واستمر روجرز وسيسكو على مسرح الاضواء والحوادث غير انه بمعزل عن كل اعلام وبعيد عن بريق الضوضاء .

كان كيسنجر ورابين ، يتحمّلان معاً ، عبء التفاوض للتوصل الى تفاهم اميركي اسرائيلي سرّي لم يسبق له مثيل ويقضي القيام بعمل عسكري مشترك في ازمة الاردن .

اتصل كيسنجر على الفور برابين وبدأ الرجلان يعملان معاً . وبترخيص من دايان اطلع رابين كيسنجر على الخطط العسكرية الاسرائيلية ، كما اخذ يطلعه مرتين في اليوم ، على عرض لآخر معلومات المخابرات الاسرائيلية . وكانت الخطة الاسرائيلية في جوهرها تقضي بشن هجوم فكّي الكماشة على القوات السوريّة في منطقة اربد ، فتتحرك الوحدات الاسرائيلية المدرّعة المتمركزة قرب هضبات الجولان — وعددها مئتا دبابة بالضبط — شرقاً ثم جنوباً نحو اربد . بينما تضرب قوات اسرائيلية اخرى منطلقة من الضفة الغربيّة المحتلّة باتجاه اربد من الشرق . تعتمد عندها اسرائيل على السلاح المدرع الاردني المتجه شمالاً من عمّان . ويتولى الطيران الاسرائيلي اضعاف المواقع السورية حول اربد. ان هذه الخطة تفرض بالضرورة التنسيق بين القوات الاسرائيلية والاردنية. على ان يجري التأكيد للملك حسين بان القوات الاسرائيلية ستنسحب من الاردن لحظة انجاز العملية بحيث لا يحدث اي توسيع لحدود ١٩٦٧ الى داخل الاردن . اما الوضع بالنسبة لسوريا فيكون مختلفاً على ان هذا الأمر لم يبحث بالتفصيل .

وأعلم رابين كيسنجر ان عشرات الدبابات الاسرائيلية جرى نقلها في وضح النهار من جنوبي اسرائيل الى الضفة الغربيّة . كما ان عدداً من طائرات الاستكشاف اخذت تطير فوق المواقع السوريّة . واستمر رابين يطرح سؤاله الرئيسي : اذا ما قررت اسرائيل ان توجه ضربتها ، فما هي استعدادات الولايات المتحدة للتدخل ؟ ولكن كيسنجر لم يكن قد تلقى بعد جواباً .

في ساعة متأخرة من بعد ظهر الاثنين ، زار فورونتسوف سيسكو وابلغه امكان حصول تبدل في الموقف السوفياتي وحذّره ضد « كلّ » تدخّل خارجي كما افصح له عن أن روسيا تلح على سوريا بضبط النفس وتأمل ان تفعل الولايات المتحدة الشيء

نفسه بالنسبة لاسرائيل .

قام الدليل عند هبوط الليل بان الاردن قد اوقف التقدم السوري . فقد كان انجاز دبابات الحسين فوق كلّ التوقعات بما في ذلك توقعات الملك نفسه .

وانعقد اجتماع الوزارة الاسرائيلية مرة ثانية . وكان السؤال المطروح هل ستلقي سوريا بقوات جديدة لدعم غزوتها المحبطة في الاردن ؟ وكان ثمة مئتا دبابة سورية على الاقل علـى الجانب السوري من الحدود وخمسمائـة أخرى في العمق السوري الى الداخل . اما السؤال الثاني فهو ما اذا كان الخبراء السوفيات الذين لم يجتازوا الحدود مع السوريين سيتلقون تعليمات جديدة للتوجه جنوباً ؟

وتوصلت الحكومة الاسرائيلية الى قرار مفاده انه اذا تحركت دبابات سوريّـة اضافية الى الاردن مدعومة او غير مدعومة من السوفيات فاسرائيل عندها تتدخل . وهكذا اصبح رابين يملك جزءاً من الجواب لكيسنجر ولكن لم يملك الجواب كلّه ، لأن الاسرائيليين ربطوا الأمر بشرط مهمّ جداً كان من شأنه توريط الولايات المتحدة بحرب في الشرق الاوسط . تولى رابين في اجتماع عقد في البيت الابيض مع كيسنجر رسم الخطوط الكبرى لموقف حكومته . وقد حضر سيسكو بعض هذه المداولات الخطيرة التي دارت في تلك الليلة ولكنه لم يحضرها كلّها .

وأعلم رابين كيسنجر بكل جدّ انه اذا ما ارسلت سوريا قوات جديدة تعزّز بها قواتها في الاردن ، واذا ما بدأ الجيش الاردني بالانهيار ، عندها توافق اسرائيل على استعمال سلاح الجو الاسرائيلي لضرب المدرعات السوريّة . واحتفظت اسرائيل بحق ارسال القوات البريّة الى الاردن اذا ما اعتبر مثـل هذا العمـل الاضـافي ضرورياً . وفضلاً عن ذلك ، فـان اسرائيـل لن تحصر عملياتها العسكريّة بالاردن ، فقد يستدعي بلوغ « الغرض السياسي » من انقاذ نظـام الملك حسين شنّ هجمات جويّة وبريّة عـلى سوريا . واخيراً أكـّد رابين حاجة اسرائيل الى « مظلّة اميركيّة ضد اي تحرك سوفياتي مضاد» . ولم يحدّد ماهية هذه « المظلّة » وطبيعتها ، غير انّه اوضح ان اسرائيل لن تنفذ شيئاً ما لم يقدّم كيسنجر ضمانات رئاسيّة ثابتة عن عزم الولايات المتحدة على استخدام القوة ، اذا ما اقتضت الضرورة ، ضد اي تحرك سوفياتي ضد اسرائيل سواء جاء عبر قناة السويس او البحر الابيض المتوسط . ولم يكن بوسع كيسنجر تقديم مثل هذه الضمانات . غير ان تطورات الجبهة ، في ساعات الليل المتأخرة ، اخذت تفرض على البيت الابيض قراراً من أخطر القرارات التي واجهت نيكسون . فقد نقلت سوريا عدداً قليلاً من المدرعات عبر الحدود وبدا كأن زحفاً كبيراً على وشك الحدوث . ولم يستطع الجيش الاردني زحزحة السوريين من إربد . واخذ الفدائيون بشن هجمات أشد جسارة من ذي قبل على

قوات الملك . وارسل الملك حسين استغاثة جديدة طالباً « المساعدة العاجلة » . فقررت الولايات المتحدة ان تتدخّل .

التقى كيسنجر ورابين مجدداً . وأكـّد السفير الاسرائيلي ثانية رغبة حكومته في ابقاء الولايات المتحدة خارج العمليات العسكرية في الشرق الاوسط ، ولكنه كرّر طلب اسرائيل التسلّح بعهد من نيكسون ان تبادر الولايات المتحدة امّا الى عرقلة او الحيلولة دون التدخّل السوفياتي الذي ينتج عن تحرك اسرائيلي الى الاردن او سوريا . وعرض كيسنجر الأمر مجدداً على الرئيس .

هذه المرة اعطى نيكسون موافقته . وكان التفاهم بـين الدولتين تاماً ومطلقـاً : تتحرك اسرائيل ضد القوات السورية في الاردن ، فاذا ما تحرّكت القوات المصريّة او السوفياتية ضد اسرائيل ، تبادر الولايات المتحدة الى التدخل ضد كليهما معاً . وكانت الحالة من الحراجة بمكان بحيث لم يكن متسع من الوقت لوضع هذا التفاهم غير الاعتيادي خطياً . فتصرف الطرفان كل بطريقته الخاصة .

تحركت المدرعات الاسرائيلية باعداد كبيرة باتجاه نهر الاردن . ودفق نبض الحياة في هضبات الجولان باستعدادات منظورة للحرب . وشهدت المطارات العسكريّة في طول اسرائيل وعرضها دوران محركات الطائرات النفاثة وتعبئتها بصواريخ الدمـار والقذائف واقتربت حاملة طائرات اميركية الى مدى ستين ميلاً بحرياً من الشاطـىء الاسرائيلي . ووقف سفينة سوفياتيـة ترقب طائرة نقل عسكريّة اميركيـة صغيرة وهي تنطلق باتجاه تل أبيب . ويرجح ان الروس لاحقوا هذه الطائرة في سفرها . وبعد بضع ساعات عادت الطائرة الى حاملة الطائرات الاميركيّة . وكان كيسنجر فخوراً بهذه المظاهر البريئة من التنسيق العسكري الاميركي الاسرائيلي. واعلم سيسكو فورونتسوف بان لا جدال حول قدرة اسرائيل على التحرك ولا حول تصميم اميركا على انقاذ حسين من السوريين وهجمات الفدائيين .

وفجأة يوم الثلاثاء في ٢٢ ايلول اخذ التوتر بالتلاشي. ذلك ان حسين وقد اطمأن الى التنسيق الاميركي الاسرائيلي ، شنّ هجوماً شاملاً ضد السوريين . فانطلقت مدرعاته شمالاً باتجاه اربد وقصفت مقاتلاته النفاثة من طراز هوكر بعنف المدرعات السوريّة المحيطة باربد . وتنفّس كيسنجر الصعداء عندما اخذ يتلقّى تقارير عند هبوط الليل (وقت الظهيرة في واشنطن) تفيد بان عشرات المدرعات السوريّة اخذت تدور وتتجه شمالاً نحو الحدود . وجاءت تقارير أخرى تفيد بان الدبلوماسيين الروس قد هرعوا الى دمشق مساء الاثنين لوقف الهجوم .

وقد ظهرت اشارة واضحة الى هذا التبدّل في السياسة السوفياتية في حفلة عشاء اقيمت في ذلك المساء في منزل الدكتور اشرف غربال في واشنطن الذي كان حينئذٍ رئيس قسم

رعاية المصالح المصرية في السفارة الهندية . وكان كيسنجر قد ذهب الى تلك الحفلة آملاً أن يُسرّ فورونتسوف اليه بشيء ذي مغزى . وعندما شاهد الدبلوماسي السوفياتي كيسنجر بدا عليه الارتباك كأنما هو غير متأكد ما اذا كان سيتوجه اليه ام لا . واخيراً بعد ان قدمت القهوة اخذ فورونتسوف كيسنجر على حدة وأكّد بالحاح ان الروس يبذلون قصارى جهدهم لردع سوريا . فنظر كيسنجر اليه بتشكيك وقال : « في آخر لقاء لنا اعلمتني ان السوريين لن يرسلوا اية قوات » . فاجاب فورونتسوف موافقاً : « لم نكن نعرف ان السوريين سيعبرون الحدود ، ولقد توقّف مستشارونا عند الحدود ولم يتقدموا خطوة واحدة » . كيسنجر : « انت وزبائنك بدأتم الأمر وعليكم الآن انهاؤه » . ولم يكشف حينئذ انه كان قد تلقّى معلومات تفيد بشروع السوريين بالانسحاب نحو حدودهم .

يوم الاربعاء في ٢٣ ايلول ، اخذ الروس يعودون الى الظهور في حفلات الكوكتيل في واشنطن مبدين دهشتهم واستغرابهم للضجة التي اثيرت حول الاردن . وكانت آخر الدبابات السورية في تلك الاثناء ، تنسحب من الاردن . وتوقفت التحركات العسكرية الاسرائيلية بالسرعة نفسها التي جرى توجيهها الى العمل . وتصافح كيسنجر ورابين . وكان تفاهمهما الرئيسي غير المعلن الذي رافق الازمة الاردنية قد انطوى في ذمة التاريخ ، غير ان الرجلين ادركا انه سجل قيام سابقة . ذلك انه اذا كانت الولايات المتحدة في ١٩٧٠ ، قد اخذت على عاتقها القيام بتخطيط عسكري مشترك مع اسرائيل ، وهي البلد التي لم يكن يربطها الى الولايات المتحدة اي ميثاق دفاع رسمي ، والى حدّ التعهّد بتوفير « مظلة » من الولايات المتحدة لحمايتها ضد التحرك السوفياتي ، فان ذلك يعني ان مثل هذا التدبير الملزم يمكن تكراره في المستقبل .

ونظراً لهذه العلاقة الخاصة بين كيسنجر ورابين ، فقد أخذ العديد من الاسرائيليين يعتبرون كيسنجر « صديقاً طيبّاً » رغم ان كيسنجر كان ينظر الى اسرائيل كجزء متميّز ضمن اطار استراتيجي اوسع مع الاتحاد السوفياتي . وعندما ضغط روجرز في اواسط ١٩٧١ على رابين للقيام « بتنازلات من طرف واحد » في المفاوضات الجارية حول حل موقت لاعادة فتح قناة السويس ، متوعداً فترة وجيزة ، بوقف شحن الطائرات النفاثة لاسرائيل ، تدخّل كيسنجر . ففي اواخر ذلك العام عندما بلغ الخلاف بين روجرز ورابين حدّ احتلال العناوين الرئيسيّة في الصحف والتسبب بالمتاعب للجنة الحزب القومية ، حصل كيسنجر على ترخيص من الرئيس لطمأنة رابين بان شحنات الطائرات ستستمر وان ضغط وزارة الخارجية سيتوقّف .

وادّى هذا التدخل الى التمهيد لزيارة السيدة مئير للرئيس في اواخر كانون الأول وتهيئة المناخ للنظرة الاسرائيلية العطوف على ترشيح نيكسون في ١٩٧٢ . واخذ رابين

يبوح بصورة تخرج على الاصول الدبلوماسية عن اعجابه بنيكسون وكيسنجر معرباً عن مخاوفه في الوقت نفسه من ماكفورن مما ادّى الى اسهامه في تحويل العديد من اصوات الديمقراطيين اليهود الى صف الحزب الجمهوري .

تلك كانت الايام التي فضل فيها كيسنجر ان لا يعلن عن علاقته بالشرق الاوسط . ورغم لقاءاته عشرات المرّات مع رابين ليتناقشا في ادق مواضيع الحرب والسلم ، فقد اقتصر لقاؤهما العلني على مرة واحدة اعطى فيها كيسنجر التفاتة تتخطّى هزة الرأس بالسلام العابر . تلك كانت في خريف ١٩٧٢ على اعتاب انتخابات الرئاسة . وكانت الاوركسترا السمفونية الاسرائيلية تحيي العيد الخامس والعشرين لقيام اسرائيل باقامة حفلة موسيقية خاصة في مركز كينيدي في واشنطن. وظهر في الحفلة ماكفورن. ولم يحضر نيكسون الذي ارسل نيابة عنه كيسنجر وروجرز . وكان كلّ ذوي الشأن من جمهوريين وديمقراطيين واسرائيليين يحتلون المقصورات الرئيسية المطلّة على الجمهور في الردهة السفلى التي ضمت مزيجاً من ابرز رجال الكونغرس والصحافيين والمحامين والموظفين ورجال الأمن . وفي فترة الاستراحة نهض ماكفورن وتلقى تحية تصفيق عاصفة .

بعد حين عندما انتهت الحفلة اتجه الجمهور للخروج من القاعة عدا شخصين وقفا بصورة ملحوظة وجهاً الى وجه وهما مستغرقان في حديث مشوق في مقصورة الرئاسة. وكان الرجلان هما هنري كيسنجر واسحاق رابين . ولم يخف على احد هذا العرض للعلاقة الاسرائيلية — الاميركية الخاصة .

فلم يكن موضوع كيسنجر الرئيسي في تلك الايام جديداً . جلّ ما فعل انه اعطاه دفعة قوية جديدة . فقد اصرّ على ان تواجد الاسلحة النووية يجب ان يفرض على القوتين العظميين بعض ضبط النفس. ذلك انه من الخطورة بمكان استمرارهما في الاندفاع بطيش في مسعى الحصول على مكاسب سياسية هامشيّة في مختلف انحاء العالم . وكان من الجلي أن ذلك كان درساً قاسياً يصعب على هاتين القوتين تلقّنه . فقد اشار معارضو الحرب من الاميركيين الى ان الولايات المتحدة لم تتلقّن جيداً ذلك الدرس ، وكان كيسنجر يرى بعض المنطق في وجهة النظر هذه . غير انه كان معنياً أكثر بموقف الروس .

وقد ردد امام الصحافيين في ١٦ ايلول : « ان علاقاتنا بالاتحاد السوفياتي قد بلغت حداً يستدعي اتخاذ قرارات مهمّة ، وخصوصاً في موسكو... ذلك ان الحوادث في الشرق الاوسط وفي اماكن اخرى من العالم اثارت اسئلة حول ما اذا كان الزعماء السوفيات قد أصبحوا مهيئين لاتباع المبادىء التي سبق لي تلخيصها ، وخصوصاً ما اذا كانوا مستعدين للتخلّي عن الافضليات التكتيكية التي بامكانهم اقتناصها من حالات معيّنة لمصلحة السلام الاوسع » .

وبيدو ان الروس بدورهم لم يتلقنوا درس كيسنجر . ذلك انهم في الوقت الذي كانوا يلعبون بالنار في سوريا والاردن ، كانوا في نصف الكرة الآخر يوشكون ان ينقضوا ما توصل اليه كينيدي وخروشوف من تفاهم حول كوبا سنة ١٩٦٢ .

ففي مطلع ايلول ١٩٧٠ بينما كانت طائرة تجسّس اميركية من طراز يو ٢ تطير متباطئة في جولتها الروتينيّة الشهرية فوق كوبا التقطت مصادفة صورة لملعب كرة القدم الروسية قرب ثكنات عسكرية جديدة في ضاحية قاعدة سينتياغو البحرية على الشاطىء الجنوبي من كوبا . وقد أثـار الاطلاع على الصورة الدهشة في وكالة الاستخبارات المركزيّة . ﻫ« فالبيسبول » لعبة قومية كوبية بينما الملعب للعبة « سوسر » القومية الروسية . وتصاعد عدد رحلات يو ٢ في الايام التالية فوق ذلك المكان وكان للصور الجديدة دور في تعميق الاهتمام الرسمي ، اذ أظهرت ابراجاً جديدة للاتصال وثكنات جديدة ومواقع جديدة للسلاح المضاد للطائرات بعضها انتهى صنعه وبعضها الآخر في قيد الإنشاء . كما اظهرت في مرفأ سينفياغوس غواصة من طراز يوغرا حمولتهـا ٩ آلاف طن ومركبين للنقل يخزنان عادة بقايا الاشعاعات الصادرة عن الغواصات المسيرة بالطاقة النوويـة ، فاستخلصت المخابرات ان غواصة نووية ترسو في مياه سينفياغوس وان سفناً روسية عديدة متوقفة على رصيف الميناء وهي تفرغ حمولتها وملاحيها .

لاي غرض هذا النشاط الصاخب الجديد ولم ورشة البناء ؟ واخذ المسؤولون الرسميون في التخمين بان الروس قد يكونون عاكفين على بناء قاعدة للغواصات النووية مما يشكّل خرقاً لتفـاهم ١٩٦٢ الذي نصّت بنوده على ان للروس الحق في حماية كوبا وبنـاء قواعد عسكريّة دفاعية ولكن ليس من حقهم بناء قاعدة للغواصات المسيّرة بالطاقة النووية .

وعندمـا اخـذ كيسنجر الصور الى نيكسون موشاة بتحليلـه المتصلّب للأمر رأى الرئيس في الموضوع خطراً داهماً . فالروس لم يكتفوا بتشجيع الفدائيين والسوريين على التحرك ضد حسين ولكنّهم ، كما يبدو ، يمطّون ايضاً ، قواعد اللعبة خارج حدودها المعقولة في كوبا . قرّر نيكسون ان يتخذ موقفاً متصلّباً في المسألة الكوبيّة على ان لا يتسم بطابع الاستفزاز . فلن يصدر عنه الاّ القليل مـن التصريحات العلنية. الاّ انـه سيعهد الى كيسنجر مهمة افهام الروس انهـم يلعبون بالنار اذا كان قد خامرهـم الظن بامكان رضوخه لفكرة استخدامهم كوبا لاغراض عسكرية هجومية . فقد خسر نيكسون معركة الرئاسة لكينيدي في ١٩٦٠ ولن يسمح لنفسه بأن ينهزم امام شبح كينيدي في ١٩٧٠ . وهكذا أمر كيسنجر ان يتحرّك لأداء المهمة .

في لقاء كيسنجر مع الصحافيين في ١٦ ايلول في شيكاغو ، وكان اللقاء مخصصاً لأزمة الشرق الأوسط ، افلت كيسنجر انذاراً خافتاً : « اذا ما بدأوا بتحريك القوات

الاستراتجية خارج كوبا ، على افتراض انها غواصات من طراز بولاريس ، واستخدام كوبا كمستودع لها ، فان ذلك يغدو مسألة تستحق ان ندرسها بعناية فائقة». ثم اعان الروس على استخلاص مقارنة كئيبة اذ قال : « من حقنا والحالة هذه ان نضع غواصات بولاريس في البحر الاسود . ولكن لو فعلنا ذلك ، لوجدنا صحفاً كثيرة تثور على مثل هذا التصرف وتعتبره استفزازياً . اذ لماذا نتحرك على مثل هذا القرب من الحدود السوفياتيّة ؟ » وتابع قوله : « اذا ما بدّل احد الفريقين بصورة بارزة استخدام اسلحته الاستراتجية فان ذلك يلفت حتماً نظر الفريق الآخر . لذلك على الفريقين الحسم في ما اذا كانا يرغبان في كبح التدابير التي يملكان حقاً مشروعاً في اتخاذها ام لا . إننا نرقب هذه الحوادث الجارية في كوبا الآن ولم يتضـح بالضبط بعد ماذا يفعل الاتحاد السوفياتي هناك . ان الاسطول يقوم بحركة دائرية تارة يدخل وطوراً يخرج ، ونحن نرقب ما يجري بدقة فائقة » .

واستدعى كيسنجر الى مكتبه في البيت الابيض دوبرنين الذي كان قد عاد لتوه من موسكو ، واسمعه انذاراً . استهل كلامه بوصف اكتشافات المخابرات الاميركية ، ثم اتهم الروس بخرق بنود تفاهم ١٩٦٢ ببناء قاعدة هجومية في كوبا . فعبّر دوبرنين عن دهشته . عندها لخّص كيسنجر العواقب الكاملة لمثل هذا النشاط السوفياتي المستمر وانعكاساته على المدى الأوسع لعلاقات واشنطن — موسكو . فاعترى الموفد السوفياتي ، بحسب رواية كيسنجر ، الشحوب . اذ فهم المعنى الأعمق لانذار كيسنجر . فليس هذا يعني توقف التقدم باتجاه وفاق سوفياتي — اميركي بل قد ينتج عنه كذلك اندلاع « ازمة صواريخ » كان طوي عهدها . تعهّد دوبرنين لكيسنجر بان سيتصل بموسكو ويطلب « ايضاحات » . فأكّد كيسنجر عدم اهتمامه بالحصول على « الايضاحات » بل بالتوصل الى « ضمانات » توقف الروس فوراً عن بناء قاعدة الغواصات في كوبا .

ومضى اسبوع قبل ان يطلب دوبرنين موعداً . وبدا الصمت منذراً بالسوء . بينما في سينفياغوس استمرت عملية البناء. واخذ نيكسون وكيسنجر يقلّبان مشكلة عرض هذا التحدّي الجديد على الشعب الاميركي . وقد بدا لهما ان كامبوديا فالاردن ثم الآن كوبا للائحة مثقلة من الازمات يصعب تقديمها بكل بساطة الى الشعب لا سيما وان بعض الناقدين كان قد اخذ يشير تلميحاً الى ان الرئيس « يصطنع » هذه المواجهات مـع الروس لاغراض اخرى . وكان كيسنجر قـد اختار نخبة من رجـال الكونغرس والمعلقين الصحافيين ولخّص لهم الموقف محذراً من نشوب « مواجهة جدّية خطيرة » مع روسيا ما لم يتوقف بناء القاعدة . وفي صباح ٢٥ ايلول نشر الخبر سولزبرغر معلـق الشؤون الخارجية لصحيفة « النيويورك تايمز » . وفي الظهيرة أكّده البنتاغون . وفي المساء خلال جولة حديث عن خلفيات الانباء مع المراسلين، انذر كيسنجر الروس بجد بان الرئيس

سيعتبر انشاء قاعدة غواصات نووية في كوبا « عملاً عدوانياً » .

اربك انذار كيسنجر روجرز فانتقده على انه « تورط باساليب الحرب الباردة ولغتها » . وقد كانت لدى وزير الخارجية المعلومات عينها التي توافرت لكيسنجر ولكنه رفض التنبـّوء بمقاصد السوفيات. ولم يكن يعتقد ان وجود قاعدة للغواصات في سينفياغوس سيخلّ بميزان القوى في البحر الكاريبي ، بل ذهب الى عدم التسليم بان الروس يسعون لخلق المتاعب . لقد كانت عيون خبراء وزارة الخارجية على الشرق الأوسط ومفاوضات الحد من الاسلحة الاستراتجية وهم بكل بساطة لم يستطيعوا مشاركة كيسنجر في رؤيته للمكائد السوفياتية. وهكذا لم تكن هذه هي المرة الاولى التي يشنّ فيها مشايعو روجرز في « فوغي بوتم » هجومهم على « تدخّل » كيسنجر في حقـل اختصاصهم . واستنكر بعض الاخصائيين السوفيات بعنف توجهه غير المستقيم للكرملين انطلاقاً من اصرارهم على ان ليس بوسع كيسنجر ان « يحاضر » في الروس كما كان يحاضر طلابه في هارفرد .

ويذكر كيسنجر انه وروجرز تواجها في ثورة غضب عارمة بسبب الحادثة الكوبيّة .

واخيراً في ٢٧ ايلول وكان يوم أحد هادىء معدّاً للتهيئة النهائية لرحلة الرئيس الى المتوسط اتصل دوبرنين بكيسنجر ، وأكّد له ان الاتحاد السوفياتي لم يكن ينتهك تفاهم ١٩٦٢ حول كوبا وان ليس من مرافق عسكريّة هجومية تشاد في سينفياغوس. وانطلق نيكسون وكيسنجر في رحلتهما الى المتوسط وقد سري عنهما ولكن دون أن يكونـا مطمئنين الاطمئنان الكامل الى هذه التأكيدات . فابـّان تنقلهما بين نابولي وبلغراد ومدريد ودبلين التي اراد نيكسون زيارتها ، كان كيسنجر يذكر للمراسلين مرّات عديدة « الازمة الكوبية » ولم يكن بعد قد تحقّق من توقف بناء المرافق العسكريّة السوفياتية فيها .

بعد عودة نيكسون الى واشنطن بقليل زار دوبرنين كيسنجر وأكّد له مجدداً الالتزام بتفاهم ١٩٦٢ حول كوبا . وبعد اسبوع تلقى روجرز تأكيداً بالمعنى نفسه من وزير الخارجية السوفياتي غروميكو وذلك ابان مأدبة عشاء للأمم المتحدة في نيويورك . وفي ١٣ تشرين اول استجاب الروس علناً لضغط واشنطن ، فنشرت وكالة الانباء السوفياتية الرسمية « تاس » بلاغاً خاصاً يشدّد على ان الاتحاد السوفياتي « لم يبن ولا هو الآن يبني قاعدة عسكريّة » في كوبا . وفي ٢٢ تشرين اول اعلم غروميكو الرئيس خلال محادثة خاصة بينهما في البيت الابيض بتفاهم ١٩٦٢ حول كوبا . وفي ذلك الوقت تثبتت وكالة المخابرات المركزيّة في غرفة مظلمة ظهرت فيها افلام صور جديدة ملتقطة من صدق تأكيدات غروميكو اذ بدا من الصور أن عملية بناء قاعدة الغواصات السوفياتية في كوبا اخذت تتباطأ . ولم تلبث ان توقّفت كلياً .

ان « الحادثة الكوبيّة » كان بالامكان ان تتطور الى ازمة متفاقمة بين الدولتين العظميين لو لم تبادر الدبلوماسية الواقية الى اجهاضها . واستفاد كيسنجر من اختباري الاردن وكوبا

درساً مفاده ان بالامكان في بعض الاحيان تشجيع الروس على تلمّس النور اذا ما جرى لفت نظرهم الى المخاطر الكامنة في سياساتهم في مختلف انحاء العالم قبل ان تتورط ذاتيتهم القوميّة في شرك السياسات الى حدّ يصبح فيه من المحال التوصل الى قرار موضوعي . ولم تكن هذه المرة الوحيدة التي يحاضر كيسنجر فيها في الروس ويخرج بنتيجة طيّبة. ولكن حتى كيسنجر لم يتوصل الى ان هذا الاسلوب من الكلام القوي وحده يحمل الروس على تبديل الاتجاه الاساسي لسياستهم .

ذلك بانه لا بد من أخذ عوامل أخرى بعين الاعتبار . منها حالة الاقتصاد السوفياتي البائسة بعد أكثر من خمسين عاماً من الحكم الشيوعي ، ومنها العلاقات بالصين .

وكان كيسنجر يعتقد منذ مدة طويلة أن النظام السوفياتي بحاجة الى اعادة نظر ، ولكن قطعاً لم يكن له ان يقترح شخصياً مثل هذا النهج كما انه لم يكن في الكرملين رجل واحد متشوّق للقيام بعمل من هذا العيار الشامل . غير ان الانفجار الفجائي لنقمة العمّال في بولونيا في كانون الاول ١٩٧٠ الذي اطاح بغومولكا، هو الذي اضطر بريجنيف الى التصرف . فقد قامت البروليتاريا البولونية بقيادة عمّال غدانسك باضطرابات ضد النظام الاشتراكي ، الذي بحسب رأيها ، لم يحقق حتى ذلك الحين الاّ القليل مـن الامجاد التي تصورها ماركس . والخطورة في الأمر هي ان العمال ، لا الليبراليين ، قد اصبحوا في حالة شبه ثوريّة ضد النظام ، بحيث انه اذا لم يتمّ وقف موجتهم فقـد تتحول الى بؤرة تمتدّ قدوتها التفكيكيّة الى سائر اوروبا الشرقيّة . فأصرّ الروس على اخماد العصيان البولوني . وعلى الاثر تحرّكت الزعامة البولونية الجديدة التي جاءت في اعقاب غومولكا بقيادة ادوارد غيريك نحو التلبية العاجلة لبعض المطالب الاقتصادية، موضوع تذمّر العمال .

« بعد الاضطرابات البولونية »، يقول احد مساعدي كيسنجر، « ادرك بريجنيف ان بقاءه في السلطة بات، فجأة، معرضاً للخطر، وانه هو نفسه قد يفلت من يده الزمام، على غرار ما حلّ بغومولكا ، ما لم يعد النظر بصورة جذريّة في اوضاع المجتمع السوفياتي، لا سيما الاقتصاديّة منها . فلا بد من استبدال المعداد بالكومبيوتر ، كما انه لا بد مـن حوافز للتجارة الخارجية ولرأس المال . وبدا ان ليس من بديل عن هذا الاتجاه » .

ان الحاجة الملحّة للتقنية والقروض الغربية هي التي ارغمت بريجنيف على التفكير في سياسة الوفاق مع الغرب . ذلك انه بانفراج العلاقات السياسية يستطيع بريجنيف خلق مناخ التوسع في التجارة بصورة رئيسيّة . ان السياسة قدّمت المعبر الى الاقتصاد . وسرعان ما انتهز كيسنجر وهو استاذ سياسة « الترابط » القديم ، الفرص المتاحة من الانتفاضة البولونية ، فاقترح على الرئيس اقامة اتصال مباشر مع بريجنيف المعاني بصورة فجائية من الوضع الحرج الجديد . وانطلقت الرسالة الاولى من البيت الابيض في كانون الثاني

١٩٧١ وتبعتها رسائل عديدة . ومع ان احداً لم يفشِ مضمون هذه الرسائل الاّ ان موضوعها الرئيسي ليس بالسرّ المحجوب . فقد اشار نيكسون الى ان الولايات المتحدة قد تكون مستعدة لمساعدة بريجنيف على تجديد الاقتصاد السوفياتي ، اذا كان بريجنيف بدوره مستعداً لتليين موقفه في مجموعة واسعة من القضايا السياسية المعلّقة مثل المفاوضات للحدّ من انتشار الاسلحة الاستراتجيّة . او كما يقول احد موظفي مجلس الأمن القومي ملخّصاً الطلب الاميركي بأنـه يعني « اذا اصبحت أكثر مرونة وتعقّلاً وراغباً في الاشتراك في مفاوضات جادة معنا» عندها يضمن بريجنيف الحصول على المساعدة الاقتصادية الاميركيّة . « ومثل هذا النمط من الترابط يفهمه بريجنيف جيداً » . كانت مفاوضات الحد من انتشار الاسلحة الاستراتجية هي المحك لهذه العلاقة الجديدة . وسرعان ما بادر نيكسون وبريجنيف الى تكليف كيسنجر ودوبرنين القيام بمسعى جديد لتجاوز العقدة التي دارت فيها المفاوضات السابقة حول الاسلحة الاستراتجيّة . وطوال الاشهر الاربعة التالية عقد الموفدان سلسلة من المحادثات البالغة السريّة أكثرها في مكتب كيسنجر ولكن بعضها في السفارة السوفياتية . ولم يكن جيرارد سميث المفاوض الاميركي الرسمي في مفاوضات هلسنكي — فيينا عالماً بأي شيء مما يجري في عاصمة بلاده بينما تابع وزير الخارجية السوفياتي اطلاع المفاوض السوفياتي سيمينوف على محادثات واشنطن اولاً بأول . ولم يزعج ابعاد سميث كيسنجر . فقد كان مفوضاً من الرئيس التوصّل الى تسوية في مفاوضات الحد من انتشار الاسلحة الاستراتجية مع دوبرنين فلم يأبه للتفاصيل البيروقراطية ولا اعار المشاعر الشخصية اهتماماً .

اما بريجنيف فلم يكن يستطيع التمتع بترف ازدراء زملائه ، اذ كان بحاجة الى دعم المكتب السياسي لسياسته الجديدة في الوفاق مع الولايات المتحدة . ذلك ان بعض المتصلّبين منهم كاد يعرقل هذا الاتجاه بمعارضته فكان لا بد من خوض معارك سياسية صاخبة في الكرملين . غير ان بريجنيف استطاع في اواخر اذار تأليب تأييد سياسي كاف من صفوف اللجنة المركزيّة لعقد المؤتمر الرابع والعشرين للحزب الشيوعي السوفياتي حيث يعلن انتصار سياسته الرامية الى الوفاق .

وما ان تحرّر بريجنيف ، بعض الوقت ، من المشكلات السياسية حتى احسّ بانه بات من القوة بحيث يستطيع قبول التسوية في مفاوضات الحد من الاسلحة الاستراتجية .

وكان الموقف السوفياتي السابق يشدّد على اهمية التوصل ، اولاً ، الى اتفاق حول الا سلحة الدفاعية ، بينما ربط الاميركيون بين الاسلحة الدفاعية والهجومية في مشروعهم للاتفاق . وفي الدورة الرابعة من المفاوضات وبعد تبادل العديد من الرسائل السريّة بين بريجنيف ونيكسون بدّل الروس موقفهم فتوصل كيسنجر ودوبرنين الى عقد التسوية . فقد قبل الروس الربط الاميركي بين الاسلحة الهجومية والدفاعية بينما وافق الاميركيون

على اعطاء الاولوية لسلاح ABM الدفاعي في المفاوضات الواسعة التي ستشمل نماذج أخرى من الاسلحة الهجوميّة .

كانت اشهر المفاوضات الاربعة شاقّة بالنسبة للمفاوضين وبصورة خاصة بالنسبة لدوبرنين . فقد كان على بعد خمسة آلاف ميل من زعيمه بينما كانت تفصل كيسنجر عن زعيمه قاعة في البيت الابيض . وقد تذمر دوبرنين ذات مرّة من السرّية المفرطة التي يستمر كيسنجر في الالحاح عليها . ذلك ان البيت الابيض في حرصه المتناهي على منع تسرّب الاخبار اصرّ على الجانبين ان يعملا معاً على مسودة واحدة لنقاط التفاوض ، فلم يكن يسمح باي نسخة او مسودة أخرى . واجاب كيسنجر على تذمر دوبرنين بانه كان من الاسهل التفاوض مع الروس في القرن التاسع عشر عندما كانت المساومات بين الطرفين محصورة في سعر الاسكا . وحالفت البديهة دوبرنين في جوابه السريع اذ قال لكيسنجر ان اولئك الروس ما كانوا جديرين بمنافسة هنري كيسنجر ! واحسّ كيسنجر انها المرة الوحيدة ، التي يستحق فيها دوبرنين ان تكون له الكلمة الاخيرة .

بعد انقضاء القليل على وقت الظهيرة في العشرين من أيار ١٩٧١ ظهر نيكسون على التلفزيون وتلا اعلاناً مشتركاً موجزاً وضعه كيسنجر ودوبرنين يبيّن الترابط بين الاسلحة الهجومية والدفاعية في اي اتفاق للحد من الاسلحة الاستراتجية . وكان ذلك « انطلاقاً » من عيار تاريخي كما اصرّ نيكسون على القول . ذلك ان هذه الانطلاقة كانت خطـوة كبرى في اتجاه قمة موسكو في ايار ١٩٧٢ ، واتاحت للزعيمين الفرصة لمواجهة همومهما الأخرى . اذ أصبح بوسع بريجنيف مواجهة المشكلتين المحرجتين — التخلف الاقتصادي والمواجهة مع الصين — وهو مطمئن الى ان نيكسون ، الى حد ما ، مستعد للتعاون . بينما اتيح للرئيس نيكسون من جهته مواجهة حملة اعادة انتخابه وهو يتطلع الى امكانات تحسّن رئيسي في العلاقات السوفياتية الاميركية تلوح في الافق القريب فضلاً عن ذلك الفرح المكتوم في نفسه بالمفاجأة المذهلة التي كان يحتفظ بها ليطلع بها على العالم قريباً : انفتاح تاريخي على الصين . ففي ذهن نيكسون ان الصين هي مفتاح روسيا — ومفتاح اشياء أخرى عديدة ايضاً .

٨ – العبور الى الصين

لم يكن موضوع الصين من المواضيع المحببة التي كان يرعاها كيسنجر باهتمامه، عندما حلّ في واشنطن في ١٩٦٩. حتى انه لم يكن يجيد الأكل على الطريقة الصينيّة باستخدام العيدان. وفي كتابه الاوسع انتشاراً «الاسلحة النووية والسياسيّة الخارجيّة» الذي صدر في ١٩٥٧ اقتصر كيسنجر على الاستشهاد بجمل قليلة من ماوتسي تونغ، متأثراً بما كان سائداً في الخمسينات، من اعتبار الصين والاتحاد السوفياتي كتلة واحدة متجانسة. حتى بعد ظهور بوادر النزاع في الستينات بين محوري موسكو وبكين استمر كيسنجر في المحافظة على ارث الحرب الباردة في نظرته الاساسية الى الصين. وزاد في نفوره منها اندلاع الثورة الثقافية في ١٩٦٦. ورغم تصلبه ضد السوفيات فقد أخذ يعطف عليهم في الصراع الصيني السوفياتي. وحين تسلم وظيفته في البيت الابيض قال كيسنجر «اننا لم نزل نعتبر الصين البلد الأشدّ عداء لنا».

اما ريتشارد نيكسون فقد كان من شباب الكونغرس المحافظين عندما انتصرت ثورة ماوتسي تونغ وقد خاض معركة انتخابه في العام التالي تحت شعار «اذا سقطت فورموزا أصبحت كاليفورنيا مكشوفة».، وعندما خاض معركة نيابة الرئاسة في ١٩٥٢ اعتبر ان الصين لم تكن لتصبح شيوعية لولا تفريط حكومة ترومان. ولكن نيكسون كان سياسياً ذكياً فأخذ منذ مطلع الستينات، مع استمرار تصلبه في السياسة الخارجيّة، يلمس ان الصين من حقائق الحياة الدوليّة التي لم يعد بالامكان تجاهلها. وانطلاقاً من اعتزازه «بحوار المطبخ» مع نكيتا خروشوف اخذ يحلم برحلة مماثلة الى الصين.

وبينما كان حكم الديمقراطيين غارقاً في حرب جنوبي شرقي اسيا، دعا نيكسون في ١٩٦٧ في مقال نشرته مجلة «الفورن أفيرز» الذائعة الصيت الى مواجهة مشكلة عزلة الصين التي لا يمكن استمرارها بتجاهل الامة الأكثر عدداً في العالم وهي تحيا في عزلة غضوب. ودعا الى السعي لحملها على وعي مقتضيات

مصلحتها القومية في الانصراف عن المغامرات الاجنبيّة الى حل مشاكلها الداخليّة.

وهكذا فان نيكسون، على الرغم من عدائه للشيوعية، قد أدرك من جهة الفوائد السياسية لاعلان عصر جديد من الوفاق مع العالم الشيوعي، وأدرك من جهة ثانية الفائدة التي يمكن جنيها من استخدام الصين كقوة رافعة ضد موسكو في لعبة استغلال التوتر الذي يعتري العلاقات السوفياتية الصينية. الاّ انه بعد انتخابه للرئاسة حرص على ان ينكر هو وجميع معاونيه علناً ان يكون هذا هو مقصد سياسته.

وأخذ يضع ملامح سياسته الرئيسية ازاء الصين، بدءاً من تخفيف حدة التوتر والاقلاع عن الحرب الاعلامية، مروراً بتسهيل التجارة واعطاء تأشيرة السفر الى بكين الى تخفيف القوات الاميركية في القواعد القريبة من الصين. ثم اشار الى رغبة الولايات المتحدة في اعادة النظر في موقفها من تيوان. واخيراً البدء بسحب القوات الاميركية من الهند الصينية حيث يتركز انتباه الصين واهتمامها المباشر.

وفي اول شباط ١٩٦٩ طلب نيكسون من كيسنجر في مذكرة خطيّة البحث عن وسائل الاتصال بالصين على ان يبقى ذلك سراً. وكان كيسنجر في الاشهر الاولى من ١٩٦٩ مشغولاً بفيتنام ومفاوضات الحد من انتشار الأسلحة الاستراتيجيّة وجولة الرئيس المقبلة الى اوروبا الغربيّة ولم يكن يعير الصين الاهتمام الكافي.

وفي ١٨ شباط طلب الرئيس الى وزير الخارجية روجرز ان يعلن رغبة الولايات المتحدة في الاشتراك ببرنامج موسّع من التبادل الثقافي والعلمي مع الصين.

وفي اول اذار بعد أن بدأ نيكسون رحلته الى اوروبا اطلع الجنرال ديغول على استعداده لفتح حوار مع الصين «اياً كانت الصعوبات». وقد اصغى ديغول باهتمام متذكراً، ربما، رد فعل اميركا على اعادته العلاقات بالصين في ١٩٦٤. وها هو نيكسون يسير على خطا ديغول بعد خمس سنوات. وبعد اسابيع قلائل بينما كان ديغول في واشنطن وقد اتى للحضور مأتم الرئيس دويت ايزنهاور طلب نيكسون اليه رسمياً نقل الاتجاه الجديد في السياسة الاميركية الى الصينيين فقبل الرئيس الفرنسي بالتكليف وبادر عند عودته الى استدعاء سفير فرنسا الجديد في بكين اتيان ماناك وطلب منه نقل رسالة الرئيس نيكسون الى الزعماء الصينيين «على ارفع مستوى». وقد عرض ماناك على الصينيين ما كلّف نقله اليهم. في البدء ساورتهم الشكوك وقد الفوا السياسة الاميركية العدائية ضدهم كما انّهم مطلعون على موقف نيكسون، المتصلّب السابق. الاّ انهم اصغوا باهتمام للعرض ولكن تيوان كانت المعضلة المستعصية بالنسبة اليهم. الاّ ان ماناك، وهو الدبلوماسي الموهوب والواسع الاطلاع في الشؤون الآسيوية حاول ان يضع تيوان في اطارها التاريخي. فقال لهم ان حلّ مشكلة تيوان يكون في نهاية المطاف متعلقاً

بتحسن العلاقات وليس الشرط الموجب لبدايتهـا . وقد كان شوآن لاي اول من اقتنص هذا التعليل وفهم مغزاه .

ثم توالت رسائل الوساطات ولاسيما خلال جولة الرئيس نيكسون التي تنقّل فيهـا بين فيتنام الجنوبية وغوام والهند وباكستان ورومانيا . وجاءت الوساطـات من رئيس باكستان الجنرال محمد يحي خان، ومـن رئيس رومانيا نيقولاي تشاوسيسكو وكانت لكل منهما علاقات ودية مع بكين وعلاقات فاترة مـع موسكو . وكان لزيارة نيكسون الى رومانيا مغزى خاص ، اذ عدا عن علاقاتها الخاصة بالصين، فان زيارتها وهي في فتور مع موسكو دلّل على استعداد نيكسون ان لا يراعي حساسيات العاصمة السوفياتية في تعامله مع العواصـم الشيوعية الأخرى – بكين مثلاً .

وما ان اتى صيف ١٩٦٩ حتى أخذ نيكسون يرسل ، عبر اتخاذه سلسلة من التدابير الاميركية مع الصين ، اشارات الرغبة في الاتصال ببكين . ففي ٢١ تموز أعلن السماح للمواطنين الاميركيين بالسفر الى الصين كما اذن لهم بشراء ما قيمته ١٠٠ دولار من السلع الصينية . وفي ١٨ آب أعرب روجرز عن رغبة الحكومة الاميركية في استئناف مباحثات فارسوفيا . وفي تشرين الثاني اوقفت الولايات المتحدة دورياتهـا البحرية في مضيق تيوان منهية تسعة عشر سنة من ذيول الحرب الكورية .

في ١٥ كانون الأول أعلنت واشنطن عزمها على سحب جميع الاسلحة النووية من اوكيناوا في نهـاية السنة . في ١٩ كانون الأول ١٩٦٩ رفـع حد المئة دولار الاقصى المفروض سابقـاً وابيح للمسافرين الى الصين شراء السلع الصناعية دون تحديد المبلغ . كما اعلنت وزارة التجارة الاذن للشركات الأجنبيّة التابعة لشركات اميركية او متفرعة عنهـا بالاتجار بالسلع غير الاستراتجية مع الصين .

وتطابقت هذه الاجراءات الاميركية الايجابية مع توترات الحدود بين الصين والاتحاد السوفياتي التي بدأت بصدام اذار ١٩٦٩ الدامي على محاذاة نهري الاوسوري والامور .

في جوّ هذه الحوادث استدعى كيسنجر آلين هوايتنغ استاذ علم السياسة في جامعة ميتشاغن والخبير السابق بشؤون الصين في وزارة الخارجية الاميركية ، ليستعين به على سبر اغوار النزاع الصيني السوفياتي في ضوء المجابهة الاخيرة . فبيّن هوايتنغ لكسنجر خطأ التقدير الاميركي الحكومي من ان الصين هي المعتدية وروسيا هـي في موقف الدفاع. ذلك بأن الاتحاد السوفياتي هو الاقوى وهو الذي يقيم التحشّدات في المستوى الصاروخي النووي باتجاه الصين مما يشير الى ان الاتحادي السوفياتي قد يكون يهيء حرباً نووية صاعقة ضد الصين لتدمير طاقتهـا النووية الفتيـّة ؛ وان الصين في هذه الحـال ، وهي تعيش خطر الانقضاض السوفياتي عليها ، قد

تلجأ الى بعث تراث صيني قديم : استخدام احد البرابرة لردع الآخر ، وهذا يعني ان الصين في هذه المرحلـة قد تجد في اميركـا صديقاً في وجـه روسيا ، وبالتالي تتهيأ لاميركا فرصة نادرة لاقامة علاقات جديدة مع الصين . ولقد ترك تحليل هوايتنغ انطباعاً كبيراً في نفس كيسنجر وجعله يرى الامور في اطارهـا الصحيح بالنسبـة للصين أول مرّة . فوجد أن مسألة الانفتاح على الصين ملحّة الى حدّ لم يعد يجوز الاّتخاذ الاتصال المباشر . وكـان نيكسون ، كما سبق وذكر . قد أخذ منذ الربيع يرسل الاشارات الايجابية الى الصين على غير طائل . فبعد اخذ موافقة الرئيس ابرق كيسنجر الى ولتر ستوسل السفير الاميركي حينئذ في بولونيا طالباً منه ان يتصـل بالسفير الصيني لاستئناف المفاوضات التي كانت جاريّة منذ ١٩٥٥ في فرسوفيا بين الولايات المتحدة والصين حول علاقات البلدين والتي لم تكن قد اثمرت بعد . ولكن السفير الاميركي اهمل برقية كيسنجر فاضطر الى تكرارهـا مرتين دون استجابة حتى انـه بعد انقضاء اسابيع دون تنفيذ الأمر اضطر كيسنجر الى ابلاغ السفير ان عليه تنفيذ ما هو مطلوب منه «او نبحث عن سواكم لأداء المهمة» . واخيراً في ٣ كانون الأول نفذ السفير ما طلب منه وذلك في حفلة استقبال اقامتها السفارة اليوغسلافية وقد سعى عبثاً للتحدث الى السفير الصيني الذي كان يتجنبّه حتى اضطر السفير الاميركي الى اللحاق به على سلم السفارة وطلب اليه استئناف المفاوضات . وقد فاجأت بادرة السفير الاميركي السفير الصيني الى حد ان شو آن لاي تندر بهـا امـام كيسنجر فيما بعد قائلاً « اذا شئتم اصابة سفرائنا بالنوبة القلبيّة فاتصلوا بهم في الحفلات الاجتماعية واقترحوا عليهـم المحادثات الجادة» .

وهكذا استؤنفت مباحثات فرسوفيا بعد ان كان مضى عليهـا سنتان وهي متوقفة . وعقد الاجتماع الأول في ١١ كانون الأول في السفارة الصينية. وفي الاجتماع الثاني في ٢٠ شباط الذي عقد في السفارة الاميركية فاجأ الصينيون الديبلوماسيين الاميركيين باقتراح يقضي بنقـل المباحثات الى بكين مع الاشارة الى انهـم يرجون ان يرئس الوفد مسؤول اميركي كبير . ولكن الولايات المتحدة لم تهرع لتلبية الطلب اذ كـان كيسنجر يريد ان يتأكد من جده . غير ان بكين الغت اللقاء الدبلوماسي الثالث في فرسوفيا الذي كان مزمعـاً عقد في ٢٠ ايار احتجاجاً على الغزو الاميركي لكمبوديا في ٣٠ نيسان .

واخذ نيكسون عبر الوسطاء الدوليين يوضح للصينيين ان كامبوديا لم تدخـل اي تغيير على رغبة الحكومة الأميركية في الانسحاب من فيتنام وتحسين العلاقـات مـع الصين. ولاحظ الاميركيون ان صراعـاً يدور في بكين بين جناح شوآن لاي المعتدل الراغب في الحوار مع اميركا وجناح لين باو المتصلّب . ويبدو ان هذا الصراع حسم فيما بعد لمصلحة شو آن لاي الذي كان مدعوماً من ماوتسي تونغ. وفي يوم الاول من تشرين

الأول ١٩٧٠ ، وهو العيد الوطني للصين ، اعطت بكين اولى اشاراتها الايجابية لواشنطن عندما وقف الى جانب ماو وهو يستعرض الحشود الغفيرة المبتهجة بالعيد الوطني الكاتب الاميركي ادغار سنّو الذي رافق الثورة في كهوف ينان في الثلاثينات ووضع كتابه الشهير عنها « النجم الاحمر فوق الصين » . وقد ركّز المصورون الصحافيون كاميراتهم على هذين الصديقين وكأنما اراد ماو ان يبارك من خلال وقوف سنّو الى جانبه الاتجاه نحو واشنطن .

وجاء هذا العرض العلني لرغبة الصين بعد اجتماع سري خاص للقيادة الصينية عقد بين ٢٣ آب و ٦ ايلول وحسم فيه الخلاف مع لين باو لمصلحة شو ان لاي . عندها قرر نيكسون وكيسنجر الاستجابة للعرض الصيني السابق بارسال مسؤول اميركي رفيع على رأس وفد لاستئناف المباحثات المزمع نقلها من فرسوفيا الى بكين على ان يقرن ذلك بشرط آخر وهو ان تجري المباحثات على « مستوى عال » من الطرفين. وفي اواخر تشرين الأول وجد الاميركيون في رئيسي رومانيا وباكستان اللذين زارا نيويورك لحضور الذكرى الخامسة والعشرين لتأسيس الامم المتحدة رسولين يقومان مجدداً بمهمة الوساطة مع بكين. فاقيمت لهما مآدب التكريم في البيت الابيض وشرب نيكسون في المأدبة المقامة على شرف رئيس رومانيا نخب رومانيا وعلاقاتها الحسنة بكل من « الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وجمهورية الصين الشعبيّة ». وكانت هي المرة الاولى التي يتلفظ فيها مسؤول اميركي باسم الصين الرسمي بعد ان كان يشار اليها بالصين الشيوعية . وفي المباحثات بين نيكسون وتشاوسيسكو تبيّن استعداد واشنطن لتبديل موقفها من قضية تيوان . وخلال الشهرين التاليين ، كانون الأول ١٩٧٠ وكانون الثاني ١٩٧١ ، وبعد زيارات قام بها كل من الجنرال يحي خان ونائب رئيس وزراء رومانيا الى بكين، كل على حدة وعرضا فيها وساطتهما من جديد ، تدفق سيل من الرسائل الخطيّة غير المتوقعة بين الصينيين والاميركيين عبر باكستان التي لعب رئيسها دور الوسيط الاول في اللقاءات الشخصية وفي فتحه هذا الخطّ من الاتصال البريدي بين واشنطن وبكين .

وبدأت هذه الرسائل متحفظة ثم اخذت « تزداد حرارة» على حد تعبير كيسنجر . ولم يلبث ان نقل ادغار سنو على لسان ماو حديثاً يتضمن اشارات عديدة ايجابية اذ قال الزعيم الصيني ان وزارة الخارجية الصينية تدرس أمر السماح لاميركين من اليسار والوسط واليمين بزيارة الصين.فاذا اراد بعض اليمينيين كنيكسون زيارة بكين فعلى الرحب والسعة . واردف قائلاً انّ المشاكل المعلقة بين الصين واميركا يجب بحثها مع نيكسون، وان ماو سيكون سعيداً لبحث موضوع العلاقات معه سواء زار نيكسون الصين سائحاً أو بصفته رئيس الولايات المتحدة .

جاءت عملية لاوس تثير مخاوف الصينيين وتدعوهم الى حالة التأهب، وقد اعتبروها تهديداً مباشراً لهم . فاسرع نيكسون يؤكد للصحافيين ان عملية لاوس يجب ان لا تفسّر على انها تهديد لأمن الصين اطلاقاً . ولكن من سخريات القدر ان فشل عملية لاوس ساهم في نجاح الانفتاح بين واشنطن وبكين لأنه تأكد لماو ان اميركا باتت تمثل نفوذاً متقلصاً في آسيا بينما روسيا تمثّل النفوذ الصاعد والخطر الدائم ، فارسل شو يقول لهانوي ان الصين لن تتدخل في فيتنام رغم غزوة لاوس لأنها مقتنعة بقرب انسحاب الاميركيين من الهند الصينية .

وفي ١٤ اذار صرح شو آن لاي لاحد الدبلوماسيين الاوروبيين بأن الصين اتخذت قراراً حاسماً يقضي بفتح حوار على مستوى رفيع مع زعماء الولايات المتحدة . ولم يلبث ان استؤنف الاتصال بين العاصمتين وازدادت نسبة الأمل بان يزور الصين مسؤول اميركي كبير .

فوق جبال هملايا والى أبعد منها

في مساء يوم من أيام ربيع ١٩٧١ سلم سفير باكستان الى كيسنجر رسالة من الصينيين في حلقة تبادل الرسائل بين العاصمتين ، الاّ انها تميزت من سابقاتها باشتمالها على دعوة لموفد اميركي بزيارة بكين لعقد محادثات على مستوى عال مع الزعماء الصينيين . وقد اقترحت الدعوة اسم احد اثنين : امّا روجرز او كيسنجر .

اطلع كيسنجر نيكسون على أمر الدعوة فور تمكنه من الاتصال به في تلك الليلة . وسهر الرجلان الى ما بعد منتصف الليل وهما يبحثان اطراف الموضوع . ولم يبتّ في تلك الليلة بمن يكون الموفد الاميركي. غير ان الصينيين كانوا يتوقّعون كيسنجر، وكانوا يشيرون الى انه رجل يعرف التكلم بلغة العالمين الشيوعي والرأسمالي. وفي اليوم التالي أعلم نيكسون كيسنجر انه قرّر ارساله هو الى بكين . واتفقا على ان يهيّأ الشعب الاميركي لإمكان التواصل مع بكين دون اعلان شيء محدّد . ولكن الصينيين سبقوهما بمبادرة علنية عندما وجه الفريق الصيني لمباراة البينغ بونغ التي كانت تجري في اليابان الدعوة في ٦ نيسان الى الفريق الاميركي بزيارة الصين . ولفتت الدعوة الانظار حتى ان « التايم » وصفتها « بوقع البينغ الذي تجاوبت اصداؤه في العالم » .

وفي ذلك المساء دعا نيكسون مجلس الأمن القومي الى الانعقاد وطرح عليه مراجعة السياسة الاميركية ازاء الصين دون ان يعلم احداً سوى روجرز بالدعوة الصينيّة الاخيرة . وكان المخالف الوحيد للتقارب مع الصين نائب الرئيس اسبيرو اغينو

الذي اخذ يدلي بتصريحات معادية للسياسة الجديدة حتى حمل على السكوت .

وفي ١٠ نيسان سافر فريق البينغ البونغ الاميركي الى الصين وكان اول وفد اميركي يزور الصين منذ ١٩٤٩ . وقد استقبل شو ان لاي الفريق الاميركي في ١٤ نيسان محيياً الصفحة الجديدة التي يفتتحها هذا اللقاء الاول في تاريخ الشعبين ، وأكد ان تجديد صداقتهما أمر يحظى بتأيد أكثرية الشعبين . ثم التفت الى الفريق الاميركي وسأل « الا توافقوني على ذلك ؟ » فقوبل منهم بعاصفة من التصفيق . ودعا الفريق الاميركي زميله الصيني الى زيارة الولايات المتحدة وسرعان ما قبلت الدعوة . ولم تمض ساعات على ملاحظات شو الايجابية حتى صدرت عن البيت الابيض مجموعة من التدابير تستهدف تضييق الشقة بين البلدين ، كانهاء حظر التبادل التجاري مع الصين ، ورفع الحظر عن بيع الوقود للسفن والطائرات في الذهاب والاياب الى الصين ، وتخفيف الرقابة عن انتقال النقد وعلى تأشيرات السفر .

وفي ٢٦ نيسان اوصى اجتماع عقد في البيت الابيض بقبول بكين في الامم المتحدة شرط ان لا يؤدي ذلك الى طرد تيوان . واخذ نيكسون وكيسنجر يقضيان اوقاتاً طويلة بعد انصراف موظفي البيت الابيض في قراءة الرسائل والمذكرات السريّة الصينية مراراً وتكراراً ثم يأخذ نيكسون باثارة الاسئلة ويحاول كيسنجر الاجابة عنها . وعمل الرجلان في مراجعة القضايا المتوقع ان تكون موضوع المفاوضات السريّة في الصين : تيوان ودخول بكين الامم المتحدة ، وانسحاب القوات الاميركية من الهند الصينية . والمدى الذي يتوقع ان تبلغه عودة العلاقات بين واشنطن وبكين . وعكفا معاً على كتابة كلمة الافتتاح التي سيلقيها كيسنجر امام شو ان لاي فضلاً عن عشر بلاغات نموذجيّة يمكن لكيسنجر تلاوتها نيابة عن الرئيس . واعدّ كتاب مكثف كبير عن التاريخ والحضارة الصينيين وعن الفترة المعاصرة وحوادثها الجارية .

اما كيسنجر ، فكان يتكلم جهاراً وعلناً عن فيتنام وروسيا واوروبا ولكنه في الخفاء كان يعكف بدأب طالب العلم المثابر على دراسة الصين . وغدا رجل هارفرد المتخصص بماترنيخ وبسمارك وكاستلري منكبّاً على ترجمة حياة مطولة لشو اعدّتها له وكالة المخابرات المركزية بناء لطلبه المموّه بالاطلاع على ترجمات حياة جميع قادة العالم المعاصرين .

وفي الطرف الاخر كان الصينيون يجمعون المعلومات عن كيسنجر . ويذكر البروفسور روس تيرل ان الصينيين في ٩ حزيران اخذوا يمطرونه بأسئلة عن كيسنجر : كيف يفكّر ومدى نفوذه ورأيه في العلاقات الصينية الاميركية .

وسط هذا الاعداد السرّي من الطرفين طلعت « « النيويورك تايمز » في ١٣ حزيران بقصة هزت اركان البيت الابيض ، اذ اعلنت ان في حوزتها مجموعة كبرى من اوراق

البنتاغون السريّة وستبدأ بنشرها تباعاً . وحرّك نيكسون وزارة العدل والنيابة العامة ولكن المحكمة العليا افتت بأن حق الصحافة الحرّة بموجب التعليل الاول للدستور يعلو على كل اعتبار آخر . فاستمرت « النيويورك تايمز » تنشر وثائق البنتاغون السريّة : بعضها عن اسرار الموقف الاميركي في مفاوضات الحد من انتشار الاسلحة الاستراتجية وبعضها عن الموقف من الهند وباكستان مما دلّ على ان الاسرار تتسرب من قلب البيت الابيض. فعهد نيكسون الريخمان باقامة جهاز تحقيق سرّي ضمن البيت الابيض لاكتشاف امر التسرّب .

غير ان قلق كيسنجر من ردة فعل الصينيين لم تتأيد عملياً اذ استمر برنامج زيارة كيسنجر السريّة الى بكين بحسب مواعيدها السريّة المتفق عليها بين ٩ و١١ تموز.

اقلع كيسنجر من مطار اندروز التابع لسلاح الطيران الاميركي في اول تموز على متن طائرة خاصة بالرئيس . واتجه الى سايغون حيث رافقه وفد صحافي كبير . في ٤ تموز وصل الى بانكوك حيث بدأ يتناقص عدد الصحافيين المرافقين له . في ٦ تموز طار الى نيودلهي حيث قوبل بتظاهرة مضادة للحرب . ولكن اخباره اخذت تتراجع الى مرتبة ثانوية بعد ان كانت في بداية المرحلة تحتل الصفحات الاولى . وكان رجال الصحافة يتتّبعون اخبار كيسنجر من زاوية اتصالاته الفيتناميّة وما اذا كان مزمعاً على تجديد اللقاءات مع له دوك تو ؟ وفي هذا المجال خاب فألهم فلم يعثروا على ما يروي الغليل . وقد فاتتهم حقيقة الرحلة وان هدفها بكين . وهكذا فترت حماستهم حتى اذا طار في الثامن من تموز الى اسلام اباد عاصمة باكستان لم يعد اي منهم مهتماً بتتبع تحركاته .

ولو أنّ هذا الاهمال الصحافي اصاب كيسنجر في اي وقت آخر لاثاره واقلقه اما في هذا المجال فقد كان برداً وسلاماً، ادخل الى نفسه الطمأنينة المنشودة .

في ذلك المساء قام كيسنجر باضخم عملية تخف عاونته على اتمامها سلطات باكستان الرسميّة . فانتقل من زيارة استغرقت تسعين دقيقة لرئيس باكستان الى منتجع ناتيا غالي متذرعاً بالتوعك الصحي، ملغياً حفل عشاء رسمي مزعوم روّج انه كان سيقام على شرفه. وجرت في ناتيا غالي معاينة مريض روّج انه كيسنجر بينما كان هذا الاخير متخفياً في قصر الضيافة حتى الثانية والنصف صباحاً عندما توجه الى المطار . وفي المطار لحق به ونستون لورد مساعده الشخصي ، وكل من جون هولدريدج و ريتشار سميسر وكلاهما خبير بالشؤون الاسيوية . ولم تكن الطائرة الباكستانية لتلفت النظر ، من جهة ، لانتظام خط باكستان ـ بكين الجوّي بحيث لم يكن في الأمر ما يخرق المألوف ، ومن جهة ثانية لأن الوقت المتأخر كان كفيلاً بان يبدّد وجود الفضوليين في المطار . ولكن المصادفة القت ببيغ مراسل « الدايلي تلغراف»

في المطار في ذلك الوقت المتأخر فلحظ كيسنجر وسأل موظفاً باكستانياً فاعلمه انه ذاهب الى الصين دون ان يعلم السبب لرحلته . وابرق بيغ بالخبر الى « الدايلي تلغراف » لكن المحرر المسؤول أهمل الخبر متوهماً ان المراسل اختلق النبأ مدفوعاً الى ذلك ، ربما ، بحالة من السكر الشديد .

واقلعت الطائرة محلقة فوق الجبال الشاهقة وأعلى قمم العالم في اتجاه بكين. ولفّ شعور المغامرة كيسنجر الذي امضى رحلته طوراً بالتشاور مع لورد وتارة باعادة قراءة الكتاب المكثف عن الصين الذي اعدّه نيكسون له بدقة متناهية . وفي الظهيرة وصلت الطائرة الى مطار عسكري مهجور قرب بكين حيث كان في استقبال كيسنجر المارشال «يهشين ينغ» احد قادة الثورة الصينيّة الذي حلّ محل لين بياو كرجل الصين العسكري الاول، يرافقه السفير هوانغ هوا الديبلوماسي الصيني المتمكن جيداً من اللغة الانكليزية والذي ارسل فيما بعد الى كندا فالامم المتحدة ، وموظفان من وزارة الخارجية .

في الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم وصل شو ان لاي الى بيت الضيافة حيث كان يقيم كيسنجر . وادخلت هذه الزيارة الزهو الى نفس كيسنجر اذ ان رئيس الحكومة لا يمكن ان يزور ضيفاً اجنبياً لاسيما وان هذا الضيف لا يحمل رتبة حكوميّة معيّنة . هذا فضلاً عما يمثله شو في تاريخ الصين المعاصر من قمة عالية بالامجاد والنضالات في الثورة وتحمل مسؤوليات الدولة العليا بعد انتصارها .

استغرقت الجلسة الاولى نحو ثماني ساعات دون ان يقيدها جدول اعمال محدّد . وقد ترك شو في نفس كيسنجر انطباعاً هائلاً على انه رجل الدولة ذو الرؤيا البعيدة والالمعية البارزة والاسلوب السياسي الصقيل . وكان يتوقع منه ان يبدأ الحديث عن تيوان او فيتنام ولكن لشدة دهشته وجده الانسان الذي تهزّه القضايا الحضارية العميقة . فما ان تلفظ كيسنجر في مستهل الجلسة بعبارة لم يكن يعلّق عليها كبير اهتمام : « ها نحن هنا بعد اثني وعشرين عاماً من الأنفصال في هذه الارض الّتي تبدو لنا محاطة بالالغاز » حتى اعترضه شو بدهشة : « لماذا تبدو محاطة بالغاز ؟ » وخاضا في تحليل صورة البلدين : لماذا الصين تبدو محاطة بالالغاز ولماذا يبدو الاميركيون وكأنهم لا يستقرون على قرار والى حد ما سذجاً ؟ وهكذا اخذ البروتوكول يذوب امام حرارة الحوار الذي لم يوفّر حقبة ولا نظاماً دون تحليل هادىء اشتمل على مراحل التدخّل الاجنبي في الصين منذ القرن التاسع عشر الى ثورة ماو والمسيرة الطويلة حتى العلاقات الصينية الاميركية . وكان الوقت قد قارب منتصف الليل عندما دعا شو الى استئناف الجلسة في اليوم التالي . وبينما كان شو يغادر المكان اشار الى خطاب لنيكسون في كانساس في ٦ تموز قال فيه ان العالم تسيطر عليه خمس

قوى هي الولايات المتحدة واوروبا الغربية والاتحاد السوفياتي والصين واليابان . ولم يكن كيسنجر وهو في سفر ، قد قرأ الخطاب بعد . في صباح اليوم التالي تلقى من شو نسخة من الخطاب مع ملاحظات على الهامش بخطّ شو .

في الرابعة بعد الظهر استؤنفت محادثات كيسنجر – شو في مكتب الاخير واستغرقت ثماني ساعات أخرى . لم يتوصلا الى اتفاقات محدّدة ولكنّهما وضعا اسسّ التفاهم المقبل . ومن هذه الاسس، أولاً ، اعتبار تيوان جزءاً من الصين ومصيرها السياسي يقرّره الصينيون انفسهم . وهذا تنازل قبلت به الولايات المتحدة باعتبار تيوان مسألة حيويّة للصين . وثانياً ، ان مصير جنوبي فيتنام السياسي يجب ان يقرّره الفريقان الفيتناميان المتخاصمان بعد عقد اتفاق وقف اطلاق النار وعودة الاسرى والانسحاب الكامل للقوات الاميركيّة . وهذا كان آخر ما عرضه نيكسون على الفيتناميين ، وفيتنام مسألة حيوية بالنسبة لأميركا . وثالثاً ، ان كل النزعات الآسيوية مفروض حلّها سلمياً ، وهذا لا يقتصر على فيتنام بل يشمل كل النزاع على الحدود السوفياتية – الصينية . وهذه مسألة حيوية لكل من الطرفين .

في المساء ، عند الثامنة والنصف ، استأنفا اجتماعهما فانتقل البحث من العموميات الى عرض محدد تقدّم به شو ان لاي : دعوة الرئيس لزيارة الصين . فقبل كيسنجر الدعوة بالنيابة عن نيكسون ملحاً على وجوب الاعداد الدقيق للزيارة على صعيدي جدول الاعمال والتغطية الاعلامية، مضيفاً ان موعد الزيارة لا يمكن تأخيره عن ايار ١٩٧٢ حتى لا يختلط أمر الزيارة بالحملة الانتخابية . واتفق الطرفان على ان يجري الاتصال بينهما من الان فصاعداً بصورة مباشرة – دون وساطة – عن طريق سفارتيهما في باريس واتاوا وعدد من العواصم الأخرى . وهكذا انتهت رحلة كيسنجر الى بكين مكللة بالنجاح سواء من حيث التوصل الى موقف أكثر مرونة من الصينين او لما توسّمه من نتائج رحلته على صعيدي ازعاج الفيتناميين بموقف استراتيجي متقدم على الاتحاد السوفياتي .

فاجأ نيكسون ، في خطاب تلفزيوني، الجمهور الاميركي باعلان دعوة شو ان لاي له لزيارة الصين ، وبمحادثات كيسنجر – شو السريّة في بكين بين ٩ و ١١ تموز . وعقلت الدهشة ألسنة كثيرة في ذلك المساء . وكان على روجرز قبيل توجه الرئيس الى التلفزيون ان يتصل بسفراء البلاد المتوقع تأثرها من الخط السياسي الاميركي الجديد . فانفجر سفير الصين الوطنية غاضباً واصفاً ما تم « بالصفقة القذرة » آخذاً على الاميركيين عدم استشارة حكومته الحليفة سلفاً . اما دوبرنين سفير الاتحاد السوفياتي فقد لاذ بالصمت ولكن موسكو انفجرت بعد حين باتهامات حول التآمر الصيني الاميركي المشترك . واخذ الاوروبيّون يحبسون انفاسهم في ترقب

« مفاجآت » اخرى على الطريقة النيكسونيّة . اما الآسيويون فانتظروا « صدمات اخرى من نيكسون». وسيطر جو الغموض على سياسة نيكسون التي لم يعد أحد يستطيع التنبوء بخفاياها .

كانت فرحة نيكسون لا تقدّر، وقد شعر انه بزّ حتّى ديغول في مفاجأة العالم واخذ المبادرة السياسية والدبلوماسية . اما كيسنجر فقد عظم حجمه بعد النجاح الاخير ليحتل موقعاً مركزياً في سياسة البلد وعلى مدى عالمي . واخذ عبر لقاءاته مع رجال الكونغرس والصحافة يعزّز مكانته ودوره المركزي في مداولات البيت الابيض . وكان عليه الآن ان يمهّد الطريق امام زيارة الرئيس لبيكين سواء من حيث احتواء غضبة تيوان او وقف الدوريات الجوية الاميركية فوق بحر الصين . وبعد عودة كيسنجر اقدمت الولايات المتحدة على خفض قواتها في تيوان انسجاماً مع اعترافها بان الجزيرة جزء من الصين بحيث لم يعد لازماً وجود قواتها فيها . وكانت الذريعة لهذا التدبير ، اذا ما اعترض رجال الكونغرس، ان الحامية الاميركية في تيوان كان يقصد منها دعم آلة الحرب في فيتنام التي تقرر سحبها الان . اما الخطوة التالية فكانت على صعيد الامم المتحدة ، وقد اعتمدت الولايات المتحدة منذ خريف ١٩٧٠ سياسة تواجد صيني . فهي تمانع في طرد تيوان ولكنها تقبل بدخول بكين. غير انه قبل الوصول الى هذه المرحلة في الامم المتحدة حدثت مأساة لين بياو الذي بعد هزيمته على صعيد القيادة الصينيّة اقدم على محاولة يائسة لتسلم السلطة وانتهى به الامر الى الهرب بطائرة سقطت به في ١٢ ايلول فوق منغوليا بحسب الرواية الصينيّة . ومرّت ايام من التوتر في الصين لم تلبث ان تلاشت ، فتنفس كيسنجر الصعداء وانطلق ثانية الى بكين للتهيئة لزيارة الرئيس . وجرى ابان ذلك الاقتراع على عضوية الصين في الامم المتحدة ففازت بكين بمقعدها المنتظر . وبينما كان روجرز يحارب حتّى النهاية للاحتفاظ بمقعد تيوان كان كيسنجر بناء لتعليمات الرئيس يعلن ولادة علاقات جديدة مع بكين . وتعلّل نيكسون باقتراع الامم المتحدة ، رغم توقعه له ، لتبرير خفض حصة اميركا في موازنة المنظمة الدولية ، وهو ما كان سيقدم عليه في اي حال . ثم أعلن ان زيارته الى الصين ستكون بين ٢١ و ٢٨ شباط ١٩٧٢، وان المفروض بحسب رأي واشنطن ان تقرّر علاقة تيوان بجمهورية الصين الشعبيّة المفاوضات المباشرة بين الطرفين .

ولكن علاوة على المشكلات ذات الطابع الثنائي بين واشنطن وبكين فقد كانت ثمة اربع مشكلات دبلوماسية متعلقة ببلاد أخرى على هامش علاقة بكين بواشنطن .

١ ــ الاثر في اليابان

كانت بلاد الشمس الساطعة مشكلة مزدوجة بالنسبة للصين والولايات المتحدة . الاولى كانت تشكو من عودة « الروح العسكرية » اليابانية والثانية كانت اشد شكوى من توسع التجارة اليابانية . وكان كيسنجر قد عرض على اليابان اعادة اوكيناوا مقابل خفض اليابان صادرات منسوجاتها الى الاسواق الاميركية . ولكن رئيس الوزراء الياباني ساتو رفض العرض . وفي ١٥ آب خفض نيكسون الدولار تعزيزاً للتجارة الاميركية مدركاً ان هذا التدبير سيكون له وقع الكارثة على الين الياباني والاقتصاد الياباني ككلّ . وكما لم يخبر اليابان سلفاً بخطوته الجديدة نحو الصين لم يأبه لرد الفعل الياباني عند خفض الدولار . ولم يكن هذا الجفاء في العلاقات اليابانية ـ الاميركية أمراً غير مرحّب به في بكين .

٢ ــ قمة موسكو

رغم تأكيدات كيسنجر بعد عودته من زيارة بكين الاولى في ١٦ تموز ان العلاقة الجديدة بالصين لا يقصد منها ان تكون موجهة ضد احد ولاسيما ضد الاتحاد السوفياتي، الاّ ان جوهر العلاقة الجديدة ، في واقع الامر ، كان عدا فوائدها على صعيد فيتنام ، اتاحة مدى اوسع من المناورة للاميركيين في علاقاتهم بموسكو .

بعد اسابيع قليلة (في ٤ آب) كشف نيكسون النقاب عن انه في تشرين الأول ١٩٧٠ كان قد اتفق مع غروميكو على عقد مؤتمر قمة شرط توفر مواضيع اساسية للبحث . وهو يقترح الآن عقد القمة الروسية الاميركية لبحث موضوعي برلين ونزع السلاح . وفي ١٢ تشرين الأول أعلن نيكسون قبوله دعوة رسمية لزيارة موسكو « في النصف الاخير من ايار » ١٩٧٢ . لقد حفزت خطوة كيسنجر نحو بكين الاتحاد السوفياتي لتصعيد تعاونه مع واشنطن . ورغم استمرار التأكيدات الاميركية ، هذه المرة على لسان نيكسون، ان واشنطن لا تريد استغلال خلافات العاصمتين الشيوعيتين ، وقد كان واضحاً للروس ان العكس هو الصحيح ، وانهم لا يملكون ما يمكّنهم من كسر سياسة المثلث التي يتبعها الاميركيون والعودة بالعالم الى وضع التمحور الثنائي السابق . وكلّما ازداد قلق الروس ازداد اطمئنان الصينيين وتعزز استقبال نيكسون الوديّ في بكين.

٣ ــ كارثة في شبه القارة الهندية

انفجرت حرب وحشية في شبه القارة الهندية بين الجارتين الهند وباكستان . ووجدت الولايات المتحدة نفسها ، نتيجة الدبلوماسية الشخصية التي اعتمدها فريق نيكسون ــ

كيسنجر ، تنحاز الى الدكتاتورية العسكريّة الباكستانية الفاسدة ضد أكبر ديمقراطيات العالم كثافة في السكان . وفضلاً عن هذا فقد خسرت الدكتاتورية الحرب وانتصرت الديموقراطية . وسرّ الموقف الاميركي يعود الى عدة عوامل . منها دور يحي خان الذي لا يثمّن ، في التوسط بين بكين وواشنطن في مستهل العلاقة بينهما . ومنها أعجاب نيكسون بيحيى خان وعدم اطمئنانه لانديرا غاندي « الشديدة البرودة » . ولكن اهم هذه العوامل هو تصور كيسنجر لتبدّل موقع القوى والمحالفات في آسيا بقيام التحالف الهندي السوفياتي وتوقّعه قيام تفاهم غير معلن بين اميركا والباكستان والصين يحول دون سيطرة الهند على شبه القارة وبالتالي توسع النفوذ السوفياتي .
ولكن كيسنجر لم يعر امر الحرب في شبه القارة اهتمامه الجاد الا بعد انفجارها فجن جنونه لأنه كان ينوي عقد محادثات سريّة بين زعماء البنغال ويحي خان . ففوتت عليه الهند الفرصة المتأخرّة . ونشب الخلاف بين كيسنجر وسيسكو حول الموقف من الحرب الهندية الباكستانية . فكان رأي سيسكو ان للهند اهدافاً محدودة من الحرب اهمها حصول بنغلادش على استقلالها وليس تدمير الكيان الباكستاني في الغرب ، بينما كيسنجر اعتبر ان الحرب الهندية ستطيح بكامل الكيان الباكستاني . وفي سبيل ذلك ادانت اميركا الهند وحملتها المسؤولية الرئيسية وانحازت الى باكستان.
قامت قيامة الصحافة ورجال الكونغرس . فاخذ كيسنجر يتنصّل من العداء للهند مع تأكيده خطر العدوان الهندي على تفتيت الكيان الباكستاني . وتعزّزت وجهة نظر كيسنجر بتقرير من وكالة المخابرات المركزية حول هجوم هندي مرتقب على غرب باكستان . ولم يأخذ سيسكو بتقرير وكالة المخابرات واعتبره مفرطاً في تشاؤم لا مبرر له . ولكن البيت الابيض بتأثير كيسنجر أمر اسطولاً بحرياً بقيادة حاملة الطائرات النووية « انتربرايز » بالتحرك من مياه فيتنام الى خليج البنغال . وصدرت توجيهات للسفير الاميركي في موسكو لاعلام السوفيات انهم اذا عاونوا الهند على تفتيت باكستان الغربيّة فهذا يؤدي الى عرقلة زيارة الرئيس الى موسكو . وارسلت الهند تؤكد انها لا تنوي تفتيت باكستان الغربيّة . ولكن كيسنجر لم يطمئن الى هذه التأكيدات فادلى للصحافيين بتصريح شدّد فيه على ان كامل العلاقات السوفياتية الاميركية تكون موضع اعادة نظر اذا لم يمارس السوفيات ضغطاً على الهند لضبط النفس .

في ١٦ كانون الأول انتهت حرب الاسبوعين وقد تفسخت باكستان الى دولتين واصرّ كيسنجر على انه انقذ باكستان الغربيّة من الاجتياح والتفتيت بموقف اميركا الحازم الى جانبها بينما خالفه العديد من مسؤولي وزارة الخارجيّة مؤكدين ان الهند لم تكن تعدّ لاجتياح غربي باكستان. والواقع أن سياسة الحكومة الاميركية ابان الازمة أدت

الى الحاق الضرر البالغ بالنفوذ المعنوي للولايات المتحدة والى تحقيق مكاسب سياسية للاتحاد السوفياتي . واصاب التشويه صورة كيسنجر كمخطط للسياسة الاميركية ونبذه اصدقاؤه الليبراليون . وبدأت مؤامرات القصر ضده في البيت الابيض يقودها هالديمان والريخمان . وشنّ عليه غولدووتر في الكونغرس هجوماً عنيفاً . وشعر كيسنجر كأنّ سيد البيت الابيض يدعم الى حد ما هذه الحملة ضده . واخذ في كانون الأول ١٩٧١ يفكّر جاداً في التخلّي عن منصبه .
ولكن الايام السوداء هذه لم تلبث ان انقشعت غمائمها بعد ان انطوت ازمة شبه القارة الهندية ووجد كيسنجر نفسه يتلقّى تكليف الرئيس من جديد لمجابهة تحديات دبلوماسية جديدة .

٤ ـ مأزق فيتنام

دهش كيسنجر عندما علم من شو أن لاي ابان زيارته لبكين في تموز ان الصين تعتبر المشكلة الفيتنامية ، لا مشكلة تيوان ، هي العقبة التي تحول دون عودة العلاقات بين واشنطن وبكين الى وضعها الطبيعي . وكان كيسنجر يأمل ان يؤدي الانفتاح على الصين الى الضغط بصورة غير مباشرة على موسكو لتضغط بدورها على هانوي توصلاً الى انهاء الحرب . ولكن نهاية سنة ١٩٧١ دلتّ على فشل هذا المسعى لأن فيتنام الشمالية مضت في مسعاها العنيد لاحراز نصر كامل وشدّدت على شرطها الاوحد لقبول التفاوض مع الاميركيين : اسقاط تيو قبل انتخابات تشرين .
وفي كانون الأول التأم المكتب السياسي لحزب العمال الفيتنامي الحاكم في جو معاد بشدة لسياسة اميركا في تحقيق « الوفاق بين الدول الكبرى » على «حساب الدول الصغرى » وعلى اساس « خلق التناقضات بين البلاد الاشتراكية لتحقيق ظروف ملائمة للاميركيين » .
وقرّر الفيتناميون لإحباط هذا المخطط اتباع نهج مزدوج من العنف العسكري والمكر الدبلوماسي فيؤخروا انعقاد المحادثات مع كيسنجر بينما هم يعدّون لهجوم كبير في الجنوب . وهكذا استمرت المفاوضات تدور في مأزق حتى العام الجديد . وفي ٢٥ كانون الثاني ١٩٧٢ ادرك نيكسون وكيسنجر استراتيجية هانوي في تأجيل المفاوضات ، فاعلن نيكسون على التلفزيون أمر اللقاءات الست السرّية التي عقدها كيسنجر مع له دوك تو في ١٩٧١ ، وكان نيكسون في عام انتخابات الرئاسة يريد اظهار حكومته بأنها ساعية فعلاً للسلام وان الخصم هو الذي يعرقل المساعي . وادّى هذا الاعلان الى تعزيز مكانة كيسنجر فظهرت صورته على غلافي التايم والنيوزويك في ٧ شباط ١٩٧٢ .

٩ – الاسبوع الذي غيّر العالم

حين حلّقت طائرة نيكسون فوق بكين كان يبدو مطارها مهجوراً مما دعا حفنة من الصحافيين الاميركيين الى التساؤل عن سرّ هذا الغياب الكامل للصينيين .

ولكن ما ان بدأت الطائرة تهبط حتّى انشقت الارض فجأة عن علم اميركي يعلو على سارية قرب علم الصين الأحمر ، وعن حرس شرف يبلغ عدده نحو ثلاثمئة وخمسين وقد شكّلوا من مختلف قطاعات جيش التحرير الشعبي ، وعن لجنة استقبال توجهت صوب الطائرة وعلى رأسها رئيس الوزراء شو إن لاي . وصافح شو نيكسون متمنياً ان تكون الرحلة ممتعة، ثم صافح بحرارة كيسنجر «اه اهلاً بالصديق القديم». وكان كيسنجر يقوم بزيارته الثالثة للصين ، منذ رحلته الاولى اليها في تموز الماضي .

لم يحدث تبادل خطب ولا اصطف السلك الديبلوماسي ولا وقفت جماهير تلوّح باعلام ولا قدّمت باقة زهر . وكان نيكسون قد ادلى « للتايم » بتصريح قبل سفره قال فيه « السفر الى الصين كالسفر الى القمر » . ولكن بعد الاستقبال الفاتر في المطار وجد ان الرحلة الى القمر كان لا بد من ان تكون أكثر دفأً . فقد كان استقباله نقطة وسط بين جفاء العداء وحرارة الوفاق . الاّ ان الصين تبقى ارض المفاجآت ، فما مضت دقائق قليلة على وصول نيكسون الى بيت الضيافة حتّى رن الهاتف يحمل ما لم يكن متوقعاً حدوثه بهذه السرعة : ماو يسأل اذا كان يلائم الرئيس وكيسنجر زيارته فوراً . وهي لفتة كان يضنّ بها بطل الصين الاسطوري على كبار الزائرين الذين لم يكن يستقبلهم الاّ قبل يوم او يومين من مغادرتهم البلد . واستقبل ماو ضيوفه في مكتبه الكبير والى جانبه شو وإبنة اخت ماو، وانغ هاي جونغ، وهي في الثلاثين من عمرها وتتولى مسؤولية مساعد وزير الخارجية . وتولت تانغ وين شينغ الصينية المولودة في بروكلين الترجمة بين الوفدين . قضى نيكسون أكثر من ساعة مع ماو. استغرقت الترجمة أكثر من نصف المقابلة، وتولى ماو اكثر الحديث من الجانب الصيني ، وبدا شو منكمشاً في حضرة ماو لا يلوي على شيء . فقد كان التابع المتواضع والمرؤوس الأمين . كان ماو يدير شؤون الصين بالقوة والتدفق اللذين ادار

بهما حديثه مع نيكسون .

وماذا قال الزعيم الصيني ؟ الانطباع الاول انه تكلّم منتقلاً من فكرة الى اخرى دون ترتيب ولا رجوع الى مفكّرة منسقة : تيوان ، اليابان ، الهند الصينية ، النضال ضد السيطرة (يعني روسيا) ، اهمية توسع الاتصالات بين الصين واميركا . غير ان كيسنجر بعد اسابيع عندما كان يدرس بهدوء نص بلاغ شانغهاي المشترك الذي صدر في نهاية رحلة نيكسون الى الصين ذهل لأنّ كل فقرة في البلاغ سبق ان تلفظ بها ماو في حديثه إلى نيكسون .

كان ماو نسيج وحده بين زعماء العالم ، يختلف كلياً عن قادة روسيا . اولئك كانوا من الجيل الثاني او الثالث بعد الثورة ، من التقنيين والبيروقراطيين الذين لا يطمئنون للاضطرابات الشعبيّة ويعتبرونها نقيض مصالح الحزب والدولة ، بينما ماو كان لم يزل يحمل في نفسه كل روح الثورة والمغامرة التي قادها منذ البدء . فهو يقلب الصين رأساً على عقب في سبيل ثورة ثقافية ونفسية لتجديد شباب الثورة ومدّها بحيوية وزخم جديدين . انه المكافح الذي لم يهدأ منذ المسيرة الطويلة التي بدأها بتسعين الف رجل بقي منهم عشرة الاف في نهايتها ، الى حروبه المتوالية ضد تشان كاي تشك فاليابانيين فالاميركيين والان على شفير الحرب مع الروس. انه دوماً في خندق المجابهة . بعد اللقاء بماو الذي لم يتكرر طوال رحلة نيكسون ناب شو عن زعيمه في ادارة دفة المفاوضات . وعندها اخذ شو يتصرف بما عرفه عنه كيسنجر في الرحلة السابقة من مزايا استحوذت على اعجابه الكبير : قدرته على المصارحة الصادقة ، فهمه الشامل للتاريخ والفلسفة ، قبضه على التفاصيل ، وظرفه النادر .

في الايام الاربعة التي تلت كان نيكسون وشو يجتمعان في جلسات محصورة يحضرها كيسنجر الذي يجلس الى يمين الرئيس ونستن لورد وجون هولدريدج . وفي مكان آخر من الردهة تجري محادثات موازية بين روجرز و « شي بينغ في » وزير الخارجية الصيني . نيكسون وشو وصحبهما يبحثان في القضايا المبدئية بينما روجرز وشي يبحثان في تنفيذ الاتفاقات المحدّدة المتعلقة بالسفر والتجارة والسياحة . وفي المساء يجتمع كيسنجر مع شياو كوان هيوا نائب وزير الخارجية الصيني ليعملا معاً في وضع مسودة البلاغ النهائي . تلك كانت جلسات المفاوضات المضنية . مساء الاثنين اقام شو مأدبة عشاء على شرف الرئيس في قصر ردهة الشعب العظمى . وبعد ان عزفت فرقة الجيش الموسيقية « « اميركا البلد الجميل » « ومنزى في المرمى» واغنيات اميركية اخرى ، وقف شو ليشرب نخب زيارة الرئيس التي وصفها « بالخطوة الايجابية » : « ان ابواب تواصل الصداقة قد فتحت اخيراً على مصراعيها » . ووقف نيكسون يرد بخطبة اعدّها : « في هذه اللحظة بالذات ، بواسطة عجائب الاعلام التلفزيوني ،

يشاهد الناس ويسمعون ما نقول ونفعل ها هنا باعداد كبيرة»، واستشهد بابيات لماو : « كثيرة هي الاعمال التي تهتف طالبة انجازها ودوماً بالحاح . العالم يمضي . والوقت يمرّ . انّ عشرة الاف سنة لفترة طويلة . اذن اقبض على اليوم ، ولا تدع الساعات تفلت منك ».

ومضى نيكسون حاملاً قدحه الصغير من الكيكور الصيني متنقلاً في القاعة يدق اقداح جميع المسؤولين الصينيين ويشرب نخبهم ، منهياً تنقلّه بشرب نخب ماو . حتى أن احد المراسلين الاميركيين المحافظين ، وليم باكلي ، قال « لقد اسبغ نيكسون على ماو من النعوت ما لم يقله احد في فلورنس نايتينغيل ! » .

وأخذت حرارة الاستقبال الصيني ترتفع . « فجريدة الشعب » التي تعدّ أهم جهاز اعلامي في الصين ، والتي كانت عادة تحفل بالحملات المعادية للاميركيين ، نشرت بايعاز من شو ثلاث صور لنيكسون اثنتين منهما مع ماو وواحدة مع شو . وكان لنشر الصور في جريدة الحزب مغزى خاص . فاخذ الصينيون يبتسمون بعدها للاميركيين.

يوم الثلاثاء في ٢٢ شباط بدأ نيكسون وكيسنجر وشو مداولاتهم السريّة . وفي المساء حضر نيكسون حفلة باليه بدعوة من شيانغ شينغ زوجة ماو ورائدة الثورة الثقافية . اظهرت شيانغ من حسن الوفاوة والضيافة للاميركيين ما جعل المراقبين يجزمون بانها تتصرف وفق توجيهات ماو . يوم الاربعاء انتقلت المحادثات الى بيت الضيافة حيث مقر نيكسون. وكان الرئيس يبدو متفائلاً عند استقباله شو وسط جمع من الصحافيين . ومساء ذلك اليوم حضر الرئيس وصحبه مشاهد رياضية بينها لعبة البينغ بونغ . ويوم الخميس ذهب نيكسون وروجرز الى سور الصين الكبير بينما بقي كيسنجر يعمل في صيغة البلاغ المشترك . وفي المساء اجتمع نيكسون وكيسنجر الى شو وشياو اربع ساعات ثم توقفوا للعشاء . في ذلك المساء شرب شو نخب الرئيس وروى له ما كان يقول ماو لرفاقه في اثناء المسيرة الطويلة : «لن يصبح احدكم عظيماً الاّ عند الوصول الى سور الصين الكبير». واردف شو : « وها ان الرئيس نيكسون قد زار هذا الصباح السور الكبير » . وبعد العشاء استأنف الاربعة المفاوضات حتى منتصف الليل .

كانت المفاوضات شاقة جداً وقد كادت تقف عند طريق مسدود. ولكن الطرفين كانا يرغبان في الوصول الى حل . وفي رأي كيسنجر ان حاجة الصينيين كانت أكثر الحاحاً ، من جهة لتبرير زيارة نيكسون للشعب الصيني ؛ ومن جهة ثانية لابراز نموذج للروس عن التعاون الاميركي الصيني . واخيراً توصّل شو ونيكسون الى حلّ يقضي بان يسطّر البلاغ المشترك على اساس انقسامه الى قسم يمثل وجهة النظر الاميركية وقسم يمثل وجهة النظر الصينية حول كل من المشاكل

موضوع البحث . وكان هذا نمطاً فريداً في اظهار الخلافات دون طمسها مع الموافقة على احترام وجهات النظر المختلفة . وكان لهذا فائدة ملموسة في ان تصاغ الخلافات ضمن جو الوفاق الجديد . فبدل ان يؤكد الصينيون دعمهم حرب فيتنام أكدّوا دعمهم مشروع هانوي للسلام ، بينما أكد الاميركيون تأييدهم لمشروع نيكسون ذي النقاط الثمان للسلام في فيتنام .

بصدد كوريا أكدّت الولايات المتحدة دعمها لكوريا الجنوبية بينما أكد الصينيون تأييدهم لمقترحات كوريا الشمالية الصادرة في ١٢ نيسان ١٩٧١ « للتوحيد السلمي » . وبصدد اليابان أكدّت الولايات المتحدة الاهمية القصوى التي تعلقها على علاقات الصداقة مع حليفتها الآسيوية بينما أكدّ الصينيون معارضتهم الشديدة « لبعث النزعة العسكرية اليابانيّة وتوسعها» . بصدد الحرب الهندية ـ الباكستانية ايدت الولايات المتحدة وقف اطلاق النار « وحق شعوب آسيا الجنوبية في بناء مستقبلها بسلام متحرر من التهديد العسكري » بينما أكدّ الصينيون دعمهم الشديد للحكومة الباكستانية . اما عقدة العقد فكانت تيوان بكل حساسيتها للجانبين . وقد سهر كيسنجر وشياو حتى فجر ٢٥ شباط لانهاء معظم الفقرات المتعلقة بتيوان . ولكن روجرز طالب بتبديل بعض العبارات متجنباً اثارة حساسيات شان كاي تشك . مثلاً في احدى الفقرات طالب بتغيير كلمة « أكّد » بكلمة « أعلن » . ولم تلق ملاحظات روجرز تجاوباً عند كيسنجر ولكن الحس الحقوقي في نيكسون المحامي سرعان ما تجاوب مع ملاحظات روجرز الحقوقية . وهكذا كان على كيسنجر اعادة التفاوض مع شياو حول النص من جديد .

مساء ذلك اليوم ، الجمعة في ٢٥ شباط ، اقام الرئيس مأدبة عشاء على شرف مضيفيه الصينيين ولكن الجو كان قد تبدّل عما كان في حفلة شو . وبدا كأنما المباحثات تقترب من نكسة حتى أن المراسلين شعروا عند مغادرة نيكسون وشو المكان انهما انصرفا دون ان يتحدث احدهما الى الاخر . واعتبر المراسلون ان المفاوضات وصلت الى طريق مسدود .ولكن زيغلر وكيسنجر حذراهم من استعجال هذا الاستنتاج مؤكدين ان الأمر عادي . غير ان مسعى تجاوز الطريق المسدود استمر بين المفاوضين حتى الخامسة من صباح اليوم التالي. فقد نصت الفقرة الصينية على ان حكومة الصين الشعبية هي الحكومة الصينية الوحيدة والشرعية وأن تيوان مقاطعة من الوطن الام يجب ان تعود إليه ، وأن تحريرها أمر صيني داخلي لا يحق لاي بلد آخر التدخل فيه، ويقتضي ذلك انسحاب جميع القوات الاميركية من تيوان. وان الحكومة الصينية تعارض بشدة جميع النشاطات التي تهدف الى اقامة « صينين » او « صين وتيوان » او «صين واحدة بحكومتين » او « ترك وضع تيوان ليجري تقريره فيما بعد » .

ونصّت الفقرة الاميركية على اعتراف الولايات المتحدة بان الصينيين على جانبي مضيق تيوان يؤكدون وجود صين واحدة، وان تيوان جزء من الصين، وتؤكد الولايات المتحدة اهتمامها بحل مشكلة تيوان حلاً سلمياً بين الصينيين انفسهم . وبناء على هذا تؤكد عزمها على سحب جميع القوات العسكرية الاميركية من تيوان .

وهكذا صيغت الفقرتان على نحو يتيح لكل فريق تفسير فقرته كما يريدون احراج الفريق الآخر . فبأمكان الصينيين القول ان تيوان مشكلة صينية داخلية وان الاميركيين قد تعهدوا بسحب جميع قواتهم منها ، بينما بامكان الاميركيين القول بان سحب جميع قواتهم مشروط بحلّ مشكلة تيوان سلمياً وبانحسار موجة التوتر في المنطقة، وهذا يشمل ضمناً حرب فيتنام مما يعني ان على الصينيين اذا ارادوا انسحاب الولايات المتحدة من تيوان بسرعة القيام من جهتهم بالضغط المفروض على هانوي للتوصل الى تسوية .

في صباح ٢٦ شباط توصل نيكسون وشو بعد تعديلات طفيفة الى الاتفاق على صيغة اخيرة للبلاغ المشترك على ان يصدراه يوم الاحد من شانغهاي حيث توجها في زيارة لهذه المدينة الصينية الأكثر انفتاحاً على الغرب . وفي شانغهاي عقد كيسنجر مؤتمراً صحافياً أكد فيه الالتزامات الاميركية لتيوان . ولم يكن الصينيون مرتاحين لذلك ولكنهم قبلوا في الاخير بتدبيرات كيسنجر من ان مقتضيات السياسة الاميركية المحليّة هي التي فرضت الأمر .

استغرق مؤتمر كيسنجر الصحافي في شانغهاي ستاً وثلاثين دقيقة أكد فيه ان الالتزامات الاميركية لتيوان لم تتبدل وان « نقطة اتصال » ستحدد قريباً بين بكين وواشنطن لتوليّ اكمال المفاوضات التجارية والمبادلات بين البلدين وان ممثلاً لاميركا رفيع المستوى سيزور بكين كلما دعت الحاجة،وان نيكسون وشو قد بحثا بصراحة وجد مسألتي تيوان وفيتنام،وان الصين والولايات المتحدة سيتعاونان لمواجهة اي سيطرة لاي بلد آخر على آسيا ومنطقة المحيط الهادي ، وان ماو اشرف عن كثب على سير المحادثات، واخيراً ان لا سياسة الصين ولا سياسة اميركا كانت ترمي الى موقف مضاد للاتحاد السوفياتي .

في المأدبة الاخيرة مساء الاحد كان نيكسون منشرحاً ، وقال « هذا هو الاسبوع الذي غيّر العالم» ، وشرب نخب شو قائلاً «إن شعبينا الليلة يقبضان على المستقبل بأيديهم » . وجرى تبادل الهدايا التذكارية .

عاد الرئيس الى واشنطن صبيحة الاثنين فوصلها في التاسعة مساء حيث استقبل استقبال الابطال العائدين من الفتوح . وكتب جايمز روستون مقالاً رئيسياً عنوانه « ساعة نيكسون الأشد روعة » قال فيه « ان سياسته الصينيّة تقدم نموذجاً

لحسن الادراك والدبلوماسية الجيّدة» ، بينما هاجم آخرون هذه السياسة ووصفها السناتور جيمز باكلي من نيويورك « بالمغامرة – الكارثة » ، واعتبرها وليام باكلي « استسلاماً » .

اما في عواصم العالم فقد تفاوتت ردود الفعل . فبينما هاجمت صحف تيوان البلاغ المشترك زاعمة ان شعوب المحيط الهادي قد فقدت ايمانها بصدق كلام واشنطن كحليف ، نظمت موسكو رد فعلها السلبي مكتفية بشن حملة صحافية على الصين مشيرة ضمناً الى اعتبار رحلة نيكسون اليها عملاً عدائياً للسوفيات .

واما في اليابان فقد سقطت حكومة ساتو وبادرت حكومة خلفه تاناكا الى اعادة العلاقات الدبلوماسية بالصين . في سايغون صدر مديح فاتر لرحلة الرئيس . وخيّم الصمت على هانوي . وبعد انقضاء بضعة ايام طار شو الى هانوي لطمأنة حلفائه ولكنه لم ينجح واخذت فيتنام الشمالية تنهج نهجاً اكثر استقلالاً من حلفائها . وفي بانكوك صرح مسؤول حكومي ان بلده ينتظر دعوة من الصين لارسال فريق بينغ بونغ على غرار الفريق الاميركي . اما في اوروبا الغربية فقد اقترنت الموافقة على خطوة الرئيس بالقلق من الخطوات التالية غير المرتقبة من سياسة المفاجآت على الطريقة النيكسونية .

وفي العالم كلّه ساد شعور بأن الرحلة خلقت معطيات جديدة او كما عبر عن ذلك كيسنجر اوجدت « خياراً للمستقبل » ، وبدأ التركيز في واشنطن الان على قمة موسكو وعلى معضلة فيتنام .

١٠ – مرفأ هايفونغ

في ٣١ آذار ١٩٧٢ ، يوم الجمعة العظيمة ، انطلق الفيتناميون الشماليون بهجوم واسع : اربع فرق كاملة تدعمها المدرعات السوفياتية وتغطيها مدفعية الميدان البعيدة المدى . أدهش التوقيت وقوة الهجوم معظم المسؤولين الاميركيين ولاسيما هنري كيسنجر ، واتضح ان الفيتناميين الشماليين كانوا يعدّون لهجومهم الواسع هذا منذ أمد بينما كانوا يمنّون كيسنجر بامكان عقد محادثات جادة . فقد قبلوا مقترحات نيكسون في ٢٦ كانون الثاني لعقد دورة جديدة من المحادثات، واقترحوا ان تكون المحادثات في اي يوم بعد ١٥ آذار ، ووافقوا كيسنجر على ان يكون موعد المحادثات السرية في ٢٤ نيسان وموعد اجتماعات باريس العلنية بين الطرفين في ١٣ منه . ولكن قبل ان يبرق كيسنجر بهذه المواعيد شنّت هانوي هجومها وبدا أنها كانت تعدّ له منذ زمان ، ربما منذ بدأ له دوك تو « يتمارض » ويغيب عن مواعيد المحادثات في تشرين الأول ١٩٧١ .

توسع نطاق الهجوم الشيوعي في اول نيسان وازداد قلق كيسنجر . واتضح انه رغم الهجوم الاميركي على كامبوديا لم تزل قوات فيتنامية شمالية متمركزة في نقاط حدودية عديدة وأخذت تنطلق منها الى الجنوب . وفي ٢ نيسان اندفعت قوات الشمال باتجاه مقاطعة كوانغتري، واتضح لكيسنجر ان الولايات المتحدة لم تحسن تقدير مقاصد العدو. فالهجوم كان يقصد السيطرة على عاصمة المقاطعة واعلان الحكومة الثورية الموقتة فيها لجذب الاعتراف الدولي ثم التفاوض لتشكيل حكومة ائتلافية تخلف نظام تيو في سايغون . ولم تعد تعرف الولايات المتحدة ، وقد فاجأها الهجوم ، كيف تتصرّف . وأخذ كيسنجر كعادته في الأزمات ، يقوم بدور المنسق بين مختلف الاجهزة العليا لمواجهة الأزمة الجديدة .

في ٤ نيسان اتخذ قراران اساسيان على صعيد تحديد موقف الولايات المتحدة من احداث فيتنام الاخيرة . القرار الأول سياسي ويتعلــق بالاتحاد السوفياتي . فقد كان واضحاً لكيسنجر منذ البداية انه لولا المدد السوفياتي بالمدرعات والآليات لما تمكـن

الفيتناميون الشماليون من شنّ هجومهم الواسع . لذلك اوعز للناطق الرسمي في وزارة الخارجيّة ماكلوسكي بالاشارة الى التدخل السوفياتي في فيتنام على أن يمر بالأمر مرور الكرام دون أن يصار الى التركيز عليه . غير ان البنتاغون لم يكتف بالتصريح العابر فصعّد الحملة . ففي ٧ نيسان ادلى وزير الدفاع ليرد بتصريح حمّل فيه الاتحـاد السوفيـاتي مسؤولية أساسية في ما سيحدث في فيتنام . فخشي كيسنجر أن يؤدي تصعيد الحملة الى نتائج معاكسـة لما هو مقصود اصلاً منها، اي مجرد الضغط على الاتحاد السوفياتي لوقف المساعدات الى فيتنام . الاّ انه بعد أيام ثلاثة انقلب تكتيك اللعبة فادلى الرئيس نيكسون بتصريحات امتدح في بدايتهـا الروس لتعاونهم الايجابي في اتفاقات الرقابة على الأسلحة ولكنه انتقـد بصورة مداورة تشجيعهم غزوة فيتنام الشمالية للجنوب .

اما القرار الاميركي الثاني فكان قراراً عسكرياً اقتضى حشـد قوات جوّية وبحرية غير اعتيـادية في الهنـد الصينيّة واطـلاق طـائرات ب ٥٢ الاستراتجيّة لقصف فيتنام الشمالية في العمق. وتوعّد الأميرال موورير بان يستمر تصعيد الغارات شمالاً اذا لم يتوقف الهجوم في الجنوب. وكان من رأي روجرز ان تصعيد الغارات على هانوي ومرفأ هايفونغ قد يهدّد قمة موسكو المرتقبة بالالغاء. غير ان موورير وكيسنجر ايدا غارات طائرات ب٥٢ ، الاول لاعتبارات استراتجية تتعلق بوقف الهجوم في الجنوب والثاني لاعتبارات دبلوماسية تستهدف إعلام الروس عن عزم الولايات المتحدة على وقف الهجوم في جنوبي فيتنام ولو أدّى ذلك الى تعريض لقاء القمة للالغاء .

وكان ان الغارات على هايفونغ دمّرت اربع سفن روسية في المرفأ الفيتنامي . ولم يتعدّ رد فعل موسكو حدود الاحتجاج الشديد اللهجة على « اعمال العدوان » . غير ان القصف الجوي اثار عاصفة في « كابيتول هل » – الكونغرس وفي اوساط الصحافة . فقالت « الواشنطن بوست » في ١٧ نيسان « ما بذل الرئيس جونسون وأسلافه جهدهم لتجنّبه طوال خمسـة عشر عاماً قام به الرئيس نيكسون خلال اسبوعين : فقد وصل بالحرب في الهند الصينيّة الى شفير الاصطدام بالاتحاد السوفياتي ... » .

ولم يأبه كيسنجر لكل العاصفة المندلعة في الكونغرس والصحافة ضـد القصف الاميركي في فيتنام لأنه كان واثقاً من ذلك لن يؤدي الى مواجهة مع الاتحاد السوفياتي . فما كان يعرفه ، كان يجهله سواه . فقد كان يعرف انه في طريقه الآن الى موسكو !

ذلك انه رغم كل العاصفة المندلعة استطاع الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة تدبر الاستمرار في اتصالات ثنائية مهمة في حقول أخرى . فقد انهمك كيسنجر والسفير السوفياتي دوبرنين في تلك المرحلة في عقد محادثات حول الحـدّ من انتشار الاسلحة الاستراتجية تمهيداً لقمة موسكو . وخلال المفاوضات تقدّم كيسنجر بتسوية مدروسة

مستهدفاً تسهيل التوصل الى اتفاق . واقتضت التسوية في حال موافقة الروس على اشتمال الاتفاق على الغواصات القاذفة للصواريخ النووية ان يأذن الاميركيون لهم بافضلية عدديّة وافية في الاسلحة الهجومية . فارتأى دوبرنين نتيجة هذا العرض المغري ان يرتب لكيسنجر زيارة سرّية الى موسكو تتيح من جهة عقد الصفقة هذه مع بريجنيف كما تتيح التشاور حول فيتنام . وتمّ ذلك في ١٩ نيسان .

وقد اعجب كيسنجر ببريجنيف ووصفه برجل « ذي مواقف محدّدة وأهداف محدّدة يجيد صنع الاشياء بدل التفلسف فيها » . وهو « انسان عملي وفظ وصريح ولكنه ، في الوقت نفسه ، لبق ومهذّب وحميم » . ورغم ان بريجنيف وكيسنجر اجتمعا للتمهيد لزيارة نيكسون الى موسكو ، الاّ انّ فيتنام استأثرت بأكثر من نصف محادثاتهما .

كانت الدولتان العظميان ترغبان في انهاء الحرب . وقد لام بريجنيف الفيتناميين الشماليين على عنادهم الاّ انه أكّد انه يستمر في دعمهم لأنهم « حلفاء واشقاء »، ثم هناك الصين في الميزان . وهكذا فتحذيرات كيسنجر من عدم جواز مساعدة اي من الدولتين اي امة لشن هجوم على جيرانها ذهبت ادراج الرياح ازاء تصلّب بريجنيف في التضامن مع الفيتناميين . ولكنه اشار على كيسنجر باستئناف محادثات باريس وكأنه يلمح الى ان موسكو ستدعم تليين موقف هانوي .

رغم التقدم البطيء بصدد فيتنام فقد أصاب بريجنيف وكيسنجر نجاحاً أوسع في موضوع الحدّ من الأسلحة الاستراتيجية . كما انهما بحثا عدداً وافراً من المواضيع المشتركة تراوحت بين العلاقات التجاريّة وبرلين.وقد عزما على التهيئة للقاء قمة ناجح حيث ستوقّع عدة اتفاقات أساسية .

غادر كيسنجر موسكو في ٢٤ نيسان الى واشنطن . وفي اليوم التالي كشف البيت الابيض النقاب عن رحلته السريّة . وما ان عاد الى واشنطن حتى ساعد الرئيس على وضع اللمسات الأخيرة على خطابه حول فيتنام الذي اذيع في ٢٦ منه . وأعلن نيكسون في هذا الخطاب سحب دفعة جديدة من عشرين الف جندي اميركي من فيتنام في اول تموز ، واستئناف مفاوضات السلام في باريس في صباح اليوم التالي ، واخيراً ان الغارات الجويّة والبحريّة الاميركية ستستمر على فيتنام الشمالية الى ان يتوقف هجومها في الجنوب.

غير ان توقعات كيسنجر حول مقاصد هانوي خابت مرّة اخرى . فقد اعتقد فترة ان هجوم الفيتناميين الشماليين لا يلبث ان يتلاشى سريعاً وان مجيء له دوك تو الى باريس دليل على ان الهجوم كان ذا اهداف سياسية محدّدة . ذلك بأنّ الاسبوع التالي حمل انباء توسع الهجوم الى حدّ تهديد فيتنام الجنوبية بالانشطار الى قسمين ، وكادت اسطورة « الفتنمة » تسقط . فقد قاتل بعض الفرق جيداً ولكن

بعضها الآخر تبدّد امام هجوم الشماليين وظهرت الحاجة الملحة الى تصعيد الدعم الجوي والبحري الاميركي . اخذت الوحدات المدرعة من الشمال تجتاح القرى وتهدّد المدن بالاجتياح، وتصاعد عدد الفارين من جيش الجنوب من الجبهة . وفي اول ايار اجتاحت مدرعات الفيتناميين الشماليين كوانغتري عاصمة المقاطعة الشمالية في جنوبي فيتنام . واخذت فرق فيتنامية جنوبية تتلاشى في لهيب المعركة وجنودها يفرّون لا يلوّون على شيء . وبدأت سايغون تتذوق مرارة الهزيمة . في تلك الاثناء طرحت على الرئيس حلقة من اصدقائه فكرة ضرب سدود المياه في فيتنام. وكان كونالي وزير المال من المتحمسيّن لجواب نيكسون من « اننا نستهدف في ضربنا الاهداف العسكريّة ولكن اذا استمر الفيتناميون الشماليون في هجومهم الى الجنوب فإنهم يقدمون على مجازفة كبيرة جداً . وافضل ان اترك الموضوع عند هذا الحدّ وعليهم ان يختاروا بانفسهم ».في ٢ ايار عرض كيسنجر على له دوك تو في لقاء سري في باريس مقترحات جديدة لنيكسون بلغت حدّاً بعيداً من التساهل والتنازلات : فاذا وافق الفيتناميون الشماليون على وقف اطلاق النار وعودة الاسرى الاميركيين — ولا شيء أكثر من ذلك — فان الولايات المتحدة تنسحب من الهند الصينيّة خلال اربعة اشهر . ولكن له دوك تو رفض العرض الاميركي الجديد جملة وتفصيلاً ولم يقبل باقل من الاطاحة بنظام تيو .

احسّ كيسنجر انه يقع من جديد في خطأ سوء تقدير مقاصد الخصم . واحسّ ان بريجنيف قد خدعه عندما اوحى له بأنّ الفيتناميين الشماليين سيكونون اكثر مرونة . وبات كيسنجر يخشى ان يؤدي فشله في باريس وهزيمة سايغون في الجبهة الى الغاء نيكسون للقاء القمة في موسكو . ولم يخب ظنّه هذه المرّة فقد وجد الرئيس في حالة غضب على الروس وهو يتساءل اذا كان بريجنيف قد خدعه . وطرح على كيسنجر وجوب القيام بعمل درامتيكي يرغم الروس على دفع ثمن باهظ لاستمرارهم في دعم الحرب . واخذ نيكسون وكيسنجر يستعرضان الخيارات العسكرية من ضرب سدود المياه الذي رفضه نيكسون مروراً بانزال المارينز الفيتناميين الجنوبيين وراء خطوط الشماليين الذي طواه لعدم ايمانه بكفاءة الجنوبيين الحربيّة، الى اعادة القوات الاميركية الى المعركة، فاستخدام الاسلحة النووية، وكلها رفض اللجوء اليها حتى قرّ رأيه في الاخير على لغم مرفأ هايفونغ .

وكان نيكسون يبدو أكثر أقتناعاً بهذا الخيار من ضمن الظروف الموضوعيّة الجديدة . ذلك بأن الفيتناميين الشماليين يحتاجون هذه المرّة الى الوقود يومياً لمدّ مدرعاتهم ودباباتهم في جبهات القتال في الجنوب . فقطع هذا المدد بحصار المرفأ يؤدي الى شلّ هجومهم المدرّع . ثم أن بالامكان اتخاذ هذه الخطوة الحاسمة دون توقع

ردود فعـل عنيفة من موسكو او بكين لأن الفيتناميين الشماليين بحسب تقديرات نيكسون كانوا قد عزلوا انفسهم عن جو الوفاق الدولي ومضاعفات تحسن العلاقات بين العاصمتين الشيوعيتين الكبيرتين وواشنطن .

اما كيسنجر فكان يخشى مغبة هذه الخطوة على قمة موسكو وسياسة التوازن الدولي الجديدة التي جنّد لها كل امكاناته . ثم هناك صورة كيسنجر التي يود الاحتفاظ بها في الوسط الليبرالي في الجـامعـات والتي من شأنهـا ان تتشوه كلياً اذا ما وافـق على مثل هذه الخطوة فيفقد دوره الذي ندب نفسه للقيام به في مدّ جسور الحوار بين اليمين واليسار في المجتمع الاميركي ، معتبراً نفسه حلقة الوصـل بين هذين العالمين المتناقضين والمنقطعين عن الحـوار .

وهكذا حلّ كونالي وزير المـال الاميركي العنيد محـل كيسنجر في تلك الفترة في الحوار اليومي مع الرئيس حول عماية لغم هايفونغ ، وكان كيسنجر يقدّر كونالي كسياسي لا كرجـل دولة ولاسيما في حقل السياسة الخارجية ، فقد كان كيسنجر يزدري محدودية وزير المال في هذا المجـال .

وفي ٥ ايار عقد نيكسون مشاورات مع مستشاريه الرئيسيين — كيسنجر وروجرز وليرد وهلمز وكونالي ومورير. وعارض كيسنجر اللجوء الى لغم ميناء هايفونغ. ولكن نيكسون مضى في قراره على انه عمـل يميز موقفه الجديد المزمع اتخاذه مـن موقف الرئيس الراحـل كينيدي من حصار كوبا . ذلك ان الاخير أمر بحصار كوبا بالاسطول الذي تعرضّت وحداته للسفن الأخرى فكـان موقفه اقرب الى المجابهة المباشرة . اما موقف نيكسون فيحرص على تجنب مثـل هذه المجابهة . ويوم الاحد في السابع من ايار قرّر نيكسون نهائياً المباشرة بالتنفيذ وطلب من كيسنجر ابلاغ هيئة الاركـان المشتركة أمر الرئيس . وكـان كيسنجر قد تلقى آخر تقارير المخابرات التي تفيد ان قوات فيتنام الشمالية على احسن استعداد لشن هجومهـا على جبهـات ثلاث — هيو في الشمال ، كونتوم في المرتفعات الوسطى، وان لوك على مقربة من سايغون. ولكن الفيتناميين الشماليين استمروا في وضعهم هذا يومين دون ان يشنوا هجومهم بل عمدوا الى سحب بعض القـوات بضعة اميـال الى الوراء ، واستنتج نيكسون وكيسنجر ان الفيتناميين الشماليين يعيدون تنظيم قواتهم قبل الهجوم .

وقبل ان يصدر نيكسون قراره النهائي بلحظات استدعى كيسنجر وكونا لي الى مكتبه طالباً مشورتهما للمرة الاخيرة، فوافقاه معاً على الأمر وان كانت موافقة كونا لي كانت أكثر اندفاعاً . عندها طلب نيكسون من كيسنجر ابلاغ هيئة الاركان امره بتنفيذ العملية . واجتمع نيكسون مساء ذلك اليوم الى أعضاء حكومته وابلغهم قراره فقوبل بالتأييد الحماسي . في الثامنة مساء تشاور مع زعماء الكونغرس وطلب تأييدهم ولكنّهم

لم يتقدموا بجواب حاسم . وبينما كان نيكسون مجتمعاً اليهم كان كيسنجر مجتمعاً الى دوبرنين وسلّمه نسخة من خطاب الرئيس الذي كان سيذيعه في التاسعة مساء مؤكداً للسفير السوفياتي ان الولايات المتحدة لا تستهدف مجابهة بلده وان الرئيس لم يزل يأمل في انعقاد مؤتمر القمة .

في التاسعة ألقى الرئيس خطابه الذي حمّل فيه الفيتناميين الشماليين مسـؤولية تصعيد الحرب في الجنوب. الاّ انه لم يغفل دور الاتحاد السوفياتي معتبراً تزويده هانوي بالسلاح الهجومي المتقدّم قد أتاح لها شـنّ هجومها . واثنى في خطابه على بسالـة الفيتناميين الجنوبيين ولكن دون الاشارة الى « الفتنمة » ، ثمّ بيّن ان الدفاع عن مصير ستين الف جندي اميركي ما زالوا في فيتنام اوجب على الولايات المتحدة اتخاذ اجراءات وقائية . وارتأى ان ثمة طريقة وحيدة لوقف « استمرار القتل » في فيتنام هي حرمـان الفيتناميين الشماليين من أسلحة الحرب . ولذلك اضطر الى اتخـاذ اجراء لغم مرفأ هايفونغ ، مع استمرار الغارات الجوية والبحرية ضد الأهداف العسكرية في فيتنام الشمالية .

ثم أماط نيكسون اللثام عن آخر مشاريعه للسـلام — ذلك الذي رفضه له دوك تو في ٢ أيار — غير ان التدابير العسكرية التي أعلنها طمست في أذهان معظم المراقبين الى اي مدى تقلصت توقعاته السياسية في فيتنام . وختم نيكسـون خطابه بدعوة وجهها الى الاتحاد السوفياتي لاستئناف التقدم على طريق السلام والوفاق الدولي بين القوتـين العظميين. وقد لقي خطاب نيكسون تجاوباً في الرأي العام عبّر عنه سيل من الوف برقيات التأييد التي انهالت على البيت الأبيض في اليوم التالي والتي علم فيما بعد انهـا ارسلت بتحريض من لجنة اعادة انتخاب الرئيس .

وبدا واضحاً من خطاب نيكسون انّه مستعدّ للتضحية بقمة موسكو في سبيل سلام « مشرف » في فيتنام . في ذلك الوقت كـان في واشنطن ضيفـان سوفياتيـان كبيران : احدهمـا الاميرال فلاديمير كازاتونوف نائب قائد عـام البحرية السوفياتية الذي كان يزور واشنطن لبحث اتفاقية «حوادث البحر» بين الدولتين. بعد ان اصغى الى الخطاب على التلفزيون قـال : « المسألة خطيرة جداً . فلنتركها للسياسيين يتدبرون أمر تسويتها» ، وكـأنه ضمناً يقول ولنستأنف ابحاثنا التقنية . امـا الضيف الثاني فكان نيقولاي باتوليشيف وزير التجارة السوفياتي الذي وصـل قبل خطاب نيكسون بيوم واحد لبحث امكانات التبادل التجاري السوفياتي الاميركي . وكـان يتناول الطعـام مع نده وزير التجارة الاميركي حين ألقى الرئيس خطابه على التلفزيون ، فلاذ بالصمت ولم يصدر عنه ايّ تعليق .

كان اليوم التالي،يوم التاسع من ايار، يوم توتر وترقب وقلق. ففي واشنطن ساد

عاتقاد بين كبار موظفي وزارة الخارجية ان الروس سيقدمون دون ريب بعد خطاب الرئيس على الغاء لقاء القمة ، حتى ان اقرب المقربين الى كيسنجر في مجلس الأمن القومي طووا ملف قمة موسكو . اما في سايغون فقد عمّ الفرح . وفي هانوي علت صيحة الغضب والاعداد لاسوأ الاحتمالات ترقباً لتصعيد الغارات . وفي بكين صدر احتجاج منخفض النبرة يؤكد ان الصين هي العمق الاستراتيجي والبشري لكفاح الشعب الفيتنامي . وفي موسكو قامت مشادة بين رئيس فرع اوكرانيا الذي دعا الحكومة السوفياتية الى الغاء القمة وبين بريجنيف الذي رجح رأيه في رفض المجابهة مع واشنطن . ولاذت موسكو بالصمت عدا خبر صغير صدر عن وكالة تاس مفاده أن وزير الدفاع السوفياتي غريشكو غادر موسكو الى دمشق في زيارة تقررت سابقاً ، مما دلّ على أنّ كل شيء طبيعي وهادىء في عاصمة السوفيات . في ذلك اليوم اجتمع كيسنجر الى الصحافيين ليشرح قرار الرئيس فعرض مراحل المفاوضات مع الفيتناميين الشماليين وتصلبهم ، ومحادثاته مع بريجنيف وتوقعه تليين مواقف الفيتناميين الشماليين ثم خيبته بعد ان تبين ان هؤلاء غير متراجعين عن هدفهم الاوحد في السيطرة على الجنوب ، وكيف ان الاتحاد السوفياتي دعمهم بدفق من المعدّات والآليات فاختل التوازن لمصلحتهم . ولذلك اضطر الرئيس نيكسون إلى اتخاذ تدبيره بلغم مرفأ هايفونغ وقصف سكة الحديد المتصلة بالصين . غير ان كيسنجر ركزّ معظم حديثه على تعداد وتبيان فوائد التعاون السوفياتي الاميركي ومنافعه العديدة ، وكان يقصد بذلك جذب انتباه السوفيات الى حقول المصالح المشتركة وصرفهم عن بؤرة التصادم في فيتنام .

كان عرضه مؤثراً في الصحافيين ولكنه لم يبد مرتاحاً . كان قلبه على قمة موسكو من ان تجتاحها الحوادث . وفي اليوم التالي في العاشر من ايار اقدم كيسنجر على محاولة ان نجحت ادّى نجاحها الى ارتفاع حظ قمة موسكو في الانعقاد . ذلك انه استدعى السفير السوفياتي دوبرنين واقترح عليه ان يرتب زيارة باتوليشيف وزير التجارة السوفيات الى البيت الابيض مذكراً ان برجنيف منذ مدة قصيرة استقبل ارل بوتز وزير الزراعة الاميركي ، كما سبق له ان استقبل وزير التجارة الاميركي . واشار الى ان الرئيس نيكسون يرى ان « زيارة مجاملة » من وزير التجارة الخارجية السوفياتية تكون في محلّها . فرحب دوبرنين بالفكرة دون اعطاء اي التزام طالباً ان يفسح المجال لبحث الأمر مع باتوليشيف . وبعد ساعات جاء الجواب بالقبول .

يوم الخميس في ١١ ايار تمت الزيارة وسط اعلام اميركي موسع . كانت الزيارة بروتوكولية وعادية ، تطرقت الى مواضيع شتى تراوحت بين مقارنة اللغات واستعراض امكانات توسيع التبادل التجاري السوفياتي الاميركي دون ان يأتي احد

الى ذكر لغم ميناء هايفونغ و لقاء القمة . الاّ ان مراسلاً تلفزيونياً طرح على باتوليشيف عند عودته الى السفارة السوفياتية سؤالاً : « هل رحلة الرئيس الى موسكو لم تزل قائمة ؟ » فجاء جواب الوزير السوفياتي : « لم يخامرنا شك قط في هذا الموضوع . لا ادري لماذا طرحت هذا السؤال . هل يخامرك ريب في الامر ؟» . وجاء هذا الرد السوفياتي الرسمي الاول عن موضوع لقاء القمة مطابقاً للبيان السوفياتي الصادر في موسكو في اليوم نفسه والمتضمن احتجاجاً على لغم ميناء هايفونغ واعتبار ذلك تهديداً غير مقبول للملاحة السوفياتية وخرقاً فاضحاً لمبادىء حرية الملاحة الدولية ، كما تضمن البيان الطلب برفع الحصار فوراً . ولكن البيان جاء خلّواً من اي انذار ، كما انه لم يعلن الغاء لقاء القمة . وأكثر من هذا فقد استمر موظفو وزارة الخارجية السوفياتية ، بعد توزيع البيان الرسمي عبر تاس ، في اجتماعاتهم بالجنرال الاميركي سكوكروفت يتدارسون معه التفاصيل التقنية اعداداً للقمة . وهكذا أيقن كيسنجر ان بريجنيف كان بحاجة هو الآخر الى لقاء القمة لاسباب متعدّدة ، منها ما هو متعلق بالصين ، ومنها ما هو متعلّق بالاقتصاد السوفياتي وحاجته الماسة للتكنولوجيا الغربيّة ، بحيث اضطر الى السكوت على مضض عما حصل في هايفونغ والمضي قدماً الى مؤتمر القمة .

وايقن كيسنجر ان الرئيس قد حصل على ما اراد : لغم هايفونغ ولقاء القمة معاً . بل أكثر من ذلك توقف الهجوم الفيتنامي الشمالي الى الجنوب لأن العدو ، كما حلّل ذلك الاميرال مورير ، قد مطّ خطوط تموينه ، فعند انقطاع مدد الوقود عنه ، اضطر الى وقف الهجوم ، وخسر الفيتناميون الشماليون المبادرة وربحت واشنطن الجولة والوقت لتكييف علاقاتها بموسكو . وهكذا خرج كيسنجر من ازمة الثامن من ايار وقلبه يخفق باحترام جديد لغريزة نيكسون في خوض دبلوماسية الغاب ..

١١ — قمة موسكو

بين المئة والثمانين صحافياً الذين طاروا الى موسكو في ٢٢ ايار ١٩٧٢ على متن طائرتين واكبتا وفد الرئيس الاميركي الى لقاء القمة كان بعضهم قد حضر « حوار المطبخ » في ١٩٥٩ بين خروشوف ونيكسون .

وقد كان تصدّي نيكسون لخروشوف في المعركة الكلاميّة التي دارت بينهما في الجناح الاميركي من معرض موسكو ، هو رصيده الاساسي لخوض انتخابات الرئاسة في ١٩٦٠ . وفي تلك المجادلة بين نيكسون — كان نائب رئيس الولايات المتحدة حينئذ — وبين خروشوف صادف ان كان الى جانب الزعيم السوفياتي رجل بقي صامتاً حينئذ ولكنه بعد خمس سنوات، في تشرين اول ١٩٦٤ ، اطاح بخروشوف وحلّ محله في مركز الامانة العامة للحزب الشيوعي السوفياتي وزعامة البلد. ذلك هو ليونيد بريجنيف الذي سيعقد معه الان نيكسون رئيس الولايات المتحدة اول لقاء قمة اميركي — سوفياتي في موسكو .

ما ان انطوت ازمة مرفأ هايفونغ حتى سارع الاميركيون والسوفيات الى استئناف الاعداد المكثّف لقمة موسكو . وقد اجتمعت اللجنة المركزيّة للحزب الشيوعي السوفياتي في ١٩ ايار على ما يبدو لاعطاء الضوء الأخضر بصورة نهائية لانعقاد مؤتمر القمة بعد استماعها لعرض من بريجنيف عن الحاجة الى اضفاء طابع عملي وواقعي على العلاقات الاميركية السوفياتية .

وفي ٢٠ ايار طار نيكسون الى موسكو متوقفاً في طريقه اليها يومين في النمسا. وبينما كان يتناول طعام الغداء مع المستشار كرايسكي كان نجل المستشار يتظاهر مع الطلاب في شوارع فيينا ضد حرب فيتنام. اما كيسنجر فعقد ندوة صحافية حول اهمية لقاءات القمة في العصر النووي الذي يحتّم مسؤوليات ضبط النفس على الدولتين العظميين . وتوقع كيسنجر ان يعقد في قمة موسكو اتفاق الحد من الاسلحة الاستراتيجية . اما بصدد التجارة فلم يتوقع عقد اتفاق حالاً وان توقع عقده في الصيف وانه لا بد من ان تسبق ذلك تسوية ديون الاعارة والتأجير من الحرب العالمية

الثانية . وتوقع أيضاً ان تكون فيتنام عقبة انما دون ان يسمح لمشكلتها بأن تعكّر صفو الوفاق او العلاقات الثنائية بين العملاقين .

تقدم نيقولاي بودغورني رئيس الاتحاد السوفياتي والكسي كوسيغين رئيس الوزراء وفداً من المسؤولين السوفيات في استقبال نيكسون وصحبه في مطار موسكو ، وبعد عرض حرس الشرف على المطار اخترق الموكب المؤلف من خمسين سيارة على الاقل شوارع العاصمة باتجاه الكرملين .

وفي الكرملين استضيف نيكسون وكيسنجر وبعض الاعوان المقربين بينما حلّ روجرز في فندق روسيا الجديد على مقربة من الكرملين . ولم تمض دقائق قلائل حتى رن الهاتف يدعو الرئيس الى زيارة الامين العام بريجنيف في مكتبه . فروعي بروتوكول مواز لبروتوكول بكين في استقبال ماو لنيكسون فور وصوله . وكان كيسنجر ودوبرنين قد سهرا على ترتيب تفاصيل البروتوكول . وخلافاً للانطباع الذي تركه بريجنيف لدى مقابلة كيسنجر في نيسان الماضي من توتر وعصبيّة فقد كان لدى استقباله نيكسون هادئاً واكثر وثوقاً من نفسه . وبدا ان بريجنيف في محادثاته مع نيكسون أكثر اعتماداً على كيسنجر سوفياتي هو اندريه الكسندروف منه على وزير الخارجية غروميكو .

ومنذ الثلاثاء في ٢٣ ايار الى الجمعة في ٢٦ ايار كان لقاء القمة سينقسم من حيث توزيع الاعمال الى لقائين على مستويين مختلفين . فالمستوى الاعلى كان يضم نيكسون وكيسنجر مع بريجنيف والكسندروف واحياناً بودغورني وكوسيغين ويتناول المحادثات السريّة الطويلة حول إتفاق للحد من الأسلحة الاستراتيجية وفيتنام . وقد أصبحت المحادثات التي تتناول الموضوع الأول معروفة في ٢٦ ايار أما تلك التي تناولت فيتنام فقد مضت اشهر عديدة قبل ان أعلنت مضامينها .

وعلى المستوى الادنى كان يعقد المحادثات كل من روجرز وفلاينغان ووارنر واحياناً ينضم اليهما نيكسون وكيسنجر عن الجانب الاميركي للتباحث مع كوسيغين وغروميكو وباتوليشف عن الجانب السوفياتي ، ولا يحضر بريجنيف قطعاً هذه اللقاءات التي تبحث في الشؤون الثانوية كالتجارة والبيئة والطب والسلوك في البحار . وفي هذه المجالات كان يجري توقيع معاهدة كل يوم تقريباً . وفي ٢٦ ايار وقع روجرز وكوسغين اهم هذه الاتفاقات الثنائية وهي التي اقتضت انشاء لجنة اميركية — سوفياتية تجارية مشتركة تتراوح مسؤولياتها من اقامة التدابير اللازمة للقروض الى عقد اتفاقية الدولة الاكثر رعاية للإستثمار المشترك للمواد الاولية .

ان توالي عقد الاتفاقات يومياً حقّق ما وصفه كيسنجر « بطقوس احتفالات عقد الاتفاقات » ، وكان كيسنجر يردّ على مراسل « نيويورك تايمز » قبل عقد مؤتمر

القمة الذي سأله « هــل ستقطرّون اعلاناتكم رذاذاً ام ستقيمون احتفالاً رسمياً صاخباً واحداً تعلنون فيه عقد مجموعة من الاتفاقـــات » . فاجاب كيسنجر : « بــل سنقطّر احتفالاتنا الرسمية بعقد الاتفاقات رذاذاً » . وقد أكدّ عقد هذه الاتفاقــات ان الوفاق بدأ يعطي ثماره ولو في حدود اولية .

غير ان هذه الاتفاقـات بمجملهـا كانت مجرد تمهيد لاتفاقية الحدّ من الاسلحة الاستراتجية المعتبرة غنيمة القمة الكبرى . وقد واجه عقد هذا الاتفاق صعوبات جمّة منها ، اولاً ما يتناول نظام الصواريخ المضادة ومشكلة الرادار التقنيـة من حيث تحديد حجمه نظراً لاتصال حجـم الرادار بنوعية السلاح الصاروخي والغـرض منه سواء كان هجومياً او دفاعيـاً . ومنها ، ثانياً ، ما تعلّق بعدد الصواريـخ الارضية الناسفة المتنقلة . وفي هذا الصدد بعد تعهّد كــل من بريجنيف ونيكسون بعــدم صنع صواريخ جديدة من هذا النوع امتنع بريجنيف مــن تضمين الاتفاق تعهداً خطياً منه في هذا الصدد. فحذّره نيكسون من انه اذا اكتشف فيمـا بعد ان روسيا تصنـع هذه الصواريخ فيلغى كامل اتفاق الحد من الاسلحة الاستراتجية، فوافق بريجنيف على هذا الشرط . وهكــذا فان نيكسون المحامي المتشدّد في النصوص القانونية ارتضى الاكتفاء بتعهّد شفهي من بريجنيف وهو الذي اقـام الدنيا واقعدهـا على لندون جونسون لأنه وافق على « تفاهم غير محدّد » مع الفيتناميين الشماليين . غير ان التفاهم على مسألة الصواريـخ الارضية المتنقلّة لم يكن نهـاية المطاف في تذليل العقبات امـام عقد اتفاق الحدّ من الاسلحة الاستراتجيّة . ذلك بأن خلافاً نشب حـول موضـوع عدد الغواصات النووية وما كان منها في قيد الصنع ومـا هي الحدود التي تعتبر فيهـا غواصة مـا في قيد الصنع . وقد ترك الامر لمفاوضين غير اختصاصيين هما كيسنجر وغروميكو حيث لعبت الحذاقـة الدبلوماسية دوراً في تضييق شقة الخلاف دون التوصل الى جواب حاسم بصدد تقرير مواصفات الغواصة متى تكون في قيد الصنع : عند البدء بصنع اجزائهـا أم عند تجميع هذه الاجزاء وبداية تركيبهـا أم قبـل ذلك عند تقرير الشروع في صنعهـا ؟ .

اما عملية وضع الاتفاق في صيغته النهائية فتقرر أنّ يعهد بها الى المفاوضين الرئيسيين في هلسنكي، سيمنوف وسميث اللذين تلقيا تعليمات مشتركة للتعاون معاً على صياغة الاتفاق . ووصل سيمنوف وسميث الى موسكو في التاسعة ليلاً بعد انجازهمـــا الصياغة في السادسة مساء وكان موعد التوقيع في الحادية عشرة . وقـامت مشكلـة من سيعرض الاتفاق على الصحافيين كيسنجر ام سميث واخيراً تقرر ان يتواليا عـلى العرض كـل بدوره ، الاّ ان الذي حدث هو ان كيسنجر استأثر بمعظـم الوقت . وقد فسّر كيسنجر روح الاتفاق عـلى انه ينطلق من اقتنـاع عميق لا بالمصلحة المفردة

لاحدى الدولتين بـل بالمصلحة المشتركة لكلتيهما معـاً .

وبينما كان كيسنجر وسميث يواجهـان الصحافة كـان نيكسون وبريجنيف يتناولان العشاء معاً في « نزل سبازو » الارستقراطي سابقـاً والذي اصبح الان مقر السفير الاميركي . وكانـا في احسن حالات الانشراح والمرح والتفاؤل. وقد شرب نيكسون نخب بريجنيف ودعاه الى زيارة اميركا .

وانتقل المدعوون بعد العشاء ، وفي الوقت المحدّد ، الى قاعة الكرملين ليوقّع بريجنيف ونيكسون الاتفـاق . وكـان بريجنيف قد دعـا اعضاء المكتب السياسي لحضور التوقيـع . وهو اسلوب درج بريجنيف عـل اتباعـه للتأكد مـن مساندتهم له . لم تستغرق عملية التوقيع سوى بضع دقائـق نهض بعدها الزعيمان ليشربا الانخاب . وبدأ عهد جديد . عهد الضوابط والكوابح على الطاقة النووية في العالم .

اما وقد انتهت مفاوضات الحد من الاسلحة الاستراتجية في قمة موسكو فقد انصرف الجانبان الى المشكلة الشائكة التي اقضت مضاجع اميركا واقلقت روسيا : فيتنام . وكان كيسنجر يتابع ملهوفاً اخبار الحرب الدائرة رحاهـا هناك وهو يتوجّس خشيـة من انهيار جيش فيتنام الجنوبية. ولكن كلّ يوم يمضي على صموده كـان يبعث في نفسه املاً جديداً . وكانت طلبات السوفيات متعدّدة . فمن جهة ارادوا ان يشمـل الاتفاق فضلاً عن قوات اميركا قوات انكترا وفرنسا من الغواصات، الا ان الجانب الاميركي رفض هذا الطلب رفضاً كلياً . ثم طلب السوفيات اعطاءهم افضليات التفوق في عدد الصواريخ والغواصات نظراً للتفوق الاميركي عليهم بالرؤوس النووية .

وكـان نيسكون مهيئاً لقبـول هذا الطلب لعدة اسباب : منهـا حرصه عـل انجاز اتفاق الحد من الاسلحة الاستراتجية ، ومنهـا توقعه حصول تنازلات متبادلة من الطرفين توصلاً لعقد هذا الاتفاق ، ومنها علمه بان السوفيات مقدمون عـلى برنامج موسع لصنع الغواصات الحديثة والصواريـخ بحيث ان الاتفاق على تحديد الاعداد بصورتهـا الراهنة يوفر على اميركا سباقاً في التسلّح ويوقف برنامج السوفيات الموسّع . وعـلى هذا الاساس تقدّم بعرض أخير حملّه لكيسنجر ويقضي بأن يحصل الروس عـلى التفوق في عدد الغواصات بحيث يسمـح لهـم باثنتين وستين غواصة حديثة وتسعمئة وخمسين مطلقة صواريخ بينما تكون حصة الولايات المتحدة اربع واربعين غواصة وسبعمئة وعشر مطلقة صواريخ . واشترط نيكسون عـلى الروس في هذه الحال ان يحيلوا الى الاستيداع مئتين واربعين غواصة قاذفة للصواريخ من الطراز القديم .

وقد وجد نيكسون وبريجنيف نفسيهما على تباين واسع في وجهات النظر حول فيتنام . فبينما كـان بريجنيف يدين الغارات الاميركية على فيتنام الشمالية ولغم مرافئها ويطالب بانهـاء اعمال الحرب ضد « الحليف الاشتراكي الشقيق » وسحب القوات

الاميركية والتفاوض على الاسس التي بينّها برنامج هانوي للسلام ، كان نيكسون يجيب بادانة الغزو الشيوعي لجنوبي فيتنام ويحاضر في مسؤوليات الدولة العظمى وواجباتها في ضبط النفس وردع حليفاتها عن اعمال العدوان .

الاّ ان كيسنجر وغروميكو استمرا في الحوار حول فيتنام بتفصيل اوفى وبواقعيّة أقرب . وكان جوهر الحوار ضمناً وان لم يفصح عنه بل على العكس جرى التشديد على نفيه ، هذا الترابط المضمر بين الفوائد التجارية التي يمكن ان يجنيها الاتحاد السوفياتي لقاء مساعدة واشنطن في حل الازمة الفيتنامية . واستمر غروميكو يصر على ان الكرملين لا يسيطر ، على نحو ما تزعم واشنطن ، على فيتنام الشمالية في تصرفاتها وخططها . الاّ انه في ٢٩ ايار وعلى عتبة اختتام لقاءات القمة وافق نيكسون وبريجنيف ،رغم خلافاتهما العديدة ، على وجوب تقليص المشكلة الفيتنامية . فلم يكن بريجنيف ينظر بعين الرضى والارتياح الى شن هانوي هجومها في الجنوب على ابواب انعقاد قمة موسكو مع الاميركيين بينما هي ،اي هانوي ،تبحث عملياتها قبيل قمة بكين معهم. وكان بريجنيف قد التزم بسياسة الوفاق الدولي واخذ يتلمّس ثمارها في الاتفاقات الثنائية المعقودة مع واشنطن . ثم ان بريجنيف كان واثقاً انه بمجرد تحقق الانسحاب الاميركي من فيتنام الجنوبية يتاح المجال الفسيح لانتصار الشيوعيين في الصراع السياسي هناك . وهكذا عبر المساومات الذكية المضمرة برز اتفاق ضمني غير معلن بين الدولتين العظميين مآله ان من مصلحتهما المشتركة انهاء الحرب في فيتنام على جناح السرعة . وكان كيسنجر يأمل ان يترجم هذا التفاهم الى خفض كل من الدولتين مساعداتها العسكريّة لحليفتها في فيتنام مما يحمل هانوي على موقف أكثر مرونة في المفاوضات . انتهت القمة الى توقيع وثيقة الاثني عشر مبدأ للعلاقات الاميركية السوفياتية ، وهي وثيقة غير اعتيادية انهت عقدين من الحرب الباردة بين الدولتين .

وكانت الزيارة التالية بحسب المنهاج المقرر الى كييف . ولكن مفاجأة حدثت . اذ ما ان صعد نيكسون الى الطائرة السوفياتية وبينما كوسيغين وبودغورني في وداعه على المطار توقف محرك الطائرة عن الدوران وبقي الرئيس ساعة في الطائرة حتى اصلح عطلها الفني . وكان الحادث موضع ارباك للمسؤولين السوفيات . واخذ كيسنجر يفلسف الحادثة بدعاباته الشهيرة فيسأل بودغورني: «هل تعرف قانون الشرّ الكامن في الاشياء ؟ مثلاً اذا القيت قطعة نقد فان فرص تدحرجها بعيداً عنك بدل تدحرجها باتجاهك هي بنسبة قيمة تلك القطعة ! ».

كانت طهران المحطة التالية في رحلة نيكسون وصحبه . وبعد ان عقد نيكسون محادثات مع الشاه ، قاد رئيس الوزراء الايراني امير عباس هويدا كيسنجر الى مربع بارسا حيث استمتع مستشار البيت الابيض برقص الفاتنة الايرانية نادينا بارسا

التي انهت رقصتها بالارتماء في احضان كيسنجر . وعندما سأله الصحافيون في الاياب عما حدث مع نادينا قال : « بحثنا معاً اتفاق الحد من الاسلحة الاستراتجية وكيف يمكن تبديل غواصة من طراز س س ٧ الى واحدة من طراز ي ».

« هل هذا حقاً ما تحدثت به اليها ؟ » .

« واي شيء آخر » اجاب كيسنجر . « انني اريد جعل العالم أكثر اماناً لنادينا ! » .

١٢ – بداية النهاية

في ١٥ حزيران طار الرئيس بودغورني الى هانوي ناقلاً وجهة نظر بريجنيف في ان ليس ما يحول دون انتصار الشيوعيين بعد انسحاب القوات الاميركية ، وان الوقت قد حان لاعادة النظر في التكتيك بحيث يصار الى عقد مفاوضات مع الولايات المتحدة لاسيما وان الموقف الاميركي الجديد لم يعد يشترط انسحاب الفيتناميين الشماليين من الجنوب . ورغم شعور هانوي بان الاستقبال السوفياتي الحافل لنيكسون كان طعنة في الصميم لفيتنام الشمالية الاّ ان قيادتها اصغت باهتمام لبودغورني نظراً لأن الاتحاد السوفياتي هو المزود الاساسي لفيتنام الشمالية بالمواد الحربيّة .

وعند عودته الى موسكو تعهّد بودغورني بان لا يوّفر الاتحاد السوفياتي « جهداً ممكناً في سبيل تخفيف حدّة حرب فيتنام » وانجاح محادثات باريس التي قال انها ستستأنف قريباً . وكانت هذه لغة جديدة يستخدمها الروس اذ هي المرة الاولى التي الزموا انفسهم فيها بصورة علنيّة ووظفوا نفوذهم في سبيل استئناف المفاوضات .

وكان هذا بمثابة خلاصة سوفياتية لسياسة الوفاق الجديدة وفوائدها العديدة .

وفي اليوم نفسه الذي كان بودغورني يعمل لحمل هانوي على الاقتناع بوجهة نظره ، كان كيسنجر من جهته يبذل قصارى جهده للفوز بتأييد نحو مئة من زعماء الكونغرس لاتفاقية الحد من الاسلحة الاستراتجية مع الاتحاد السوفياتي . وقد اصاب كيسنجر نجاحاً في الاقناع جعل السناتور فولبرايت وهو من معارضي الحكومة المزمنين يتمنّى لو أن الأمّة كلها كانت حاضرة عرض كيسنجر .وكان الرئيس ومستشاره يأملان أنّ تؤلب نتائج قمة موسكو حول مبادرات الحكومة لانهاء الحرب على اساس شروطهما .

وقام كيسنجر بزيارة جديدة في ١٩ حزيران الى بكين لمس فيها صدق عزم الصين واستعدادها لحمل هانوي على التفاوض . وقد استخلص من لقائه بشو آن لاي ان بكين تعطي اولية لتحسين علاقاتها بواشنطن نظراً لمخاوفها من تحرشات السوفيات على الحدود . وادّت مساعي كيسنجر الدبلوماسية هذه المدعومة بالضغط

العسكري الاميركي الى حمل هانوي على عقد مؤتمر قيادي خاص في نهاية حزيران لتقييم الوضع الاستراتجي الجديد .

وفي ١٨ تموز افتقد كيسنجر في واشنطن ، واخذت بورصة نيويورك تصعد على أمل استئناف محادثات السلام في باريس ، حتى اطلق على بورصة نيويورك في ذلك الحين « بورصة كيسنجر » . وبالفعل فقد أعلن في صبيحة اليوم التالي في كل من واشنطن وهانوي ان كيسنجر وله دوك تو مجتمعان قرب العاصمة الفرنسية .

وكانت هذه هي المرة الاولى التي يماط اللثام رسمياً فيها عن لقاء المفاوضين . وصعدت مؤشرات بورصة نيويورك دفعة واحدة ، ثمانية عشرة درجة . وتوالت اللقاءات بين كيسنجر وله دوك تو من اول آب حتى ١٤ منه . وبدا ان موقف هانوي اخذ يلين اذ اخذ مفاوضها يردّد كلاماً عن واقعيّة تواجد « حكومتين » و « جيشين » وثلاث «مجموعات سياسية » في فيتنام الجنوبيّة بحيث سقط شرط الاطاحة بتيو . وبعد لقاء ١٤ آب طار كيسنجر الى سايغون بتكليف من البيت الأبيض للقيام بمراجعة للمسألة الفيتنامية تشمل المفاوضات في باريس . وفي الطائرة من زوريخ الى سايغون كان كيسنجر يقرأ كتاباً عن سيرة حياة ماترنيخ . « وما عساه يقرأ ماترنيخ العصر غير ذلك» ، هكذ قالت « الواشنطن بوست » .

وغادر له دوك تو بدوره باريس الى هانوي مروراً بموسكو وبكين . وكانت هانوي اخذت تعاني ،شأنها شأن سايغون ، أزمة الثقة بحلفائها الكبار وانعكاسات مناخ الوفاق الدولي . وكان على كيسنجر ان يوضح لتيو صيغة « الحكومتين والجيشين » التي طرحها له دوك تو في باريس ،وان يشير الى الضغوط الداخلية في الانتخابات الاميركية على ادارة نيكسون .

في ٢١ آب انعقد المؤتمر الجمهوري وسط شعارات التأييد لسياسة نيكسون في الوفاق الدولي مع موسكو وبكين ، كما ابرز مسعاه لعقد تسوية لحرب فيتنام . وظهر بروفسور هارفرد ، مستشار البيت الابيض ، كرصيد سياسي في الحملة الانتخابية للرئيس فضلاً عن رصيده الدبلوماسي . وفي الليلة التالية للمؤتمر خاطب كيسنجر المؤتمرين مدلياً باعترافاته الشخصيّة حول تبدل تصوره للرئيس من الخلفيات السلبيّة السابقة التي كانت لديه الى الاقتناعات الجديدة التي كوّنها عنه خلال ممارسة العمل معه ، « وهي مختلفة جذرياً عما يتوهمه بصدد نيكسون عدد من المثقفين » .

ولم يكن ظهور كيسنجر في المؤتمر الجمهوري في ٢١و٢٢ آب هو الاسهام الاوحد في الحملة الانتخابية لمصلحة نيكسون ، ذلك انه حضر مآدب ولقاءات عقدها عدد من المساهمين الجمهوريين والديمقراطيين على حد سواء في المجتمع اليهودي الاميركي لجمع التبرعات لاسرائيل . وكان يتصدر هذه اللقاءات غوستاف

ليفي المموّل المشهور في والستريت – بورصة نيويورك – والصناعي المتقاعد من ديترويت ماكسن فيشر وكلاهما جمهوري . وفي هذه اللقاءات كان كيسنجر منحازاً لنيكسون واسرائيل .

وبعد اسابيع قلائل عاد كيسنجر الى رحلاته الدولية . فطار الى موسكو ، علناً ، لعقد لقاء مع بريجنيف ، والى باريس سرّاً لعقد لقاء مع له دوك تو . وعند وصوله الى موسكو في ١١ ايلول كان تو قد وصل الى باريس مزوداً بمشروع سلام جديد اشتمل خطياً على ما سبق للمفاوض الفيتنامي الشمالي ان طرحه شفهياً : « حكومتان وجيشان وقوى سياسية أخرى » هذا هو الامر الواقع في فيتنام الجنوبيّة . والحل ينطلق « من قاعدة المساواة والاحترام المتبادل وعدم استئصال اي فريق في سبيل فرض وضع شيوعي او وضع عميل للولايات المتحدة على حد سواء ». هكذا عنى بالنسبة الى كيسنجر اول اعتراف رسمي من هانوي بالتعايش مع نظام تيو في الجنوب .

وصل كيسنجر الى موسكو بينما بريجنيف يعاني كارثتين : نقص في امدادات الحبوب تسبب به موسم سيء ، وطرد المستشارين السوفيات العسكريين من مصر . وارتكزت السياسة الاميركية في ذلك الحين على الافادة من هذا الوضع لايجاد حلّ سريع في فيتنام . وكانت واشنطن بالفعل مدينة لمداخلات بريجنيف الايجابية مع هانوي.وطلب كيسنجر المزيد من السعي السوفياتي المشكور في هذا السبيل مظهراً العلاقة الوثقى بين حاجات السوفيات للحبوب وفيتنام . وما ان قبل الزعيم السوفياتي بتسوية ديون الاعارة والتأجير المزمنة التي تعود الى الحرب العالمية الثانية حتى ابرز كيسنجر عروضه لتسهيلات في القروض والتسليفات الاميركية الجديدة لاسيما بالنسبة لشراء كميات من الحبوب قيمتها ٧٥٠ مليون دولار من شركات التصدير الاميركية الخاصة على مدى ثلاث سنوات . ومضى كيسنجر في عقد الاتفاق دون الالتفات لتقارير المخابرات الاميركية عن مدى النقص الذي بلغه ، الموسم السوفياتي او عن صفقات أخرى عقدها السوفيات مع المصدرين الاميركيين باسعار مخفضة بحيث انتهى الامر الى ان يدفع المكلّف الاميركي من جعبته دعماً لفارق الاسعار لمصلحة المشتري السوفياتي، فضلاً عن تفاقم نقص امدادات الحبوب في الولايات المتحدة .

وبالاضافة الى هذه الصفقات تعهدت الحكومة بمنح روسيا وضع الدولة الاكثر رعاية في العلاقات التجارية.الاّ ان عدداً وافراً من اعضاء الكونغرس اصر على ربط هذا الامتياز بتسهيل هجرة اليهود السوفيات.كما تم عقد اتفاق استثمار الغاز الطبيعي من سيبيريا لقاء اعتمادات بلغت بلايين الدولارات . واثار ذلك جدلاً واسعاً في الولايات

المتحدة حول تدفق المال الاميركي الى بلد يمضي في صنع الصواريخ النووية المهدّدة لأمن اميركا . واتفق الطرفان على منح سفن الطرف الآخر التجارية تسهيلات استخدام مرافئه . كما تعهدت روسيا بالسماح لرجال الاعمال الاميركيين بفتح مكاتب لهم في موسكو .

اما على صعيد مفاوضات باريس فلم يتوصل الطرفان الى فهم مشترك وصيغة موحدة حول الأحد عشر مقترحاً التي عرضها الفيتناميون في ايلول ، الاّ انه في لقاء ٢٦ ايلول بين له دوك تو وكيسنجر ،تقدّم المفاوض الفيتنامي بصيغة جديدة تدعو الى اقامة « مجلس وطني للمصالحة مؤلف من الاطراف الثلاثة على ان لا تكون له مسؤوليات الحكم ويعمل على اساس مبدأ الاجماع » . واشار هذا الاقتراح الى تبدّل في سياسة هانوي يؤكّد اتجاهها الجديد نحو القبول ببقاء تيو في الحكم . وانطلق كيسنجر من هذا الاقتراح للتوصل الى صيغة جديدة مقبولة من جميع الاطراف فعقد يوماً آخر من المفاوضات مع تيو . وتمركز الخلاف بين المفاوضين اولاً ، حول البلدان التي تشملها صيغة وقف اطلاق النار . فكيسنجر اصرّ على شمول هذا البند الهند الصينية برمّتها بينما اراد تيو حصره في فيتنام الجنوبية . واخذ التفاؤل يسيطر على كيسنجر في امكان التوصل الى عقد اتفاق سلام قبل يوم انتخاب الرئاسة .

١٣ – السلام على قاب قوسين

في الخامس من تشرين الاول خاطب نيكسون المراسلين الصحافيين بقوله : « لن نسمح ان يكون للانتخابات ادنى تأثير في المفاوضات » . وشدّد على أنه اذا ما توصل الى تسوية للحرب قبل الانتخابات، فشرطها ان تكون عادلة وصالحة اما اذا لم تتوافر شروطها السليمة فلن تجره الانتخابات الى ارتجال تسوية كيفمااتفق الأمر .

الا ان كيسنجر كان ينظر الى القضية من زوايا أخرى . فهو من جهة كان يعتقد ان الرئيس يكون منشرحاً لو تمت التسوية قبل يوم انتخابه في ٨ تشرين الثاني . ثم ان كيسنجر كان شديد التفاؤل بإمكان التوصل الى تسوية حقيقية في موعد عاجل وقد تلقى لتوه برقية من له دوك تو يتعهد بموجبها المفاوض الفيتنامي « ببذل اقصى الجهود لتسوية الحرب » في لقائهما المقبل (في التاسع من تشرين الأول) . وكان كيسنجر يقول انه لن تسنح فرصة مثل هذه تكون ظروفها مواتية : فروسيا على شفير المجاعة نظراً لموسم الحبوب السيء ، والصين مذعورة من التحركات السوفياتية على الحدود ، ناهيك برئيس للولايات المتحدة من المحافظين مطمئن الى اعادة انتخابه .

في ضوء هذا التحليل بدا كيسنجر اكثر تفاؤلاً من رئيسه في حديثه الصحافي في ٨ تشرين الأول . فقد رفض ان يكون مدافعاً عمّا وصفه نقاده « بالسياسة المغلقة » وقال ان مجرد موت خمسين الف اميركي في هذه الحرب يرتب على الولايات المتحدة تبعات تحمل مسؤولية ما حدث ، والدفاع عن حق فيتنام الجنوبية في ان تكون لها فرصة متسعة للتطور والبقاء . ان هذا لا يلزم اميركا بالبقاء في فيتنام الى الابد ولكن يلزمها ان يكون انسحابها ضمن شروط تحقق هذا الهدف وتحافظ على كرامتها هي كدولة عظمى وتشرّف محالفاتها ومواقفها . و استشهد بمثله المفضّل: انسحاب ديغول المشرّف من الجزائر ، بحيث بدا الانسحاب وكأنه فعل ارادة فرنسيّة حافظت فرنسا فيه على كرامتها. وذلك كان الانجاز الكبير لا مجرد نتائج الحرب الظاهرة.

وفي صباح اليوم التالي انطلق كيسنجر الى باريس للقاء له دوك تو ، حيث فوجيء

بموقف متصلب من المفاوض الفيتنامي الشمالي وعودة الى المقولات السابقة بالتنديد بنظام تيو والاصرار على الحل السياسي قبل الحل العسكري . ولما لم يسلّم كيسنجر بهذه المطالب طلب تو رفع الجلسة ساعتين . وبدا ان ذلك كان حتّى يتصل بهانوي ويتزود بمشروع جديد للسلام مؤلف من تسعة بنود اشتملت على كسر للعقدة وانطلاق باتجاه تسوية معقولة . وبدا ان حوار الطرشان قد انتهى فهانوي تقدم مشروع اتفاق باللغة الانكليزية ناجز للتوقيع في حال الموافقة ويتضمن على فصل الجانب العسكري عن الجانب السياسي بحيث يحلّ الاول بوقف اطلاق النار بين واشنطن وهانوي والانسحاب الاميركي واطلاق سراح أسرى الحرب ، ثم تجري التسوية السياسيّة بين الاطراف الفيتنامية الجنوبيّة . وقد اسقطت هانوي مطالبتها بالاطاحة بنظام تيو واحلال حكم الائتلاف مكانه .

وكانت بنود الاتفاق هي :

١ – على الولايات المتحدة احترام « استقلال وسيادة ووحدة وسلامة اراضي فيتنام » وفقاً لاتفاق جنيف ١٩٥٤ . ولم يجد كيسنجر اي اعتراض على هذا البند .

٢ – يجري وقف اطلاق النار في جنوبي فيتنام خلال « اربع وعشرين ساعة بعد توقيع الاتفاقية » وتنسحب جميع قوات الولايات المتحدة من جنوب فيتنام « خلال ستين يوماً » . ولم يكن عند كيسنجر اعتراض على هذا البند .

٣ – « يطلق سراح جميع الاسرى والموقوفين » في المدة نفسها التي يتم فيها انسحاب قوات الولايات المتحدة (اي خلال ستين يوماً) . وحول هذا البند لم يكن من اعتراض .

٤ – تقوم هيئة ادارية تدعى مجلس الوفاق والمصالحة الوطني مؤلف من ثلاث فئات مهمته تنفيذ الاتفاقات الموقعة من الحكومة الثورية الموقتة لجمهورية جنوب فيتنام وحكومة جمهورية فيتنام ، وتنظيم الانتخابات العامة . وحول هذا البند كان سيجري بحث مستفيض .

٥ – تجري « اعادة توحيد فيتنام مرحلياً وبالوسائل السلميّة » . لا اعتراض .

٦ – « تنشأ لجنة دولية للوقاية والاشراف » . واراد كيسنجر ان يعرف متى يجري انشاء هذه الهيئة . و « ينعقد مؤتمر دولي حول فيتنام لتقديم الضمانات اللازمة خلال ثلاثين يوماً من توقيع الاتفاق » .

ولم يكن لدى كيسنجر اعتراض على هذا البند لأنّه من بنات افكاره .

٧ – هذا البند جرى التعهد فيه باحترام « استقلال وسيادة ووحدة وسلامة اراضي لاوس وكامبوديا » كما جرى التعهد بعدم استخدامهما « للاعتداء على سيادة وأمن البلاد

الاخرى » . ولكن بما أن هانوي لم تعتبر فيتنام الجنوبية بلداً آخر فقد البند مضمونه بل لم يذكر فيه وقف اطلاق النار في كل من كامبوديا ولاوس .

٨ – على الولايات المتحدة « الاسهام في اعادة تعمير ما سببته الحرب في جمهورية فيتنام وفي الهند الصينية كلّها » وتقوم علاقات جديدة متساوية ومتبادلة بين واشنطن وهانوي . وحول هذا البند لا بد من بحث مقادير المساعدات الاميركية وشروطها.

٩ – « يصبح هذا الاتفاق ناجزاً فور توقيعه » . وبدا هذا البند في منتهى البراءة لولا انه اثار جدلاً واسعاً حول الاطراف التي ستوقعه ، وكيف ومتى ؟

وارسل كيسنجر يسأل الرئيس : هل نعقد الصفقة ام ننتظر ؟ وما هي الحدود التي استطيع ان افاوض من ضمنها ؟ واضطر الى ارجاء اجتماعه باه دوك تو مرتين في اليوم التالي بانتظار جواب الرئيس. وجاء الجواب بالايجاب ، واخذ كيسنجر وتو يعقدان اللقاءات المطولّة (١٦ ساعة يومياً) ، وتوصلا الى وضع جدول زمني يقضي بتوقف الغارات الاميركية في ١٨ تشرين الأول وبتوقيع الاتفاق بالاحرف الاولى في ١٩ منه في هانوي من قبل كيسنجر ، بعد ان يكون قد أوضح الأمر في سايغون . وفي ٢٦ منه يجتمع وزراء خارجية الدول الاربع للتوقيع بصورة نهائية على الاتفاق في باريس . وفي ٢٧ منه يبدأ وقف اطلاق النار في فيتنام . وبدا ان كيسنجر قد تجاوز الكثير من الهنات والثغرات في مشروع الاتفاق وهو يتعجّل الوصول الى تسوية راقت له خطواتها العريضة . وقد نبهّه من مساعديه كلّ من هيغ ونيغروبونت الى مغبة الاستعجال دون التفاصيل ولكن على غير طائل . اذ ان كيسنجر بعد مفاوضات مضنية استغرقت ثلاث سنوات ونيف مع الفيتناميين الشماليين كان ضنيناً بألا تفلت الفرصة من يديه حتى انه لم يكد يصغي الى مشورة هيغ في ان يوسّع المهلة بضعة ايام قبل التوقيع بالاحرف الاولى على الاتفاق في هانوي اذ عليه ان يحسب حساباً لما ينتظره من عرقلة في سايغون . لكنه طلب المهلة على سبيل الاحتياط . فوافق تو شرط ان يتعهد كيسنجر باسم الولايات المتحدة بالمحافظة على الجدول الزمني الجديد لانجاز الاتفاق . فاعطى كيسنجر هذا التعهّد . وانهى المفاوضان لقاءهما باطراء كيسنجر لتو على ما تحلّى به من واقعية وصبر . وتعانق المفاوضان وكادت دموع الفرح تنفر من عيني المفاوض الفيتنامي . وتعهّد كلاهما بالدفاع عن مبادىء الاتفاق وعدم السماح للثغرات التفصيلية بأن تؤثر في الجوهر . وطار كيسنجر الى واشنطن حيث عقد اجتماعاً عاجلاً في البيت الابيض مع الرئيس حضره هيغ و روجرز . وكان كيسنجر على اهبة السفر ثانية بحسب الجدول الزمني الى سايغون ثم الى هانوي لتوقيع الاتفاق بالاحرف الاولى . ووجه الرئيس كتاباً الى كيسنجر جرى تسريبه من قبل البيت الابيض الى الصحافة تأكيداً لنزاهة الرئيس قبل الانتخابات . وقد جاء فيه :

« افعل ما تراه ملائماً لعقد سلام مشرف دون اي اعتبار للانتخابات » .

وصحب كيسنجر في رحلته الجديدة معاونون ليسوا من حلقة مجلس الأمن القومي ، كوليام سليفان نائب مساعد وزير الخارجية ، وجورج الدريخ المستشار القانوني لوزارة الخارجية . توقف كيسنجر في باريس حيث قابل كسوان تواي مقابلة طويلة استغرقت من العاشرة صباحاً حتّى العاشرة ليلاً ، راجع فيها المفاوضان مسودة الاتفاق . وتبين ان خلافاً لم يزل يدور حول تفسير بعض الفقرات لاسيما البند السابع والبند الثامن . ذلك بأن البند السابع نصّ على مسألة الاستبدال الدوري لمواد الحرب التي اتلفت او استهلكت . فبينما كان رأي الفيتناميين الشماليين ان تكون الرقابة على هذا الأمر في منتهى التساهل ، اصرّ كيسنجر على التشدّد فيها . اما البند الثامن – الفقرة ج – فقد دار حول اطلاق سراح اسرى الحرب وعنى ذلك للفيتناميين الشماليين انه يشمل اطلاق سراح ثمانين ألفاً من اسرى الجنوب معظمهم من مؤيدي الفيتكونغ مما يعزّز صفوف الثوار . وحاول كسوان تواي ان يربط اطلاق سراح هؤلاء باطلاق سراح الاسرى الاميركيين في الشمال لكن كيسنجر رفض بشدة مثل هذا الربط . وكان الوقت يمرّ وكيسنجر على عجلة من أمره في رحلته نحو الشرق فاضطر الى السفر قبل التوصل الى جلاء ما علق من خلاف حول هذين البندين مع كسوان تواي . ولم يكن حظ كيسنجر في سايغون باسماً مشرقاً على النحو الذي كان يأمل فيحمل تيو خلال يومين على دعم الاتفاقية . فقد واجهته العراقيل الجسام رغم انه بذل قصارى جهده لتسيير دفة المفاوضات باتجاه القبول. ومن اجل التوصل الى هذه النتيجة توجه الى سايغون على رأس وفد اميركي كبير ضمّ السفير بانكر ، ورئيس اركان الحرب الجنرال ابرامز الذي سبق له أن قاد القوات الاميركية في فيتنام ، والاميرال نويل غايلر ، والجنرال وايند قائد القوات الاميركية في فيتنام ، وفليب حبيب السفير الاميركي في كوريا الذي سبق ان خدم في سايغون ثم رئس الوفد الاميركي الى محادثات باريس . واثار وصول هذا الوفد الاميركي العالي الشأن لغطاً كبيراً في الاوساط السياسية في سايغون .

وفي الوقت نفسه كانت هانوي تكرّم رجال السلاح المضاد الذين اسقطوا «الطائرة الأربعة الآف». ولكن في تقدير المراسل الصحفي بورشغريف ان ما كان يجري انما كان اعداداً لاحتفال النصر القريب. وتمكن بورشغريف كبير محرري « النيوزويك » من اقتناص حديث من رئيس وزراء فيتنام الشمالية فان دونغ ايدّ فيه المسعى نحو تسوية سلمية عادلة للطرفين . ولكن الرئيس الفيتنامي الشمالي ادلى بقول كان من شأنه الامعان في تأزيم الموقف واحراج كيسنجر اذ قال عن تيو : « ان الحوادث قد تخطته وهي تسير الان في مجراها الطبيعي » . كما طرق فان دونغ موضوع ائتلاف

ثلاثي انتقالي مشيراً بذلك الى مجلس المصالحة والوفاق الوطني بينما فهم بورشغريف من الايماء انها اشارة الى حكومة ائتلافية ، غير مدرك ان هانوي قد تنازلت في المفاوضات السرية في ٨ تشرين اول عن مطلبها بهذا الصدد .

في اليوم التالي، اي في ١٩ تشرين الأول، عقدت دورة المحادثات الاولى في سايغون بين الوفد الاميركي الرسمي برئاسة كيسنجر والفيتنامي الجنوبي برئاسة الرئيس تيو في قصر الرئاسة ، « قصر الاستقبال » » . وعرض كيسنجر مشروع الاتفاقية مشدداً على النقاط التي اعتبر انها مكاسب لسايغون: فمن جهة بقي نظام تيو ، ومن جهة ثانية اعطي للجنوبيين حق الفيتو على مقررات المجلس الوطني باعتبار هذا البند اشترط ان المقررات تتخذ بالاجماع . وان هذا المجلس ليس حكومة ائتلافية . ثم ان الشيوعيين بموجب التسوية الاخيرة باتوا ملزمين بالعمل السياسي السلمي والتخلي عن الغزو العسكري.وستحتفظ الولايات المتحدة بقواعد جويّة في تايلاند كما ان الاسطول السابع سيبقى في المياه المجاورة فيكون درعاً واقياً من تجدّد الغزو الشيوعي. واخيراً يستمر الدعم العسكري والاقتصادي الاميركي لفيتنام الجنوبية كما ان سياسة الوفاق مع بكين وموسكو من شأنها الحدّ من المساعدا ت العسكرية للشمال . وبالنتيجة ان الاتفاقية اذا ما جرى توقيعها الان كانت لمصلحة سايغون لأن ميزان القوى هو لمصلحتها . ذلك بأن جيشها يبلغ مليون مقاتل وهي تسيطر على ٨٥ بالمئة من الـ ١٩ مليون فيتنامي جنومي. وخلص كيسنجر الى ان «هذه اتفاقية حسنة تستحق تضافر جهودنا المشتركة » .

لم يبدر من تيو اي رد فعل بل اكتفى بالابتسام واعداً كيسنجر بدرس مسودة الاتفاقية . فتقرر عقد جلسة ثانية في المساء . وانصرف كيسنجر وقد شجعه تهذيب تيو ، غير مدرك ان الفيتناميين كغيرهم من الاسيويين يتجنبّون المجابهة الشخصية المباشرة ويفضلّون الجواب الغامض على الرفض الصريح . وهكذا خرج كيسنجر من قصر الرئاسة وهو بادي الانشراح .

اما في القصر فقد كان الجو مكفهراً، وخيّم شعور بأن الاميركيين قد خدعوا حلفاءهم . ولم يكن تيو قد اطلع على نص الاتفاقية قبل لقائه مع كيسنجر الذي قدم له نسخة بالانكليزية . فطلب تيو الى مستشاره ونسيبه « « هوانغ دوك نها » ان يدرس الاتفاقية، وان يدعو مجلس الامن القومي لفيتنام الجنوبية لجلسة عاجلة بعد الظهيرة. وكان نها خريج جامعة بيتّرسبرغ في ١٩٦٦ وخبير تيو في الشؤون الاميركيّة .

وخلص نها بعد التدقيق في مسودة الاتفاقية الى انها « متناقضة ، وناقصة ، وسيئة ». واثاره بصورة خاصة تعبير « البنية الادارية » في النص الانكليزي الذي قد يعني في النص الفيتنامي الغامض « بنية حكوميّة » . في المساء سأل تيو كيسنجر عن هذا

التعبير فاجاب المستشار الاميركي ان لا معنى له وان حق الفيتو على اي حال هو الضامن لسايغون . فهز تيو رأسه دون ان يلوي على شيء .

في صباح الجمعة عقدت دورة مباحثات جديدة استهلها تيو بالسؤال المحرج التالي موجهاً الى كيسنجر : «دكتور كيسنجر لماذا بخلت علينا بكلمة مسبقة عن مسودة الاتفاقية؟ ». وكان السؤال يلمح الى ان واشنطن وهانوي قد عقدتا صفقة بمعزل عن سايغون . ووجد كيسنجر نفسه في موقع الدفاع . واخذ تيو يركز على نقاط ثلاث رئيسيّة اعتبرها عقبات اساسية في وجه الموافقة على الاتفاقية : اولاً ، التناقض بين النصين الانكليزي والفيتنامي حول ماهية المجلس الوطني للمصالحة، هل هو بنية ادارية ام حكوميّة ، وبالتالي ائتلاف حكومي ؟ وبدا كأن سايغون تعتبر ان النص اما كان وليد مؤامرة اميركية فيتنامية شمالية مشتركة ضد الجنوب او مؤامرة شمالية خدعت كيسنجر.ثانياً ، تشير الاتفاقية الى «ثلاث دول فيتنامية » ، الشمال لا يمس، ولكن الجنوب مقسّم الى ما هو تحت سلطة الفيتكونغ والى ما هو تحت سلطة سايغون. وفي هذا الصدد رفض تيو قطعاً التسليم باي سيادة على الجنوب الا لحكومته واعتبر وجود قوات الشمال على ارض الجنوب غير شرعي . واخيراً ، لا تتضمن الاتفاقية اية اشارة الى انسحاب القوات الشمالية من الجنوب ، لماذا ؟ واضاف: « اذا ما وقعنا هذه الاتفاقية فسنصبح سخرية الناس واضحوكة الدنيا ، اذ يعني ذلك اننا استسلمنا للشيوعيين ». وخرج كيسنجر من المحادثات العسيرة وهو منقبض اذ ايقن أن عليه طلب تأجيل الجدول الزمني الذي تعهد به لتو مرة ثانية فابرق معتذراً الى هانوي طالباً امهاله بضعة ايام اخرى . وجاء جواب هانوي السريع بالايجاب مقروناً بانذار مفاده ان لا يتكرر تأجيل الجدول الزمني مرة أخرى . وعقدت دورة جديدة من المحادثات بين الجانب الاميركي والجانب الفيتنامي الجنوبي ،بناء على اقتراح كيسنجر، في مبنى وزارة الخارجية في سايغون في ٢١ تشرين الأول وبغياب الرئيس تيو وتولى نها عرض وجهة نظر سايغون فكان في منتهى التصلب في الموقف العام والتدقيق في التفاصيل . فقدّم لائحة بستة وعشرين تعديلاً مطلوب ادخالها على الاتفاقية. واستطاع كيسنجر بعد حوار طويل ان يحصر الموضوع بست نقاط . ولكنها كانت عقبات خطيرة في وجه الاتفاق. وهي مسائل « البنية الادارية » و«الدول الثلاث في الهند الصينية » وعدم الاشتمال على مسألة انسحاب القوات الشمالية في الجنوب ، وحق تقرير المصير ، واستخدام كامبوديا ولاوس لانطلاق القوات والامدادات ، واخيراً مسألة اعادة انشاء المناطق المجردة من السلاح بين الجنوب والشمال الفيتناميين. وبدا بعد ثلاث ساعات من الحوار الساخن ان كيسنجر ونها يقفان على طرفي نقيض . فعندما قال كيسنجر ، حول مسألة وجود ثلاث دول فيتنامية ، ان هذا مجرد خطأ

مطبعي ، استهجن نها الأمر وقال « : لا يمكن ذلك يا دكتور كيسنجر ، كان لديك مترجمون وخبراء ومع ذلك يتكرر هذا الخطأ مرتين». وظهر جلياً ان تبريرات كيسنجر لم تكن مقبولة من الجانب الآخر .

وعاد كيسنجر الى السفارة الاميركية وهو متعكر المزاج فقد شعر انه لن يستطيع مجدّداً الالتزام بالجدول الزمني مع هانوي وانه امام منزلق الاخلال بتعهّده للفيتناميين الشماليين بسبب العراقيل التي يضعها تيو . وانفجر غضب كيسنجر وهاج تمحوره الذاتي فقال : « من تراه يظن نفسه » ، عانياً تيو ، وهو يزرع ارض الغرفة ذهاباً واياباً .

وفي الطرف الآخر كان رئيس وزراء فيتنام الشمالية يستدعي السفراء الاجانب ، على ما رواه محمد مخلوف القائم بالاعمال المصري لصديقه دي بورشغريف كبير محرري « النيوزويك » ، ليبلغهم ان اتفاقية وقف اطلاق النار بين واشنطن وهانوي اصبحت جاهزة للتوقيع وعلى السفراء نصح دولهم للقيام بضغط على الرئيس نيكسون لتوقيع هذه الاتفاقية قبل موعد انتخابات الرئاسة الاميركية في السابع من تشرين الثاني . وهكذا عاد بورشغريف من هانوي وجعبته ملأى بالاخبار ابتداء من الحديث الخاص الذي ادلى به رئيس الوزراء مباشرة الى ما تلقاه من القائم بالاعمال المصري . وفي المطار استقبل السفير غودلي بورشغريف وبينما هما في سيارة السفارة فهم السفير من الصحافي الاميركي ان رئيس وزراء فيتنام الشمالية أعلمه بقرب قيام حكومة ائتلافية ثلاثية . استوقف النبأ السفير غودلي الذي اتصل بسايغون وتحدث الى وليم سليفان كبير موظفي وزارة الخارجية الذي يرافق كيسنجر ثم نقل سليفان الخط الى هنري الذي تحدث مباشرة الى بورشغريف فطلب كيسنجر من الصحافي الاميركي نسخة كاملة من حديث رئيس وزراء فيتنام .

وما ان وصلت النسخة الى كيسنجر وسليفان حتى استبد بهما الذهول والقلق . وشعر كيسنجر انه بين نارين لا خلاص له منهما فغاص في انتكاسة كبرى . ذلك ان ما ورد في حديث رئيس وزراء فيتنام الشمالية حول « الائتلاف الثلاثي الاطراف » وحول « تخطي الحوادث لتيو » ليس ما اتفق عليه كيسنجر وله دوك تو في باريس . وغاص كيسنجر في حالة قنوط ثم انتفض وقرّر ان يتصل بالرئيس تيو ويطلعه على حديث رئيس وزراء الشمال . ولكن نها تذرّع بانشغال الرئيس تيو في الاشراف على عملية صد هجوم شيوعي واسع قرب سايغون . وعبثاً الح الاميركيون على اللقاء ولكن الجواب كان يأتي بالسلب . واخيراً تم التوصل الى تحديد موعد لصباح اليوم التالي . ولكن من يدري ماذا يخبيء الصباح ؟ فقد علم الفيتناميون الجنوبيون بحديث فان دونغ « للنيوزويك » قبل

اجتماعهم الموعود بكيسنجر ، ذلك بان « نها » استيقظ عند الفجر على رنين الهاتف من واشنطن ، واعلمه موظف في سفارة فيتنام الجنوبية في العاصمة الاميركية بما صدر في « النيوزويك » . وهكذا وجد الاميركيون انفسهم امام الجانب الفيتنامي الجنوبي في اجتماع اليوم التالي وقد تعزز تصلبه بما صدر عن رئيس وزراء الشمال . « اننا نعارض قيام المجلس الوطني للوفاق والمصالحة لأن ذلك يعني ، كما بات واضحاً الان ، ائتلافاً حكومياً . ثانياً لا نستطيع قبول بقاء القوات الشمالية في بلدنا . ثالثاً ليس بوسعنا قبول منطقة مجردة من السلاح تتنقل عبرها قوات فيتنام الشمالية . اننا نرفض ، توقيع الاتفاقية» . هكذا لخص تيو الموقف .

انفض الاجتماع على ان يعقد في اليوم التالي بعد زيارة قصيرة يقوم بها كيسنجر لكامبوديا . وفي اليوم التالي عند الخامسة مساء اجتمع الاربعة مجدداً : كيسنجر وبنكر عن الجانب الاميركي وتيو ونها عن الجانب الفيتنامي الجنوبي ، واستمر رفض الفيتناميين الجنوبيين للاتفاقية . توعد كيسنجر بقطع المساعدات عن سايغون ، ولكن ذلك لم يزعج تيو . واشار كيسنجر الى امكان توقيع الولايات المتحدة صلحاً منفرداً، فجاء جواب تيو الصافع : « نفضّل ان نحارب بمواردنا الخاصة ستة اشهر اخرى ونموت على ان نوقع هذه الاتفاقية ونموت الان ! ».« ان اتفاقية سيئة لا توّثر فيكم لأنكم عمالقة ، ولكن اتفاقية سيئة بالنسبة إلينا قد تعني فقداننا فيتنام الجنوبية ، وما هي فيتنام الجنوبية بالنسبة اليكم على خريطة العالم ، لا شيء . وربما كان ذلك شيئاً حسناً بالنسبة اليكم . ان الامر بالنسبة الينا ليس خيارات في الاستراتيجية العالمية بل مسألة وجود او عدم وجود ». ولكن ذلك لم يزحزح كيسنجر . واصرّ على العودة الى واشنطن لأخذ تعليمات جديدة .

انصرف كيسنجر الى بيت السفير الاميركي وابرق الى نيكسون حول العقبات التي تعترضه في سايغون مقترحاً المضي في توقيع الاتفاقية مع هانوي ولو منفردين . ولكنه فوجيء برد الرئيس نيكسون الذي يرفض فيه هذا الاقتراح ويوجه كيسنجر الى تلطيف الاجواء مع تيو والتأكيد له ان الولايات المتحدة وفيتنام الجنوبية ستبقيان حليفتين صادقتين.اما بصدد فيتنام الشمالية فقد اشار نيكسون على كيسنجر أن يبرق الى هانوي معتذراً عن التقيد بالجدول الزمني نظراً للصعوبات الطارئة مع تأكيد حسن نية الولايات المتحدة بتوقّفها عن كل العمليات العسكرية ضد الشمال بدءاً من الخامس والعشرين من تشرين الأول. وفي الصباح عندما زار كيسنجر تيو مودعاً سلمه الرئيس الفيتنامي الجنوبي رسالة منه الى الرئيس نيكسون . وادرك كيسنجر وهو يواجه الصحافيين المحتشدين في المطار انه اذا ما بدت عليه إمارات الخيبة أصيب العالم بصدمة قويّة ، لذلك اخفى مشاعره وراء ابتسامة عريضة وصافح مراسلة

شابة كانت تقف بشعرها الأسود المرسل بين جمع المراسلين وقال لها : « « جئت الى هذا المكان لالقاك خاصة » . ولكن صحافة سايغون لم تسدل الستار على ما حدث ، بل طلعت صحيفة«تين سونغ » التي يموّلها « نها » على الناس تقول ان الانطباع السائد هو ان المفاوضات التي جرت مع الاميركيين « سادها جو متوتر جداً نظراً لصمود الفيتناميين في مواقفهم ».

وفي الواقع فقد راهن تيو على ضعف نظامه ليتدرّع به في مفاوضاته مع الاميركيين . اذ كان يعرف ان احراجه قد يؤدي الى سقوط نظامه فيعطل على الاميركيين الانسحاب بكرامة كما كان يدعو نيكسون . وكان تيو يحاول ما استطاع تأجيل الانسحاب الاميركي كسباً للوقت والمدد لمواجهة الحرب في الميدانين السياسي والعسكري على حد سواء . اما كيسنجر فقد ابرق الى تو وهو في طريقه الى واشنطن طالباً استئناف المفاوضات في باريس استناداً الى ثلاثة عوامل : « الصعوبات الناشئة في سايغون » ، « الالتباسات التي اكتنفت تصريحات فان دونغ » ، واخيراً توقعات هجوم شيوعي فور وقف اطلاق النار .

وفي واشنطن بدا ان الرئيس غير متحمس لصفقة سريعة حول فيتنام قبل الانتخابات وخصوصاً اذا ادت الى توتر مع سايغون . وكانت كل الدلائل تشير الى احتمال فوزه باكثرية ساحقة. وفي اليوم التالي لوصول كيسنجر ادلى الناطق الصحافي للبيت الابيض، زيغلر ، بتصريح اشار فيه الى اجتماع عقده كيسنجر وروجرز لمراجعة آخر تطورات مساعي السلام في سايغون وباريس، واردف الناطق الرسمي «لقد حققّنا بعض التقدم» ، ولكنه حذّر من « الاسراف في التفاؤل » . ولم يكن تحذير زيغلر غير مستند الى واقعة. ذلك ان تيو كان قد ظهر على التلفزيون في سايغون ليعلم الناس بالمفاوضات العسيرة مع كيسنجر ويعلن ان ما توصل اليه الاميركيون والفيتناميون الشماليون في باريس غير مقبول من سايغون .

ولم تقتصر المفاجآت الاعلامية على سايغون . ففي الخامسة والدقيقة السابعة والاربعين من بعد الظهر بحسب توقيت واشنطن اوقف راديو هانوي برامجه العادية لإعلان بيان حكومي مهم . وفي الساعة الحادية والدقيقة السادسة والاربعين صباحاً من السادس والعشرين من تشرين الأول انفجرت قنبلة هانوي الاعلامية. فقد اماطت هانوي اللثام عن اتفاقية البنود التسعة التي جاءت بمبادرة منها في مفاوضات باريس لاحلال السلام في فيتنام والتي اقرّ الجانب الاميركي أنها تمهدّ الطريق للتسوية الشاملة ، وانه قد تم التوصل في حينه اي في ٨ تشرين الأول ، الى جدول زمني لانجاز الاتفاق ووضعه موضع التنفيذ. غير ان الولايات المتحدة اخذت تماطل في الموعد وترجئه مرة بعد الاخرى . وانها تذرعت بمعارضة نظامها العميل في سايغون للمشاغبة

على عقد اتفاق السلام واجهاض الاتفاقية.واتهمت حكومة نيكسون « بسوء النيّة » .

وايقظ هيغ كيسنجر في الثانية من صباح ذلك اليوم ليعلمه بما اذاعت هانوي . فبادر كيسنجر بدوره الى الاتصال بنيكسون ثم سليفان . وتنادى كيسنجر وهيغ وسليفان الى لقاء لدرس الرد الاميركي على حملة هانوي الاعلامية . وتم التوصل بناء على اقتراح سليفان الى ان يعقد كيسنجر مؤتمراً صحافياً يطمئن فيه هانوي الى حسن مقاصد واشنطن واتفق نيكسون وكيسنجر ان يكون الموضوع الرئيسي في المؤتمر الصحافي أن الولايات المتحدة متمسكة بجوهر الاتفاقية ولكنها لن تحمل على توقيعها في ٣١ تشرين الأول نظراً لوجوب جلاء بعض النقاط التي يكتنفها الغموض والالتباس . ولكن كيسنجر تخطى المطلوب وتلفظّ بكلمات اربع كان لها دوي كبير في كل العالم : « السلام على قاب قوسين » ! ثم لخص نقاط الخلاف التي اعتبر ان بالامكان التوصل الى حسمها في جولة مفاوضات جديدة « لا تتعدّى بضعة ايام » . وخلص كيسنجر الى التشديد على ثلاث نقاط كان كل منها موجهاً الى طرف معين : « لن نحمل على أتفاقية ما لم تصحح شروطها » (هذا موجه الى هانوي) ، « ولن نتراجع عن الاتفاقية متى صححت شروطها » (وهذا موجه الى سايغون) ، « وعلى اساس هذا الموقف وبعض التعاون اذا ما بذله الطرف الأخر ، فان اعتقادنا راسخ اننا قد نحقّق السلام ونعيد الوحدة والكلمة الى الشعب الاميركي قريباً » (وهذا موجه الى الناخبين الاميركيين) . واصر على ان ليست المواعيد طلاسم لا يمكن تخطيها لأن المهم هو الاتفاق على المضمون لا ارجاء موعد التوقيع استكمالاً لبعض الشروط وجلاء لبعض الغموض.لكن عبارة واحدة طغت على كل المؤتمر : « السلام على قاب قوسين » . فانتعشت البورصة وسوق الاسهم والاوراق المالية ، وابتهج الجنود واهالي الاسرى . وطمست العبارة كل ما قاله كيسنجر حول « الخلافات »، والنقاط الست او السبع التي تحتاج الى تفسير . وكانت لحظة نسي فيها الجميع ايام الحرب القائمة وخسائرها المتصاعدة. ففي رئاسة نيكسون وحدها قتل أكثر من ١٥ الف اميركي ، وجرح أكثر من ١١٠ الاف ، وانفق أكثر من ٥٠ بليون دولار ، وألقي أكثر من ٣,٦ مليون طن من القنابل الاميركية وقتل أكثر من ٦٠٠ الف مدني فيتنامي جنوبي او جرحوا. هذا دون ذكر ضحايا الجيوش الفيتنامية المتحاربة الوفيرة .

واعطى مؤتمر كيسنجر الصحافي ثماره العاجلة . فبعد ست ساعات وصلت برقية من هانوي تفيد أن له دوك تو يقترح استئناف مفاوضات باريس عاجلاً دون تحديد موعد .

١٤ – جولة فيتنام الاخيرة

« انني أعمل لوحدة فيتنام ولكن الفريقين يصرخان في وجهي ». هذا ما قاله هنري كيسنجر في حفل استقبال بسفارة الفيتنام الجنوبية في واشنطن بمناسبة عيد الاستقلال الفيتنامي الجنوبي في الأول من تشرين الأول . وتوجّه بعد الحفلة الى البيت الأبيض حيث كان نيكسون يعد خطابه لليوم التالي في ٢ تشرين الثاني الذي ضمّنه رؤية أكثر حذراً من تصريحات كيسنجر السابقة المتفائلة التي اعتبرت ان بامكان الطرفين التوصل الى حل في دورة مقبلة من المفاوضات لا تتعدّى بضعة أيام . فقد لخّص نيكسون الموقف الاميركي الرسمي بقوله « اننا سنوقّع اتفاقية السلام عندما تصبح صالحة ولن نقدّم يوماً واحداً على ذلك . كما اننا لن نؤخر توقيعها يوماً واحداً متى أصبحت صالحـة وشروطها متوافرة » . وهكذا رفض الرئيس الأميركي ان يقيّد نفسه بجدول زمني . وأشـار ايضاً الى ان مطمحه هو شمول اتفاق السلام كمبوديا ولاوس رغم معرفته بأن مشروع كيسنجر – تو اقتصر على وقف اطلاق النار في جنوبي فيتنام . وأشـار الرئيس الأميركي الى ضرورة وضع حد « للالتباسات » اللغوية وتصحيح التفاصيل « والنقاط الأساسية » .

وهكذا بدا واضحاً ان الرئيس يطلب ثمناً اغلى لتوقيع الاتفاقية من ذلك الذي ارتضى به كيسنجر . وأتاح ذلك لخصوم كيسنجر وحاسديه من بطانة البيت الأبيض مجال التركيز على نقائص الاتفاقية التي قبل بها . وطالب مستشارو وزارة الدفاع بوجوب توافر قوة دولية قادرة على الحيلولة دون ما زعموا ان تقارير المخابرات تتوجس منه : حصول هجوم شيوعي بعد توقف اطلاق النار . وارتأى روجرز ان المفاوضات ومشروع الاتفاق سُلقت سلقاً . حتى هيغ شكا للرئيس مبالغة كيسنجر في ملاطفة تو في وقت تصرّف بفظاظة إزاء تيو .

واتضح للعالم، ولا سيما لهانوي وموسكو وبكين، ان ثمة فوارق بين لهجة كيسنجر في ٢٦ تشرين الأول عندما عقد مؤتمره الصحافي وبين خطاب نيكسون في ٢ تشرين الثاني . فانطلقت حملة من راديو هانوي ومن « البرافدا » ومن صحيفة « الشعب » في بكين تطعن في نيّات الحكومة الاميركية وخداعها الشعب الأميركي والعالم وتآمرها على السلام . ومن

جهة أخرى تدفق المدد العسكري بوفرة على سايغون ، وأخذت الولايات المتحدة تسلّم قواعدها في جنوبي فيتنام الى سايغون . ولم يمض اسبوعان على دفق المعونات العسكرية الهائلة الى جنوبي فيتنام حتى أصبح لسايغون رابع سلاح جوّي في العالم ، اي ما يزيد على ألفي طائرة . وكان كيسنجر يأمل ان يصبح تيو بعد تلقيه كل هذه المساعدات اكثر مرونة في قبول اتفاق وقف اطلاق النار فينطلق في قبوله من موقع القوة والاطمئنان .

في الاسبوع الأول من تشرين الثاني صرف كيسنجر ساعات طويلة مع الرئيس نيكسون في إعداد المرحلة الأخيرة من المفاوضات وقد اتفقا على ان الولايات المتحدة ستمضي في مسعى السلام الى النهاية باذلة قصارى جهدها لحمل سايغون على الموافقة على مسعـاها ولكن في حال إصرار تيو على عناده لن يكون ذلك حائلاً دون التوصل الى اتفاق مـع هانوي . وارتأى الرئيس وكيسنجر ان يعرض الجانب الأميركي في المفاوضات العتيدة بعض اعتراضات سايغون ويسعى لتضمينها الاتفاق النهائي . ومن هذه الاعتراضـات الأساسية تثبيت الحدود الفاصلة بين شطري فيتنام على أساس منطقة مجرّدة من السلاح وفق اتفاقية جنيف ، والسعي الى تحقيق انسحاب فيتنامي شمالي من الجنوب والى شمول وقف اطلاق النار الهند الصينية كلها ، وايجاد قوة سلام دولية فضلاً عن جلاء « الألتباسات اللغوية » في موضوع الائتلاف الحكومي .

في السابع من تشرين الثاني تمت اعادة انتخاب نيكسون رئيساً للجمهورية بأكثرية ساحقة ، ولم تلبث المفاوضات ان استؤنفت بعد ان ارسل الجنرال هيغ الى سايغون حاملاً الى تيو رسالة من نيكسون حول الموقف الاميركي الأخير ومؤكداً ان المدد العسكري الهائل الذي تلقته سايغون في الأسابيع الأخيرة هو عربون صداقة اميركا والتزامها بموجبات التحالف مع فيتنام الجنوبية . ولكن تيو اصرّ على اعتراضاته السابقة مما دعا هيغ الى تحذيره بلباقة فائقة من ان الولايات المتحدة ستمضي في مسعاها لتحقيق التسوية حتى دون موافقة سايغون ومع حرصها الشديد على تضمين الأتفاق النهائي اعتراضات حليفتها . وغادر هيغ سايغون الى واشنطن حيث اطلع الرئيس وكيسنجر على خلاصة الموقف فلم يفاجأ نيكسون بالأمر وأكّد رغبته في عرض وجهة نظر تيو على الجانب الأخر دون السماح بأن يؤدّي ذلك الى عرقلة التوصل الى اتفاق .

في الرابع عشر من تشرين الثاني أذاع راديو هانوي ان له دوك تو غادر هانوي الى باريس لاستئناف المفاوضات بناء على طلب الولايات المتحدة واظهاراً من جمهوريـة فيتنام الديمقراطية لحسن نيتها وجدها في مسعى السلام . ووصل الموفد الفيتنامي الشمالي الى باريس في السابع عشر منه بعد توقفه في كل من بكين وموسكو . أما كيسنجر فقد وصل الى باريس في التاسع عشر منه واستؤنفت المفاوضات في صباح اليوم التالي عنـد الساعة العاشرة والنصف . وقد عرض كيسنجر مطالب تيو على حدة ثم عرض مطالب

الرئيس نيكسون وهو يحرص على إظهار التمايز بين مجموعتي المطالب . وأصرّ كيسنجر في البدء على جلاء الالتباسات اللغوية حول مسألة المجلس الوطني للوفاق والمصالحة بحيث أكّد ان المقصد الأصلي منه هو قيام جهاز اداري لا ائتلاف حكومي . فوافق تو على هذا التفسير . ثم طرح كيسنجر مسألة البروتوكولات التي تنظم تنفيذ وقف اطلاق النار وأهمها مسألة ايجاد قوة دولية . وهذه مسائل لم يثرها اصلاً كيسنجر في جولة المفاوضات السابقة بل تركها مع غيرها من التفاصيل للتقنيين. ولكن تو لم يقدّم اي استجابة محددة لاعتراضات كيسنجر في هذا الصدد . كما انه فعل الشيء نفسه بالنسبة لمسألة المنطقة المجردة من السلاح .

ورفعت الجلسة بعد ساعات من العمل المتواصل لتستأنف بعد ظهر اليوم التالي في الساعة الثالثة . وأسرع كيسنجر يبرق بخلاصة المفاوضات الى نيكسون كما انه اتصل بسفير فيتنام الجنوبية في باريس ملخصاً له ما دار ومؤكداً تطمينات تو على ان مجلس المصالحة لن يعني قيام حكومة ائتلافية . وارفضّت الجلسة الثانية في جوّ من الانفراج . وفي اليوم التالي عقدت الدورة الثالثة من المفاوضات التي بدأت تكتنفها بعض الغيوم . وتقرّر عقد دورة رابعة في اليوم التالي .

غير ان الرياح لم تكن مؤاتية من سايغون. فقد هبت عاصفة انتقادات صحافية صحبتها حملة من راديو سايغون على الدكتور كيسنجر الذي وصفته بالطموح المتمادي واتهمته بالسقوط في فخ خداع الشيوعيين ، وتجاوز ما عهد اليه الرئيس نيكسون من صلاحيات في ما تورط به من خطوات ومنزلقات . وقد استاء كيسنجر كثيراً من هذه الحملة لا سيما وانها ركزت على تصويره بمظهر من خدع رئيسه. وصحب ذلك اعلان سايغون عن ارسال موفد منها لينقل مخاوفها من الاتفاقية الى الرئيس نيكسون . ونفضت الحكومة الفيتنامية الجنوبيّة يديها من الحملة المسعورة ضدّ كيسنجر فزعمت في ردها على تساؤل كيسنجر عن سبب هذه الحملة أن الصحافة والاعلام حرّان في فيتنام الجنوبية ، وهو أمر يجانب الحقيقة في بلد تخضع صحافته وإذاعاته لإشراف حكومي دقيق .

وزاد الطيّن بلّة انه ظهر في ذلك الوقت تصريح لكيسنجر أعطاه لصحيفة « اوريانا فلاشي » الايطالية وعزا فيه سرّ نجاحه في المفاوضات الى كونه قد قام بها بمفرده . فقامت الدنيا ولم تقعد في البيت الأبيض وكان وراء الضجة الكبرى كل من هالديمان والريخمان خصما كيسنجر اللدودان .

أما في باريس فقد استؤنفت المفاوضات في موعدها المحدد، غير ان نبرة المفاوض الفيتنامي الشمالي تبدلت من الايجابية الى الوعيد والارغاء والإزباد . وعاد يطالب بالاطاحة بنظام تيو مقدماً اقتراحه إقامة ثلاث دول في فيتنام كبديل من اقتراح سايغون بتأكيد انشطار البلد الى دولتين، كما اصرّ على عدم انسحاب القوات الشمالية من الجنوب . وتملّك

الذهول كيسنجر لهذا الانقلاب في الموقف، وعبثاً حاول سبر أغواره ولكن تو الذي مضى في غضبه قال إن الحدّ الزمني لتوقيع اتفاق وقف اطلاق النار قد مضى وها هو الرئيس قد انتخب مجدداً واميركا تأتينا بطائفة من الشروط والطلبات الجديدة التي لم تكن واردة اصلاً. لذلك هذا يعني استئناف الحرب. وتلاشت آمال كيسنجر العريضة في التوصل الى اتفاق. وتماثل لعينيه ما قد يحدث لو تصاعدت الحرب ، اذ قد يهيج الكونغرس الاميركي ويصدر تشريعاً بانهائها بدلاً من ان تنتهي بالمفاوضات التي يقوم بها الآن. ولم تنفع جلستا ٢٤ و٢٥ منه في تبديد الغيوم العالقة بجو المفاوضات، فاقترح كيسنجر تعليقها حتى الرابع من كانون الأول . فوافق تو معلناً عزمه على البقاء في باريس بانتظار عودة كيسنجر .

عاد كيسنجر الى واشنطن حيث قابل الرئيس ولكن هذه المرة لم يصدر عنه تلخيص الموقف الى الصحافيين بل صدر باسم الرئيس وبواسطة زيغلر الناطق الرسمي للبيت الأبيض الذي اوجز الأمر بقوله « ان الرئيس نيكسون يشعر بأن المهم هو تحقيق تسوية دائمة وليس مجرد بلوغ تسوية ذات أجل قصير . وهذا يعني انه مستعد لصرف الوقت الكافي لتحقيق مثل هذه التسوية التي تدوم » . وهكذا لم يعد السلام كما تكهّن كيسنجر من قبل « على قاب قوسين » .

كان دوك موفد تيو قد وصل الى واشنطن على أمل الاختلاء بنيكسون بينما كيسنجر لم يزل مشغولاً في مفاوضات باريس . ذلك ان تقديرات سايغون مالت الى الاعتقاد أن ثمة تناقضاً بين موقف نيكسون وكيسنجر وان فرصتها السانحة هي في استغلال هذه التناقضات . ولكن نيكسون اصرّ على اصطحاب كيسنجر معه الى لقاء دوك . وعبثاً حاول دوك ، بناء على طلب رئيسه ، أخذ موافقة نيكسون على عقد قمة مع تيو قبل توقيع الاتفاق مع هانوي . ذلك بأن نيكسون اصرّ على ان مثل هذه القمة يمكن ان تعقد بعد إبرام الاتفاق مع هانوي . وكان نيكسون جازماً بأن سايغون انما تعرّض نفسها للوقوف وحيدة اذا لم توافق على الاتفاقية . وكان قد بدأ يلوح أمام ناظري نيكسون ما أسرّ اليه به كيسنجر من تعهد المفاوض الفيتنامي الشمالي باطلاق سراح اسرى الحرب الاميركيين خلال عشرة أيام من إبرام الاتفاق . وكان يريد ان يحدث ذلك قبل عيد الميلاد فيقدم لأهالي الأسرى أغلى هدية ممكنة — عودة ابنائهم من الأسر البعيد .

وما ان عاد دوك الى سايغون حتى تصاعدت الحملة على الولايات المتحدة فظهرت في الصحف انباء عن انذار اميركي وجّه الى سايغون، وحملت صحيفة « تين سونغ » التي يصدرها « نها » على « الوسطاء » الذين يعرقلون الأمور ويعقدونها داعية الى اجراء مفاوضات مباشرة بين شطري فيتنام دون وساطة أحد .

وأحسّ كيسنجر في تلك الفترة بأنه يتلقى السهام من كل جهة. فاليسار يدينه « بالخداع » ، واليمين يتهمه « ببيعه » . وتنصبّ عليه مهاترات الفيتناميين من كل حدب وصوب. وتملكه

شعور بالضنى والارهاق . غير ان يد الرئيس امتدت اليه في الوقت الملائم بالدعم المعنوي اللازم ، اذ اعلن نيكسون أن مساعده لشؤون الأمن القومي سيبقى في منصبه في البيت الأبيض طوال ولايته الثانية . وبصدد المفاوضات في باريس قال زيغلر الناطق بلسان البيت الأبيض انها ستستأنف ويمثل فيها الولايات المتحدة كالعادة الدكتور كيسنجر الذي برهن عن كفاءة ممتازة . وحول سؤال عن عدم ثقة سايغون بكيسنجر أجاب الناطق بلسان البيت الأبيض « ان الدكتور كيسنجر لا يمثل الرئيس تمثيلاً تاماً فحسب ولكنه يتبع تعليماته » .

في الرابع من كانون الأول تمّ اللقاء مجدّداً بين توكيسنجر مصحوباً بهيغ في باريس . ولكن المفاوض الفيتنامي الشمالي بدا متشدّداً وأخذ يكرّر الموقف المتصلّب السابق . وارتأى كيسنجر في نهاية الجلسة إرجاء موعد اللقاء الثاني يومين الى السادس من كانون حيث اتصل بالرئيس نيكسون فاحاطه علماً بالأمر وطلب تعليماته. وجاء جواب الرئيس يدعو مستشاره الى المحافظة على هدوئه وان يحاول مجدداً تضييق شقّة الخلاف . وفي فيتنام استمر اندلاع الحرب بضراوة . فقد شنّت الفيتكونغ اعنف هجماتها بالصواريخ على مطار تان صون نوت كما استمر الطيران الاميركي في قصف خطوط تموين الشيوعيين .

في السادس والثامن من كانون الأول قطع المفاوضان الاميركي والفيتنامي شوطاً بعيداً نحو الاتفاق وذللت مصاعب عديدة من بينهـا مسألة الالتباس اللغوي حـول الائتلاف اذ سلّم تو بان المقصود بالمجلس الوطني للوفاق هيئة ادارية لا حكومية . كما لم يعد يلحّ على الاطاحة بنظام تيو في سايغون . وبدا انه اقترب مجدداً من موقفه في الثامن من تشرين الأول. وفي التاسع منه اجتمع المفاوضـان ليتابعا الاتفاق على البنود الرئيسية الباقية واتفقا على ان يجتمع المساعدون من الطرفين لجلاء التفاصيل في اليوم التالي .

ولكن المفاجأة حدثت في هذا اللقاء عندما قدّم نائب وزير خارجية فيتنام الشمالية نغويين كو ثاك الى سلفيان لائحة من سبعة عشر تعديلاً وصفها بانها « تعديلات لغوية ». ولكن بدا جلياً ان بعضها يتناول مواضيع جوهريّة . وزاد من توتر الجو ان سفير فيتنام الجنوبية الذي درج كيسنجر على احاطته علماً بخلاصة المفاوضـات سرّب نبأ تجدّد العقبات في وجه المفاوضات .

وعندما فاتح كيسنجر تو بموضوع السبعة عشر تعديلاً عاد توّاً الى الضرب عـلى وتر اطلاق سراح جميع السجناء السياسيين في فيتنام الجنوبيّة ، ورفض تو مجدداً التساهـل في اي موضوع طرح مؤكداً تصلبه السابق . واستمرت المفاوضات في الايام التالية وكأنهـا حوار الطرشان ، اذ كلّما سويت قضية اثيرت ، على حد قول كيسنجر ،قضية جديدة . قام الخلاف على القوة الدولية التي ستشرف على تنفيذ الاتفاق . فبينما اراد تو ان تقتصر على مئتين وخمسين مراقباً دولياً يخضعون في تنقلاتهم وتموينهم لسايغون او الفيتكونغ اراد كيسنجر ان تكون قوة مؤلفة من خمسة الاف

جندي لهـا امداداتهـا وتموينـاتهـا ومواصلاتهـا الذاتية . وكانت المواضيع محور الخلاف عديدة تدور على المناطق المجردة من السلاح ، وحق الفيتكونغ في السيادة على الارض الواقعة ضمن نفوذها ، واتفاق الفريقان الفيتناميان على من يوقّع الاتفاق ، واخيراً على بروتوكولات تنفيذ الاتفاق. وكان للفيتناميين الشماليين رأي مخالف لتقديرات كيسنجر حول مسؤولية تعثّر المفاوضات . ففي اعتقادهـم ان الاميركيين هم الذين اجّلوا عقد دورة المفاوضات الاخيرة ليعودوا عند انعقادهـا بمطالب جديدة وتعديلات عديدة . ولكن بالاضافة الى تحفظاتهم على مقترحات كيسنجر وتعديلاته كان لتصلبهم سبب آخر يعـود الى رواسب في نفوسهم خلفهـا النضال الطويل واعتقادهـم ان الفرنسيين انتزعوا بالخداع من هو شي منه النصر الكامل في ١٩٤٦ ، ثم جاء اتفاق جنيف فسلبهم بالمفاوضات النصر الناجز الذي كانوا يستحقون . وهم يخشون الان ان يكرّر نيكسون اللعبة نفسهـا معهم متذرعاً بالاسباب المحلية التي تدعوه الى تأجيل المفاوضات الى ما بعد انتخاب الرئاسة بينما هو يهيىء نفسه لينقض عليهـم بعد اعادة انتخابه فيفرض شروطه. ولقد سلّم بعض المسؤولين الاميركيين في احاديثهم الخاصة بحظ هذا المنطق من الصحة .

وهكذا غادر كيسنجر باريس تاركاً السفينة لسيليفان ومساعدين من معاونيه لمتابعة المفاوضات في التفاصيل . ومـا ان وصل الى قاعـدة اندروز في الولايات المتحدة حتّى بادره احد المراسلين بسؤال لا يخلو من الغمز قائلاً : « دكتور كيسنجر هل تعتقد ان السلام على قاب قوسين » ، فأجاب كيسنجر بابتسامة خافتة : «جملة رائعة ترى من قالهـا » .

في صبيحة اليوم التالي، في الرابع عشر منه، اجتمع كيسنجر الى الرئيس نيكسون واطلعه على سير مفاوضات باريس وطلب دعمه الكامـل . فاستمرت الاجتماعات بينهما طوال يومين خلصا منهـا الى المقررات التالية : اولاً ابرق نيكسون الى هانوي محذّراً من انه ان لم تستأنف المفاوضات الجدية خلال اثنتين وسبعين ساعة فسيستأنف القصف . ثانياً تقرر انذار تيو بأن اية معارضة منه لأتفاقية السلام ستؤدي الى اتخاذ الرئيس قراراً بقطع المساعدات عنه . ثالثاً تقرر ان يقوم كيسنجر بتلخيص الموقف لكبار المسؤولين بالادارات الحكومية. واخيراً تقرر بناءاً على طلب نيكسون ان يعقد كيسنجر في السادس عشر من كانون مؤتمراً صحافياً يعلن فيه ما طرأ على المفاوضات من تعثّر . وكانت وجهة نظر نيكسون المدعومة من هالديمان انه كما اعطى كيسنجر للرأي العام الاخبار المتفائلة في ٢٦ تشرين الاول فعليه الآن نقـل الجانب الآخر من الصورة . وهكذا عقد كيسنجر مؤتمره الصحافي واستشهد فيه لا أقل من اربعة عشرة مرة باسم الرئيس . وقد أكد في المؤتمر ان الولايات المتحدة لن تحمـل عـلى عقـد

اية اتفاقية لا تتوفر فيها الشروط الصالحة . وأكد لهانوي أن واشنطن لم تزل راغبة في الاتفاق على اساس خطوط اتفاقية ٨ تشرين العريضة . ولكنه حذر من نفاذ الوقت الذي اذا ما مضى « فلن يكون بمقدور احد نقض ما قد نقدم عليه » .

انتهت مدة انذار نيكسون الى هانوي بعد ظهر الأحد في السابع عشر من كانون الاول ، فبدأت طائرات ب – ٥٢ الجبّارة بقصف مكثف لمناطق هانوي وهايفونغ . وارتفع شعار نيكسون يومها بأنه يقصف في سبيل السلام . وهذا المنطق نفسه سبق لضابط اميركي ان قال ما يشبهه عندما وقف على انقاض بلدة في جنوبي فيتنام وقال : « كان لا بد لنا من هدمها حتى ننقذها ! » .

ورغم تحفظات كيسنجر على الطريقة التي اتبعت في القصف ، اذ ربما كان يفضل مهلةً اوسع للإنذار ، إلا انه اكد موافقته على استراتجية القصف . وعلى الجانب الآخر من الجبهة وصل هيغ الى سايغون حاملاً انذار نيكسون الى تيو الذي وجد نفسه أضعف من ان يعصى ارادة الرئيس الاميركي لاسيما بعد استئناف قصف هانوي. وكما قال احد مساعدي كيسنجر فان تيو كان واقعياً ادرك انه لا يستطيع المضي في معارضة واشنطن الى النهاية . وهو على اي حال لم يكن يرغب في ان يلقى مصير دييم . وهكذا وجه كتاباً الى نيكسون يعلن فيه قبوله ، اولاً ، ببقاء قوات فيتنام الشمالية في الجنوب ، ثانياً بالتنازل عن بعض السيادة لجبهة التحرير ، ثالثاً بقبوله تطمينات كيسنجر بصدد المصالحة الوطنية ، وكذلك ، بصدد امكان تناقص المدد الروسي والصيني الى فيتنام الشمالية .

استمر قصف مدن فيتنام الشمالية اثني عشر يوماً متواصلاً . وبقدر ما كانت خسائر الفيتناميين كثيرة فإن خسائر الطيران الاميركي لم تكن بقليلة . إذ اعترفت الولايات المتحدة عند نهاية مدة القصف انها فقدت خمس عشرة قاذفة عملاقة من طراز ب – ٥٢ ، وأحدى عشرة طائرة مقاتلة. كما فقدت ثلاثة وتسعين طياراً . واعلنت هانوي ان خسائر اميركا هي اضعاف ما زعمت الارقام الاميركية الرسمية .

اما داخل اميركا والعالم الغربي عامة فقد ارتفع الاستنكار وتصاعدت حملة الاحتجاج على استئناف القصف . وكان صوت اولاف بالم رئيس وزراء السويد اعلى الاصوات المرتفعة استنكاراً . ووصف السناتور مانسفيلد زعيم الديمقراطيين في الكونغرس القصف بأنه « استراتجية العصر الحجري » . ذلك انه رغم اصرار واشنطن على انها تستهدف منه الاهداف العسكرية الاّ ان هذه الأهداف كانت متداخلة في الاحياء السكنية الشعبيّة بحيث سبّب القصف خسائر كبرى في الارواح والممتلكات .

وفي البيت الابيض استمرت لعبة خصوم كيسنجر لاحراجه فاخراجه. ويقول كيسنجر عن هذه المرحلة انها كانت غير اعتيادية . ويضيف لمعلق صحافي لاحقاً :

« كاد هالديمان يفوز عليّ » ، ولكن نيكسون لم يتخلّ عن كيسنجر . وقد اصبح ذلك في منتهى الصعوبة لاسيما في الظرف الخطير الذي كانت تمر به حرب فيتنام . ذلك بأن اراء الرجلين وسياسة كل منهما قد تداخلتا الى حد بات الفصل بينهما من اعسر الامور . ولو انه تخلى عن كيسنجر في ذلك الظرف لباتت مسؤوليته عن الحرب مكشوفة.

لم يرَ نيكسون داعياً لتفسير القصف او تعليله امام الشعب الاميركي ، اذ كان يردّد دوماً ان النتائج وحدها تعليل كاف . وفي الثلاثين من كانون الاول اعلن ناطق بلسان البيت الابيض وقف القصف الجوي لفيتنام بامر من الرئيس نظراً لتوافر امكانات استئناف المفاوضات الجديّة . وكان ممّا عجّل في اتخاذ نيكسون لقراره هذا قرب التئام الكونغرس في الثالث من كانون الثاني وهو يميل باكثرية الى قطع اعتمادات الحرب .

عاد تو الى باريس في السادس من كانون الثاني ووصلها كيسنجر في اليوم التالي . وفي الثامن منه انعقدت الدورة الاولى من المفاوضات في جو من البرودة بلغت حدها الاقصى حتى ان احداً لم يستقبل كيسنجر عند مجيئه الى مقر تو ولا احد شيّعه عند مغادرته المكان . غير ان المفاوضات عقدت في اليوم التالي طوال ثلاثة ايام متواصلة وظهر في نهايتها انها قطعت شوطاً كبيراً من التقدم فتّم الاتفاق على معظم النقاط الرئيسية ولم يبق سوى التفاصيل التي كان بامكان المساعدين اتمامها . ودعا كيسنجر على الاثر مصور السفارة لالتقاط صور المفاوضين وهم على المائدة وقد انجزوا وضع مسودة الاتفاق. وتقرر رفع نسخة منه الى نيكسون وارسال نسخة مع هيغ الى تيو لأخذ موافقته . أما تو فقد أعلن لكيسنجر انه باقٍ في باريس بانتظار الاجوبة النهائيّة .

وبدا كيسنجر عند توجهه الى مطار اورلي متحفظاً امام الصحافيين اذ اكتفى بالقول ان تقدماً قد حدث . « لقد انهيت مع المستشار الخاص له دوك تو مفاوضات مفيدة وعلي الان رفع الأمر الى الرئيس حتى يقرّر هو الخطوات التالية » . . هكذا لخص كيسنجر الموقف . وفي باريس أعلنت بعثة فيتنام الشمالية أول مرّة ان المفاوضات قد حققت تقدّماً .

وسارت الامور على النحو التالي : في ١٥ كانون الثاني أعلن نيكسون وقف العمليات العسكرية الاميركية الهجومية ضد فيتنام الشمالية.وفي١٧ منه قبل تيو،على مضض، اتفاقية باريس مبدياً بعض التحفظات حول البروتوكولات . وفي الثامن عشر أعلن ان الجانبين سيستأنفان البحث في الثالث والعشرين منه توصلاً لانجاز نص الاتفاقية في صيغتها الاخيرة . وفي العشرين منه تسلم نيكسون مسؤوليات ولايته الثانية فاعلن ان الحرب توشك ان تنتهي . وفي الثاني والعشرين منه عاد كيسنجر الى باريس .

وفي الثالث والعشرين نجح كيسنجر وتو ، بعد جلسة استغرقت نحو اربع ساعات ، في تسوية ما تبقى من تفاصيل عالقــة ، وتوصلا الى توقيع اتفاق « انهــاء الحرب بالاحرف الأولى واعادة السلام الى فيتنام » .

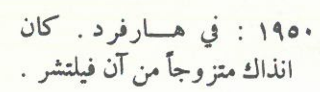
في تلك الليلة ظهر نيكسون على التلفزيون ليعلن الخبر عــلى الملأ قائلاً ان السلام مع الكرامة قد تحقق . وفي الرابع والعشرين منه لخص كيسنجر الاتفاق للصحافيين . بحسب رأيه ان كل الاطراف قد حصلت على بعض اهدافهــا ولكن طرفاً واحداً لم يحصل على اهدافه كلّهــا . وتلك كانت معادلة كيسنجر في سياسة السلام على اساس توازن القوى . ففي الاتفاق الاخير ، ظفر نيكسون بعودة الاسرى الاميركيين ، وهانوي بانسحاب الاميركيين من فيتنام ، وتيو احتفظ بنظامه ، وجبهة التحرير حصلت على بعض المشروعية السياسية في جنوبي فيتنام .

اما حول ما انجزت الغارات الجويّة بين تشرين وكانون الثاني فكيسنجر يرى انهــا حققت اموراً عديدة منهــا ، تأكيد هوية فيتنام الجنوبية بتثبيت المنطقة المجرّدة من السلاح بين شطري البلد، ومنهــا ازالة اي التباس حول مهــام المجلس الوطني للمصالحة ، ومنهــا تعزيز قوة السلام الدولية . ولكن بعض الموظفين الرسميين يرى غير هذا الرأي ويعتقد أن كل ما فعلت الغارات هو اعادتهــا الوضع في كانون الثاني الى ما كان عليه في تشرين الاول ، إلاان معظم المراقبين الرسميين لا يرون الغارات من خلال نتائجهــا المادية بل يقيمونها من خلال ما استهدفت تحقيقه على الصعيد النفسي فكانت بمثابة انذار لموسكو وبكين وهانوي بان نيكسون قادر على التصرف بقوة عندما يرى مصالحه مهددة . ويمكن القول إن الاشهر الاخيرة من المفاوضات، اي ما بعد اتفاق تشرين الاول، انما سير دفتهــا نيكسون نفسه الذي لم يكن يريد التخلي عن تيو في الجنوب ولا الظهور بمظهر من تلقف دون تحفظ مشروع هانوي للسلام . اما كيسنجر فلم يكن يراهن على نظام سايغون وجدارته في البقاء . واقصى ما كــان يريد تحقيقه في هذا الصدد ان يحفظ فترة زمنية فاصلة بين الانسحاب الاميركي وتوقعات سيطرة الشيوعيين على الجنوب. ولم يكن يعطي اكثر من ثلاث او اربع سنوات لحلّ هذه الامكانات .

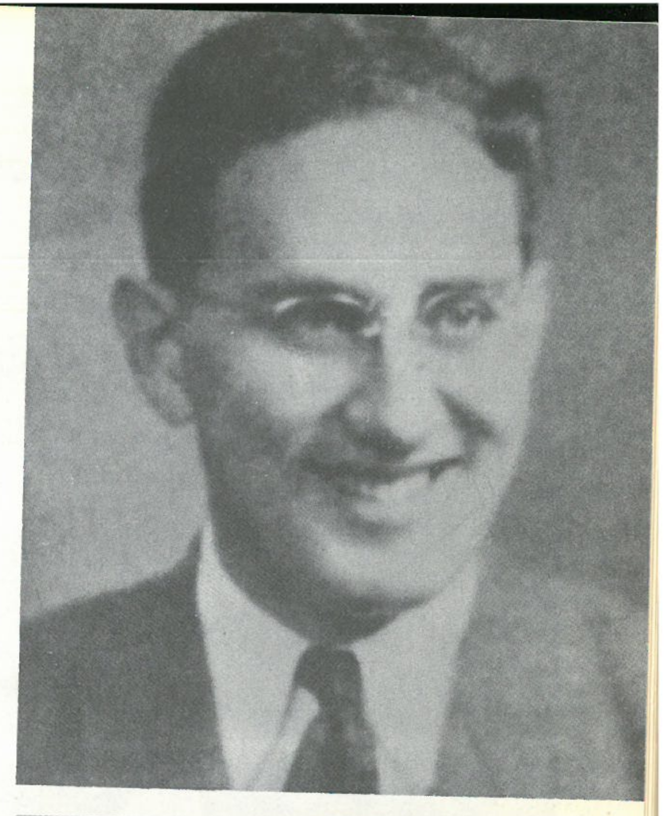
في السابع والعشرين من كانون وقــع روجرز الاتفاقية في باريس باسم الولايات المتحدة . وارادت مراسلة اليونايتدبرس هيلن توماس ان تعرف ماذا كان يفعل كيسنجر في تلك اللحظة فجاء جوابه انه في هذه المرة كان « يصنع الحب لا الحرب » .

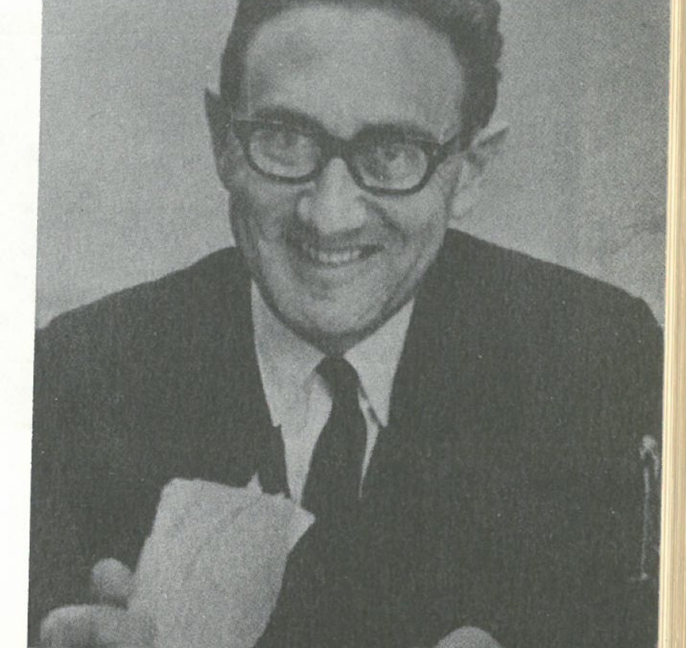


١٩٣٤ : هنري كيسنجر وعمره ١١ سنة الى جانب شقيقه وولتر (١٠ سنوات). اخذت الصورة في المانيا قبل ان تهاجر العائلة الى الولايات المتحدة .



١٩٥٠ : في هـــارفرد . كان
انذاك متزوجاً من آن فيلتشر .

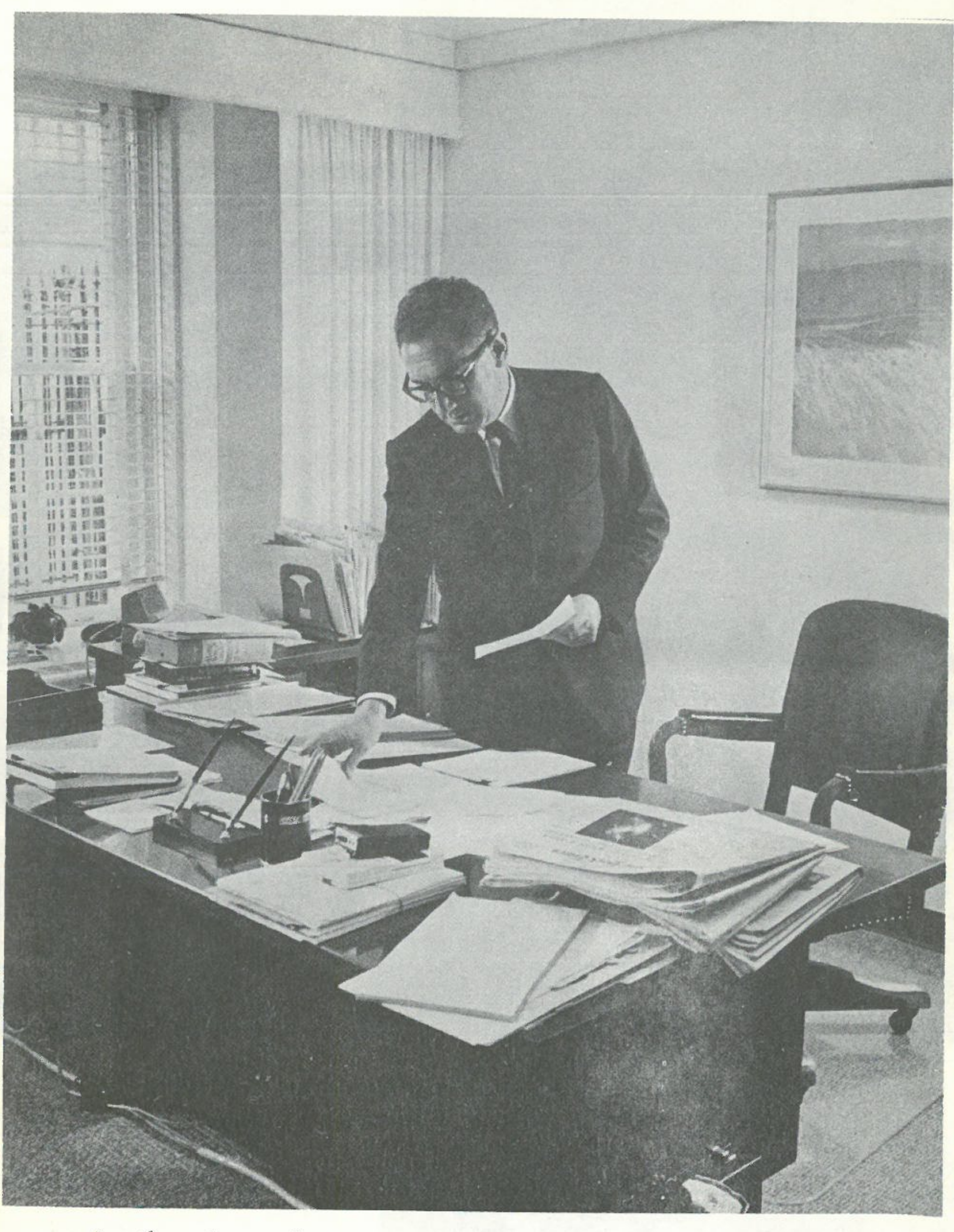




اذار (مارس) ١٩٦٧ : كيسنجر
في جامعة هارفرد . وكان قد نال
منها شهادة استـــاذ سنة ١٩٥٢
وشهادة الدكتوراه سنة ١٩٥٤.



٢٣ شباط (فبراير) ١٩٦٩ : على متن طائرة « سلاح الجو رقم ١ » يرافق الرئيس
نيكسون في زيارته الى اوروبا . الى جانبه رونالد زيغلر الناطق الصحافي باسم البيت
الابيض انذاك .



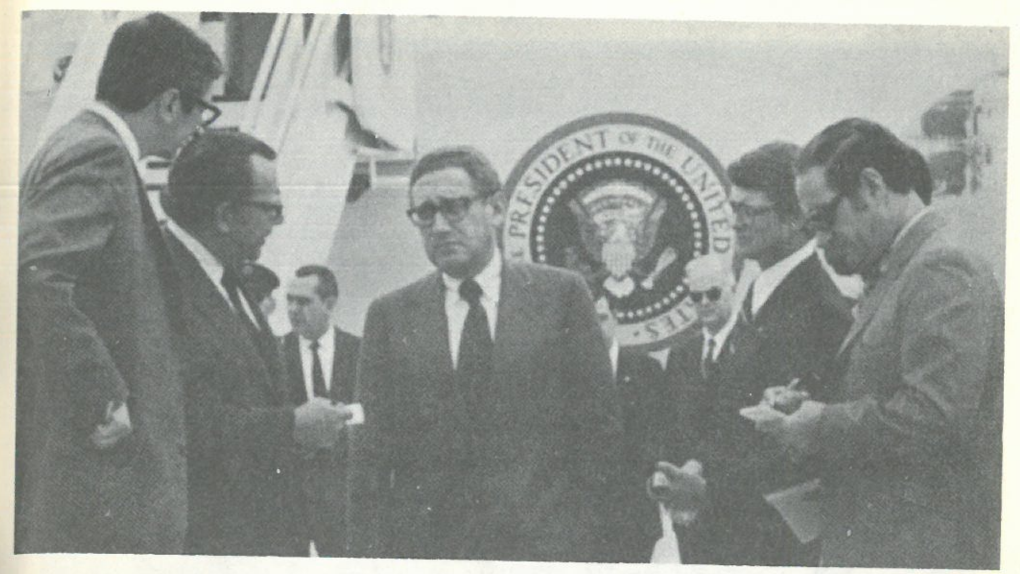
٢٣ ايار (مايو) ١٩٦٩ : يومه الاول كمستشار للرئيس نيكسون . كان مكتبه في اسفل الجناح الغربي من البيت الابيض . وقد انتقل بعد فترة وجيزة الى مكتب افضل في الطابق الارضي .



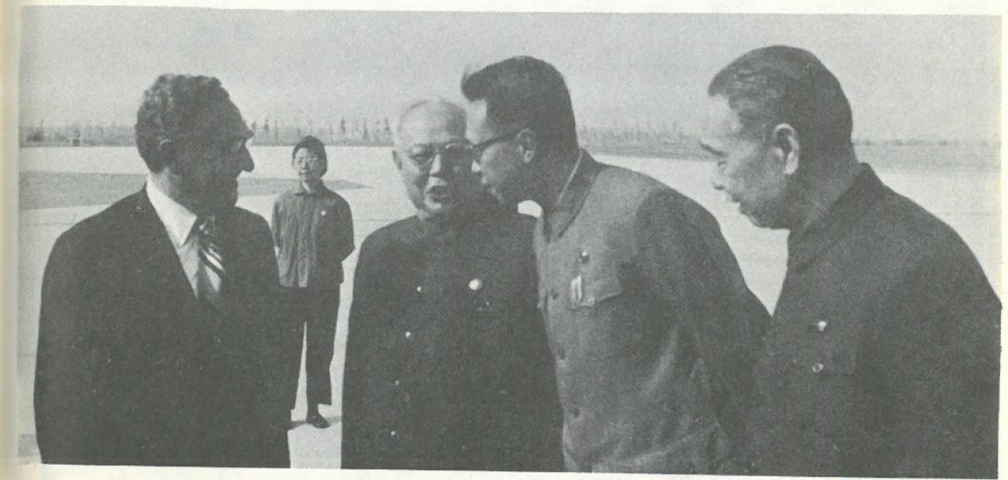
٢٥ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٠ : مع نيكسون واندريه غروميكو وزير خارجية الاتحاد السوفياتي ، واناتولي دوبرنين السفير السوفياتي في واشنطن ، ووليم روجرز وزير الخارجية الاميركية خلال اجتماع في البيت الابيض لبحث العلاقات السوفياتية ـ الاميركية .

١٠ شباط (فبراير) ١٩٧١ : مع نيكسون في البيت الابيض

٢٩ ايار (مايو) ١٩٧٢ : يتمشى مع نيكسون في الكرملين .



١٦ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧١ : يتحدث الى الصحافيين في مطار اندروز بماريلند ، الولايات المتحدة ، قبل ان تقلع طائرته في رحلته الثانية الى بكين حيث قام بتحضير زيارة الرئيس نيكسون للصين .



٢٠ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧١ : لدى وصوله الى بكين وقد استقبله على المطار وزير الدفاع الصيني يه شين–ينغ ، وتشي شاو شو احد موظفي وزارة الخارجية الصينية (الذي سبق ان درس في جامعة هارفرد) ، ووزير الخارجية تشي ينغ–في.



٢١ شباط (فبراير) ١٩٧٢ : يحضر اجتماع القمة بين ماوتسي تونغ ونيكسون . معهم شو آن لاي رئيس وزراء الصين .



٢٦ شباط (فبراير) ١٩٧٢ : نخب العلاقات الجديدة بين واشنطن وبكين خلال الحفلة التي اقيمت على شرف الوفدان الاميركي في قاعة الشعب الكبرى في بكين .



٢٢ ايلول (سبتمبر) ١٩٧٣ : دقائق بعد حفلة اداء اليمين بمناسبة تسلمه
وزارة الخارجية الاميركية . معه والده ووالدته وابنته اليزابيت وابنه دايفد .

تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٢ مع له ديك تو في جيف — سير — ايفت (فرنسا)
حيث جرت معظم المفاوضات الاميركية الفيتنامية لانهاء الحرب في فيتنام .



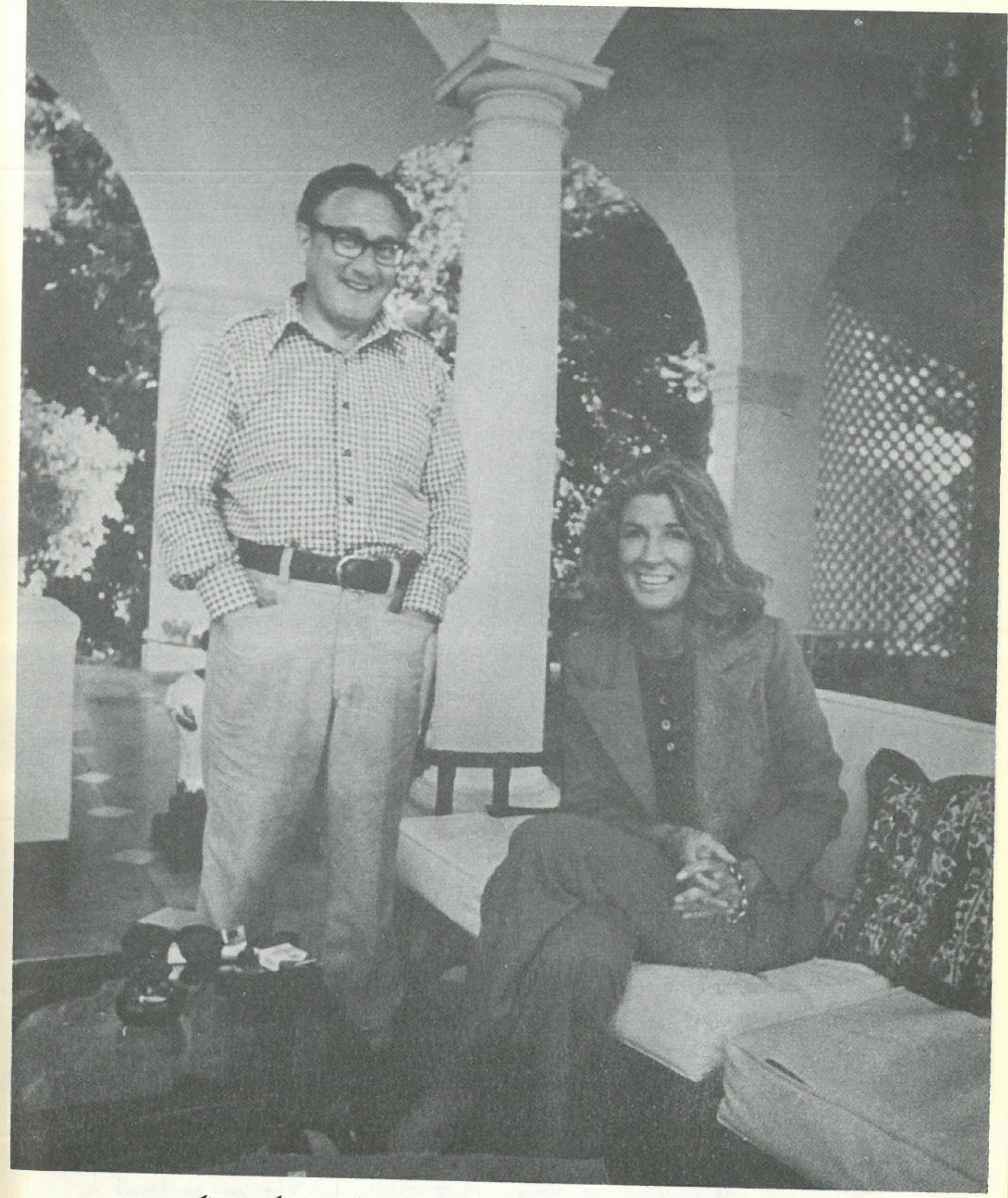
١٢ حزيران (يونيو) ١٩٧٣ : مع الزعيم السوفياتي ليونيد بريجنيف ونيكسون والممثلة جيل سان جون في البيت الابيض الغربي (سان كليمنت ، كاليفورنيا) .



٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٣ : زيارة للعاهل السعودي الملك فيصل .

٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٣ : امام ابو الهول في مصر .

١٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٤ : يعانق الرئيس المصري انور السادات بعد ان وقعت مصر واسرائيل اتفاق فصل القوات في سيناء . وكان هذا الاتفاق اول أنتصار دبلوماسي لكيسنجر في الشرق الاوسط .



٤ نيسان (ابريل) ١٩٧٤ : مع زوجته الجديدة نانسي في اكابولكو ، المكسيك ، حيث امضيا شهر العسل .

١٥ – تأثيرات ووترغيت

كان هنري كيسنجر يعقد الآمال العريضة على انهـاء تورط اميركا في اطول حرب خارج حدودها معتبراً ان الفترة التالية ستتيح للدبلوماسيّة الخلاّقة المتحرّرة من كابوس فيتنام الرهيب اشادة صرح السلام .

وتراءى له ان معالم السياسة الجديدة يمكن ان تكون كالتالي : (١) بالنسبة الى الاتحاد السوفياتي تعزيز الوفاق والتوصل الى اتفاق ثان للحد مـن الاسلحة الاستراتيجية يستهدف خفض المخزون النووي الهجومي لدى كل من الدولتين العظميين . (٢) بالنسبة الى الصين توسع في العلاقات تفيد منه اميركا كقوة رافعة لنفوذها مع الاتحاد السوفياتي . (٣) بالنسبة الى اوروبا تعزيز الحلف الاطلسي . (٤) بالنسبة الى اليابان اعادة الثقة المتبادلة السابقة لهزّات خفض الدولار والانفتاح الاميركي على الصين . (٥) بالنسبة الى الشرق الأوسط تخفيف العداء العربي الاسرائيلي رغم انه في مطلع ١٩٧٣ لم يكن يجد الحالة متوتّرة وخطيرة . (٦) بالنسبة الى اميركا اللاتينية الشروع بسياسـة جديدة إزاء جارة طال اهمالها .

ووجد كيسنجر ان الانطلاق الى هذه الآفاق يستدعي قبل كل شيء تضميـد جراح الانقسام السابق في الرأي العام الاميركي وتحقيق فترة من المصالحة الداخلية بعد عقد من المغامرات الخارجيّة ، والانتفاضات الداخليّة والاغتيالات السياسيّة .

واعتقد كيسنجر ان المصالحة بالنسبة اليه تبدأ بتطوير علاقته بالبيروقراطية فيقلع عن نهج الرجل المفرد الذي اتبعه في المرحلة السابقة الى اعتماد نهج المؤسسة وفريق العمل . وفي الواقع كان الحافز على هذا التبديل في النهج ان كيسنجر اساساً لم يكن ينوي البقاء في منصبه الرسمي أكثر من أربع سنوات ، وعندما قامت في وجهه حملة بعض مستشاري البيت الأبيض بعد تعثّر مخططه لانجاز السلام في تشرين الثاني وكانون الأول ١٩٧٢ فكّر في الاستقالة ولكنه عزف عنها لأنه اعتبر ذلك احراجاً للرئاسة ، وآثر ان يستقيل بعد بضعة أشهر عندما تهدأ الحملة فيغادر البيت الأبيض طوعاً وقد اطمأن الى ان السياسـات التي شرع بتنفيذها قد استقرت في ايد أمينة ترعاها الى آخر الشوط . من هنا كان تفكيره

في تطوير اسلوبه من اسلوب الرجل الفرد الى أسلوب الجماعة ـ المؤسسة ، والى توفير الدعم من الحزبين لسياساته .

غير ان كل خطط كيسنجر هذه اعترضها حادث طارىء لم يكن في الحسبان هو ووترغيت . وانصرف جهد كيسنجر بعد انكشاف اضخم فضيحة سياسية في القرن العشرين الى تطويق بناء السلام الذي شيده من التصدّع تحت وطأة تصاعد الفضيحة وذيولها السلبيّة على علاقات الثقة المتبادلة بالدول الأخرى .

قبل ووترغيت كان عام ١٩٧٣ هو « عام اوروبا » بالنسبة الى تخطيطات الدبلوماسية الأميركية . وكان كيسنجر قد أولى التباعد المتزايد بين اوروبا واميركا بالغ اهتمامه ، وسبق أن انتقد الحكومات الاميركية في عهدي جونسون وكيندي وحمّلها مسؤولية نفور اوروبا بالتعامل الفوقي معها . وسنرى كيف أن كيسنجر عندما أصبح في موقع السلطة أخذ يتصرّف تصرفاً مشابهاً . على اي حال كان كيسنجر عازماً على حقن الحلف الأطلسي بدم جديد ، والخروج من حالة يلوم فيها الاوروبيون الاميركيين على شغلهم بحرب فيتنام عن علاقتهم الاساسية باوروبا ويلوم فيها الاميركيون الاوروبيين على تقديم مصالحهم القومية الذاتية على التحالف الاطلسي العريض .

كل هذا دعا كيسنجر الى تصور العلاج في « ميثاق اطلسي جديد » حاول رسم معالمه في خطبته التي القاها في ٢٣ نيسان في فندق ولدورف استوريا في نيويورك بدعوة من وكالة الاسوشيتد برس . قال كيسنجر بأن الولايات المتحدة تقترح على شركائها الاطلسيين عند سفر الرئيس الى اوروبا في نهاية السنة تدارس مشروع ميثاق اطلسي جديد يحدد أهداف المستقبل . وان هذا الميثاق الجديد سيشاد على الماضي دون ان يصبح اسيره ، كما سيتعامل مع مشاكل الحاضر والنجاحات التي تحققت . وختم مؤتمره قائلاً : « اننا نتوجه الى اصدقائنا في اوروبا وكندا وأخيراً في اليابان ليشاركوا في هذا الجهد . وهذا ما نعنيه بعام اوروبا » . وقد استقبل كيسنجر في مؤتمره الصحافي عند البدء وفي الختام بعاصفة من التصفيق ووقف الحضور له احتراماً وقد أخذوا يقارنون بين دعوته هذه وبين مشروع مارشال بعد الحرب العالمية الثانية. إلا أن المراسلين الصحافيين عندما اتيح لهم مجال الاسئلة أخذوا يطرحون أسئلتهم خارج موضوع اوروبا فانصب بعضها على فضيحة ووترغيت . وأجاب كيسنجر عن هذا الموضوع الذي اعتبره جانبياً بدعوته الى الرحمة إزاء الذين سقطوا في هذه الفضيحة مشدداً على وجوب الحفاظ على الايمان بالبلد وإبقاء شعلة الأمل في المستقبل متوهّجة .

وكانت المفاجأة في اليوم التالي عندما مالت اكثر الصحف الى ابراز جوابه عن ووترغيت.اعطتها عناوين رئيسية واعارت الموضوع الرئيسي لمؤتمره الصحافي عن اوروبا اهمية ثانوية . وثارت حملة في وجهه لدعوته معاملة الذين ارتكبوا فضيحة ووترغيت

بالرحمة والشفقة. اما بالنسبة الى الأوروبيين فقد ساءهم ما دعا اليه كيسنجر من ميثاق اطلسي جديد اعتبروه نمطاً من الهيمنة الاميركية الجديدة . وكان كيسنجر عبر طرحه الميثاق الجديد ينوي ربط الشؤون الاقتصادية بالشؤون العسكرية بحيث يكون الأمر لمصلحة اميركا فتساوم الاوروبيين للحصول على امتيازات اقتصادية لقاء احتفاظها بقواتها في القارة الأوروبية . وقد رفض الاوروبيون الارتباط بأي التزامات جديدة من هذا النوع بالولايات المتحدة ، فقد كانوا يرغبون في بقاء المظلة النووية الاميركية فوق قارتهم ولكنهم رفضوا دعم اقتصاد اميركا في مرحلة تراجعه . وهكذا انتصر في الأخير رأي الاوروبيين في الفصل بين الشيئين الاقتصادي والعسكري كما ان فضيحة ووترغيت والاهتمامات الداخلية التي نتجت عنها وشغلت الحكومة الاميركية ، والانعكاسات الخارجية، أدت كلها الى طيّ عام اوروبا. وكما قال كيسنجر فان مشروع عام اوروبا كان احد ضحايا ووترغيت . وكان لووترغيت تأثير في العلاقات الاميركية الخارجية اهمها في :

١ ـ فيتنام

كان كيسنجر قد طار في شباط ١٩٧٣ الى هانوي في اول زيارة يقوم بها الى عاصمة الشمال حيث افهم الجانب الفيتنامي أنه يصعب التعهد بالشروع في تنفيذ الالتزامات لإعادة تعمير البلاد ما لم تلتزم هانوي بدقة باتفاقية وقف اطلاق النار . ولكن تقارير المخابرات الاميركية بعد عودته الى واشنطن كانت تؤكد دوماً ان عملية انتهاك وقف اطلاق النار مستمرة في فيتنام . حاول كيسنجر ان يجس النبض في الكونغرس فوجد ان الجو غير ملائم لدعم سياسة الحكومة في شقيها سواء اعادة تعمير فيتنام الشمالية في حال التزامها بوقف اطلاق النار او اعادة قصفها في حال خرقها الاتفاق، ذلك ان جوّ الكونغرس مال الى قطع كل صلة لاميركا بالحرب الدائرة في فيتنام اياً كانت النتائج .

عندها قرر كيسنجر ان يتولى الأمر بنفسه فيطير الى باريس محاولاً التوصل الى تفاهم جديد مع ممثلي فيتنام الشمالية حول هذه المواضيع .ولكن صحيفة « فرانس سوار» طلعت عشية وصوله الى العاصمة الفرنسية في ١٧ أيار بالعناوين التالية : «شبح ووترغيت يخيم على محادثات كيسنجر ـ له دوك تو » . وبالفعل خيّم جو تلك الفضيحة على المفاوضات . أول مرة يقول تو لكيسنجر بلهجة لا تخلو من التهكم « تقولون إننا نرسل المعدات الحربية بصورة غير مشروعة الى جنوبي فيتنام . فهب ان هذا صحيح . اليس من نمط الخداع نفسه ما تورطم فيه انتم في ووترغيت ؟» . وهكذا خابت مساعي

كيسنجر في المفاوضات وعاد الى واشنطن يحاول عبثاً حمل الكونغرس على اعادة القصف ولكن الكونغرس اقترع في ٣٠ حزيران بأكثرية ساحقة على قطع الاعتمادات عن كل نشاط عسكري اميركي في الهند الصينية على ان يصبح هذا القرار نافذاً ابتداء من ١٥ آب .

وتصاعد الهجوم الشيوعي في فيتنام وكمبوديا في كانون الأول ١٩٧٣ . وكانت جائزة نوبل للسلام قد منحت في تلك الفترة لكيسنجر في اوسلو فتبرع بالستين الف دولار لتعليم أبناء الجنود الاميركيين الذين سقطوا في الهند الصينية.وتلقى الجائزة بالنيابة عنه سفير اميركا في عاصمة النروج ، وسط تظاهرات معادية للولايات المتحدة . اما شريكه في الجائزة فقد رفض تلقيها ما لم تهدأ المدافع وتنتهي الحرب في الجنوب .

٢ — الصين

زار كيسنجر الصين مرتين في ١٩٧٣، الاولى في شباط والثانية في تشرين الثاني . في المرة الاولى تلقى مفاجأة سارة عندما بادره شو إن لاي في اليوم الثالث من زيارته برغبة الرئيس ماوتسي تونغ في الاجتماع به. كان ذلك امراً غير اعتيادي نظراً الى أن مولا يستقبل عادة الا رؤساء الدول والحكومات . وظهر جلياً من بادرة الدعوة الى الاستقبال الودي الذي خصّه به مو الى ان الصين راغبة في تطوير علاقتها ايجابياً بواشنطن . وتم في هذا اللقاء التوصل الى اتفاق يقضي بفتح مكتبي ارتباط لكل من البلدين في عاصمة الآخر . وهذه مرتبة من التمثيل الدبلوماسي تقارب قيام التبادل على مستوى السفارات .

اما في الزيارة الثانية التي تمت في الشهر التالي لحرب تشرين في الشرق الأوسط فالجو لم يكن على درجة من الارتياح مساوية للقاء شباط . ذلك بان الصينيين وقد تفاقم امر فضيحة ووترغيت كانوا يخشون من مضاعفاتها على علاقتهم الجديدة بالولايات المتحدة . وهكذا بعد ان عاد كيسنجر الى واشنطن من رحلته الاولى الى بكين ومعنوياته في الأوج عاد في المرة الثانية شديد الارتباك رغم محاولته طمئنة الصينيين الى استمرار السياسة الاميركية اياً كان حكّام البيت الأبيض .

٣ — قمة بريجنيف

زيارة بريجنيف الى اميركا تمت في حزيران ١٩٧٣، اي في موعد وسط بين زيارتي كيسنجر الى بكين . وبينما كانت ووترغيت بالنسبة الى الصينيين همّاً بعيداً الاّ انها بالنسبة للسوفيات كانت أكثر قرباً لا سيما وان زعيمهم قد سافر الى قلب البلد الذي يضجّ بالفضيحة الشهيرة . وكان نيكسون قد دعا بريجنيف في أيار ١٩٧٢ عند لقائه في

قمة موسكو الى زيارة واشنطن .

سافر كيسنجر الى موسكو للتهيئة للقمة الجديدة كما سافر من قبل للتهيئة لقمة موسكو في ١٩٧٢ . عند وصوله الى العاصمة السوفياتية دعاه بريجنيف الى اصطحابه الى منتجع سافيدوفو حيث رافقه في صيد الخنزير البرّي دون ان يشترك معه في الصيد لأن كيسنجر قال انه لا يقتل حيواناً . في سافيدوفو تم التوصل الى التفاهم على عدد من الاتفاقات الثنائية بين البلدين ليجري توقيعها في قمة واشنطن ، من بينها تبادل المعلومات الزراعية ، وزيادة التعاون في تطوير الاستخدام السلمي للطاقة النووية ، واستمرار التبادل الثقافي ست سنوات أخرى ، وانشاء غرفة تجارة سوفياتية اميركية مشتركة، وتبادل رحلات الخطوط الجويّة للبلدين .

تمّ لقاء القمة في واشنطن ولكن أخبار ووترغيت كانت هي المسيطرة على الجو العام في اميركا . كل ما حدث هو ايقاف جلسات لجنة التحقيق ابّان زيارة الزعيم السوفياتي حتى لا يزداد حرج الرئيس الاميركي . وكان أبرز لقاءات بريجنيف خارج نطاق اجتماعات القمة لقاءه مع كبار رجال الأعمال والمصارف الاميركيين حول توسيع العلاقات الاقتصادية بين البلدين . وقد طالب بريجنيف ان لا يقيموا من مسألة اليهود السوفيات عائقاً في وجه هذه العلاقات .

وقال كيسنجر بعد انتهاء القمة وشعوره بهيمنة جو ووترغيت على البلد لو أن لقاء القمة تمّ قبل الفضيحة لكان وجد فيها الكثيرون بداية عهد جديد . ولكن عندما تمت بعد شهادة جون دين في ووترغيت اعتبرها الكثيرون محاولة من الحكومة لاستخدام السياسة الخارجية معبراً للهرب من المتاعب المحليّة . وبعد مغادرة بريجنيف هبّت عاصفة الانتقادات في « الكابيتول هيل » حول التورط بعلاقات مع السوفيات قبل التثبت من اتاحتهم الهجرة لليهود من الاتحاد السوفياتي . وطالب المنتقدون بوقف القروض الاميركية على هذا الشرط ، بل بالاطاحة بالوفاق. واعتبر كيسنجر ان ووترغيت قد اسهمت في هذا الجوّ السلبي .

٤ — وزيراً للخارجية

أخيراً في ٢١ آب ١٩٧٣ أهلّ ضوء جديد على كيسنجر . فبعد كل هذه المتاعب استدعاه نيكسون الى جولة سباحة في بركة بيته في سان كليمنت وهناك أعلمه ان روجرز قرر الاستقالة وسيعينه خلفاً له . وعقد نيكسون في ٢٢ آب مؤتمراً صحافياً أعلن فيه النبأ للصحافيين . وفي اليوم التالي اجتمع كيسنجر بالمراسلين الصحافيين بدوره وأوضح لهم بأن نهجه في الوزارة سيختلف عن نهجه السابق في الدبلوماسية السريّة التي اضطر

الى اعتمادها تحقيقاً لخطوات جذريّة في السياسة الخارجيّة أنجزت الوفاق الدولي .
وتوالت عليه الاسئلة وكان أبرزها حول مدى تأثر الوزير الجديد بخلفياته الدينية والعائلية في معالجة أزمة الشرق الأوسط . فأجاب كيسنجر بأنه سيكون اميناً لمصالح البلد الذي أولاه هذا المنصب الرفيع رغم خلفيّاته السابقة .

لم تمرّ تسمية كيسنجر لمنصب وزير الخارجية دون استجوابات طويلة في الكونغرس لا سيما بعد ان امتدت اليه أصابع الشكوك حول تورطه في مراقبة مخابرات بعض موظفي مجلس الأمن القومي الهاتفيّة . ولكن كيسنجر اوضح أنّ جلّ ما فعله هو إعطاء الأسماء لدوائر الأمن بناء لطلبها وقد اعتبر ذلك تصرفاً مشروعاً . وفي ١٨ أيلول تحققت لجنة تحقيق خاصة من الكونغرس ، من براءة كيسنجر من مضاعفات ووترغيت بعد اجتماعها بالنائب العام ريتشاردسون ، فاقترعت بأكثرية ١٦ صوتاً ضد صوت واحد الى جانب تثبيت التسمية . وكان الصوت الوحيد المعارض هو صوت ماك كفورن، مرشح الرئاسة الديمقراطي السابق . وفي ٢١ منه ثبت مجلس الشيوخ تعيين هنري كيسنجر وزيراً للخارجية .

١٦ – الوزير يخوض غمار الحرب

« عملية بدر » هو الاسم الذي اطلق على الهجوم المصري السوري على اسرائيل. بدأت الحرب في الثانية بعد ظهر السبت الواقع في ٦ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣، وذلك بعد انقضاء اسبوعين على تسلم هنري كيسنجر وزارة الخارجية الاميركية . وكان يوم السادس من تشرين الأول ، يوماً غير عادي. فهو بالنسبة الى المسلمين كان يوم الذكرى الثلاثمئة والاثنتين والتسعين بعد الألف لموقعة بدر الشهيرة التي فتحت الطريق امام النبي لدخول مكّة . وبالنسبة الى اليهود كان يوم عيد الغفران « يوم كيبور » وهو اقدس عيد عندهم . وبالنسبة الى هنري كيسنجر كان هذا اليوم خاتمة اسبوعه الثاني كوزير للخارجية الاميركية ، وبداية معموديته بالنار عشرين يوماً : ففيه بدأت الحرب العربية – الاسرائيلية الرابعة . ولقد طرح اندلاع هذه الحرب تحدياً شخصياً ودبلوماسياً لكسنجر : ايستطيع وهو اليهودي المتبوىء مركز وزير خارجية اميركا ان يتصرف بفعالية في هذه الازمة الناشبة ؟ ثم ايكون بوسعه انقاذ سياسة الوفاق مع روسيا وهي البلد الوحيد في العالم الذي في مقدوره تزويد مصر وسوريا بمعدات الهجوم ؟

اخذ اندلاع الحرب كيسنجر على حين غرة . ذلك بأنه حتى صباح السبت كان يتصرّف على اساس ان الحالة في الشرق الاوسط، رغم خطورتها الدائمة ، قابلة للترويض والتدبير . ورغم بوادر الحرب العديدة التي ظهرت طوال اشهر الاّ ان معظم المسؤولين الاميركين ، ومن بينهم كيسنجر ، فاتهم قراءة البيّنات واستطلاع حقائقها .

فبعد اسبوع من انتصار نيكسون الانتخابي الساحق في دورة الرئاسة الثانية في اواسط تشرين الثاني ١٩٧٢ ، وبعد انقضاء اربعة اشهر على طرد الرئيس المصري انور السادات لمعظم المستشارين العسكريين الروس من مصر، تلقى السادات من ليونيد بريجنيف رسالة يرفض بموجبها طلبه في الحصول على اسلحة متطورة وهي التي يحتاجها السادات للشروع في الحرب . وقال بريجنيف في رسالته ان الشعب الروسي

« يرغب في دعم سياسة الوفاق » ولذلك اشار على السادات قبول الوضع الراهن في المنطقة . وكـان ما يرمي اليه بريجنيف واضحـاً : الحرب في الشرق الاوسط قد يدمّر الوفاق السوفياتي الاميركي .

ورفض السادات مشورة بريجنيف . فقد كـان يعتقد ان الحرب هي الوسيلة الوحيدة لتحسين الموقف العربي . فعن طريق توريط الدولتين العظميين يستطيع حمل الولايات المتحدة على انتهاج سياسة جديدة ازاء اسرائيل . وفي ١٤ تشرين الثاني أعلم السادات المجلس الاعلى للاتحاد العربي الاشتراكي ان مصر ستشن حرباً على اسرائيل ربما خلال ستة اشهر ، وبالتأكيد خلال سنة .

خلال الاشهر التالية بعد ان تجمع لدى بريجنيف مزيد من المعلومات عـن التزام السادات بالقرار الذي اتخذه في ١٤ تشرين الثاني ، انتقل الزعيم السوفياتي الى سياسة مغامرة أوسع تحت ضغط الجناح المتصلّب في الكرملين الذي قـال بامكـان الجمع بين فوائد الوفـاق مع الولايات المتحدة والحرب في الشرق الاوسط . فقرر بريجنيف زيادة دفق الاعتدة العسكرية المتطورة الى مصر . واخذ المسؤولون السوفيات والمصريون يتنقلون ذهاباً واياباً بين موسكو والقاهرة لترتيب بنود منهج التسلّح الجديد . وخلال اسابيع اخذت الطائرات والدبابات واجهزة بناء الجسور والأعتدة الالكترونية تصل الى مصر . وحذر خبراء المخابرات الاميركية حينئذ من ان الاسلحة تتدفق بغزارة كثيفة جداً ، وارتابوا في ان تكون مقاصد مصر مجرد دفّاعية . وحين بلغت هـذه الانذارات كيسنجر لم تترك اي انطباع عنده .

في ٢٣ شباط (فبراير ١٩٧٣) وصل حافظ اسماعيل – كيسنجر السادات – الى واشنطن لعقد مشاورات مع نيكسون وكيسنجر . وكـان هدف المصريين الطلب الى الولايات المتحدة ان تضغط على اسرائيل لاخلاء الاراضي العربية المحتلة . ووصف اسماعيل محادثاته بانهـا كانت « دافئة وموضوعية ومثمرة » . وفي اول اذار زارت رئيسة وزراء اسرائيل غولدا مئير واشنطن وطلبت مدها بما يجعلها تلحق بالمدد السوفياتي لمصر . فتعهد نيكسون، الذي سبق له ان وعد بالحفاظ على التوازن العسكري في الشرق الاوسط ، بإرسال ثماني واربعين طائرة فانتوم نفاثة اضافية الى اسرائيـل خلال الاربع السنوات التالية .

وادت اماطة اللثام في اواسط اذار عن هـذا القرار الرئاسي الى تعزيز وجهة نظر السادات بأن الحرب هي الطريق الوحيد لاحداث تبديل في موقف اميركـا من اسرائيل . فاخذ ينسق استراتجية مشتركة مع القطبين العربيين من طرفي النقيض على المسرح العربي السياسي : ملك السعودية فيصل من اليمين والرئيس السوري حافظ الاسد من اليسار . وكان كلاهما يملك رصيداً مهماً . ففيصل يملك النفط ، السلاح

العربي الذي لم يكن قد جرّب بعد. وكان مستعداً، أول مرّة، لاستخدام النفط في معركة إسترداد الارض العربية من اسرائيل . ذلك بأنه لم يكن احب الى قلبه من حلمه بان يصلّي في مسجد القدس .

اما الاسد فقد كان يملك القوة البشرية المقاتلة والاندفاع . وكان دائم التلهف على مقاتلة اسرائيل . ولقد عززت فكرة الحرب وضعه السياسي في دمشق .

في مطلع نيسان قـال السادات لأرنولد بورشغراف محرر « النيوزيك » : « لقد حان الوقت لاحداث هزّة »، و« ان كـل ما في هذا البلد يعبأ لاستئناف المعركة التي اصبحت الان محتومة » .

ولكن المسؤولين الاميركيين بعد قراءتهم حديث السادات قلبـوا شفاههـم وقالوا « مجرد كلام » ، واخذوا يشيرون الى انه سبق للسادات ان اطلق عـلى عام ١٩٧١ « عـام الحسم » ثم مضى العام دون ان يحسم .

في ٣ ايار عاد الاسد من زيارة ٢٤ ساعة الى موسكو . ولقد كان بحاجة لكي يحارب ، الى المزيد من السلاح الذي تعهدت روسيا بمدّه به . وخلال اشهر ، تتالت الانباء عن شروع سوريا في تلقي عدد كبير من احدث دبابات ت٦٢ واسلحة ضد الدروع وجهاز دفاع كامل عن دمشق ونحو اربعين طائرة ميغ ٢١ .

واعتبر كيسنجر في حينه ان هذه الارسالات السوفياتية « تصرف غير مسؤول » ولكنه لم يتوجه الى الروس باي شكوى رسميّة . فقد كـان هو الآخر مأخوذاً بما يرشح من ووترغيت . او فضلاً عن هذا لم يكن يعتقد ان العرب ، حتّى لو جرى تسليحهم حديثاً ، سيقدمون على شن هجومهم على الاسرائيليين .

وفي ١٢ حزيران طار السادات الى دمشق لعقد محادثات ملحة مـع الاسد . ففي مستهل تخطيطهمـا للحرب كانا قد اتفقـا على فوائد مهاجمة اسرائيل في مطلـع الخريف ، الاّ ان خلافاً رئيسياً استمر عالقاً بينهما حول الغرض من الحرب .

فبينما طالب الاسد ان يكون الغرض من القتال « دفع اسرائيل الى البحر » ارتأى السادات ان يكون دفع اسرائيل من بعض الارض العربية المحتلة ثم استخدام نفط فيصل كسلاح اقتصادي في الضغط على الولايات المتحدة لتحمل بدورها الاسرائيليين على الانسحاب الى حدود ١٩٦٧ . وبعد مداولات مطولة فاز السادات في الاخير بتأييد الاسد لاهدافه المحدودة .

وخلال الصيف، وبينما كانت الاسلحة السوفياتية تتدفق على مصر وسوريا، اخذ القادة العسكريون والسياسيون في البلدين يضعون خطط الحملة . واختار يوم المعركة الجنرال احمد اسماعيل وزير الحربية المصريّة الذي استلهم التاريخ الاسلامي فعثر فيه على السادس من تشرين الأول ، ذكرى معركة بدر الشهيرة . ولقد انكر المصريون

لاحقاً اتهامات الاسرائيليين بأن يكونوا قد اختاروا السادس من تشرين الاول لاستغلال شغل اليهود في يوم الغفران .

في المرحلة الأخيرة من الإعداد للحرب فاز السادات بمؤازرة الملك حسين المحدودة . فقد أوضح العاهل الاردني منذ البدء انه يريد تحديد دور بلاده في الحرب . فهو لن ينضم الى مصر وسوريا في هجومهما ولكنه مستعد للتهديد بفتح جبهة ثالثة فيحول بذلك دون مهاجمة جنوبي سوريا من الأردن ويجمّد قوات اسرائيلية على جبهته . وقد التقى الزعماء الثلاثة عندما جاء الحسين في ١٠ ايلول الى القاهرة للالتقاء بالسادات والأسد في قمة يومين . وعهد الحسين والأسد الى السادات باعطاء الأمر بالحرب .

في الثالث عشر من أيلول قدمت اسرائيل للسادات الذريعة التي يحتاجها ، وذلك عند تحويم أربع من طائراتها النفاثة فوق المتوسط على مقربة من الأجواء السوريّة وربما اخترقتها . وقد تصدت طائرات الميغ السوريّة لها فنشبت معركة جوية خسرت سورية فيها على الأقل ثماني طائرات . واتصل الأسد فوراً بالسادات مطالباً بالشروع في « عملية بدر » . فأعطى في تلك الليلة السادات الأمر بالاعداد للحرب .

وفي ٢٢ أيلول أعلم السادات بريجنيف ان الحرب ستبدأ في السادس من تشرين الأول . ولم يثر الزعيم الروسي ، بحسب ما هو متوفر من معلومات، اي اعتراض . وقد وجد في مشروع الحرب فوائد عديدة . فهو قد يؤدي الى تدمير الغرب ويضع الولايات المتحدة في موقع الدفاع ويؤذي الاسرائيليين — ثم رغم ذلك كله لن يدمّر الوفاق .

في ٢٤ أيلول لاحظت وكالة المخابرات المركزية الأميركية التي كانت تراقب بدقة المناورات السورية والمصريّة، بعض الانحرافات المستهجنة عن نسق المناورات العادي . ذلك بأن المصريين كانوا يتحرّكون بفرق مقاتلة كاملة ويخزنون الذخائر ويعبئون الدعم اللوجستيكي . وأخيراً جاء من قاعدة اميركية سريّة في ايران تابعة لمجلس الأمن القومي ومتخصصة بالتجسّس الالكتروني ، انها التقطت اشارات تفيد بأن المصريين قد أقاموا شبكة اتصالات أوسع كثيراً مما تستدعي المناورات .

وفي ٢٥ أيلول دخلت سفن شحن سوفياتية المتوسط متجهة نحو مصر وهي محمّلة بصواريخ سكود الموجهة التي بالامكان تحميلها رؤوساً نووية ومداها الأقصى مئة وخمسة وثمانون ميلاً ، أي انها تصيب أهدافاً في اسرائيل من مواقع غربي قناة السويس . ولاحظت المخابرات الاميركية في اليوم نفسه ما يشير الى ان التشكيلات المدرّعة السورية أخذت تتخلى عن تمركزها الدفاعي السابق .

وفي ٢٦ أيلول قام دايان بزيارة جبهة الجولان. وكان الاسرائيلي الاول الذي يبدي اهتماماً بالتحركات السوريّة على الحدود . ولم يكن دايان يعتقد ان العرب يجرؤون على

مهاجمة اسرائيل ولكن اهتمامه البالغ انصبّ على ان التحركات السورية قد تستهدف الحيلولة دون الدوريات الاسرائيلية على جبهة الجولان . وأمر الفرقة السابعة المدرعة ، احدى أبرز الفرق الاسرائيلية الهجومية ، بالانتقال من بئر سبع حيث تتمركز الى الجولان . ولقد كان ذلك قراراً تاريخياً . اذ ثبت فيما بعد عند اندلاع الحرب انه لولا وجود هذه الفرقة المدرّعة على جبهة الجولان لكانت سقطت هذه الجبهة في أيدي السوريين منذ الأيام الاولى من الحرب .

في الثامن والعشرين من أيلول أكّد السادات في خطبة القاها بمناسبة ذكرى وفاة عبد الناصر التصميم على المعركة. وقال : «اننا لن نألو جهداً ولن ندّخر تضحية لبلوغ أهدافنا» . وقال انه لا يتعهد باي شيء ولن يخوض في التفاصيل ولكن تحرير الأرض هو الهدف الرئيسي الأول . «واننا بمعونة الله لمحققون هذا الهدف» .

في ٢٩ منه لفت انتباه كيسنجر وهو يراجع ملفاً للمخابرات الاميركية تزايد غير عادي في حركة الدبابات السورية قرب جبهة الجولان . وطلب من معاونه لورنس ايغلبرغر بحث الموضوع مع السفير الاسرائيلي في واشنطن سيمتشا دنيتز وهو من خريجي جامعة جورج تاون في القانون الدولي . وكان كيسنجر يعتبر ان الاسرائيليين يملكون أفضل جهاز مخابرات في الشرق الأوسط ، فاذا كانوا قلقين او مرتابين بالحركات العربية فلن يخفوا ذلك عن الاميركيين . لذلك طلب استطلاع رأي السفير الاسرائيلي الذي اتصل بعد ساعة مفيداً بان ليس لدى اسرائيل معلومات حتى الآن عن هجوم عربي على الجبهتين ، وان السوريين لن يهاجموا وحدهم . فطالب كيسنجر اذا توافرت لديهم اي معلومات جديدة مدّه بها . وخلال الأسبوع التالي تدفقت معلومات المخابرات حول خطط هجوم مصري سوري وشيك . غير ان الزعماء السياسيين في كل من اسرائيل والولايات المتحدة لم يعيروا الأمر الانتباه اللازم . وكان الاعتقاد السائد لدى هؤلاء ان العرب لن يرتكبوا حماقة شنّ حرب وان الأمر لا يعدوا كونه مناورات تجري على الحدود . وكان كيسنجر بالذات يعتقد ان العرب غير متحدين وقيادتهم السياسيّة ليست في مستوى تنسيق هجوم فعّال ضد اسرائيل . وكان السادات يوصف في تلك الأيام « بالمهرّج » وفيصل « بالمهووس الديني » .

وازداد اعتقاد كيسنجر رسوخاً ان العرب يطلبون جولة جديدة من المفاوضات لا من الحرب ، في اعقاب مداولاته المطولة في الأمم المتحدة مع عدد من الدبلوماسيين العرب الرئيسيين . وكان هؤلاء يعلّقون على كيسنجر آمالاً كبيرة في أن يقوم بدور الوسيط بينهم وبين اسرائيل لاسيما بعد نجاحه في الصين وفيتنام وروسيا . ودعوه الى استخدام سحره الدبلوماسي في الشرق الأوسط كما استخدمه في كل مكان آخر .

وراقت الفكرة لكيسنجر ولكنه حثّ العرب على عدم توقّع « العجائب » .

وكان يعتقد أن الوقت لم ينضج بعد لاحداث تسوية . وفي مأدبة أقامها على شرف ثلاثة عشر وزير خارجية وسفير عربي في ٢٥ ايلول تعهّد « بالموقف المنفتح » من الولايات المتحدة ، وطالب بايلاء الأهمية القصوى للبحث عن وسائل بلوغ السلام . وبدأ كلمته بالقول : « سنظهر التفهّم ونأمل ان تظهروه من جانبكم بالمقابل ... ان المطلــوب هو البحث عن أساليب تحويل ما هو غير مقبول منكم الآن الى وضع تستطيعون القبول بالتعايش معه » .

وقال محمود رياض الأمين العام للجامعة العربية للصحفيين إن العرب لا يتوقعون « العجائب » . ولكن « الولايات المتحدة ترغب في بذل جهدها في سبيل التوصل الى حلّ سلمي يقوم على العدل ... ونحن نأمل تحقق شيء في المستقبل » . وهكذا جاء جواب الأمين العام للجامعة العربية الحذر لا يظهر للمراسلين ولا لكيسنجر ايّ تسرّع في توقع الحلّ ولكن لا يقفل كوى الأمل .

وثمة سبب آخر جعل الهجوم المصري السوري يأخذ كيسنجر على حين غرّة . وهو انه كان قد ركّز انتباهه على إمكان حصول هجوم اسرائيلي لا عربي. وبدأ هذا التفكير يساوره في أعقاب هجوم الفدائيين الفلسطينيين على قطار المهاجرين من اليهود السوفيات المتجهين الى النمسا وما نتج عنه من ذيول وردود فعل لا سيما بعد عودة غولدا مئير الخائبة من النمسا وفشل مسعاها في اقناع المستشار كرايسكي بالرجوع عن قراره باقفال قصر شونو . فقد بدا ان اسرائيل قد تقوم بهجمات انتقامية على مخيّمات الفلسطينيين في الشرق الأوسط ، وربما كما كان يتوقّع كيسنجر بعد محادثاته مع السفير الاسرائيلي في واشنطن واطلاعه على مدى الغضب الاسرائيلي ، ان يتوسع هذا العمل ليصبح هجوماً على مصر او سوريا . وكان قد حثّ السفير الاسرائيلي على ضبط النفس لأن تصعيد موجة العنف في المنطقة قـــد يؤول الى اندلاع حرب شاملـــة ليست في مصلحة اسرائيل ولا في مصلحة الولايات المتحدة .

وكان كيسنجر يرى ان ربح اسرائيل حرباً جديدة لن يحلّ المشكلة لأن العرب لن يفاوضوا من موقـــع الهزيمة ، فضلاً عن الاتحاد السوفياتي لن يسمح بهزيمة ثانية للعرب ، لذلك فقد يتدخل . وعندها تجد الولايات المتحدة نفسها مجبرة هي الأخرى على التدخّل لنجدة اسرائيل . ثم ان الولايات المتحدة ليست في وضع التورط في اية منطقة في العالم بعد فيتنام . وان الحرب اذا ما اندلعت ، وأيّاً كان المسؤول عن اندلاعها ، قد تسبّب بقطع النفط عن الولايات المتحدة . ولم يكن كيسنجر مطمئناً الى ان الجانب الاسرائيلي قد سلّم بوجهة نظره . لذلك عندما كانت ترده المعلومات عن حشود عربية على الحدود كان يفترض ان العرب يهيئون انفسهم دفاعياً لصد أي هجوم اسرائيلي .

في الاول من تشرين الأول (اكتوبر) طلبت الحكومة الاسرائيلية من الولايات

المتحدة الاسراع في تسليم طائرات الفانتوم التي جرى التعهّد بها في آذار .

وفي ٢ تشرين الأول عبأت سوريا الاحتياطي ، كما بدأت مصر اعدادات مكثفة وأحياناً علنية ، للحرب على طول قناة السويس. وفي ٤ تشرين الأول، قبل يومين من اندلاع الحرب ، كان كيسنجر يبحث في الأمم المتحدة مع وزير خارجية السعودية ، عمر السقّاف ، الوضع في الشرق الأوسط ومشكلة الطاقة المتفاقمة . ولم تبدر في الحديث اشارة الى الحرب أو تهديد بقطع النفط . في ذلك المساء سأل كيسنجر ابا ايبان اذا كان يقبل بعقد مفاوضات مع مصر بعد الانتخابات الاسرائيلية على ان تؤدّي اميركا بشخص كيسنجر أو سيسكو دور الوسيط . فوافق ابا ايبان وقال انه يسره ان يعود الى نيويورك لهذا الغرض .

في ساعة متأخرة من الليل بدأ جلاء العائلات السوفياتية من القاهرة اولاً ثم من دمشق. ولأول وهلة اعتقد كيسنجر ان السادات طرد قافلة جديدة من الخبراء السوفيات ولكن رجال المخابرات الاميركية لم يوافقوه على هذا التخمين فتخلّى عنه . ورأى رجـال المخابرات ان هذا الجلاء دليل على حدوث شيء خطر ولكنهم لم يرجّحوا الحرب .

في الخامس من تشرين الأول، قبل وقوع الحرب بيوم واحد، التقط مركز التجسس الاميركي في جنوبي ايران اشارات من قناة السويس لا تخطىء عن وقوع وشيك للحرب كما ان تشكيلات الدبابات السوريّة أصبحت في وضع هجومي .

في الساعة الحادية عشرة صباحاً الغى رئيس أركان الحرب الاسرائيلي دافيد اليعازر كل المأذونيات العسكريّة ونبّه معاونيه الى ان دعوة الاحتياط أصبحت الآن ممكنة . واستدعى الجنرال اريل شارون من التقاعد في مزرعته قرب بئر سبع . وبعد أن اطلع شارون على احدى صور المخابرات عن التعبئة المصرية على الجبهة وبينها تجهيزات عبور القناة قال : « ان الحرب واقعة خلال يوم او يومين » .

تشاور اليعازر مع مئير طالباً الاذن له بتعبئة القوات وبالضربة الوقائية ، بينما كان كيسنجر يباحث محمد حسن الزيّات وزير خارجية مصر حينئذ ، والذي كان يحضر دورة الأمم المتحدة في نيويورك ، بما فاتح ابا ايبان في اليوم السابق : عقد مفاوضات في تشرين الثاني . ولم يكن كيسنجر يتوقع الحرب اطلاقاً .

في الخامسة والنصف من مساء ذلك اليوم أوصل موردخاي شاليف القائم بالأعمال الاسرائيلي في واشنطن رسالة من مئير الى كيسنجر سلّمها الى نائبه في مجلس الأمـن القومي البريغادير جنرال برنت سكوكروفت .

وجاء في رسالة غولدا مئير ان المعلومات المتوافرة حول التعبئة العسكرية في مصر وسوريا وحالة التأهب لقوات البلدين ، وبصورة أخص الكثافة العسكرية المستنفرة على الجبهة ، تستدعي الاهتمام، وتحملها على الاعتقاد ان ذلك نتيجة أحد الدافعين التاليين :

١ – امّا اعتقاد أحد البلدين بانه عرضة لهجوم اسرائيلي متوقّع .
٢ – أمّا الأعداد لقيامهما بعملية عسكرية ضد اسرائيل .

«وفي حال حدوث الترجيح الثاني فان اسرائيل سترد بحزم وبقوة هائلة. ويحسن ايضاح ذلك لهما سلفاً» .

تلقى كيسنجر رسالة مئير في الثامنة مساء ولكنه لم ير سبباً ملحاً يدعوه الى الاتصال بالمسؤولين المصريين والسوريين فوراً بل ارجاء الأمر الى اليوم التالي .

في التاسعة مساء راجع راي كلاين الذي كان يرئس مكتب المخابرات والأبحاث في وزارة الخارجية الاميركية، آخر التقارير، وخلص الى أن الحرب وشيكة الوقوع في اليوم التالي وربما قبل ذلك، وشاركه رأيه عدد من موظفي وزارة الخارجية ولكنهم لم ينقلوا هذا الرأي الى كيسنجر في والدورف تاورز في نيويورك حيث كان يقضي عطلة الأسبوع .

اما وكالة المخابرات المركزية فقد أكملت في تلك الليلة تقريرها ولكنها لم تخلص الى النتيجة نفسها بل استبعدت الحرب . وبعد أشهر قال احد معاوني كيسنجر : « لو كنا في واشنطن لتلقينا رسالة كلاين. ولأمسكنا بالذبذبات الحقيقيّة للأحداث. ولكن بعد حديث وزير الخارجية مع الزيات في نيويورك وضع سيسكو لنفسه برنامج لعبة غولف ليوم السبت ، وخطّط ماكلوسكي لقضاء الويك اند في كوناتيكت. كل شيء كان هادئاً في فندق والدوروف. وكان وزير الخارجية – كيسنجر – واثقاً كما كنا جميعاً – من ان الحرب لن تقع » .

السادس من تشرين الأول اطل باكراً على كيسنجر. فقد أفاقوه من نومه في السادسة صباحاً وتسلم برقية بعث بها اليه السفير الاميركي في اسرائيل كينيث كيتينغ . وكان السفير قد استدعى قبل ساعتين الى اجتماع عاجل في القدس مع رئيسة الحكومة آنذاك غولدا مئير التي ابلغته انها تلقت لتوها اخباراً تفيد بان مصر وسوريا قد اقتربتا من لحظة الصفر للشروع بالحرب . ثم حثت الولايات المتحدة على بذل قصارى جهدها لحمل البلدين العربيين على الاقلاع عن المحاولة وكذلك بذل الجهد نفسه مع الاتحاد السوفياتي . وحرصت غولدا مئير على التأكيد للسفير كيتينغ بان اسرائيل لن تقوم من جهتها باي هجوم وقائي – وهو ما كان قد حذّر من مغبته كيسنجر تكراراً .

وما ان وصلت برقية كيتينغ الى والدورف استوريا حتى جرى ايقاظ كيسنجر فوراً. فهتف بدوره الى الرئيس نيكسون الذي كان يقضي عطلة الاسبوع في كي بيسكين (فلوريدا) وأعلمه بالاخبار المقلقة . وبعدما استمع الرئيس الى التقرير الكامل عن الوضع من وزير خارجيته ، طلب اليه ان يتصل هاتفياً بكل من وزيري خارجية مصر

واسرائيل ويحثهما على « ضبط النفس » . قام كيسنجر بتنفيذ ما طلب منه رئيسه وحث وزيري الخارجية « على تجنب خرق ... وقف اطلاق النار » . وبالنسبة الى ابا ايبان فقد كرّر كيسنجر تحذيره : «لا تقوموا باي هجوم وقائي» . وعلى الاثر حوّل وزير الخارجية الاميركية جناحه في الفندق الى ما يشبه مركز الاركان واستدعى اليه كبار مساعديه: سيسكو وماكلوسكي وايغلبرغر. وعلى جناح السرعة طلب على الهاتف السفير السوفياتي في واشنطن دوبرنين وحثه على بذل قصارى جهده للحيلولة دون اندلاع الحرب . فاجاب السفير بالايجاب . ثم ابرق كيسنجر الى كل من الملك فيصل والملك حسين ، وهما من أكثر الزعماء العرب وداً ، وطلب منهما « بذل مساعيهما الحميدة » للحيلولة دون اندلاع الحرب. ثم اتصل بالامين العام للامم المتحدة كورت فالدهايم ونبهه الى خطورة الحالة .

طلب وزير الخارجية الاميركية بعد ذلك اخر تقارير المخابرات عن الوضع فوجد انها تشير الى ان الجيوش المصرية والسورية قد اتخذت مواقعها الهجومية وان القوات الاسرائيلية على الجبهتين بقيت ثابتة في مواقعها العادية . وخامرت كيسنجر الظنون ، رغم تأكيدات مئير المعاكسة ، بان اسرائيل تعمل فعلاً لخداع العرب وجعلهم يطمئنون الى سلامتهم حتى تنقض في اللحظة المناسبة عليهم بالضربة الرادعة . وعند حلول السابعة صباحاً ، ورد المزيد من الانباء السيئة . فقد التقطت غرفة العمليات في البيت الابيض تقريراً عن برقية صادرة من اسرائيل جرى تفسيرها يعني ان الدولة اليهودية تنوي شن هجوم وقائي رادع على مصر وسوريا « في غضون ست ساعات » .

وما ان وصل النبأ الى كيسنجر حتى استبدت به الحيرة من تناقض المواقف الاسرائيلية فهتف الى مردخاي شاليف ، القائم بالاعمال الاسرائيلي ، وحذره مجدداً من القيام باية عملية حربية رادعة . ولم يكن تحذير كيسنجر المسؤولين الاسرائيليين بجديد، فقد حفظوه عن ظهر قلب .. سواء شاليف او السفير دنيتز الذي كان حينئذ في اسرائيل يحضر مأتم والده . كان كيسنجر يكرّر عليهم دائماً : «حذار الشروع بالحرب ، حذار القيام بضربة وقائية » ، ويتكهن عندها بوقوع الكارثة الكليّة اذا ما اغفلت اسرائيل مشورته . « اذا ما اطلقتم الرصاصة الاولى لن تجدوا احداً يقف معكم في هذه البلاد ، ولن تحصلوا على دعم الرئيس . ستجدون انفسكم وحيدين ولن يستطيع احد مد يد العون اليكم . حذار حذار » . وهذا التحذير لم يكن بوسع اي مسؤول اسرائيلي اغفاله . وقد اكد شاليف لكيسنجر ان اسرائيل لن تقدم على توجيه الضربة الاولى . فقد اعطت السيدة مئير كلمتها . واضاف الديبلوماسي الاسرائيلي بان الدلائل تتوافر بصورة لا تقبل الجدل على ان العرب مزمعون على الهجوم .

وللتثبت من الأمر ابرق كيسنجر الى كيتنغ حتى يكرر التحذير الى غولدا مئير ،

فقام هذا ، بناء على مصدر اسرائيلي، بابلاغ الانذار مصعّداً ومشتملاً على تهديد ضمني . وفحوى الانذار انه اذا احجمت اسرائيل عن شن الهجوم الرادع متيحة المجال للعرب بما لا يقبل الشك على القيام بخطوة الحرب الاولى عندها ستعتبر الولايات المتحدة نفسها ملزمة ادبياً بدعم اسرائيل . ولم يكن هذا الكلام يحتاج الى تأويل كثير لأنه يعني ان الولايات المتحدة لن تجد نفسها ملزمة ادبياً بالمساعدة اذا ما اقدمت اسرائيل على شن الضربة الاولى .

و تبين فيما بعد ان التحذير الذي اوصله كيتنغ الى غولدا مئير لم يكن ضرورياً . فغولدا مئير كانت في تلك اللحظة تعقد مجلسها الوزاري المصغّر في مطبخ بيتها. والحاضرون كانوا نائب رئيسة الحكومة ايغال آلون ووزير الدفاع موشي دايان والوزير بلا وزارة اسرائيل غاليلي . وفي هذا الاجتماع ، رفضت غولدا مئير الطلب العاجل الوارد من رئيس الاركان الجنرال دافيد اليعازر والقاضي بوجوب القيام بضربة رادعة تقضي على ما كان يعتبره أمراً محققاً وهو الهجوم العربي . وانتهى قرار رئيسة الحكومة الى ان على اسرائيل ان تتحمل الضربات الاولى في القتال .

وقرار غولدا مئير وضع اسرائيل للمرة الاولى في موقف دفاعي بعد ان كانت قد اعتادت على مدى ربع قرن ان تكون هي البادئة بالضرب السريع القوي في اراضي خصومها. لقد افترضت غولدا مئير، كما افترض كثيرون غيرها، ان اسرائيل قادرة على الضرب السريع وعلى قهر خصومها حتى لو سمحت لنفسها بان تتعرض هي للضربة الاولى . لذلك اعلمت مئير اليعازر بان يستنفر بعض الوحدات ، رافضة بذلك وضع اسرائيل كلّها في حالة تأهب. لقد رفضت، مثلاً، ان تستدعي كلّ الاحتياط ورفضت دعوة المعيدين في يوم الغفران كما رفضت استفزاز العرب . انها لم تكن عازمة على تحمل اكلاف تصل الى ١١ مليون دولار اميركي هي ثمن الانذار العام ، اذ سبق لها ان اعلنت انذارين عامين سابقين في العام نفسه ووجدت ان اكلافهما عالية جداً . ولكن اهم من هذا كلّه انها لم ترغب في التصرف على نحو مخالف لتعليمات كيسنجر .

واعلن كيتنغ كيسنجر بقرار غولدا مئير . فقام كيسنجر بابلاغ وزير خارجية مصر محمد حسن الزيات وسفير الاتحاد السوفياتي في واشنطن دوبرنين به . بعد ذلك عاد الى الاتصال مجدداً بمردخاي شاليف وكأنه لم يكن واثقاً من المعلومات التي وصلت اليه على لسان غولدا مئير . فقال كيسنجر لشاليف « لقد اخذنا المسؤولية على عاتقنا بانكم ستتصرفون على النحو الذي اتفقنا عليه» . وعاد شاليف الى تكرار تأكيداته .

في الساعة الثامنة صباحاً (توقيت واشنطن) بدأ الهجوم المصري السوري واندلعت الحرب . وخلال دقائق قليلة كان صوت الزيات على الهاتف مع كيسنجر يتهم اسرائيل

بانها اثارت القوات العربية المسلّحة بارسال قواتها البحرية لقصف ميناء اللاذقية .

في الثامنة والثلث كان شاليف على خط الهاتف يقول : « لقد بدأت القوات المصرية السوريّة اعمالها الحربيّة ضد اسرائيل » . فلمّا قال كيسنجر ان الزيّات ابلغه كلاماً آخر غير هذا ، نفى شاليف الامر نفياً قاطعاً . وسأل كيسنجر : « وماذا انتم فاعلون الان » . اجاب شاليف : « اننا سنهتم بانفسنا » .

اوائل بعد الظهر ، عاد كيسنجر الى واشنطن مقتنعاً بان العرب هم الذين بدأوا الحرب . لكنّه ما ان وصل الى العاصمة حتى وجد ان البنتاغون قد اخذ كلام الزيات بحرفيته . عند العشيّة تمكن « فريق العمل الخاص في واشنطن » في اجتماعه الاستثنائي ، من ان يجمع معلومات جديدة وان يقنع كبار المسؤولين الاميركيين بان مصر وسوريا هما اللتان خرقتا وقف اطلاق النار وان اسرائيل لم يكن امامها الا الردّ . الى جانب كيسنجر حضر هذا الاجتماع نائب وزير الخارجية السابق كنيث راش ومعاون وزير الخارجية جوزف سيسكو ووزير الدفاع جميس شليزنغر ومدير وكالة الاستخبارات المركزية وليام كولبي ورئيس هيئة الاركان المشتركة الاميرال طوماس مورر . هذا الفريق من الاشخاص هو الذي بقي طوال فترة الحرب الهيئة الفاعلة في اتخاذ القرارات الرئيسيّة .

تلك العشية اصدر هذا الفريق الأمر الى قائد الاسطول الاميركي السادس بارسال حاملة الطائرات « اندبندانس » وثلاث مدمرات من اثينا الى كريت ، اي الى مسافة ٥٠٠ ميل فقط من الساحل الاسرائيلي . كما اصدر هذا الفريق الامر الى جميع السفارات الاميركية في الشرق الاوسط بالإعداد لعمليات اجلاء العائلات الاميركيّة . ونظر هذا الفريق في امكان دعوة مجلس الأمن الدولي الى الانعقاد ، لكنّه لم يتوصّل الى اتخاذ القرار بذلك .

بعد ارفضاض الاجتماع اتصل كيسنجر بدوبرنين وباللورد كرومر السفير البريطاني ليرى ما اذا كانت حكوماتاهما تعارضان انعقاد مجلس الأمن. وبدا ان دوبرنين يعارض ذلك. يوم الاحد في السابع من تشرين الاول (اكتوبر) حصل كيسنجر على الاذن من نيكسون بالسعي لعقد اجتماع مجلس الأمن الدولي . ومع ذلك ، وبسبب التحفظات السوفياتية ، لم تسع الولايات المتحدة لتقديم دعوة عاجلة لوقف اطلاق النار . وشرع السير لورنس ماك انتير ، رئيس مجلس الأمن الاوسترالي في ذلك الشهر ، بعقد مشاورات سريعة للتثبت من ان الدول الكبرى موافقة على جدول الاعمال .

اما كيسنجر ، الذي لم يكن معروفاً عنه اندفاعه وراء الامم المتحدة ، فقد استعاض من ذلك بتقوية اهتمامه بما يجري في ساحات القتال على اعتبار ان ذاك هو الذي سيقرر في ما بعد تكتيكاته الدبلوماسية . لقد راجع تقارير الاستخبارات وفهم ان

الاحتياطيين الاسرائليين استدعوا من حفلاتهم بيوم الغفران وارسلوا الى مواقع التجمّع ومنهـا الى الجولان ، او الى سيناء . ولكن تأثيرهم في المعركة لن يظهر قبل يوم او يومين . وفي هذه الاثناء كان الاسرائليون فعلاً في حالة الدفاع . اما العرب فقد كانوا في أوج الهجوم رغم ما كانوا يعيرون به من قبل من عجز. فالدبابات السورية كانت تخترق المواقع عبر الخطوط الاسرائلية في الجولان . ولولا استحضار الفرقة المدرعة السابعة لاندفع السوريون في قلب اسرائيل الى ابعد من حـدود ١٩٦٧ . و لكانت المدفعية السورية تصب نيرانها على المستوطنات الزراعية الاسرائلية قرب بحيرة الجليل . ورغم سيطرة الطيران الاسرائيلي على الاجواء ، حافظت الطائرات السورية على مواقـع جويّة محترمة كما ان اجهزة الدفاع المضاد السوفياتية اخذت تكبد الاسرائليين خسائر جويّة فاقت كل حساباتهم. اما الجبهة الجنوبيّة فقد كانت انباؤها أكثر اثارة ودامية. فالالوف من الجنود المصريين عبروا قناة السويس ومعهم مئات الدبابات والمصفحات واخذوا الاسرائليين على حين غرة واقاموا لانفسهم مواطىء قدم ثابتة على الضفة الشرقيّة للقناة ، للمرة الاولى منذ ١٩٦٧ . اما خط بارليف ، الذي ذاع صيته في العالم ، فقد اخذ ينهار تحت ضغط المصريين فيما اخذت رؤوس الجسور المصريّة تتسع رغم هجمات الاسرائليين المضادة .

وبين ليلة وضحاها ادى هذا الهجوم العربي الحسن التنسيق على الدولة اليهوديّة الى زعزعة افتراض كيسنجر بان روح الدفاع الدولي ستدفع بالاتحاد السوفياتي الى استعمال نفوذه في سبيل وقف القتال . عوضاً من ذلك ، تبين ان الاتحاد السوفياتي كان على علم سابق بالحرب وبالتالي لم يعلم احداً بوجود تهديد للسلام ، كما انه ساهم فوق ذلك مباشرة بتحقيق الانتصارات العربية الاولية عن طريق شحن كميـات هائلة من العتاد والذخيرة الى كل من دمشق والقاهرة في الأسابيع الثلاثة التي سبقت اندلاع الحرب . وبدا على كيسنجر الحنق على السوفيات والخيبة من الآمـال التي عقدهـا على نفسه. فهو بالذات كان قد كتب قبل بضع سنوات خلت : « ان محك رجل الدولة هو في صحة تقديره قبل وقوع الحدث » . وعاد الى تفحص تقارير الاستخبارات التي وردت قبل اندلاع القتـال وتوصـل الى الفهم المتأخر بان السوفيات ، كما يبدو ، قد راهنوا على مزج الوفاق الدولي والحرب والحصول على كليهما معاً . اما الى اي حد يمكن ان تكون فضيحة ووترغيت قد اثرت في اصدار احكامهم ، فهذا امر لم يستطع كيسنجر ان يجزم به .

ورغم حنقه على السوفيات ، فقد فهم انه يحتاج الى معونتهـم في سبيـل حصر الحرب في حدود معيّنة واقامة القواعد اللازمة للمفاوضة . ذلك بأن الاتحاد السوفياتي يمثل دوراً رئيسياً في الشرق الاوسط . ولقد كـان أمله معقوداً طوال سنوات على ان

يقوم تعاون بين الدولتين لحمل العرب واليهود على بلوغ التسوية ، وبدا له الآن أن الوقت يقترب في هذا الاتجاه . فصدّ الضغوط المنهالة عليـه للتنديد بالروس واستمر على اتصاله بدوبرنين .

في هذا اليوم تحدث كيسنجر مراراً الى السفير السوفياتي واعطاه في احدى المرات رسالة شخصيّة من نيكسون الى بريجنيف تناشده وقف اطلاق النار والتعهّد باحتواء القتال . في هذه الرسالة ذكر نيكسون بريجنيف بانهمـا وقعا بيانين مشتركين الاول في ايار (مايو) « ببذل كل ما في الاستطاعة لمنع وقوع الاصطدامات او الحالات التي من شأنهـا ان تزيد في حدة التوتر الدولي » .

ولم يلبث دوبرنين ان عاد في ساعة متأخرة من ذلك الليل برسالة من بريجنيف الى نيكسون يوافق فيها الزعيم السوفياتي على ان تنظر الأمم المتحدة في وقف إطلاق النار ، ويعرب عن الأمل في امكان احتواء القتال. وبدا على كيسنجر الارتياح بعض الشيء لأن الرسالة صوّرت له ان أهداف السوفيات في الشرق الأوسط متواضعة ، واستنتج من ذلك انه اذا كانت مطالب الروس متواضعة ، فمطالب العرب ستكون متواضعة أيضاً .

رغـم نجاح العرب الأول في اليومين الاولين ، احتفظ كيسنجر بثقته السابقـة بان اسرائيل حتى لو تعرضت للهجوم اولاً ، فبامكانها جمع طاقاتها وصدّ اعدائها . وكان يتوقع انتصاراً اسرائيلياً سريعاً خلال ثلاثة أو أربعة أيام على الأكثر .

وفي الساعة السادسة بعد الظهر استقبل كيسنجر بمكتبه في وزارة الخارجية السفير الاسرائيلي دينتز الذي كان قد عاد لتوه من اسرائيل الى واشنطن حاملاً لائحة من مئير تشتمل على تسليم ثماني وأربعين فانتوم مقاتلة ودبابات وأعتدة الكترونية . وأوضـح دينتز ان اسرائيل تواجه الفي دبابة على الجبهة المصرية والفاً على الجبهة السورية . كما اطلع كيسنجر بشيء من التفصيل على قرار مئير برفض توصيات اليعازر لتوجيه ضربة رادعة ودعم دايان لقرار رئيسة الوزراء ، وان وزير الدفاع الاسرائيلي وافق اليعازر على مزايا الضربة عسكرياً ولكنه عارضها سياسياً . واعترف كيسنجر بان هذا كـان القرار السليم . أجاب دينتز بالايجاب ولكنه أضاف « الا ان هذا القرار يضفي مسؤوليات خاصة على اميركا ان لا تتركنا وحيدين بل تزودنا بالعتاد اللازم » .

وكان رد فعل كيسنجر ايجابياً وودياً ، ووعد السفير الاسرائيلي بالمساعدة . فقد بدا واضحاً أن اسرائيل كانت ضحية هجوم وهي تحتاج الى دعم اميركي علني . وفضلاً عن هذا فاذا ما تقاعست الحكومة فوسع السفير الاسرائيلي دوماً الاعتماد على دعـم مجموعة كبرى من أعضاء الكونغرس ورجال الصحافة الذين يعطفون على اسرائيل .
وكان دينتز يضحك عندما يشير كيسنجر الى هؤلاء على انهم « فرق الصاعقة » عند السفير الا انّه كان متنبّهاً الى مدى فعالية تأييدهم . وكان كيسنجر حريصاً على الحيلولة

دون انفجار المشاعر المؤيدة لاسرائيل في كابيتول هيل مما يعرقل مساعيه مع الروس . كما كان كيسنجر يتوقع انتصاراً اسرائيلياً سريعاً . ومثل هذا الانطباع ازداد رسوخاً بعدما استمع الى شروحات دنيتز عن الخطط الاسرائيلية للهجمات المضادة ، والتي أصبحت في مراحل التحضير الأخيرة . وبالتالي فان كيسنجر لم يشعر بضرورة اقامة جسر سريع لنقل السلاح والعتاد الى اسرائيل . كان هدفه الاّ يبدو عليه وكأنه يتحدّى غيره وانه لم يكن راغباً في اثارة السوفيات والعرب عليه .

والواقع ان الحكومة الاميركية كانت تتعرض لضغط قوي من جانب أصحاب المصالح النفطية لاعطاء العرب الفرصة لاسترداد اراضيهم المحتلّة ، او على الأقل عدم اتخاذ موقف منحاز لاسرائيل من شأنه ان يدفع بالعرب الى فرض حظر النفط على الولايات المتحدة في وقت تتناقص فيه امدادات الطاقة . فاذا كان الاسرائيليون سينتهون الى النجاح ، كما كان كيسنجر كثير التوقّع ، فمعنى ذلك ان كيسنجر لن يحتاج الى تغيير خططه الاستراتيجية العامة .

وفي الصباح الباكر من يوم الثامن من تشرين الأول (اكتوبر) وفيما بدأ زخم الحرب يتصاعد على جبهتي الجولان وسيناء ، عقد وزير الدفاع شليزنغر اجتماعاً مع كبار مساعديه، وبناء على رواية مصادر موثوقة، رفض الطلب القاضي بان تحط الطائرات الاسرائيلية في الولايات المتحدة لتعود محمّلة بالذخائر وقطع الغيار . وكان دافيد اليعازر قد تكهّن في ذلك الصباح بأن القوات الاسرائيلية ستنتقل الى الهجوم ، الاّ ان تكهنه كان يعتمد جزئياً على توقعاته بالحصول على المساعدات الاميركية المتزايدة .

وعندما علم السفير الاسرائيلي بقرار شليزنغر ، تملكته الحيرة فهتف لكيسنجر وقال له ان الاتحاد السوفياتي لا يرى حرجاً في مساعدة سوريا ومصر فلم يستأثر التردّد بموقف الولايات المتحدة من مساعدة اسرائيل ؟ وأجاب كيسنجر بانه سيحقق في المسألة .

وبعد أن أجرى كيسنجر اتصالاته بالبنتاغون عاد فطلب السفير الاسرائيلي وأعلمه ان الاذن قد أعطي بالسماح « لعدد محدود من الطائرات الاسرائيلية » بالهبوط في القواعد العسكرية في الولايات المتحدة لنقل الأعتدة اللازمة « شرط ان تدهن اذيالها » بحيث تخفي شعار نجمة داود المسدّسة . والواضح ان الحكومة الاميركية كانت تسعى جهدها الى عدم اثارة العرب والمصالح النفطية عليها .

وعند الساعة الواحدة والربع من بعد الظهر عاد كيسنجر فتحدث على الهاتف مجدداً الى السفير الاسرائيلي ليزفّ اليه أخباراً سارة مفادها ان نيكسون قد أعطى « الموافقة المبدئية » بالتعويض على اسرائيل بسرعة ما فقدته من الطائرات الحربيّة . فأعرب دنيتز عن امتنانه وكرّر سؤاله عن شحن الذخائر وقطع الغيار .

في الثالثة والربع من بعد الظهر اتصل السفير الاسرائيلي بكيسنجر ليسأله عن موعد

بدء الولايات المتحدة بارسال الفانتوم الاضافية الى اسرائيل . فقد أخذت تتصاعد خسائر الطيران فوق ما كان متوقّعاً . فقال كيسنجر ان هذه مشكلة حسّاسة سيبحثها شخصياً مع البنتاغون .

وعند الخامسة من بعد الظهر تحدّث السفير الاسرائيلي ثانية على الهاتف مع كيسنجر قائلاً انه تحادث لتوه هاتفياً مع غولدا مئير التي رجته بحرارة إعطاء « أفضل الاولويات » ليس فقط لشحن الطائرات والدبابات بـل كذلك للائحة طويلة مـن المواد دعت اليها ضراوة القتال المحتدم وخسائر اسرائيل الفادحة فيه . ووعد كيسنجر بالنظر في هذه اللائحة الجديدة من المطالب ، لكنّه في الوقت نفسه قال انه تمكّن حتى الآن من ان ينتزع لاسرائيل من البنتاغون طائرتين فقط . اما الدبابات فلها مشكلة أخرى أكثر تعقيداً اذ ان شحنها من المستودعات الاميركية الى اسرائيل قد يتطلب الاسابيع .

وعندما تساءل السفير الاسرائيلي عن إمكان شحن الدبابات من أية قاعدة اميركية في اوروبا الغربية ، قال كيسنجر انه سينظر في هذه المسألة . اما عندما تساءل السفـير الاسرائيلي عن سبب صعوبة الحصول على الطائرات ما دام نيكسون قد اعطى « الموافقة المبدئيّة » ، أجابه كيسنجر بأن ثمة « مصاعب بيروقراطية في البنتاغون » . وطلب عندها دنيتز مقابلة كيسنجر .

في السادسة والدقيقة الأربعين أدخل السفير الاسرائيلي الى مكتب كيسنجر الخاص في البيت الأبيض . قال السفير لكيسنجر لدى وصوله إن أعضاء مجلس الشيوخ هنري جاكسون والتر مونديل وبيرش باي وتشارلز بيرسي وعدداً وفيراً من الطامعين برئاسة الجمهوريّة قد تطوّعوا لمساعدة اسرائيل في الحصول على السلاح . ومضى السفـير الاسرائيلي قائلاً انّه لا يستطيع تحديد مدى قدرته على لجم الرأي العام الاميركي ، وان اسرائيل بحاجة الى الطائرات والدبابات وهي تريدها بأقصى سرعة . ولا جدال في هذا الموضوع .

والواقع ان تقارير الاستخبارات كانت تنصب على مكتب كيسنجر طوال ذلك النهار وكلّها تشير الى أن اسرائيل تعاني الأمرّين في مواجهة الهجوم . على هذا الأساس ، عاد كيسنجر الى دراسة الأوضاع فأعاد النظر في تقديره السابق ان الاسرائيليين يحتاجون الى ثلاثة أيام للانتصار على العرب . وفكّر انهم يحتاجون الآن الى خمسة أيام لتحقيق ذلك . وأخيراً أعلم وزير الخارجيّة الاميركي السفير الاسرائيلي ان اسرائيل ستحصل على طائرتي فانتوم خلال أربعة وعشرين ساعة .

وتنهد السفير الاسرائيلي وتساءل بتعجّب : «أتقول : طائرتين فقط ؟ ان اسرائيل تحتاج الى عشرات الطائرات » . وعاد كيسنجر الى القول انه لولا تدخله الشخصي في هذه المسألة لما حصلت اسرائيل حتى على هاتين الطائرتين . فالبنتاغون يعارض شحن

أية طائرات فانتوم في المرحلة الحاضرة من الحرب ، وبالتالي فقد أكّد كيسنجر لدنيتز انه هو الذي يخوض بالنيابة عنه المعارك ضمن البيروقراطية الاميركيّة .

وكان كيسنجر يغتنم الفرصة كلما سنحت ، بين هذه المقابلات والأحاديث الهاتفية مع السفير الاسرائيلي ، ليجري سلسلة مشابهة من المحادثات الهاتفية والمقابلات مع السفير السوفياتي . ولكنه مع دوبرنين اتخذ اتجاهاً مختلفاً . فكان يسرد الحاح المطالبين من كابيتول هيل بوجوب الاسراع في مساعدة اسرائيل وانه ، اي كيسنجر ، يقوم بوقف سيل من التصرفات المنحازة لاسرائيل حرصاً من الحكومة على الوفاق مع روسيا . ثم يتوجّه طالباً من السفير التعاون السوفياتي في كبح تقدّم الجيوش العربيّة والعمل لوقف اطلاق النار في الشرق الأوسط . ثم استشهد ، بارتياح ، بالنخب الذي شربه بريجنيف في حفل تكريم ضيف موسكو رئيس وزراء اليابان، تانكا ، اذ قال بريجنيف ان الاتحاد السوفياتي يؤيد « سلاماً عادلاً ودائماً ... ويضمن أمن جميع بلاد المنطقة المتاخمة جداً لحدوده وشعوبه » . واستنتج كيسنجر من هذا الكلام الذي كرّره حرفياً دوبرنين ، موقفاً سوفياتياً معتدلاً يحثّ العرب على ضبط النفس .

ورغم ذلك ففي المساء وجّه كيسنجر في خطاب القاه في مؤتمر تيرس ، إحدى النوادي السياسيّة ، تحذيراً الى الاتحاد السوفياتي مؤكداً « اننا سنقاوم السياسات الخارجيّة العدوانية، وان الوفاق الدولي لا يمكنه الصمود في وجه السياسات غير المسؤولة ، بما في ذلك الشرق الأوسط » . وكان كيسنجر على يقين من ان السفير السوفياتي سينقل هذا التحذير حرفياً الى الكرملين في تلك الليلة نفسها .

غير انه لم يكن لتحذير كيسنجر اي مفعول على الاطلاق . ففي صباح الثلاثاء ، ٩ تشرين الاول، راح وزير الخارجيّة الاميركية يطالع سيلاً من التقارير المزعجة . أشار أحدها الى ازدياد عدد السفن السوفياتية التي تشحن العتاد الى الموانىء السورية والمصرية ، وأشار آخر الى العدد المتزايد من قطع الاسطول السوفياتي في البحر المتوسط ، وثالث أشار الى ان بريجنيف قد غيّر من لهجته المعتدلة . ففي رسالة وجّهها الى الرئيس هواري بوميدين حثّ بريجنيف الشعب الجزائري « على استخدام جميع الوسائل المتوافرة لديه واتخاذ جميع الخطوات اللازمة في سبيل دعم سوريا ومصر في الكفاح الصعب الذي فرضه المعتدون الاسرائيليون » . وظهر بوضوح ان بريجنيف يحضّ الجزائر على الانضمام الى الحرب العربية ضد اسرائيل . وكان هذا بالنسبة الى كيسنجر موقفاً بعيداً جداً عن السعي لاحتواء القتال .

كان لقاء كيسنجر والسفير الاسرائيلي الأول في ذلك اليوم عند الساعة الثامنة والربع صباحاً . جاء السفير الاسرائيلي الى مكتب كيسنجر في البيت الأبيض ليكرر مطالبه الملحّة بالحصول على الطائرات والدبابات مؤكداً ان اسرائيل خسرت حتى الآن ١٥

طائرة فانتوم و٤٥ طائرة سكايهوك وان ذلك يعني خسارة ٢٠ بالمئة من جميع الطائرات التي حصلت عليها اسرائيل من الولايات المتحدة . كما أكّد ان صاروخ « سام-٦ » القابل للتنقل السريع والذي زوّد به الاتحاد السوفياتي كلاً من مصر وسوريا ، كان قاتلاً في دقّته المتناهية في اسقاط الطائرات الاسرائيلية . وعلاوة على هذا كلّه فمطلوب الآن بالحاح كل وسائل التضليل الالكتروني التي استعملتها الطائرات الحربية الاميركية ضد أنواع أخرى من صواريخ سام فوق فيتنام الشمالية .

وراح السفير الاسرائيلي يتساءل عن الأسباب والدوافع التي تؤخر شحن ذلك كله الى اسرائيل . هنا ايضاً كرّر كيسنجر عطفه ، ولكنه أنهى الاجتماع بسرعة قائلاً انه سيعالج هذه المسألة برمّتها على أساس الضرورة الطارئة .

عند الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والأربعين عاد كيسنجر الى طلب السفير الاسرائيلي ليشكو اليه مجدداً المصاعب البيروقراطية المعرقلة مشيراً الى انه وحده يقاتل البنتاغون برمته . وفي هذه الأثناء كان كيسنجر قد حصل على خطّ هاتفي خاص يصله فوراً بمكتب السفير الاسرائيلي . وفي هذه المرّة ايضاً، طلب كيسنجر من السفير الاسرائيلي ان يقابله بمكتبه في البيت الأبيض في الساعة السادسة والربع من بعد الظهر .

بعد ظهر ذلك اليوم توجّه كيسنجر لمقابلة نيكسون والتشاور معه حول الامدادات لاسرائيل . وفي المساء استطاع كيسنجر اعلام السفير الاسرائيلي بأن الرئيس الاميركي قد وافق على تلبية « جميع » الطلبات الواردة في اللائحة الاسرائيلية ، وان كل الخسائر في الطائرات والدبابات ستعوض ، وانه ستشحن الى اسرائيل كذلك جميع الأعتدة الالكترونية، وان طائرات النقل الاسرائيلية سيسمح لها بالهبوط في قاعدة اوسيانا البحرية في فرجينيا بيتش بولاية فرجينيا لتحميل صواريخ « سايدوندر » و« سبارو » التي تطلق من الجو الى الجو وكذلك الأعتدة الحربية المتقدّمة الأخرى .

طوال هذا النهار كان هناك ضغط متزايد من جانب الكونغرس على الحكومة في سبيل شحن المزيد من العتاد الحربي الى اسرائيل، وفي طليعة الضاغطين السيناتور اليهودي هنري جاكسون، فيما كان السفير الاسرائيلي يتساءل بعجب عما اذا كان هذا الضغط هو الذي اوصل الى القرار الذي اتخذه نيكسون .

وفي الثامنة والدقيقة الخامسة والأربعين مساء هتف كيسنجر للسفير الاسرائيلي يقول له ان شليزنغر سيكون مستعداً يوم الأربعاء للبحث في شؤون النقل . والظاهر أنّ نيكسون تدخّل في هذه الأثناء لترجيح كفّة على أخرى .

وعند الفجر من الأربعاء في العاشر من تشرين الاول التقطت الاستخبارات الاميركية والاسرائيلية الاشارات الواضحة عن وجود جسر جوي سوفياتي الى سوريا ومصر . لكن الحجم الحقيقي لهذا الجسم بقي غير معروف .

في الحادية عشر الا ربعاً اتصل كيسنجر هاتفياً بالسفير الاسرائيلي للبحث في أمر الجسر الجوي السوفياتي . والواقع ان الرجلين كانا قلقين : كيسنجر لكون الجسر الجوي السوفياتي هـو المثل السيء «لضبط النفس» عـلى الطريقة السوفياتية، والسفير الاسرائيلي لأن العرب لا يواجهون الصعوبات في الحصول على المساعدة ، بينما هو ، كما قال ، يقضي وقته « في ازالة نجمة داود عن اذيال الطائرات الاسرائيلية » .

وانتقل كيسنجر في الحديث الى مواضيع أخرى : كيف تسير أحوال القتال ؟ لقد بدأ وزير الخارجية الأميركية يتساءل عن مصير افتراضاته المتفائلة عن هجوم اسرائيلي مضاد سريع ونصر قريب . فزوده السفير الاسرائيلي بآخر المعلومات . في الجولان تم وقف الزحف السوري ولكن القتال لم يزل ضارياً ، واسرائيل تخسر كميات هائلة من الدبابات لأن سوريا مزودة بصواريخ مضادة للدبابات ذات فعالية عالية ، هي أحدث ما لدى مصانع الاسلحة السوفياتية . اما على جبهة سيناء فالمصريون حطموا خط بارليف على الضفة الشرقية لقناة السويس . وفوق ذلك فان أكثر من ٢٠٠ الف جندي مصري عبروا القناة ومعهم ٤٠٠ دبابة ومصفحة ومجنزرة وهم الآن يتركزون في مواقعهم الجديدة . ومن جديد ، فان الخسائر الاسرائيلية جسيمة في الرجال والأعتدة كما ان الهجوم المضاد الذي وعد به الجنرال اليعازر لا سبيل لتنفيذه بسبب النقص الرئيسي في العتاد .

وتساءل السفير الاسرائيلي بكثير من التبرم : «ماذا عن الامدادات؟ أعطى الرئيس موافقته ، فلم لا نحصل عليها ؟ ان اسرائيل بحاجة الى الامدادات فوراً» . فوعده كيسنجر بنتائج سريعة .

وعلى الفور هتف كيسنجر لشليزنغر وطلب منه ان يعد طائرات مدنية لشحن العتاد الحربي الاميركي الى اسرائيل بأسرع ما يمكن من الوقت . ولم يتحمس وزير الدفاع الاميركي كثيراً لتنفيذ هذا الطلب لكنه لم يعارضه . وكيسنجر ، عند هذه النقطة ، لم يكن متأكداً من ان شليزنغر ينوي التنفيذ فعلاً .

في الحادية عشرة والدقيقة العشرين اتصل سكوكروفت بالسفير الاسرائيلي . فقد وردت معلومات المخابرات من عمان ومفادها أن الملك حسين قرر ارسال قوة اردنية محدودة الى سوريا لدعم القضية العربية، وأعرب سكوكروفت عن أمل كيسنجر في أن لا ترد اسرائيل بالهجوم على الأردن كما طلب من السفير الاسرائيلي المجيء الى البيت الأبيض في الثالثة والنصف من بعد الظهر .

في البنتاغون كان شليزنغر على علم برغبة السفير الاسرائيلي في مقابلته للبحث في شحن العتاد الحربي الى اسرائيل ، لذلك أعطاه موعداً لمقابلته مبدئياً عند الظهر . ولكن في اللحظة الأخيرة ، الغى وزير الدفاع الموعد . والظاهر ان نائب وزير الدفاع وليم كليمنتس ، وهو متعهد حفر آبار نفط وثري من تكساس وعلى علاقة وطيدة بصناعة النفط ، قد

أقنعه بانه يحتاج الى مزيد من المعلومات عما في المستودعات الاميركية قبل ان يوافق على تزويد الاسرائيليين بلائحة دقيقة من العتاد . ولم يجر تحديد اي موعد جديد للسفير الاسرائيلي .

في وزارة الخارجية قال الناطق الرسمي ماكلوسكي انه لا يستطيع تأكيد ما اذا كانت روسيا قد مدت جسراً جوياً الى سوريا ومصر ولكنه أضاف « ان الولايات المتحدة حريصة على معرفة كثافة هذا الجسر قبل الزام نفسها علناً برد فعل» .

في البيت الأبيض كان نيكسون وكيسنجر يطلعان عشرة من أعضاء الكونغرس وتسعة آخرين من أعضاء مجلس النواب على ما يجري . لكن السناتور مايك مانسفيلد كان قبل ان ينضم الى الاجتماع الذي استغرق ٩٠ دقيقة ، قد قال للصحافيين انه لا يؤيد تدخل الولايات المتحدة في الحرب ، مشدداً على القول : « انني لا أريد فيتنامات أخرى » .

وجاءت تقارير من بيروت تفيد أن بريجنيف يطالب الزعماء العرب بدخول الحرب الى جانب سوريا ومصر ، وان الأردن قرر ارسال قوة محدودة الى جبهة القتال . وبحلول بعد الظهر ، حدث أمر مهم جداً استأثر باهتمام الحكومة الاميركية . فقد استقال اسبيرو اغنيو من نيابة الرئاسة بسبب التهم المسوقة ضده بانه خالف أنظمة الضرائب في موطنه في ولاية ماريلاند. وتضافرت استقالة اغنيو مع فضيحة ووترغيت على اضعاف الحكومة الاميركية الى أبعد الحدود . وأدى ذلك الى مضاعفة الضغط على كيسنجر لتجنب كارثة في السياسة الخارجية تنتهي باقالة رئيس الجمهورية .

وعاد السفير الاسرائيلي الى البيت الأبيض في الثالثة والنصف من بعد الظهر وبدأ النشاط الجاد . كيسنجر كان في مكتب نيكسون بينما الميجر جنرال برنت سكوكروفت ، مساعده في شؤون الأمن القومي ، تولى ابلاغ السفير بان السوفيات قد غيروا فجأة تكتيكهم المتعلق بوقف لإطلاق النار تفرضه الأمم المتحدة. فالمندوب الاميركي لدى الأمم المتحدة جون سكالي أفاد بأن موسكو تقترح الآن انهاء سريعاً للقتال . والراهن ان الخطوة السوفياتية كانت محاولة لتجميد الأوضاع على الجبهة فيما العرب لا يزالون يحتفظون بالمبادرات ، وبينما الاسرائيليون لم يتمكنوا بعد من شن اي هجوم مضاد .

رفض السفير الاسرائيلي الاقتراح غاضباً ، وقال ان اسرائيل لن تقبل باي وقف لاطلاق النار قبل ان تتمكن من ارجاع القوات المصرية والسورية الى الخطوط التي كانت قائمة قبل بدء القتال . ثم حث الولايات المتحدة على مد جسر جوي الى اسرائيل يعادل الجسر الجوي السوفياتي . فتعهد سكوكروفت بنقل طلبه الى كيسنجر .

عند العصر تلقت وكالة الأمن القومي – المتخصصة بالاستخبارات الالكترونية –

وكذلك وكالة المخابرات المركزية تقارير عاجلة من الشرق الأوسط تقول ان طائرات انتونوف ــ ٢٢ ، وهي أكبر وأضخم طائرات نقل لدى الاتحاد السوفياتي ، تتصدر الجسر الجوي السوفياتي ، وان هذه الطائرات تحطّ في دمشق والقاهرة في فترات منتظمة ، وهذا مما يوحي بان الجسر الجوي السوفياتي على جانب كبير من الضخامة والكثافة . وقد رسمت تقارير المخابرات الخط البياني لرحلات الانتونوف ٢٢ من كييف الى بودابست ومنها على خط يمر فوق بلغراد الى دمشق او القاهرة . وكانت عشرون طائرة انتونوف قد وصلت الى سوريا كما أبحرت سفينتان للشحن سوفياتيتان عبر البوسفور باتجاه منطقة الحرب . وقدّرت حمولة كل منهما بثلاثة آلاف وستمائة طن من الأعتدة الحربية . وعندما وصلت هذه التقارير الى كيسنجر ، سارع الى طلب السفير الاسرائيلي هاتفياً ليدعوه الى مقابلته في البيت الأبيض عند الثامنة مساء .

استمر الاجتماع ساعة وربع الساعة وخصص للبحث في الدعوة السوفياتية الى وقف اطلاق النار . لكن السفير الاسرائيلي كرّر معارضته لذلك قائلاً « ان السوفيات لا يمكنهم ان يظهروا بمظهر المساكين لأنهم هم الذين سببوا نشوب القتال وعرفوا سلفاً به ومع ذلك لم يحذروكم ولم يحولوا دونه . انهم الآن يحرّضون الحكومات العربية الأخرى على مشاركة سوريا ومصر في محاربة اسرائيل ويقيمون جسراً جوياً لعتادهم الحربي . ومع ذلك فانهم يتجرأون على طلب وقف اطلاق النار تجميداً للوضع على ما هو عليه ! » .

لم يناقش كيسنجر منطق السفير لأن ما قاله كان يفكر به هو نفسه . فلما انتهت المقابلة وخرج السفير الاسرائيلي ، اتصل كيسنجر بالسفير السوفياتي وأقنعه بتأجيل الدعوة في الأمم المتحدة الى وقف اطلاق النار . في ساعة متأخرة من الليل تلقى كيسنجر المزيد من تقارير الاستخبارات التي أثارت انزعاجه . فقد علمت وكالة المخابرات المركزية ان ثلاث فرق مظلية سوفياتية في اوروبا الشرقيّة قد وضعت في حالة استنفار. وراح كيسنجر يتساءل : «لماذا هذا التصرّف ؟ فزبانٔن الاتحاد السوفياتي يقاتلون جيداً وبأفضل مما كان يتوقعه اي كان» . ثم ان تدخل الاتحاد السوفياتي المباشر من شأنه أن يحدث رد فعل اميركي مضاداً مما قد يتطور الى حرب نووية. لقد أصبح الوضع ، كما قال كيسنجر بعدئذ ، « وضعاً خطيراً للغاية وأسوأ كثيراً من وضع أزمة الأردن سنة ١٩٧٠ » . وعلى الاثر هتف للسفير الاسرائيلي وطلب منه الحضور اليه في السابعة والدقيقة الخامسة والأربعين من صباح اليوم التالي . لكنه لم يخبره بأمر الاستنفار السوفياتي .

في السابعة والدقيقة الأربعين من صباح الخميس في ١١ تشرين الأول وصلت سيارة السفير الاسرائيلي الى مدخل وزارة الخارجية وأسرع السفير دنيتز والقائم بالأعمال

شاليف عبر المدخل باتجاه المصعد وكان يبدو على عيونهما الارهاق من قلة النوم . وبقي كيسنجر والسفير الاسرائيلي ما يزيد على الساعة يتداولان في مشكلة واحدة : حمل البنتاغون على تزويد اسرائيل بالطائرات والدبابات والأعتدة الالكترونية وذلك على أساس وضع الطوارىء .

والراهن ان كيسنجر كان خلال الليل الفائت قد توصل الى قرار حاسم : من الواجب ابقاف الاتحاد السوفياتي عند حدّ ، ليس فقط لانقاذ اسرائيل ولكن كذلك لابعاد العالم عن مجابهة قاسية بين الدولتين الكبيرتين . ففي رأيه ان الاستنفار السوفياتي والجسر الجوي السوفياتي يمنعان اسرائيل من امكان الوصول الى انتصار عسكري سريع . فكما انه عجز عن تفهّم تقرير المخابرات الواردة قبل اندلاع الحرب ، كذلك عجز كيسنجر عن تقدير امكانات العرب واستعداداتهم للقتال وبالتالي الدور المزدوج للسوفيات . لذلك فهو مصمم الآن على اقامة جسر جوي اميركي جبّار الى اسرائيل لتزويدها بالعتاد الذي تطلبه . وكان ينطلق من وجوب اظهار ان القوة الاميركية في المنطقة هي الأقوى وطمأنة حليفتها الى قدرتها على شنّ الهجوم المضاد بنجاح . ولم يكن يخامر كيسنجر أدنى شك ان بوسع الاسرائيليين اذا ما وصلهم الدعم الاميركي اللازم ، تحويل سير المعارك لمصلحتهم واعادة التوازن العسكري الى المنطقة فيتيحون للولايات المتحدة القوة الرافعة التي تطبع مفاوضات ما بعد الحرب بطابعها . وعنصر مهم آخر في استراتجية كيسنجر كان اقناع العرب بأنهم لن يربحوا ابداً بالسلاح السوفياتي ، وان عليهم في المدى البعيد التعامل مع الولايات المتحدة اذا ما أرادوا تحقيق أي من أهدافهم .

وقال كيسنجر فيما بعد : « خلال الأسبوع الأول حاولنا ان نفتح جداراً . لكننا قلنا لأنفسنا عندما لم يؤدّ ذلك الى اي نفع : اذن سنبدأ بشحن العتاد حتى نخلق هناك حقيقة جديدة » .

وطلب كيسنجر من السفير الاسرائيلي ان يقابل شليزنغر للحصول على العتاد . والمح الى ان شليزنغر سيكون هذه المرّة أكثر تعاوناً . وبعد الظهر طلب كيسنجر بالحاح من شليزنغر وجوب تصحيح الخلل في الميزان العسكري في الشرق الأوسط وحثّ زميله وزير الدفاع على ان يستأجر ٢٠ طائرة نقل اميركية لنقل الأعتدة الى اسرائيل . لكن شليزنغر قاوم الطلب من جديد محذراً من امكان اقدام العرب على فرض حظر النفط على الولايات المتحدة . ولم تنحلّ المشكلة بين الوزيرين الاميركيين الاّ بعد أن حصل كيسنجر على تأييد الرئيس . فقد أمر نيكسون وزير دفاعه بأن يستأجر ٢٠ طائرة نقل لهذا الغرض .

في مطلع العشية اتصل كيسنجر بالسفير الاسرائيلي ليعلمه ما تم بشأن طائرات الشحن . عندها ذكّر دنيتز كيسنجر بطلبات اسرائيل المتوالية ساعة بعد ساعة وحاجاتها الملحة

الى الطائرات لا سيما الفانتوم . وكانت اسرائيل في الأيام الخمسة الاولى من الحرب قد خسرت ما يقدّر بخمس وسبعين طائرة بينها نحو ثمان وعشرين طائرة فانتوم . وحول هذا الموضوع قال كيسنجر انه سيتوجه الى اسرائيل طائرتان فانتوم يومياً على مدى ثلاثة أيام ، فيكون المجموع ست طائرات . فلفت السفير الاسرائيلي كيسنجر الى أن حجم المساعدة التي تطلبها اسرائيل أوسع من ذلك بما لا يقاس . فأجاب كيسنجر انه متفهم لمشاكل اسرائيل وعلى اسرائيل ان تتفهم مشاكله . وفي أعقاب المحادثة أبرق دنيتز بانطباعاته الكئيبة الى اسرائيل . وكان قد قرّر عندها انه اذا لم يحصل على التزام ثابت حول طلبات الطائرات والدبابات الرئيسيّة يوم السبت فسيتوجه « الى الشارع » ، بمعنى انه سيشجّع الاميركيين – لا سيما أصحاب النفوذ في الكونغرس ورجال الأعمال والصحافة – على ممارسة ضغوطهم على الحكومة لدعم اسرائيل .

حتّى الساعة العاشرة الا ربعاً من صباح الجمعة الواقع في ١٢ تشرين الأول ، لم يكن السفير الاسرائيلي قد تلقى اي خبر بصدد طائرات الشحن . وكانت تشكيلة من ست طائرات اسرائيلية قد نقلت العتاد الحربي من الولايات المتحدة الى اسرائيل وكان ذلك بحسب تعريف السفير « نقطة في بحر » . فاتصل بكيسنجر وقال له : « هذه التأخيرات ندفع ثمنها أرواحاً بشريّة. فمن يلعب معنا هذه اللعبة ؟ » . بدت الدهشة والغضب على وزير الخارجية الاميركية، وطلب من السفير الاسرائيلي ان يتصل به بعد ساعة وقد احس كيسنجر انها لعبة البنتاغون . فاتصل فوراً بشليزنغر وأمره باسم الرئيس ترتيب عشرين طائرة شحن مدنيّة لنقل الأعتدة ، فقال شليزنغر ان البنتاغون حاول استئجار طائرات شحن مدنيّة ولكنّه فشل نظراً لأن معظم شركات الطيران لا ترغب في التورّط في حرب الشرق الأوسط . في مثل هذه الحال ، أجاب كيسنجر على الفور ، استخدموا الطائرات العسكريّة وبسرعة . وقد اصرّ شليزنغر لاحقاً انه صاحب فكرة استخدام الطائرات العسكريّة . في العاشرة والنصف من صباح ذلك اليوم اتصل البنتاغون بالسفارة الاسرائيلية وأحاطها علماً بان الطائرات العسكريّة ستتولى مسألة شحن الأعتدة .

في الحادية عشرة عقد كيسنجر مؤتمره الصحافي الاول في وزارة الخارجية ، وقد امتلأت غرفة المؤتمرات الدولية بحشد من المراسلين والمصورين والموظفين. وركز كيسنجر ، الذي كان يبدو أنيقاً ، على موضوع الوفاق الدولي بصورة عامة ، وعلى دور روسيا في النزاع على وجه التخصيص . وقال وزير الخارجية الاميركية ان الروس حتّى الآن لم يتصرّفوا على نحو غير مسؤول ولكن الحرب تزخر « بامكانات الخروج عن الطوق » . ومضى كيسنجر يقول : « انها حالة شديدة الغليان وقد يصبح الشرق الأوسط ما كان البلقان بالنسبة الى اوروبا قبل ١٩١٤ : منطقة تؤدي التنافسات المحلية فيها الى دفع الدول النووية الكبرى الى التواجه، الذي ليس من الضروري ان تكون تلك الدول راغبة

في حدوثه » . وهكذا منح الروس علناً حق الافادة من الشك ولكنه ختم بيانه بلهجة حازمة « اننا لا نعتقد ان الجسر الجوي (السوفياتي) يساعد على تهدئة الحال . واننا نعتبر التصرفات السوفياتية الراهنة اعمالاً غير مسؤولة تهدّد الوفاق . وعندما تبلغ الأمور هذا الحدّ فاننا في هذه الأزمة ، كما في الأزمات السابقة ، لن نتردد في اتخاذ الموقف الحازم . ولكننا حتّى هذه اللحظة ، لم نزل نحاول تخفيف حدّة النزاع » .

باكراً بعد الظهر أجرى كيسنجر اتصالات بكل من السفيرين الاسرائيلي والسوفياتي لايضاح تعليقاته . بالنسبة الى السوفيات أكّد اعتدال لهجته وأمله في ضبط النفس . اما مع الاسرائيليين فقد أكّد صلابته وتعهّده « باتخاذ الموقف الحازم » . فقد وهب ميزة الدبلوماسي ، ان يعطي لكل رجل الشيء الذي يريحه .

بعد فترة قليلة ، علم السفير الاسرائيلي من المخابرات الاسرائيلية أن الروس قد استنفروا ثلاث فرق تنقل جوّاً . فهرع يتصل بكيسنجر الذي أعلمه بدوره أن وكالة المخابرات الاميركية تلقّت لتوّها المعلومات نفسها . ولكنه لم يقل للسفير الاسرائيلي ان هذه المعلومات بلغته قبل يومين .

عند الساعة السادسة من مساء الجمعة ، تمكّن السفير الاسرائيلي اخيراً من الحصول على موعد في البنتاغون له وللملحق العسكري الاسرائيلي حينئذ الجنرال مردخاي غور. وكان زعماء البنتاغون جميعاً حاضرين : شليزنغر يحيط به أعوانه كليمنتس ، وهيل والاميرال بيت ونويز ، والميجر جنرال غوردن سامر . في هذه المقابلة ، عدّد السفير الاسرائيلي قيمة الاسهام السوفياتي للقضية العربية ثم راح يشكو « من الاستجابة الاميركية البطيئة التي لا تصدّق » . لم يجادل شليزنغر السفير في شكواه ولكنه قال ان « الاعتبارات السياسيّة » هي التي تكمن وراء هذا التباطوء الاميركي، وان الولايات المتحدة لا ترغب في تدمير « موقعها وصورتها في العالم العربي » . وفوق ذلك ، قال شليزنغر ، فان شركات الشحن الجوي الخاصة تخشى الارهاب العربي وعمليات الثأر ، وهي بالتالي ترفض مساعدة اسرائيل . اما في ما يتعلّق بالنقل الجوّي العسكري الاميركي فان الطائرات سيسمح لها بنقل العتاد الحربي الى جزر الازورس فقط وسيكون على اسرائيل ان تتولى أخذ العتاد بنفسها من تلك الجزر الى تل أبيب . ومعنى هذا ان الاعتدة لن تصل الى اسرائيل « في الوقت الملائم خلال هذه الحرب » .

وانتقل شليزنغر الى التحدث عن مواضيع أخرى وليس ثمة موضوع أكثر حساسية بالنسبة الى اسرائيل من تسلم الطائرات والدبابات . قال وزير الدفاع الاميركي بعد التوقف لحظة عن الحديث : ان تسليم الفانتوم سيكون بمعدّل طائرة ونصف طائرة يومياً . لكن شحن هذه الطائرات سيتوقف بعد ذلك بضعة أيام « حتّى تتمكن الولايات المتحدة من سبرغور ردود الفعل العربيّة قبل الإقدام على اتخاذ اي قرار بصدد شحنات

جديدة » . و« على اي حال » مضى شليزنغر يقول : « ليس هناك أكثر من ١٦ فانتوم يمكن شحنها الى اسرائيل لأن الولايات المتحدة لا تعتزم اعطاء اسرائيل أكثر مما خسرته » . فرد السفير الاسرائيلي قائلاً ان اسرائيل قد خسرت حتى هذا اليوم أكثر من ١٦ فانتوم . فأجاب شليزنغر بانه لا يشك في ما يقول السفير الا ان الولايات المتحدة لا تستطيع التصرّف الا بتؤدة واعتدال « حتى لا تستثير عليها رد الفعل العربي » . وكان يلمح الى امكان فرض الحظر العربي على النفط . « سيدي الوزير » أجاب السفير الاسرائيلي « مع الاحترام الكلي، انكم لا تعطوننا جواباً » . وتحوّل الاجتماع الى نوع من المجابهة القاسية بين وزير الدفاع الاميركي والسفير الاسرائيلي الذي قال : « حضرة الوزير : لقد واجهنا أزمتين في الشرق الأوسط خلال الآونة الأخيرة . الأولى هي الأزمة السورية الأردنية سنة ١٩٧٠ والثانية الأزمة الحالية . سنة ١٩٧٠ احتاجت بلادك الينا ، اما الآن فنحن نحتاج اليكم . اني أقول بكل تواضع اننا تصرفنا سنة ١٩٧٠ تجاهكم بشكل مخالف كلياً لتصرفكم نحونا هذه المرّة » . وانتهى الاجتماع بمصافحة باردة .

بعد الساعة الحادية عشرة بقليل من تلك الليلة وصل السفير الاسرائيلي الى مكتب كيسنجر في البيت الأبيض لاجراء اجتماع قصير وخطير . بدأ السفير الاسرائيلي الحديث بتلخيص حديثه مع وزير الدفاع مركزاً على قول شليزنغر ان الامدادات الاميركية بالطائرات ستقتصر على ما معدله طائرة ونصف طائرة في اليوم بضعة أيام ثم تتوقف بانتظار رد الفعل العربي . « فانتوم ونصف في اليوم ! تلك مهزلة الفقراء » ، قال السفير الاسرائيلي . ثم كرّر قول شليزنغر ان العدد في مطلق الأحوال سيتوقف عند ١٦ طائرة فانتوم لاسرائيل . ومضى السفير قائلاً « هذا رغم كون اسرائيل قد خسرت من هذا الطراز من الطائرات الضعف ، ورغم ان نيكسون قال انه سيعوّض اسرائيل كل ما خسرته » . وعلى هذا الأساس فان اسرائيل في حاجة الى ٣٢ فانتوم وبالتالي فانه اذا لم يقم جسر جوّي اميركي على جناح السرعة الى اسرائيل « فذلك يعني ان الولايات المتحدة تماطل ... وبالتالي يصبح من واجبنا استخلاص العبر والنتائج الوخيمة من جراء ذلك » .

ولم يكن السفير الاسرائيلي في حاجة الى تفسير ما يقوله . فقد فهم كيسنجر على الفور بان الاسرائيليين سينزلون الى الشارع الاميركي وان انتفاضة المشاعر الاميركية المؤيدة لاسرائيل قد تكون لها أسوأ النتائج على الحكومة الاميركية المترنحة حتى الانهيار من ضعفها. وقد قال أحد كبار موظفي وزارة الخارجية في ما بعد حول هذه النقطة : «لقد كان هناك أشخاص كثيرون في البلد ينتظرون حصول التصدّع في الشؤون الخارجيّة ، بالاضافة الى قضية ووترغيت . لقد دأبنا دائماً على القول للاسرائيليين : كلما وقعت الواقعة فنحن معكم . والراهن ان الواقعة قد وقعت وبدا وكأننا هذه المرة لسنا

معهم . على الأقل ، هذا ما كان راسخاً في اعتقادهم . لقد تلقوا صفعة قاسية جداً من جانب العرب وأصبحوا ضحايا « عدوان » . لقد استنكفوا عن بدء القتال لأن كيسنجر طلب منهم ذلك، ومع هذا تباطأنا في نجدتهم، وهذا كل ما يحتاج اليه هنري جاكسون! فلو خرج السفير الاسرائيلي الى الشارع قائلاً كل ما كان يعرفه عن هذا التباطؤ ، لكان أطاح بالحكومة » .

ووعد كيسنجر السفير الاسرائيلي ببذل كل ما في وسعه في سبيل التغلّب على المصاعب البيروقراطية وبالتالي اقامة جسر جوّي اميركي هائل . وباشر باستدعاء الجنرال سكوكروفت الى مكتبه وسأله عما اذا كان البنتاغون قد بدأ يتحرّك . وأجاب الجنرال بالايجاب لكنه قال ان مشكلة الشحن الجوي الخاص لا تزال عالقة .

وحنق كيسنجر عند سماع ذلك وقام الى الهاتف فاتصل بشليزنغر وحذره من ان نيكسون « سيحطّم رأسه » اذا ما علم بأمر التأخير الحاصل ، وصبّ كيسنجر اتهاماته على كليمنتس وهيل ونويز بالاسم بانهم وراء العرقلة .

ثم وصف مشكلة الشحن الجوّي بانها « مسألة تمسّ الأمن القومي » وانّه كلما وصل الى مكتبه يسأل عما آلت اليه قضية الشحن الجوي يتلقى الجواب بان الأمور تجري على ما يرام . ولكن ما ان يحلّ المساء حتى يكتشف ان شيئاً من ذلك كلّه لم يحدث ، ولذلك فهو يستغرب ما يجري من أمور . وحاول شليزنغر ان يدحض أقوال كيسنجر ، لكن هذا الأخير قاطعه وأعطاه أمراً بان ينفذ السياسة التي قرّرها نيكسون .

وعندما انتهت هذه المخابرة الهاتفية العاصفة ، أسرع كيسنجر الى الاتصال الهاتفي بالبيت الأبيض وقال للجنرال الكسندر هيغ : « يجب ان نعلّم شليزنغر وكليمنتس مخافة الله ، فهما يتصرّفان بشكل مخالف لأوامر الرئاسة » . وطالب كيسنجر بوجوب الحلّ السريع لمشكلة اعادة تزويد اسرائيل بالسلاح ، فيما أبدى الجنرال هيغ استغرابه لعدم حل مشكلة الشحن الجوي واقترح تكليف الجنرال سكوكروفت بالاشراف الشخصي على ذلك .

اما بالنسبة الى نائب وزير الدفاع كليمنتس ، فقد نفى اطلاعه على مشكلة الشحن الجوّي أو ان يكون قد تصرّف بشكل يعرقل تنفيذ السياسة الاميركيّة . وعلى النقيض من ذلك ، أكّد انه كان ينفّذ أوامر البيت الأبيض خلال الأزمة . وقال مسؤول كبير في البنتاغون ان «المواصلات كانت ضعيفة» بين كيسنجر والبنتاغون ، «فقد كان بعيداً عنّا خمسة أميال عبر النهر ولم نكن قادرين على قراءة أفكاره »، وبالتالي لم يكن البنتاغون على علم بما يقرره كيسنجر بين ساعة وأخرى .

مسؤول آخر في البنتاغون قال : « لقد حاول هنري ادارة شؤون الخارجية على الهاتف خلال ذلك الأسبوع ، علماً بأن الأمور لا تدار على هذا النحو » . والمدافعون

عن موقف البنتاغون يقولون ايضاً ان كيسنجر كان يحاول ادارة حرب بشكل عفوي وعشوائي الى حدّ انه راح يحاول مراقبة تقارير المخابرات الواردة الى كبار المسؤولين في البنتاغون، مع العلم بأنه لم يحاول ان يشرح لأحد تكتيكاته واستراتيجياته. وفي رأي البنتاغون ان المشادة عبر نهر بوتوماك قامت خلال الأسبوع الأول من الحرب ثم ساد التعاون بين وزارتي الخارجية والدفاع .

في ساعة متقدمة من ليل الجمعة ، طلب كيسنجر من الجنرال هيغ ان يرتّب له موعداً مع نيكسون . وهكذا كان . وراح وزير الخارجية يشرح للرئيس التطورات التي حصلت خلال النهار مشدّداً في النهاية على القول ان البنتاغون يتصرّف بالشكل المغاير لأوامر الرئاسة . فتحرّك نيكسون فوراً . أمر الجنرال هيغ ان يأمر شليزنغر بارسال ١٠ طائرات سي — ١٣٠ شاحنة ومحمّلة بالعتاد الحربي الى جزر الآزورس على الفور ثم بارسال ٢٠ طائرة سي — ١٣٠ شاحنة الى اسرائيل مباشرة واخيراً بتسهيل حصول الإسرائيليين على شحنة متروكة في الآزورس . وعندما ابلغ كيسنجر السفير الاسرائيلي بالأوامر الأخيرة الصادرة عن نيكسون والقاضية بتخطّي المصاعب البيروقراطية ، أعلن هذا الأخير عن امتنانه وسأل عما اذا كان من الممكن ارسال الطائرات مباشرة الى اسرائيل، كما أعلن ان اسرائيل باتت تفتقر الى الطيارين للقيام بالغارات الجويّة .

وعند الساعة الأولى والربع من صباح السبت الباكر هتف كيسنجر الى السفير الاسرائيلي وأبلغه ان نيكسون أصدر امراً جديداً الى شليزنغر مفاده ان يبذل كل ما في وسعه لايصال ١٠ طائرات فانتوم الى اسرائيل قبل حلول منتصف ليل السبت — الأحد . فقد كان نيكسون متحمساً لخطورة ردود الفعل العربيّة ولكنّه في الوقت نفسه كان متحسباً لخطورة اساءة فهم السوفيات للنوايا الاميركية . لقد شعر نيكسون بانه يريد اظهار تأييد علني لاسرائيل . بعد ان أنهى كيسنجر كلامه ، شكره السفير الاسرائيلي لكنه حرص على القول ان اسرائيل تحتاج الى أكثر من ١٠ فانتوم لأن الحرب أنهكت سلاح الجوّ الاسرائيلي .

وبحلول العاشرة والنصف من قبل ظهر السبت ، جمع نيكسون حوله كبار مساعديه في اجتماع طارىء في البيت الأبيض لأن كيسنجر كان قد أعلمه بالحاجة الى أمر رئاسي لا يتطرق اليه الشك حول اقامة جسر جوي من العتاد الاميركي لاسرائيل . وجاء كيسنجر الى الاجتماع بصفته وزيراً للخارجية وكذلك المستشار الخاص للرئيس في شؤون الأمن القومي ، كما جاء شليزنغر ومورر وهيغ وكولبي وغيرهم . وفي هذا الاجتماع سمعوا نيكسون يطرح سؤالاً واحداً : لماذا حدث التأخير في تنفيذ أوامره السابقة بشأن تزويد اسرائيل بالعتاد ؟ وحاول شليزنغر ان يشرح صعوبة استئجار طائرات شحن

خاصة ، فردّ عليه نيكسون بحدّة : « فلتذهب الى الجحيم طائرات الشحن الخاصة . انقل العتاد الى اسرائيل على متن طائرات عسكريّة اميركيّة . انس جزر الآزورس . تحرّك ! لا اريد أي تأخير جديد » .

وكان احساس نيكسون بالحاح الحاجة الى التحرّك مصدره يقينه ان كل تأخير اضافي قد يؤدي الى تهديد لكل استراتيجيته في الشرق الأوسط .

بعد صدور أوامر الرئيس أخذ كيسنجر يلاحق شليزنغر بدقّة . فبعد صدور الأمر كان لا بدّ من ملاحقة تنفيذه . وفي الثانية عشرة والنصف ظهراً وبعد اتصالات عديدة علم كيسنجر ان طائرات س — ٥ الشاحنة، وهي البديل الاميركي لطائرات انتونوف السوفياتية ، ستتولى هي الجسر الجوي الاميركي الى اسرائيل وانها ستبدأ رحلاتها قريباً جداً متوقفة للتزود بالوقود في جزر الآزورس . كما ان طائرات ١٣٠ س التي أمرت بالتوجّه الى الآزورس خلال الليل ستؤمر باكمال رحلتها الى اسرائيل. وبعد مداولات بين كيسنجر وشليزنغر جرى اضافة أربع طائرات فانتوم الى العشر المقرر ارسالها سلفاً بحيث أصبح المجموع أربع عشرة فانتوم تصل الى اسرائيل قبل صباح الاثنين .

في الثانية عشرة والدقيقة الأربعين ظهراً اتصل كيسنجر بالسفير الاسرائيلي حاملاً له آخر الأنباء . غير ان الأخير بعد خيبات الأسبوع الماضي بقي متحفّظاً في تفاؤله ، تنتابه الشكوك . وبعد ساعة اتصل السفير بسكوكروفت وأبلغه ما يلي بوضوح : «اذا لم تقلع طائرات الشحن السبت فانه يستنتج ان الولايات المتحدة بعدم انجازها وعودها قد تسببت في أزمة في العلاقات الاسرائيلية — الاميركية » . فأكد سكوكروفت من جهته للسفير بانه ان تكون ثمة « أزمة » . وفي الثالثة والنصف من بعد الظهر اتصل سكوكروفت بالسفير الاسرائيلي ليعلمه بأن اسطولاً من طائرات سي — ٥ قد غادر الولايات المتحدة الى اسرائيل . فسارع السفير الى الابراق لغولدا مئير بان « جسراً جوياً اميركياً هائلاً قد أقيم » . وهكذا ربح كيسنجر ما اطلق عليه أحد مساعديه لاحقاً : « معركة شارع بنسليفينا رقم ١٦٠٠ » .

١٧ – استنفار وقف اطلاق النار

صباح الاحد في ١٤ تشرين الاول لخص لعضو مجلس النواب جيرالد فورد، الذي وقع عليه اختيار الرئيس لخلافة سبيرو اغنيو في نيابة الرئاسة، موضوع الجسر الجوّي الى اسرائيل . ولكي يرسم لنفسه صورة المخطط الاستّراتيجي العالمي، وقد بات على قاب قوسين من الرئاسة لا يفصله عنها غير اقتراع باتهام الرئيس، ردّد فورد، بعد ذلك، في ملاحظاته للمراسلين، تحليل كيسنجر لأزمة الشرق الاوسط فقال : «آمل ان نحصل على حل عسكري يمكننا من العمل على الحل الدبلوماسي . ذلك بأنه لا يمكن التوصل الى حل دبلوماسي قبل الحصول على حل عسكري».

وكان «الحل العسكري» الذي يتمنّى كيسنجر احداثه هو الوصول الى توازن على الجبهات . فمنذ البداية تركز اعتقاده على ان الغرض من الجسر الجوي مفروض ان يكون، من جهة اتاحة استعادة اسرائيل للبادرة العسكريّة شرط ان لا تتخطّى ذلك، ومن جهة ثانية حمل الروس على قبول خطة وقف اطلاق نار معقولة تؤدي الى فتح المفاوضات المؤدية الى تسوية شاملة لأزمة الشرق الاوسط . انطلاقاً من هذه الاهداف حث وزير الخارجية البنتاغون على ارسال عشر طائرات فانتوم اضافية الى اسرائيل بحيث يصبح مجموع العدد اربعاً وعشرين. واهاب بالبنتاغون التثبت من ان الجسر الجوي الاميركي يفوق الجسر الجوي السوفياتي ولا يكتفي بمجرد مضاهاته .

وفي غضون ايام قليلة، وبعدما بدأت طائرات «سي – ٥» تحط الواحدة تلو الأخرى في مطار تل ابيب وكل منها دليل على التصميم الاميركي على مساعدة اسرائيل، بدأت استّراتجية كيسنجر تؤثر في الجوانب العسكرية والدبلوماسية للحرب . فليلة الخامس عشر من تشرين الاول عبر الكوماندوس الاسرائيليون قناة السويس بقوارب المطاط بعدما صبغوا وجوههم بالطلاء الاسود في مكان يقع الى الشمال من البحيرة المرّة الكبرى. ويوم السادس عشر من تشرين الأول تقدمت الوحدات الاسرائيلية المدرعة عبر الخطوط المصريّة الشرقية للقناة ثم بنت لنفسها جسراً الى الضفة الغربية – «الى افريقيا» – كما حرص الاسرائيليون على وصف اتجاه عمليتهم. والواقع ان مئات من

الجنود الاسرائيليين مع دزينات من الدبابات والمدرعات انتقلوا الى الضفة الغربية من القناة في تحرك دراماتيكي كان له تأثيره في مصير الحرب على جبهة السويس . وهذه العملية لعبور القناة كانت موضع دراسة مستفيضة منذ اليوم الرابع لنشوب الحرب الاّ انه جرى تأجيلها بصورة موقتة . فدايان واليعازر كانا قلقين بسبب النقص المتزايد في العتاد والذخيرة واستمرا يلحان على الجنرال اريل شارون قائد القوات الاسرائلية في سيناء لمنعه من الاقدام على عملية العبور . ولكن بعدما وردت برقية السفير الاسرائيلي في واشنطن الى غولدا مئير عن قيام الجسر الجوي الاميركي يوم السبت، بدأ التحضير الجوي للتنفيذ العملي لهذا العبور .

حاول المصريون في البداية ان يدمّروا القوة الاسرائيلية المتسللة، او التقليل من اهميتها. ولكن ما ان اتسع رأس الجسر وعمق واخذت القوات الاسرائلية تندفع شمالاً باتجاه طريق القاهرة – الاسماعيليّة وجنوباً باتجاه طريق القاهرة – السويس، مدمّرة العشرات من مواقع سام خلال ذلك، حتّى اخذ السادات يوقن بان جيوشه على الضفة الشرقية تواجه خطر انقطاع الامدادات عنها والتعرض لضربة اسرائيلية . فحاول على غير طائل ايقاف الزحف الاسرائيلي . وبلغت الخسائر من الجانبين حداً كبيراً غير ان الهجوم الاسرائيلي استمر . وبعد ٧٢ ساعة على العبور الاسرائيلي الى الضفة الغربية، كان الاسرائيليون قد اصبحوا على بعد ٤٠ ميلاً الى الغرب من قناة السويس وعلى بعد ٥٠ ميلاً الى الشرق من القاهرة .

وكما توقع كيسنجر، فان الجسر الجوي الاميركي حرك النشاط على الجبهة الدبلوماسية ايضاً . ففي ١٦ تشرين الاول وصل رئيس الحكومة السوفياتية الكسي كوسيغين الى القاهرة سرّاً واجرى ثلاثة ايام مشاورات عاجلة مع السادات . لقد حمل معه اقتراحاً من اربع نقاط للسلام، بدا انها وضعت قبل عبور الاسرائيليين الى الضفة الغربيّة :

النقطة الاولى : اعلان وقف اطلاق النار عند الامكنة التي وصلت اليها الجيوش .

النقطة الثانية : انسحاب اسرائيل الى حدود ١٩٦٧ بعد اجراء التعديلات الطفيفة .

النقطة الثالثة : عقد مؤتمر سلم عالمي يجري التفاوض فيه وتوقيع اتفاق نهائي .

النقطة الرابعة : وهي الأهم، تقديم ضمانة من الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة لمجمل الاتفاقات، بما فيها اتفاق وقف اطلاق النار .

ومنذ وصول كوسيغين الى القاهرة، بدا واضحاً ان السوفيات راغبون في وقف القتال . وقال كيسنجر في هذا الصدد ان الروس لم يلحّوا على وقف اطلاق النار عندما كان حلفاؤهم يشنون هجومهم وكانوا هم وحدهم يمدّون الجسور

الجويّة والبحريّة الى منطقة الحرب ، ولكن ما ان مدّت الولايات المتحدة جسرها الجوي وشرع الاسرائيليون في هجومهم ، حتى اخذ الروس يتحركون بحيوية لوقف اطلاق النار . . في القاهرة سعى كوسيغين الى اقناع حليفه بفوائد وقف اطلاق النار حيث تتواجد الجيوش ، وفي واشنطن ردد السفير دوبرنين الشيء نفسه في مداولاته الطويلة مع كيسنجر . ولكن كما لم يكن السادات راغباً في وقف اطلاق النار بينما القوات الاسرائيلية لم تزل في الضفة الغربية من القناة كذلك فان مئير لم تكن راغبة في وقف القتال بينما القوات المصريّة متمركزة على الضفة الشرقيّة . لقد رفض الفريقان المتحاربان فكرة وقف اطلاق النار. ولكن لم يكن بوسعهما فعل اي شيء لمنعها عندما وجدت الدولتان الكبيرتان ان مصلحتهما هي في الوصول الى وقف القتال الذي اذا ما استمر من شأنه تعريضهما للمواجهة ودمار الوفاق .

خلال المرحلة الاخيرة من زيارة كوسيغين للقاهرة والتي عانى خلالها الكثير من المناقشات الحادة مع السادات طلع عليه الرئيس المصري بتساؤل على جانب كبير من الاهمية : ماذا يحصل لو وافقت القاهرة على وقف اطلاق النار عند الامكنة التي وصلت اليها الجيوش ولم توافق اسرائيل ؟ والاسوأ من ذلك : ماذا يحدث لو وافقت اسرائيل ثم اقدمت بعد ذلك على خرق وقف اطلاق النار على نطاق واسع ؟ المصادر المصريّة قالت ان كوسيغين اجاب انئذ بان الاتحاد السوفياتي يقف على استعداد لتنفيذ وقف اطلاق النار ، ولو وحده اذا ما اقتضى الأمر ذلك . ادرك السادات ان هذا ليس وعداً فارغاً فقد جرى استنفار ثلاث فرق سوفياتية محملة جواً لاستخدامها اذا اقتضت الحاجة في الشرق الاوسط . عندها قبل الرئيس المصري بالمشروع السوفياتي شرط ان تضمن روسيا تطبيقه بمساعدة اميركا او دون مساعدتها .

في تلك الليلة قام السفير السوفياتي بتسليم كيسنجر مسودة الاقتراح السوفياتي الداعي الى وقف اطلاق النار تحت اشراف الامم المتحدة . وفوجيء كيسنجر بالمطالب السوفياتية القصوى لاسيما الدعوة الى الانسحاب الاسرائيلي الكامل من « جميع الارضي العربية المحتلّة بما في ذلك القدس الشرقيّة» .

لقد كانت المطالب غير صالحة اساساً للشروع في المحادثات في نظر كيسنجر فرفضها فوراً ، وقال لدوبرنين ان مثل هذه المقترحات يؤدي إلى الطريق المسدود.

في العاشرة من صباح اليوم التالي ، حمل السفير السوفياتي الى كيسنجر دعوة من بريجنيف للمجيء الى موسكو « لاجراء مشاورات عاجلة حول الشرق الاوسط ». فالزعيم السوفياتي استخلص من تقرير كوسيغين ان القوات المصرية والسورية اصبحت في حالة غير مقبولة وانها تحتاج الى وقف إطلاق النار . وفكر كيسنجر بانه اذا لم يسافر الى موسكو فعليه ان يستعد لاستقبال غروميكو في واشنطن ، وان الوقت ثمين،

وان الاسرائيلين يستعدون للتقدم نحو دمشق لأن مدافعهم اصبحت على بعد ٢٠ ميلاً من من العاصمة السورية فيما قواتهم في الجنوب تتوغل في قلب مصر واصبحت تعدّ على الضفة الغربيّة من القناة ١٣ الف جندي و ٣٠٠ دبابة . وهكذا اصبح حال حلفاء روسيا لا تطاق . فلا بد من وقف الاسرائيلين – ثم ارغامهم على الانسحاب .

ولم يطل تفكير كيسنجر للقبول بدعوة بريجنيف وذلك لاسباب متعدّدة . فقد فكّر ، قبل كل شيء ، بانه اذا ما رفض السفر فان السوفيات قد يتوجهون مباشرة الى مجلس الأمن الدولي عارضين وقف اطلاق النار ، وان هذا الاقتراح قد ينال الأكثرية الساحقة . كما فكّر بان ذهابه الى موسكو يعني اضافة ٧٢ ساعة من القتال ، وبالشكل الذي يسمح للاسرائيليين بزيادة تحسين وضعهم العسكري . وفوق ذلك فانّه اراد ان يكون المشرف الشخصي على المفاوضات . واخيراً، وهنا النقطة الأهم ، لقد كان يعتقد ، وفقاً لما نقله اليه معاونوه الموثوقون، ان « السوفيات اصبحوا كثيري القلق والانزعاج » ، وانهم لربما بدأوا يدرسون « التدخل العسكري المنفرد لايقاف القتال». وهكذا وجد كيسنجر ان الحالة بلغت حدّاً من الخطر ينذر بشر مستطير.

بعد مشاورات مع نيكسون ابلغ كيسنجر السفير السوفياتي انه مسافر الى موسكو في تلك الليلة بعد العشاء . وكان هذا العشاء على شرف كيسنجر في دارة السفير الصيني هوانغ شن ، منافس دوبرنين في الوسط الدبلوماسي في واشنطن ، وذلك بمناسبة سفره في اواخر شهر تشرين الأول الى بكين. وهكذا تقرر ان يسافر الى موسكو في الواحدة من فجر اليوم التالي على ان لا يعلن عن الرحلة الاّ بعد اقلاعه بقليل . قضى كيسنجر طوال بعد الظهر وهو يعدّ لرحلته . فتشاور مع الرئيس الذي شاركه مخاوفه حول المقاصد السوفياتية ، وطلب من ري كلاين رئيس مخابرات وزارة الخارجيّة ان يعدّ دراسة عنها . وجمع فريق عمله : سيسكو ، اثرتون، سونينفلدت ، ايغلبرغر ، مكلوسكي ، ولورد وبعض المعاونين الآخرين . وتحدث مطولاً الى دنيتز السفير الاسرائيلي (حول حوار وقف اطلاق النار) . فقد كان كيسنجر على اطلاع على مقترحات الروس وما يقبل به المصريون ولو على مضض ، من وقف اطلاق النار حيث تواجدت القوات وربط كل شيء بانسحاب اسرائيلي الى حدود ١٩٦٧ .

رفض السفير الاسرائيلي المقترحات واعتبرها غير واقعيّة واقترح بديلاً منه وقف اطلاق نار مقرون بمفاوضات مباشرة بين الجانبين يمكن ان تؤدي الى الانسحاب والسلام. وقد استشرف كيسنجر حلاً يؤول الى المفاوضات المباشرة. ذلك انه اذا كان بريجنيف حقاً يحتاج إلى التعاون الاميركي لانقاذ العرب ، وحفاظاً على الوفاق وفوائده ، فعليه ان يدفع ثمناً غالياً .

وفيما كيسنجر يستعد للسفر ، كان نيكسون يطرح رأيه بالشكل الذي يصل الى اسماع السوفيات والعرب معاً . فقد ارسل بطلب خاص الى الكونغرس يطلب فيه الموافقة على منح اسرائيل مساعدات حربية عاجلة بقيمة مليارين و٢٠٠ مليون دولار . فللمرة الاولى منذ سنوات عديدة ، تقترح الولايات المتحدة « منح » اسرائيل وليس بيعها العتاد الحربي . قال نيكسون «ان حجم النزاع القائم مقرون بالمساعدات السوفياتية». واضاف «ان الشرق الاوسط قد اصبح نقطة احتكاك لتفجير النزاع العالمي » . « وان الولايات المتحدة تسعى جاهدة لوضع حدّ سريع وكريم للنزاع المحتدم ». وبدا ان رسالة الرئيس استهدفت تعزيز موقف كيسنجر وقدرته على المساومة في موسكو .

كان عشاء السفير الصيني مناسبة انفراج في فندق « ماي فلاور » . وقد لبى الدعوة جميع المسؤولين والصحافيين الاميركيين المرافقين لكيسنجر في رحلته العتيدة الى الصين فضلاً عن مانسفيلد زعيم الاغلبية في مجلس الشيوخ ونائب الرئيس فورد ورئيس مجلس النواب كارل البرت . ووصل كيسنجر الى المأدبة متأخراً ، نصف ساعة . اختلى فوراً بالسفير الصيني واعلمه برحلته الى موسكو ولكن لا وزير الخارجية ولا السفير اشار الى هذا الموضوع خلال تبادل الأنتخاب . وبعد تناول الطعام اختلى كيسنجر بكلّ من مانسفيلد وألبرت وفورد . ثم انطلق الى سيارته . فاستوقفه مراسل بسؤال : « هل من جديد حول الشرق الاوسط يا سيدي ؟ » ونظر كيسنجر الى المراسل ثم قال : « كلا » وهو يخفي في وجه لاعب البوكر حقيقة الموقف . وبعد نصف ساعة أعلن البيت الأبيض ان كيسنجر في طريقه الى موسكو . وحطت طائرة كيسنجر في مطار موسكو عند السابعة والنصف من مساء السبت في ٢٠ تشرين الاول . ولكنه وهو لا يزال في الطائرة تلقى برقيتين : الاولى من واشنطن والثانية من الرياض . برقية البيت الابيض كانت غير عادية على الاطلاق لأنها كانت تعطي تفويضاً من نيكسون الى كيسنجر ليوقع باسمه كل ما يراه ملائماً من اتفاقات في موسكو . فقد كان نيكسون يعرف ان كيسنجر سيعود اليه باي مسودة اتفاق يتوصل اليها في موسكو لتمهر بتوقيع الرئيس . وكان نيكسون في هذه الاثناء قد عزم على اقالة ارشيبالد كوكس، مدعي عام ووترغيت الاول ، وهو قرار من شأنه ان يؤدي الى استقالة اليوت ريتشارد سون ووليم روكيلسهوس من كبار المسؤولين في وزارة العدل. لذلك كان اما شديد الانشغال بمشكلته السياسة حتى تعذر عليه التفكير في القضايا الدبلوماسية الخارجية او كان قلقاً من اندلاع نزاع عالمي الى حدّ التخلّي عن الاجراءات الدبلوماسية العادية فيخوّل كيسنجر سلطة اتخاذ الخطوات المباشرة والملزمة باسمه. ولقد دهش وزير الخارجية من تصرّف البيت الابيض هذا ولكنه لم يدقق فيه .

اما البرقية الواردة من الرياض فقد كانت بمثابة قنبلة هيدروجنية اقتصادية ، ولو

أن كيسنجر قد استحوذ عليه كلياً موضوع الحرب ووقف اطلاق النار في الشرق الاوسط ، فلم يعرها سوى تفكير عابر . فالحكومة السعودية، المحسوبة اصلاً على الولايات المتحدة، اعلنت في اعتراضها القوي على الجسر الجوي الاميركي الى اسرائيل وعلى المساعدات التي اقترحها نيكسون على الكونغرس ، انزال العقاب بالولايات المتحدة بقطع النفط عنها . وطوال الاشهر الماضية كان الملك فيصل يهدد بانه قد يلجأ الى استعمال النفط سلاحاً في الصراع العربي ضد اسرائيل ، فضلاً عن التزامه سراً مع السادات باستخدام النفط.وفي ١٧ تشرين الأول اعلنت الدول العربية المنتجة للنفط عن تخفيض انتاجها بنسبة ١٠ بالمئة ، وفي اليوم التالي فرضت ابو ظبي حظر شحن النفط الى الولايات المتحدة ، ثم لحقت بها ليبيا يوم ١٩ تشرين الأول . والان ، في العشرين منه ، جاء دور السعودية وتلتها الجزائر والكويت . ولقد ترك حظر النفط العربي اثره البالغ في الاشهر التالية في الاقتصاد الاميركي وفي طريقة المعيشة الاميركية ، وكان من شأن ذلك ارغام كيسنجر على تصعيد مساعيه الدبلوماسية في سبيل احلال السلام محاولاً بذلك حمل العرب على رفع حظرهم .

الآ ان رحلته هذه الى موسكو كان لها هدف مباشر أكبر . فقد اراد استغلال الاستياء السوفياتي من الهجوم الاسرائيلي لترتيب وقف اطلاق نار يؤدي الى مفاوضات مباشرة بين مصر واسرائيل .

وبعد مضيّ اقل من ساعتين على وصوله ،كان كيسنجر في مكتب بريجنيف بالكرملين. وراح الرجلان يتجادلان في وسائل انهاء الحرب وانقاذ سياسة الوفاق فيما هما يتابعان التطورات على جبهات القتال . واعاد بريجنيف النظر في تقرير كوسيغين وشدد على الحاجة الى وقف فوري لاطلاق النار وحذر من خطورة الوضع المتفاقم . ووافقه كيسنجر على هذا التقدير وعلى ضرورة وقف اطلاق النار لكنه اصرّ على ربط ذلك بمحادثات سلام والآ انهار وقف اطلاق النار عند اول مناسبة . لم يجر الاتفاق على شيء ، لكن كيسنجر شعر بان بريجنيف مهتم بالمحافظة على فكرة الوفاق الدولي التي اصبحت ملازمة لسياسته ولحكمه في الاتحاد السوفياتي ، كما شعر بان المسؤول السوفياتي سيكون مستعداً لاعطاء التنازلات في الاجتماع التالي الذي تقرّر عقده بعد ظهر الاحد .

وكانت الساعة قد قاربت الثالثة صباحاً عندما استطاع كيسنجر ان يحظى بالاتصال بهيغ في البيت الابيض للتثبت من بعض المسائل المزعجة ، فوجد هيغ مشغولاً كلياً بمشكلات أخرى وعلم منه عندها « بمذبحة ليلة السبت » — الاقالات والاستقالات في وزارة العدل .

الاجتماع الثاني الذي جرى بعد ظهر الاحد بين بريجنيف وكيسنجر استغرق اربع ساعات . في هذه الاثناء كانت القوات الاسرائيلية قد تقدمت بعض الشيء باتجاه دمشق

واستمرت عمليات التطويق التي تقوم بها على الضفة الغربيّة من قناة السويس . وراح المتفاوضان يضعان الاسس لوقف اطلاق النار بالشكل الذي يؤدي الى المفاوضات المباشرة بين مصر واسرائيل . وكانت هذه بالنسبة الى وزير خارجية اميركا نتيجة مرضية جداً . فقد كان يعرف بان الاسرائيلين لن يرحبوا بوقف اطلاق نار يفرض قبل ايام قليلة يحتاجونها لالحاق الهزيمة بالجيوش المصرية والسورية ، ولكنه كان يدرك في الوقت نفسه انهم سيقدرون الفرصة المتاحة اخيراً لهم للتفاوض المباشر مع مصر. وعلى هذا الاساس ابرق كيسنجر الى غولدا مئير باسم نيكسون يدعوها الى قبول وقف اطلاق النار . « لم يكن بوسعنا الرفض » قال احد كبار المسؤولين الاسرائيليين . « ذلك بأنه لم يكن لدينا خيار . فقد كنّا ازاء طلب من رئيس الولايات المتحدة في وقت كانت اسرائيل احوج ما تكون الى الولايات المتحدة » .

اما بريجنيف فقد حصل على موافقة السادات على اجراء المفاوضات المباشرة مع اسرائيل وهو أمر لم تقبل به مصر من قبل ، ولكن بعدها أكّد له ان الاتحاد السوفياتي — في حال الضرورة — مستّعد ان يضمن المحافظة على وقف اطلاق النار حتّى لو اضطر الى القيام بذلك منفرداً .

وبعد التوصل الى الاتفاق مع بريجنيف على النص الحرفي للنداء السوفياتي الاميركي المشترك لوقف اطلاق النار تشاور كيسنجر مع غروميكو ثم تشاور مع سفراء فرنسا وبريطانيا واستراليا في موسكو حول الصيغة التي تم التفاهم عليها مع بريجنيف ، وذلك باعتبار انهم سفراء دول في مجلس الأمن ، وبالتالي ارسل تعليماته الى المندوب الاميركي سكالي في الامم المتحدة ليدعو الى اجتماع عاجل لمجلس الأمن . واجتمع المجلس في الصباح الباكر من يوم الاثنين في ٢٢ تشرين الأول ووافق بالاجماع على الدعوة الصادرة عن الدولتين الكبيرتين من أجل وقف اطلاق النار عند الاماكن التي وصلت اليها الجيوش . كان رقم القرار ٣٣٨ وهو يقضي بأن يجرى تنفيذه بعد مضي ١٢ ساعة ، اي عند الساعة السادسة والدقيقة الثانية والخمسين من مساء الاثنين بحسب توقيت الشرق الاوسط .

وغادر كيسنجر موسكو في العاشرة من قبل ظهر الاثنين الى القدس حيث امضى خمس ساعات ، ثم الى لندن حيث امضى ساعتين . وفي القدس حيث وصل ليشرح شروط اتفاق وقف اطلاق النار واجه اختباراً عاطفياً شخصياً تجلى في تحية الجماهير الحارّة له في المطار . وقد تبين ان الزعماء السياسيين والعسكريين كانوا جميعاً راغبين في انهاء الحرب ولكنهم كانوا يحتاجون الى شخص يأتمنونه للقيام بالمبادرة . وكان كيسنجر هو الشخص المؤهل لذلك على أحسن وجه .

في لندن توقف ليلخص الوضع لوزير خارجية بريطانيا آنذاك السير الك دوغلاس

هيوم واحاطته علماً بما جرى في موسكو . وهناك اطلع أول مرة من الصحف البريطانية على عمق الازمة الداخلية التي انحدر إليها نيكسون في غيابه بعد « مجزرة ليلة السبت » باقالة واستقالة كبار رجال وزارة العدل الاميركية . والى جانب هذه الاخبار المؤسفة كانت عناوين الصحف عن انباء وقف اطلاق النار في الشرق الاوسط تعطيه هو الدور الملائم . فادخلت هذه الاخبار الى نفسه الغبطة والرضى إذ عاد الى الاميركيين وسط ازمتهم الداخلية بانجازات في السياسة الخارجية تؤكد ان الولايات المتحدة ، رغم متاعب نيكسون في ووترغيت ، لم تزل هي الدولة العظمى ذات النفوذ .

وفي طريق العودة الى واشنطن راح كيسنجر يراقب اصداء وقف اطلاق النار وعمليات خرقه كما كان هو نفسه يتوقعها . لكنه كان مقتنعاً ان بالامكان السيطرة عليها،وان الوقت ربما كان يقترب سريعاً من امكان تدخله المباشر في رعاية تسوية بين مصر واسرائيل .

ووصل الى واشنطن في الثالثة من صباح الثلاثاء ٢٣ تشرين الأول. إن كيسنجر الذي اعتاد النوم القليل في اثناء التحديات الكبرى لم يكد ينهي فطوره حتّى جاءه هاتف مستعجل من السفارة السوفياتية يشكو من ان الاسرائيليين قد خرقوا وقف اطلاق النار على نطاق واسع . وعلى الفور هتف للسفير الاسرائيلي وقال له « يا لجهنم ، ما دهاكم ، ماذا تفعلون ؟ » . لقد اخذ كيسنجر وعداً من غولدا مئير باحترام وقف اطلاق النار وابلغ السوفيات بذلك وهو يخشى الان ان يتهمه السوفيات بالتلاعب عليهم مما يحطّ من دوره كوسيط . واجاب السفير الاسرائيلي بان المصريين وليس الاسرائيليين هم الذين خرقوا وقف اطلاق النار ، لكن كيسنجر افهمه بوجوب الاتصال فوراً بغولدا مئير وابلاغها ان الولايات المتحدة تريدها ان تتقيد بالاتفاق بكل دقّة .

ثم انصرف كيسنجر الى مراجعة الوضع مع خبرائه في المخابرات . فأكدّوا له كلام السفير الاسرائيلي كما أكدّوا في الوقت نفسه ان الاسرائيليين استغلّوا بعض الحالات الصغيرة للخرق المصري لوقف اطلاق النار ليشنوا هجوماً على نطاق واسع مستهدفين توسيع رقعة احتلالهم على الضفة الغربيّة . والظاهر ان قائد الجيش المصري الثالث المطوق على الضفة الشرقية المقابلة لمدينة السويس تجاهل اوامر القاهرة وحاول فتح ثغرة في الطوق الاسرائيلي المضروب حوله . وانطلاقاً من هذا التصرفّ ، عمد الاسرائيليون الى توسيع رقعة احتلالهم مشدّدين ضغطهم العسكري على ضفتي القناة ومتجهين صوب مدينة السويس بالذات معتبرين ان سقوط المدينة في ايديهم يحرم المصريين من امكان تزويد الجيش المصري الثالث بما يحتاج إليه من امدادات .

قرر كيسنجر ان يوقف الاسرائيليين وينقذ الجيش الثالث وبالتالي يضمن قيام

التوازن الحربي ببقاء المصريين في الضفة الشرقية والاسرائيليين في الضفة الغربيّة .

والواقع انه كان منذ بداية هذه الحرب غير راغب في تشجيع الاسرائيليين على تحقيق اي انتصار ساحق شبيه بانتصار ١٩٦٧ لأن ذلك لا يدعم المساعي الرامية الى تحقيق السلام بل يكون نواة متفجّرة لحرب جديدة . ومن جهة ثانية فان اي انتصار كاسح لاسرائيل سيزيد من عزلتها وسيقوي ، في ضوء علاقات اميركا الحميمة باسرائيل ، الحملة المعادية للولايات المتحدة في العالم العربي ويصعدّها . وفوق هذا كله فان حظر شحن النفط العربي الى الولايات المتحدة قد ينقلب من سلاح تكتيكي الى سياسة عربية مستقلة ثابتة . واخيراً ، اذا استطاع كيسنجر ان يكون مقبولاً كوسيط بين الطرفين في الشرق الاوسط ، فعليه ان يثبت تجرّده وعدم انحيازه . وان انقاذ الجيش الثالث هو المحك له ولسياسته .

وعاد كيسنجر الى الاتصال مراراً بالسفير الاسرائيلي مستخدماً الترجي والتمني جنباً الى جنب الضغوط والتهديد بغية افهامه منطقه هذا وسياسته النابعة من هذا المنطق .

وابلغ في الوقت نفسه السفير السوفياتي بانه يتوقع من السوفيات ممارسة الضغط نفسه على المصريين . وكرّر كيسنجر ما بات بديهية من أن تتابع خرق وقف اطلاق النار من الجانبين من شأنه، فضلاً عما يلحق بهما من اذى، الاساءة الى الوفاق .

اما علناً فقد رفض الناطقون بلسان الحكومة الاميركية الاشارة باصبع الاتهام الى اسرائيل او مصر وكانوا يدركون انه من ناحية واقعية يصعب ضبط اطلاق النار كما تضبط الساعة . غير انه في الغسق اخذ عدد عمليات الخرق يتضاءل لكن قلق كيسنجر تصاعد ، فبادر الى الغاء رحلة كان يزمع القيام بها الى الصين لأن التطورات الجديدة اقضت مضجعة . لقد افادت تقارير المخابرات ان ثمة تناقصاً هائلاً في عدد الطائرات السوفياتية التي تنقل العتاد الى مصر وسوريا . وان العدد هبط من ٧٠ طائرة يومياً الى ٦ طائرات ، يضاف الى ذلك ان الاستخبارات التقطت اشارات من اوكرانيا تفيد عن حالة تأهب وضعت فيها بعض الوحدات السوفياتية المقاتلة ووحدات النقل .

في تلك الليلة نفسها عكف كيسنجر والسفير السوفياتي ، وراء الكواليس ، على تهيئة دعوة ثانية من جانب مجلس الأمن الدولي لوقف اطلاق النار . والواقع ان القرار الثاني بهذا المعنى صدر في الساعة الاولى من صباح الاربعاء في ٢٤ تشرين الاول بتوقيت واشنطن.

ولكن في هذه الاثناء ، أعلن الاسرائيليون انهم وصلوا الى مشارف مدينة السويس وان الجيش المصري قد اصبح في حالة حصار فعلاً . عندما بلغ كيسنجر النبأ هاج غضباً . وهذه المرّة عندما اتصل بالسفير الاسرائيلي هاتفياً لم يعل صوته كالمعتاد بل كان ناعماً الى حد فائق والى الحدّ الذي اخاف السفير . جل ما قاله ان وقف اطلاق النار يجب ان يحترم وحث السفير على السماح للقوافل المحملة بالحاجات

الانسانية – بالطعام والمياه والدواء – بالوصول الى الجيش المصري الثالث .

قبل ظهر الاربعاء، وبعد مزيد من المحادثات مع كل من السفيرين الاسرائيلي والسوفياتي ، ذهب كيسنجر الى البيت الابيض لحضور اجتماع مهم هناك حيث علم بامر بعض التحركات السوفياتية العسكريّة . فقد وضعت اربع فرق سوفياتية كاملة يبلغ عددها خمسين الف جندي على أهبة الاستعداد . وفوق ذلك فان خمس سفن شحن سوفياتية أوست قد عبرت الى البحر المتوسط مما جعل عدد السفن السوفياتية في هذا البحر ٨٥ قطعة ، وهو وجود سوفياتي في المنطقة لم يسبق له مثيل .

كذلك لوحظ توجه عدد وفير من طائرات انتونوف – ٢٢ السوفياتية الضخمة الى القاهرة. وراح بعض المحليين من الحاضرين يتساءل هل كانت هذه الطائرات تنقل فعلاً القوات السوفياتية . واقيم مركز قيادة في جنوبي روسيا . واخيراً فقد تم التقاط الاشارات التي تفيد ان الاوامر ربما تكون قد اعطيت للتدخل العسكري السوفياتي المباشر في الشرق الاوسط .

وتبادل كيسنجر والسفير السوفياتي الحديث على الهاتف في مخابرة لها طابع طارىء . فقد اراد كيسنجر ان يختبر ما اذا كان السفير قد بدأ يتحدث بلهجة قاسية تنّم عن موقع قوة جديد . ولكن وزير الخارجية لم يتثبت من اي انطباع من هذا النوع .

في الثانية من بعد الظهر توجه السادات على الراديو بنداء الى نيكسون وبريجنيف يحثّهما على ارسال قوة اميركية – سوفياتية مشتركة للمحافظة على السلام في الشرق الاوسط ، متهماً اسرائيل بمواصلتها خرق وقف اطلاق النار . رفض كيسنجر هذا النداء لأنه كان يعارض فكرة ارسال قوات مسلحة تابعة للدول الكبرى الى منطقة مضطربة ، وعلى اعتبار ان وجود مثل هذه القوات لن يؤدي الاّ الى زيادة التوتر .

في الرابعة والربع من بعد الظهر وصل السفير السوفياتي الى مكتب كيسنجر في وزارة الخارجية للبحث في ترتيب مؤتمر جنيف . وخلال هذا الاجتماع اتصل المندوب الاميركي لدى الامم المتحدة مرتين : في المرة الاولى ليقول ان مجلس الأمن سيجتمع بعد قليل ، وفي المرة الثانية ليقول ان دول عدم الانحياز تنادي بوجوب القبول بنداء السادات . وعلى الفور انذر كيسنجر السفير السوفياتي بان الولايات المتحدة تعارض ارسال قوة اميركية – سوفياتية مشتركة الى الشرق الاوسط ، فرد عليه السفير بأنه ليست لدى السفير السوفياتي في الامم المتحدة جاكوب ماليك اية تعليمات من حكومته لدعم الدعوة الى تشكيل هذه القوة . وانصرف السفير دوبرنين .

في السابعة مساء هتف السفير دوبرنين ليقول لكيسنجر انه لم يقصد تضليله عن عمد. وقال بانه وجد ان ماليك تلقى فعلاً تعليمات بدعم دعوة دول عدم الانحياز الى تشكيل

قوة رادعة من الدول الكبرى، فقال كيسنجر ان الروس هم الذين يشجعون فعلاً هذه الدعوة وحثّ السفير بلهجة واضحة على اعلام موسكو بان الولايات المتحدة تعارض معارضة شديدة هذا الاتجاه .

وعلى الفور ابلغ كيسنجر نيكسون بانه يبدو على السوفيات انهم متذبذبون ، فرد الرئيس بانه هو بدوره يعارض تشكيل قوة مشتركة من الدول الكبرى لحفظ السلام في المنطقة .

في السابعة والدقيقة الخامسة والعشرين اتصل كيسنجر هاتفياً بالسفير دوبرنين ليؤكد له بالدرجة الاولى وجهة نظر الرئيس حول هذا الموضوع . الاّ ان السفير السوفياتي اضاف ملاحظة مزعجة وهي ان زميله في الامم المتحدة جاكوب ماليك قد لا ينتظر دول عدم الانحياز لتقديم الاقتراح المشار اليه بل قد يبادر هو الى تقديم الاقتراح بنفسه . وحرص دوبرنين على القول ان الاسرائيليين لا يزالون يخرقون وقف اطلاق النار وان الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي مسؤولان عن المحافظة على وقف اطلاق النار . وكرر كيسنجر معارضته للاقتراح وحذر من ان البلدين يسيران في اتجاهين متناقضين مما يؤدي بهما الى متاعب مرتقبة .

في التاسعة والدقيقة الخامسة والعشرين هتف دوبرنين لكيسنجر ليبلغه رسالة « مستعجلة جداً » من بريجنيف الى نيكسون . وقد ادت هذه الرسالة خلال ساعات قليلة الى جعل الدولتين العظميين وكأنهما على شفير مجابهة مباشرة . وقد كانت العادة ألاّ يقرأ دوبرنين الرسائل على الهاتف ، ولكنه هذه المرة قال بان الامر في « غاية الاستعجال » بحيث سيضطر الى سلوك هذا المسلك الاستثنائي ، واخذ يملي الرسالة ببطء على كيسنجر بينما تولت سكرتيرة تصغي على السماعة الاخرى كتابة النص الذي يبلغ اربع صفحات مختزلة . استهلّت الرسالة بتحية باردة غير عادية : « السيد الرئيس » بدلاً من المطلع الذي دأب بريجنيف على استهلال رسائله الى نيكسون وهو « عزيزي السيد الرئيس » . اما النص فقد كان قاسياً بشكل غير عادي . لقد استنكر الزعيم السوفياتي تصرف اسرائيل « في التحدي السافر للولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي معاً » ، وفي خرق وقف اطلاق النار « كلياً » ، ثم ردّد نداء السادات . ومضى الزعيم السوفياتي يقول : « دعونا نعمل معاً على ارسال قوات اميركية وسوفياتية الى مصر » لان وقف اطلاق النار يجب الحفاظ عليه « دون ابطاء » . ثم اطلق بريجنيف قنبلته بقوله : « انني سأقول صراحة انكم اذا كنتم لا تجدون من الممكن العمل معاً في هذه القضية ، فاننا نرى انفسنا مضطرين تحت ضغط الضرورة الملحّة الى درس مسألة اتخاذ الخطوات الملائمة من جانب واحد . اننا لن نسمح لاسرائيل بالاستمرار في الانتهاكات دون حساب » .

ولاحظ كيسنجر على الفور اهمية الانذار وجدية بريجنيف . فقد انتزع الزعيم السوفياتي موافقة السادات على وقف اطلاق النار مقروناً بالمحادثات المباشرة مع اسرائيل ، انما بشرط ان تبادر الدولتان العظميان — او روسيا وحدها — الى ضمان وقف اطلاق النار . وحصل على تعهد كيسنجر بان تحترم اسرائيل وقف اطلاق النار . والان بعد اربعة ايام قطعت اسرائيل الطريق الى مدينة السويس مما ادى فعلاً الى محاصرة الجيش الثالث بحيث اصبحت افضل قوى الجيش المصري مهددة بالافناء . وكان كيسنجر واثقاً من أن بريجنيف لن « يتحمل » انتصاراً اسرائيلياً حاسماً آخر على مصر . كما كان كيسنجر مدركاً ان الولايات المتحدة من جهة ثانية لا تستطيع القبول بتدخل سوفياتي منفرد . وهكذا فالولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي يسيران باتجاه المواجهة .

بعد مرور عشر دقائق على تلقي الرسالة بالهاتف ، اتصل كيسنجر بالسفير دوبرنين وسأله عما اذا كان نصّها هو فعلاً كما ورده ، وقرأ النص عليه مجدداً ، فاجاب دوبرنين بالايجاب واضاف ان موسكو تنتظر الجواب فوراً . ولكن كيسنجر قال له باحترام بالغ ان الولايات المتحدة تعرف متى يتوجب عليها اعطاء الجواب فلا « يحشرها » احد . وسارع كيسنجر الى مخابرة نيكسون وقرأ عليه نص الرسالة هاتفياً واشار الى انه ربما اصبح على الولايات المتحدة الان ان تضع بعض قواتها في حالة التأهب والاستنفار للحيلولة دون الخطوة السوفياتية المنفردة . ووافق نيكسون وخوّل كيسنجر صلاحية وضع الرد الاميركي على الرسالة قائلاً انه تحت التصرف اذا ما نشبت مصاعب جديدة .

وعلى الفور بادر كيسنجر الى عقد اجتماعات عمل لخبراء دبلوماسيين وعسكريين لدرس رسالة بريجنيف وتقييم المقاصد السوفياتية على حقيقتها . فتوزعوا على النحو التالي : سونينفلدت اجتمع بمجموعة صغيرة من الخبراء في الشؤون الروسية في البيت الابيض وسيسكو مع مجموعة خبراء الشرق الاوسط في وزارة الخارجية ، ودافيد بوبر مساعد وزير الخارجية حينئذ للمنظمات الدولية مع مجموعة من الخبراء في قضايا الامم المتحدة . وبينما كانت هذه المجموعات الثلاث تراجع بسرعة معلومات المخابرات المتراكمة ، كان كيسنجر بصفته مستشار الامن القومي في البيت الابيض يستدعي الى جلسة طارئة مستشاري الرئيس الكبار شليزنغر وكولبي ومورروهيغ وسكوكروفت الذين اجتمعوا في البيت الابيض في الحادية عشرة ليلاً .

وكان كيسنجر في ذلك الوقت قد تلقى رأي الخبراء القائل ان ثمة « ارجحية كبرى » أن يحدث « تحرك سوفياتي منفرد » . فاعلم مستشاري الرئيس الكبار برأي الخبراء ثم وزّع عليهم نسخاً من اتصالات بريجنيف المتوالية مضافاً اليها

رسالته الاخيرة وطلب الى الحضور ان يبدي كل منهم رأيه في مجموعة الوثائق والمعلومات . فاجمعوا دون استثناء على ان لهجة الرسالة التي تلقتها الخارجية الاميركية ليلتئذ « مختلف كلياً » عن الاتصالات السابقة — وهي «قاسية» و «صريحة» و «لا تترك مجالاً للخيال والتخمين » . وبينما زملاؤه يتداولون في الرد الاميركي الملائم قام كيسنجر بالاتصال بدوبرنين وحثّه على ان لا تلجأ موسكو الى التسرّع « باي تصرف منفرد » على الاقل قبل وضع الولايات المتحدة جوابها عن رسالة بريجنيف .

وجاء جواب الولايات المتحدة في جزئين : عسكري ودبلوماسي .

الجزء العسكري كان بمثابة استنفار لقوات الولايات المتحدة الحربيّة — البريّة والبحرية والجويّة وكذلك النووية . ففي ضوء ان الخبراء قد خلصوا الى وجود « ارجحية كبرى » لاقلاع قوات سوفياتية محملة جواً الى الشرق الاوسط ، قرّر وزير الخارجية على الفور وجوب استنفار الولايات المتحدة لكافة قواتها . فوافق شليزنغر على ذلك لأنه شعر مع كيسنجر بان الواجب يقضي بافهام الاتحاد السوفياتي اصرار الولايات المتحدة على مقاومة جهوده لقلب توازن القوى ضد اسرائيل .

في الحادية عشرة والنصف ابلغ شليزنغر مورر باعلام رؤساء القوات استنفار معظم القيادات العسكرية جميعها . وبعد ساعتين عاد شليزنغر الى البنتاغون ووسع نطاق الاستنفار فارسلت حاملة الطائرات جون كيندي المحملة بعشرات طائرات أ ٤ النفاثة الهجومية الى المتوسط وأمرت بين الخمسين والستين قاذفة ب—٢ من غوام بالتوجه الى الولايات المتحدة . واضيفت الى الاستنفار الفرقة ٨٢ المحملّة جواً والمتمركزة في فورت براغ — شمالي كارولينا وطلب منها ان تكون مستعدة في السادسة صباحاً يوم الخميس اذا اقتضت الضرورات .

واخيراً وضعت القيادة الجوية الاستراتجية بكاملها في حالة الاستنفار . وكان استنفار هذه القيادة اشارة حاسمة بالنسبة الى الروس لأنها تسيطر على القوى النووية الضاربة .

ان حالات الاستنفار العسكريّة تتراوح بين خمس مراتب ، والمرتبة الخامسة هي حالة الحرب. وفي تلك الليلة بلغ الاستنفار المرتبة الثالثة. لكن القيادة الجويّة الاستراتيجية التي هي عادة في المرتبة الرابعة ، رفعت الى الحالة الخامسة، بينما وضعت قيادة غواصات البولاريس النووية في المرتبة الثالثة في تلك الليلة . اما الاسطول السادس الذي يبحر في المتوسط فقد كان في المرتبة الثانية من التأهب وابقى فيها .

اما الجزء الدبلوماسي من جواب الولايات المتحدة على بريجنيف فقد وضعه كيسنجر باسم الرئيس بعد التشاور معه ومع شليزنغر والجنرال هيغ . فقد أكدت الرسالة

الجوابية التفاهم الذي توصل اليه بريجنيف وكيسنجر على ان تعمل الدولتان الكبريان على تأمين السلام في الشرق الاوسط ، كما عارضت زعم بريجنيف بان اسرائيل تخرق وقف اطلاق النار خرقاً فاضحاً . وبالفعل فانه في ليل الاربعاء كانت الانتهاكات لوقف اطلاق النار من الجانبين قليلة . ومضت الرسالة تقول ان الحالة لا تستدعي ارسال قوات سوفياتية او اميركية الى الشرق الاوسط ، وان فكرة قيام احدى الدولتين العظميين بخطوةٍ منفردةٍ تحدث قلقاً بالغاً في العالم كلّه ، وان الولايات المتحدة لا تستطيع قبول مثل هذا التصرف من الاتحاد السوفياتي لان ذلك يؤول الى تصديع الوفاق بين الدولتين . وركزت رسالة نيكسون على بديل من التدخل من أي من الدولتين وهو ارسال مراقبين وقوات من الأمم المتحدة لحفظ السلام مؤلفة من قوات الدول الأعضاء من غير الدول التي تملك حق الفيتو او القوة النووية . في مثل هذه الحال تتعهّد الولايات المتحدة بالتعاون مع الاتحاد السوفياتي . وأغفلت الرسالة الجوابية مسألة استنفار القوات الاميركية . فقد اعتبر اثارة الموضوع غير ضروري . « ان الاستنفار بحد ذاته » كما قال احد المسؤولين « كان اشارة نعرف انهم يتلقونها بواسطة مخابراتهم الالكترونية » .

مما يثير الدهشة ان أزمة حادة من هذا العيار كانت موضع اهتمام وزير الخارجية البالغ لم تؤدِ مع ذلك الى اجتماعه مع الرئيس في تلك الليلة . فقد انزوى نيكسون في الطابق العلوي بينما كان مستشاروه يتداولون في الطابق الاسفل. وقد تكلّم اليه كيسنجر على الهاتف مرة واحدة فقط في تلك الليلة . اما باقي الاتصالات فكانت تجري بواسطة هيغ . وكان آخرها في الثانية صباحاً اعداداً للقاء في صباح اليوم التالي بين كيسنجر والرئيس وهيغ في السابعة والنصف .

قبل ان يغادر كيسنجر البيت الأبيض بدأ يبلغ الدول الأطلسية الحليفة . لكن لوحظ ان السفير البريطاني في واشنطن اللورد كرومر كان في مزاج خاص، فقال لكيسنجر : « لماذا تبلّغنا نحن بقراراتك يا هنري ، بلّغ أصدقاءك الروس ! » . ثم ارسل كيسنجر برقية الى بروكسل ، مركز قيادة الحلف الأطلسي طالباً الى الموظفين الاميركيين إعلام الحلفاء الاطلسيين بالاستنفار الاميركي . ولكن نظراً لانهيار نظام اتصالات القيادة الأطلسية ، استغرق ابلاغها بضع ساعات . وكان آخر اتصالات كيسنجر بالسفير الاسرائيلي .

في السابعة صباحاً أدار كيسنجر جهاز التلفزيون ليصغي الى الأنباء . فكانت دهشته جهنّمية ، كما قال لاحقاً ، عندما اكتشف ان الولايات المتحدة كلها قد عرفت بالاستنفار النووي . وكان يعتقد سابقاً أن نبأ كهذا لن يصبح شائعاً قبل أربعة وعشرين ساعة مما يتيح للاحداث ان تتبلور فاما ان تقع أزمة عالمية تبرّره او في حال عدم وقوعها يجري تخفيفه . ولم يكن اخفاء مثل هذه الأنباء عن الجمهور نهجاً جديداً للحكومة او وزير

الخارجية .

وفيما كيسنجر يصل الى البيت الأبيض في السابعة والنصف صباحاً للاجتماع بنيكسون ، كانت وكالة المخابرات المركزية قد تسلّمت خبراً مفاده ان مصر ربما حصلت على أسلحة نووية من الاتحاد السوفياتي . ذلك ان طائرات التجسّس الاميركية كانت في الأيام الأخيرة تراقب سفينة سوفياتية متّجهة الى مصر وهي محمّلة بمواد ذات اشعاع ذري . وقد وصلت السفينة الى بور سعيد صباح ٢٥ تشرين الأول ورجّح الخبراء ان تكون هذه المواد عبارة عن رؤوس نووية ارسلت الى مصر ليجري تركيبها على صواريخ سكود التي سبق ان وصلت الى مصر خلال العام . ولم يتوصل الخبراء الى معلومـات حاسمة حول ما اذا كانت هذه المواد ذات الإشعاع الذري قد جرى افراغها .

عزّز خبر الاستخبارات هذا الاعتقاد لدى كيسنجر بان السوفيات سيرسلـون قواتهم الى مصر وان الأسلحة النووية ربما كانت ستستخدمها القوات السوفياتية الآتية. لكنه من جهة ثانية لم يستطع نفي امكان آخر وهو ان يكون السوفيات قد نقلوا هذه الرؤوس النووية الى مصر نظراً لاعتقادهم ان اسرائيل حصلت على مثل هذه الأسلحة النووية هي الأخرى وتنوي استخدامها ضد مصر . ولم تكن لدى الولايات المتحدة معلومات أكيدة عن امتلاك اسرائيل أسلحة نووية لذلك كلّف كيسنجر الخبراء والأجهزة بدرس امكانات اسرائيل النووية .

ودرس كيسنجر الأمور من جميع جوانبها مع نيكسون وهيغ وتوصل الثلاثة في هذا الاجتماع الصباحي ، اولاً الى ان الولايات المتحدة لن تقبل بتشكيل قوّة سلام في الشرق الأوسط من جيوش الدول الكبرى وستسعى لحمل الأمم المتحدة على تشكيل قوة سلام تستثنى منها الدول الكبيرة (ولكن مجلس الأمن كان في ذلك الصباح يدرس تشكيل قوة لا تقتصر على الدول الكبرى ولكنها لا تستثنيها) ؛ ثانياً تقرر وجوب اقناع اسرائيل بعدم الاستمرار في خرق وقف اطلاق النار ؛ ثالثاً الاستمرار في اقامة الجسر الجوي الاميركي الى اسرائيل حتّى تعوض من كل ما خسرته في الحرب ؛ رابعاً وأخيراً ان يعقد كيسنجر مؤتمراً صحافياً لشرح الاستنفار النووي وملابساته ، وان يؤجّل نيكسون مؤتمره الصحافي الذي كان ينوي عقده للحديث عن بعض جوانب ووترغيت واقالته كوكس ، يوماً او يومين .

عندما استيقظت اميركا ذاك الصباح وذهب شعبها الى العمل ، كان قد علم من تقارير الانباء ان قوات الولايات المتحدة النووية قد استنفرت في العالم كله وذلك في مسرحية تهدف الى الحيلولة دون اقدام روسيا على خطوة منفردة في الشرق الأوسط. وكان لنبأ الاستنفار وقع صاعقة نشرت بروقها على افق اكتنفه ظلام شكوك ووترغيت . فكان يصعب بالنسبة للعديد من الناس الذين عقلت الدهشة السنتهم عند سماعهم « بمجزرة

ليلة السبت » القضائية ، الفصل بين فضائح ووترغيت وعملية الاستنفار النووي الاخيرة ، لا سيما وانه في اليوم السابق لهذا الاستنفار كان قد ادلى ناطق رسمي ببيان أعلن فيه هبوط عمليات انتهاك وقف اطلاق النار . فساد اعتقاد سواء في اواسط كابيتول هيل (الكونغرس) او وكالات الانباء او قيادات الحزبين الجمهوري والديمقراطي على حد سواء أن السبب الكامن وراء الاستنفار محاولة من الرئيس لصرف الانتباه عن ووترغيت .

وكان كيسنجر يصر دوماً على ان مسألة ووترغيت لم تدخل في ذهنه اطلاقاً عندما اصدر الأمر بالاستنفار وانما مستلزمات الدبلوماسية وحدها هي التي اقتضت هذا الأمر . من هنا كانت صدمته بالغة في المؤتمر الصحافي الذي عقده وظهر له من الاسئلة ان ثمة ربطاً بين ووترغيت والانذار النووي . من هذه الاسئلة مثلاً : « السيد الوزير ، هل بامكانكم اعلامنا ما اذا كانت الولايات المتحدة قد تلقت انذاراً محدداً من الاتحـاد السوفياتي بانه سيرسل قواته بصورة منفردة الى الشرق الأوسط ؟ وهل توافرت لديكم معلومات بان الروس كانوا يهيئون لمثل هذه الخطوة فعلاً ؟ ان السبب الكامن وراء اسئلتي ، هو كما تعلمون، ما شاع من تخمينات في هذا الصباح بان الاستنفار قد حدث ربما تحت ضغط مستلزمات السياسة المحليّة بقدر ما هو تحت ضغط مستلزمات الدبلوماسية في الشرق الأوسط . وانني اتمنى أن يكون بوسعكم اضافة معلومات جديدة الى الصورة » .

وجاء جواب كيسنجر ، كما وصفت ذلك فيما بعد المعلقة اليزابث درو ، « مشوباً بنبرة حزينة » فقال : « مارفن اننا نحاول تسيير سياسة الولايات المتحدة الخارجيّة في ضوء ما نحن ملزمون به ليس فقط بالنسبة للناخبين بل بالنسبة الى الأجيال الصاعدة . وان من أعراض ما يعانيه بلدنا ان نسمع هذا الربط بين مشكلات داخلية وامكان استنفار الولايات المتحدة لقواتها النووية . ليس بمقدورنا الآن بعد كشف المراسلات الدبلوماسية بالتفصيل ، ولكن سيأتي وقت نكشف تفاصيل أكثر فتجدون ان الرئيس لم يكن أمامه سوى هذا الخيار » . وعندما تكرّر هذا السؤال بشكل او بآخر ، خرج كيسنجر عن طوره وأخذ يكلم الصحافيين بحدة : « اننا نحاول الحفاظ على السلام في ظروف بالغة الصعوبة. وانه يعود اليكم ، سيداتي سادتي، ان تقرروا ما اذا كنتم ستنقلون عدوى الشكوك الى حقل السياسة الخارجيّة ايضاً » . وبدا واضحاً من رد كيسنجر — ولو في حمى الجدل — ان نيكسون كان يعتقد ان الصحافة قد خلقت « أزمة شكوك » في الحقل الداخلي ، بحيث ان كيسنجر خشي انتقال عدواها الى السياسة الخارجيّة .

وتحت الحاح الصحافيين تعهّد كيسنجر بوضع الحقائق في تصرفهم خلال اسبوع ولكنه لم ينفذ تعهده نظراً لحرصه على عدم ارباك الروس الذين كان بحاجة الى المزيد من

تعاونهم في تلك المرحلة .

وحاول وزير الخارجيّة خلال المؤتمر الذي استمر ساعة واحدة ان يجمع بين الليونة والحزم . فبعد توكيد نبأ الاستنفار أنذر الروس بعدم ارسال قواتهم الى الشرق الأوسط وان لا يتوقعوا انضمام الولايات المتحدة الى قوة ثنائية من البلدين للحفاظ على السلام في تلك المنطقة لأن مثل هذا الاجراء من شأنه «زرع التنافس القائم بين الدولتين العظميين في الشرق الأوسط » مما قد يؤدي الى مواجهة نووية . « اننا نملك معاً من الطاقة النووية ما يستأصل الجنس البشري بكامله ، وان واجبنا الحرص على حصر المواجهات ضمن الحدود التي لا تهدد البشرية ومدنيتها ، وان ندرك كلانا ، ان المشكلات التي تختلف فيها الآن لا تجيز ولا تبرر ارتكاب كارثة تدمير البشرية بحرب نووية » . وكانت ملاحظات كيسنجر تنقل حيّة في التلفزيون وعبر الاذاعة. وتأخرت جلسة مجلس الأمن لأن المندوبين كانوا يلاحقونه بانتباه زائد . وقد أدّى هذا التأخير الى نتيجة مهمة اذ أتاح لجاكوب ماليك الاتصال بموسكو وطلب تعليمات جديدة .

وكان كيسنجر بعد الحزم في مؤتمره الصحافي قد مدّ غصن الزيتون : « اننا لا نعتبر أنفسنا في حالة مواجهة مع الاتحاد السوفياتي . ولا نعتقد ان ذلك ضرورياً . فأي من بلدينا لم يهدّد الآخر . وليس هناك أزمة صواريخ » . وأعرب عن أمله في استمرار الوفاق وسياسته الثمينة وانتصارهما على الأزمة العابرة . واعتبر أن ذلك ممكناً « اذا استطعنا مع الاتحاد السوفياتي التوصل الى اتفاق وقف النار ومن ثم الانطلاق الى تسوية دائمة في الشرق الأوسط » .

استعمل كيسنجر خلال المؤتمر الصحافي الحديث الناعم الموجه الى الروس لحثهم على الخروج من المواجهة بعد الاعلان عن الاستنفار الاميركي . وتلك كانت سياسة كيسنجر الكلاسيكية : المزج بين الشدّة التي توقف الخصم عند حدّه، مقرونة بالمرونة الكافية لافساح المجال أمام هذا الخصم في خيار الخروج من المأزق دون اراقة ماء الوجه . وأصبحت تعليمات ماليك الجديدة واضحة بعد أن عاد كيسنجر من مؤتمره الصحافي الى مكتبه في وزارة الخارجيّة . ويبدو أن لعبة النفوذ في الشرق الأوسط كانت باهظة التكاليف للاتحاد السوفياتي بحيث سعى بريجنيف الى تسوية تنقذ ماء الوجه عبر الأمم المتحدة ، فجاء جوابه الى ماليك بتخفيف الاصرار على المطالبة بقوات من الدول الكبرى لحفظ السلام في الشرق الأوسط والقبول بالصيغة الاميركية القائلة باستثناء هذه الدول منها . وأعلم ماليك سكالي بالأمر الجديد . وسكالي بدوره أنبأ كيسنجر الذي قام باعلام الرئيس .

ومع ان الجواب السوفياتي الجديد لم يكن يعني تخلّي السوفيات عن فكرة ارسال قواتهم الى مصر ، الاّ أن الأزمة انحلت على مهل وتوصّل مجلس الأمن الى اتخاذ

القرار ٣٤٠ القاضي بتشكيل قوة دولية « مؤلفة من أشخاص يؤخذون من الدول الأعضاء في الأمم المتحدة التي ليست لها عضوية دائمة في مجلس الأمن » . وجاء التصويت على هذا القرار بأربعة عشرة صوتاً ضد لا شيء ، وامتنعت الصين .

وهكذا فالدولتان العظميان، بحسب وصف موري ماردر، « مرّتا في ظلال أزمة كبرى » ، وبعد تمارين مرعبة من عرض العضلات النووية عادتا الى نطاق الوفاق الدولي الآمن . وفي اليوم التالي ، ٢٦ تشرين الأول، خفف شليزنغر بعد التشاور مع نيكسون وكيسنجر من درجة الاستنفار النووي ، وعاد سيف اميركا النووي الى غمده .

الاّ ان السرعة التي تمّ فيها الاستنفار ثم السرعة التي خففت بها درجته ، خلقتا عند كثيرين الانطباع بان كيسنجر تسرّع كثيراً في تفسيراته الشخصيّة كما خلق عند الحلفاء الاطلسيين ردة الفعل المعروفة ضد الولايات المتحدة لأنها لم تستشر أحداً في مسألة تمس عدداً كبيراً من الدول الأخرى في العالم ، فاتّهموا كيسنجر « بالتصرّف الفوقي » ورد عليهم كيسنجر بعنف . الاّ ان انتقاد تصرّف وزير الخارجيّة لم يقتصر على الأجانب اذ صدرت انتقادات عن مصادر مقرّبة . فقد ناقش شليزنغر علناً تصوّر كيسنجر للاحداث . وقال وزير الدفاع في مؤتمر صحافي عقده في البنتاغون بان تقيم امكان التدخل السوفياتي كان مختلفاً ، كما ان ردود الفعل عليه تباينت . ورغم ادعاء كيسنجر بان مستشاري الرئيس الكبار قد أجمعوا على ترجيح الخطوة السوفياتية المنفردة فقد قال شليزنغر : « أعتقد ان البعض أعطى لتوجّه القوات السوفياتية امكاناً ضئيلاً » .

كما تصدّى رئيس البنتاغون لقول كيسنجر انه لم يكن لووترغيت اي أثر في قرار استنفار اميركا فقال ان هذا الاستنفار قد بعث اوهاماً حول هذا الموضوع نظراً للظروف السائدة . الاّ انه اذا كان شليزنغر قد وجد تناقضاً بين تفسيره وبعض تفسيرات كيسنجر للاستنفار فانه قد وجد هو وكيسنجر وغيرهم كثيرون تناقضات أوسع مع تفسيرات نيكسون . ففي عشية اليوم التالي عندما انطوى خطر المواجهة السوفياتية الاميركية عقد الرئيس ندوة تلفزيونية رئيسة خصصها لدفاع مشوب بالعاطفة المتوثبة عن تصرفاته في قضية ووترغيت وشن فيها هجوماً كاسحاً ضد الصحافة . واسترعى انتباه المراقبين هذا التناقض الواسع بين تفسير كل من نيكسون وكيسنجر لمسألة الاستنفار . فبينما اعتبر كيسنجر ان التصرّف السوفياتي شابه بعض الغموض لم ير نيكسون اي غموض فيه.« لقد حصلنا على معلومات حملتنا على الاعتقاد ان الاتحاد السوفياتي يخطّط لارسال قوة عسكرية كبرى الى الشرق الأوسط » ، هكذا قال نيكسون .

وبينما قال كيسنجر إن أياً من الطرفين لم يهدّد الآخر أشار نيكسون الى ان التهديدات قد حصلت فعلاً . وبينما قال كيسنجر ان « أزمة على غرار أزمة الصواريخ لم تحدث ، وصف نيكسون ما حصل بانه « أخطر أزمة واجهتنا منذ أزمة صواريخ

كوبا في ١٩٦٢ » .

هذه التباينات قادت بعض المراقبين ، ومنهم توماس هيوز رئيس مؤسسة كارنغي للسلام العالمي، الى الاستنتاج بأن الرئيس والوزير يتكلمان من « موجتين مختلفتين اختلافاً أساسياً » . والواقع انهما لم يكونا ينطلقان من موجتين مختلفتين بالنسبة الى تفسير السلوك السوفياتي وأحداث الشرق الأوسط ولكن بينما كان كيسنجر يتحدّث من منطلق دبلوماسيّ الامة الاول في اوج احتدام الأزمة فيزن كلماته بحذر ساعياً لتجنّب مواجهة القوّتين العظميين ، فان نيكسون كان يتكلّم من موقع سياسي يدافع عن نفسه بينما تنصبّ عليه سهام الاتّهام فيحاول درأها . وجاء كلامه في وقت انفرجت فيه الأزمة بحيث لم يعد يخش وقع ما يقول على المضاعفات الدوليّة .

الاّ ان هيوز لم يفته ان يلاحظ « غضب كيسنجر العميق والمميت بينما كان يصغي لنيكسون يوم الجمعة » . وفي أحاديث خاصة مع الأصدقاء قال كيسنجر : « كان هذا الأسبوع قاسياً » على الرئيس .

اما كيسنجر فلم يعط نفسه علامة ممتازة او كاملة في ما قام به ابّان الأزمة ليل ٢٤ — ٢٥ تشرين الأول . فقد اعترف وزير الخارجية أمام المقربين اليه بان عملية استشارة « الحلفاء » لم تكن « سليمة »، وان الاستنفار النووي على صعيد عالمي كان مبالغاً فيه . فلم يكن من الضروري مثلاً استنفار القيادة الجنوبية في بناما ولا القيادة الشمالية في الاسكا .

وأهم من هذا كله أساء تقدير ردة فعل الشعب الاميركي للاستنفار المفاجيء . الاّ انه خلافاً لمنتقديه في الوطن وفي الخارج ، استمر يصرّ على ان الاستنفار كان « حيوياً » للأمن الاميركي وانه لم يحدث تحت وطأة ووترغيت . وبحسب رأيه أنه لو لم نرد بعنف فمن الأكيد الثابت ان الروس كانوا سينزلون قواتّهم الجويّة في مصر لارغام الاسرائيليين على التراجع الى خطوط ٢٢ تشرين الأول فيحررون الجيش الثالث من الطوق وينقذون نظام السادات من الاذلال وربما من الانقلاب . وان نسبة تدخّل السوفيات هذا كانت عالية جداً: « ثلاثة على أربعة »، وان الولايات المتحدة لم تكن تستطيع السماح بمثل هذا الاختلال في التوازن السياسي في الشرق الأوسط . ذلك بأنه كان سيؤول ، فيما لو حدث ، لا الى مجرّد تدمير اسرائيل بل الى اثارة البلبلة وعدم الاستقرار في المنطقة ممّا يؤدي مع الوقت الى حرب عالمية أخرى .

وقام افتراض كيسنجر على انه لو استطاع الروس ترسيخ قدمهم في الشرق الأوسط كمنقذين للعرب لكانت أصبحت عملية اخراجهم من المنطقة بالغة الصعوبة مما يقـوي نفوذهم في مناطق استخراج النفط وشحنه .

مثل هذا الوضع لم يكن يقضي على الولايات المتحدة بل على اوروبا الغربية واليابان

اللتين تعجزان عن الاستمرار دون دفق النفط اليهما . وفي أقصى تصورات كيسنجر المتشائمة أن السيطرة السوفياتية على الشرق الأوسط قد تؤدي الى صيرورة اوروبا الغربية واليابان شيوعيتين في فترة تتراوح بين خمس وعشر سنوات .

ان الاستنفار لم يكن أحسن اوقات كيسنجر الاّ انه اصرّ على ضرورة القيام به كجزء من لعبة النفوذ السياسي بين الدول الكبرى واعتبر انه عزّز وضع الولايات المتحدة في الشرق الأوسط وفتح الباب أمام دور اميركي مباشر على صعيد التوسط في النزاع العربي الاسرائيلي الخطر . وبحسب تصوره ان وقف اطلاق النار المفروض من الدولتين العظميين قد أوجد حالة توازن عسكري،وان الاستنفار أوجد مناخ الأزمة الضروري لارعاب المتحاربين حتى يتراجعوا عن مركز الخطر ، وان التوقيت اصبح حاسماً ليدخل كيسنجر من الباب الواسع في سياسات الشرق الأوسط . وكما قال عمر السقّاف، وزير خارجيّة السعودية قبل أسبوع : « اننا نعتقد ان الرجل الذي استطاع ايجاد حلّ لحرب فيتنام ... يستطيع ان يلعب دوراً ايجابياً ... في منطقتنا » .

١٨ — هنري العرب

محادثات الكيلو ١٠١

كان الدور يستدعي امرءاً أكثر طولاً ونحولاً وخبرة في استعراض حرس الشرف العربي ، وأكثر تأصلاً في تقاليد الأساليب الدبلوماسية ولا سيما تقاليد العالم العربي ، بحيث ان احداً لم يحلم بأن يؤدي هذا الدور هنري الذي أصبح هنري العرب .

غير انه بعد بضعة أشهر من التنقل جواً بين الرباط وتونس والجزائر والقاهرة والاقصر واسوان والعقبة وعمان ورياق ودمشق والرياض وتل أبيب والقدس أضحى كيسنجر بطل الشرق الأوسط . فالسادات يقبّله ويدعوه بأخيه ؛ وفهمي يعانقه ؛ والسقّاف يمسك بيده ؛ وفيصل يحدثه ؛ والحسين يقلع به في طائرة الهليوكبتر الخاصة ليقوم معه بنزهات ترفيه ؛ والأسد يقايضه ؛ ودايان يمتدح مجهوده لسحب اسرائيل من الأرض العربية ؛ و« الأهرام » صحيفة القاهرة شبه الرسمية تشير اليه بأنه « سوبرمان » بينما « الجزيرة » صحيفة الرياض شبه الرسمية تدعوه « وسيط السلام » .

في وجه ظروف صعبة وقوىً عديدة قام كيسنجر في تشرين الثاني ١٩٧٣ بجهد دبلوماسي منقطع النظير لتحقيق السلام في الشرق الأوسط ، على أساس الخطوة تلوَ الخطوة ،وما كان اصعبها من خطوات . لقد انتهز اللحظة التاريخية المناسبة في أعقاب حرب تشرين ليلقي بكامل فعاليته وصيته العريض ومهاراته المتعدّدة سعياً وراء مهمة تكاد تكون مستحيلة ،هي رعاية التسوية بين العرب واليهود . وخلال قيامه بهذه العملية سعى لحمل الملك فيصل وأصدقائه على رفع الحظر النفطي عن الولايات المتحدة . وكان يستهدف انسحاباً اسرائيلياً انما ضمن نطاق السلامة الاسرائيلية . كما كان يشجّع بروز الاعتزاز العربي انما ضمن نطاق الواقعية والمسؤولية . انتشرت شهرة كيسنجر التي كانت حتى ذلك الحين كبيرة ، وزادت اتساعاً حتى ان بعض الاميركيين بدأوا يفكرون فيه « كوزير خارجية العالم »،وحتى ان شو إن لاي في لحظة انشراح أشار الى ان اليابانيين يطلقون عليه لقب « زوبعة الشرق الأوسط » .

عندما راجع كيسنجر حطام حرب الأيام الستة عشر وخطوط وقف اطلاق النار المتداخلة التي كان من شأنها ان تكون التربة الخصبة لتجديد القتال ، أدرك انه متورط في سباق مع الزمن . فقد كانت اسرائيل مصرّة على الفوز بالنصر الذي اجهضه كيسنجر بندائه في ٢٢ تشرين الأول لوقف اطلاق النار . فأخذت القوات الاسرائيلية تشدّد الخناق على الجيش المصري الثالث . ولم تفسح اسرائيل لقافلة مؤلفة من ١٢٥ شاحنة محمّلة بالامدادات الانسانية ان تجتاز خطوط وقف اطلاق النار وتصل الى مدينة السويس الاّ بعد أن أنذر وزير الخارجيّة الأميركيّة السيدة مئير بامكان التباطؤ في المساعدات الأميركية . وأصرّ الجنرال اليعازر على ان تمر هذه القافلة دون تكرار . وعندما قاوم الاسرائيليون الضغط الاميركي لفتح ممر دائم الى السويس والى الجيش الثالث توعّد السادات بأن يتصرف بحرية اذا ما لحق الأذى «بأولادي»،حسب تعبيره.وخلافاً لتصرّف الولايات المتحدة التي خففت بسرعة استنفارها فان روسيا أبقت خمسين الفاً من قوّاتها المحملة جوّاً في حالة استنفار بحيث كان الخيار دوماً مفتوحاً أمام الزعيم المصري في أن يطلب مساعدة هذه القوات .

لم يدّخر كيسنجر الوقت لتنظيم رحلته الأولى عبر العالم العربي . وفي ٢٧ تشرين الأول أقدمت « الأهرام » على خطوة لم يسبق لها مثيل الا وهي نشر النص الكامل لمؤتمر كيسنجر الصحافي الذي عقده في ٢٥ تشرين الأول . وعلم كيسنجر ان السادات قد قبل عرضه بالمجيء الى القاهرة في ٦ تشرين الثاني لعقد يوم كامل من المحادثات . وفي اليوم التالي أبرق السادات الى كيسنجر بما مفاده انه مرسل مبعوثاً رفيع المقام هو اسماعيل فهمي الى واشنطن ليقوم بمحادثات تمهيدية . فأعلم كيسنجر السادات بأن مهمة فهمي « سابقة لأوانها » ، لكنّ السادات أجاب بأن ليس في اليد حيلة لأن مبعوثه بات في طريقه الى واشنطن .

كان كيسنجر متردداً في استقبال فهمي في ذلك الحين نظراً لأنه كان قد سبق ودعا غولدا مئير لزيارة واشنطن في الوقت نفسه . وكان السفير الاسرائيلي قد أعلمه بان رئيسة وزراء اسرائيل بحاجة الى تطمينات من الرئيس نيكسون حول استمرار المساعدة الأميركية . غير ان تداخل برامج الزيارتين المصرية والاسرائيلية لم يكن سيئاً بل مثمراً . ذلك بأنه وفّر لوزير الخارجية الأميركيّة الفرصة الأولى ليقوم بدور الوسيط في مسعاه لانقاذ وقف اطلاق النار وتشجيع التبادل الدبلوماسي بين مصر واسرائيل . ولقد رحّب الطرفان المتحاربان بمساعي كيسنجر بعد أن أنهكتهما الحرب وجزعا من ان يتحوّلا الى مجرّد أدوات في ايدي الدول الكبرى .

وكان السادات قد قرأ تنبيهات كيسنجر وبات يعتقد أن وزير الخارجية الأميركية يستطيع إحداث المعجزات . فقد شعر بأنه نظراً لكون كيسنجر لا يمكن ان يتهم بالعداء

للساميّة فانه سيكون اول وزير للخارجية الأميركية بمقدوره حمل اسرائيل على إخلاء الأراضي العربية المحتلّة . وفي الجانب الآخر كانت غولدا مئير تدرك مدى اعتماد اسرائيل الهائل على الولايات المتحدة بحيث قالت إن اسرائيل لا تستطيع ولا ترغب في الوقوف في وجه الوساطة الاميركية المخلصة . وكان واضحاً ان الاستراتجية التي اتبعتها اسرائيل منذ ١٩٦٧ لم تؤت ثمارها . فالسادات لم يأت صاغراً مستسلماً يطلب التفاوض مع اسرائيل بل جاء والبندقية في يده يعبر القناة في حركة بدّلت التوازن العسكري والسيكولوجي تبديلاً جذرياً . وكانت مئير تذكر دور كيسنجر الحاسم في أزمة الأردن في أيلول ١٩٧٠ فأرادت أن تعتقد أنه كوزير للخارجية الاميركية الآن يستطيع اقناع العرب بالعيش في سلام مع اسرائيل .

طار فهمي الى واشنطن وهو الدبلوماسي المصري الدمث المدمن على السيجار الكوبي والذي كان سيخلف قريباً الزيّات في وزارة الخارجية . وكان وصوله اليها في ٢٩ تشرين الأول اي بعد قليل من حضور كيسنجر جلسة سرية للجنة العلاقات الخارجية في مجلس النواب الاميركي حين سأله أحد أعضاء الكونغرس « لماذا فهمي آت الى هنا ؟ » مشيراً بذلك الى علاقات مصر الوثيقة بروسيا . وجاء جواب كيسنجر « انّه آت الى هنا لأنه يستطيع الحصول على السلاح من الاتحاد السوفياتي ولكنه لا يستطيع الحصول على الأرض الا منّا » . ولقد أصبحت هذه الحقيقة البسيطة أعظم ما يملك كيسنجر من قوّة يستخدمها خلال المفاوضات .

وطارت السيّدة مئير الى واشنطن في ٣١ تشرين الأول اي بعد قليل من استقبال الرئيس لفهمي . وقامت بمقابلة نيكسون في اليوم التالي وحصلت منه على التطمينات التي لخصتها فيما بعد بما يلي : « ان أمن اسرائيل وخيرها هما موضع اهتمام الولايات المتحدة الرئيسية ». «ان الرئيس الذي كان معجباً دوماً بحيوية اسرائيل وقوّتها» قد تمتّع برفقة السيّدة مئير ، وابتسم قائلاً : « ان بيننا يا سيدتي رئيسة الوزراء شيئاً مشتركاً، فكلانا عنده وزير خارجية يهودي » . « أجل » قالت مئير ، « ولكن وزيري يتكلّم الانكليزية دون لكنة » .

خلال الأيام الثلاثة التالية أخذ كيسنجر يتنقل بين فهمي ومئير محاولاً تضييق شقة الخلافات في وجهات النظر بينهما. وكان جوهر المشكلة يتعلق ببنود نداء بريجنيف — كيسنجر لوقف اطلاق النار الصادر في ٢٢ تشرين الأول .

لقد طلبت مصر ان تعود اسرائيل الى خطوط وقف اطلاق النار كما كانت في ٢٢ تشرين الأول . واذا لم يحصل ذلك انذر فهمي بأن مصر لن توافق على تبادل أسرى الحرب . وهذا التبادل الذي كان مفروضاً حدوثه خلال ٧٢ ساعة بعد المباشرة بوقف اطلاق النار ، كان من البنود غير المكتوبة التي جرى التفاهم عليها إبّان زيارة كيسنجر

الى موسكو ، وأضاف فهمي ان مصر لن تدخل في محادثات مباشرة مع اسرائيل ، تلك المحادثات التي كانت شرطاً واضحاً لنداء وقف اطلاق النار .

اما مئير فكانت تقول إنه ما من امرىء حيٍّ يستطيع معرفة اين كانت خطوط ٢٢ تشرين الأول . وكانت تضيف باصرار انه دون حدوث تبادل الأسرى، وهي مسألة حساسة بالنسبة لاسرائيل ، ودون محادثات مباشرة مع مصر، وتلك ايضاً من مطالب اسرائيل القديمة ، لن يكون ثمة انسحاب اسرائيلي .

ولم يلبث ان انضمّ الى المتحاورين في واشنطن محمد اسماعيل نائب وزير الخارجية السوري الذي حلّ في وزارة الخارجية الأميركية في الثاني من تشرين الثاني .وكانت زيارة الموفد السوري اشارة ولو صغيرة الى ان سوريا، الدولة العربية المحاربة ، ترغب في الانضمام الى مساعي كيسنجر المتوسعة في سبيل الشروع في مفاوضات بين الفرقاء المتحاربين الثلاث .

في كل هذا التبادل لوجهات النظر حرص كيسنجر على ان لا يقدم مشروعاً اميركياً لتسوية اسرائيلية مصرية ولكنه كان يقترح عدداً من « الأفكار » الاميركية لتضييق شقة الخلاف الكبيرة بين الجانبين . مثال ذلك انه اقترح على فهمي ان يعيد « تصنيف »مطلبه في الانسحاب الاسرائيلي الى خطوط ٢٢ تشرين الأول بحيث يطرحه في مفاوضات أكثر طموحاً تستهدف انسحاباً اسرائيلياً عبر القناة والى سيناء ، وان مثل هذا الانسحاب يرفع الحصار عن الجيش الثالث المطوق كما انه يزيل الارباك الذي تجد نفسها فيه القوة الاسرائيلية المتمركزة على ضفة القناة الغربية . طبعاً اشار كيسنجر ضمناً الى ان لمثل هذه الخطوة ثمناً ولكنه سيكون ثمناً متواضعاً ، وهو ان يلتقي المسؤولون المصريون مع مسؤولين اسرائيليين ويعقدون المحادثات ويتبادلون أسرى الحرب .

وهذه « الأفكار » عندما جرى اقتراحها للمرة الأولى على السيدة مئير كان ردّ فعلها في منتهى السلبية . اذ بالنسبة اليها لم يكن معقولاً ان تكافىء اسرائيل عدوان مصر بسحب قواتها هي من الضفة الغربية للقناة بينما يسمح للقوات المصرية بأن تبقى على الضفة الشرقية . وأخذت تتساءل من بالنتيجة كان ضحية العدوان ومَنْ كان المعتدي . ثم مَنْ بنتيجة الحرب يقف وفي يده خنجر على عنق الجيش المصري ؟ من اجتاز القناة الى « افريقيا » ولماذا بالتالي على اسرائيل ان تدفع الثمن الأغلى للتسوية . ورغم ان كيسنجر كان يعطي هذا المنطق حقّه من التقدير الا انه كان يعتقد ان على اسرائيل بالنتيجة الانسحاب من الضفة الغربية للقناة لانه ، بحسب تفسيره للأمور ، على اسرائيل ان تكسر الحلقة المفرغة من الحروب التي وجدت نفسها فيها منذ ربع قرن فدفعت اكلافها غالية ، وأن تقوم الآن بمغامرة جريئة في سبيل السلم .

ولم يحاول كيسنجر ان يقول ان طبيعة المفاوضات — على الأقل في مراحلها الأولى —

منصفة ، ولكنه كان يأمل في المدى البعيد ان يقوم توازن بين الأخذ والعطاء — وهو توازن لا يقاس بالأرض فقط بل بالمشاركة في الاختبار عبر طاولة المفاوضات وفيما بعد في سوق التبادل الاقتصادي — مما قد يعطي البلدين مع الزمن شعوراً بامكان وجود بديل من الحروب التي لا حدّ لها .

بالامكان فهم مقاومة مئير لوجهة نظر كيسنجر . ذلك بأنه كان يحثّها على التنازل عن مكاسب اسرائيل التكتيكيّة العسكريّة التي فازت بها في حرب لم تبدأها هي — الى حدّ ما — بسبب انذاراته هو ضد شن الحرب الوقائية ، وان تكيّف استراتيجيتها العسكريّة والدبلوماسية بمفهومه للمفاوضات المنصفة . ان مثل هذه الدعوة استدعى قدراً كبيراً من الثقة واليقين . وفي مطلع تشرين الثاني لم تتوافر هذه بالقدر المطلوب . واحسّ كيسنجر انّه أحرز بعض التقدّم في حمل مئير على درس امكان فتح ممر للامدادات الانسانيّة عبر الخطوط الاسرائيليّة الى مدينة السويس ، وعبر القناة الى الجيش الثالث المطوّق . في أحد الأيام حملت « النيويورك تايمز » صورة وزعتها الاسوشيتيد برس لكيسنجر ومئير في « بلير هوس » وقد ظهر عليهما الاعياء والوجوم . « أترى الحالة سيئة الى هذا الحدّ ؟ » سأل أحد المراسلين ، فهزّ كيسنجر رأسه ولم يجب . وأبدى أحد مساعديه فيما بعد الملاحظة التالية : « هذه كانت حالهما معظم الوقت » .

اما مع فهمي فقد كان كيسنجر أكثر حظاً . فرغم انه لم يستطع حمله على التخلّي عن الاصرار على انسحاب اسرائيلي الى خط ٢٢ تشرين الأول ، فقد استطاع تحقيق التقدّم في التوصل الى تدبير موقت يؤدى الى تبادل الأسرى فور موافقة الاسرائيليين على فتح ممر للامدادات الى مدينة السويس . وكان كيسنجر يأمل عند ذهابه الى القاهرة ان يقنع السادات باتخـاذ موقف أكثر استشرافاً من المطلب المصري بالانسحاب الاسرائيلي .

وكان كيسنجر قد توصل قبل سفر مئير وفهمي من واشنطن يوم الأحد في ٤ تشرين الثاني الى صيغة مشروع اتفاق غير رسمي من ستة بنود اشتمل على وجهتي نظر مصر واسرائيل . وكان يأمل استخدام هذا المشروع اساساً للمفاوضات بين البلدين . وكان التنقل بين مئير وفهمي مدخلاً صعباً الى دبلوماسية الشرق الأوسط . « كيف ،أتعجبك هذه المفاوضات ؟ » سأله مراسل ببراءة، فأجاب كيسنجر : « لم أكن أعرف الخير الذي كنت فيه إبّان مفاوضاتي مع الفيتناميين حتى جئت الى هنا » . ومضى يقول : « هناك كان ثمة ثلاثة فرقاء فيتناميين اما الآن فثمة أربعة فرقاء عرب وفريق يهودي واعتقد ان هذا مشهد يصلح لكوميديا دانتي الالهية » .

في التاسعة والدقيقة الأربعين من يوم الخامس في تشرين الثاني ١٩٧٣ برزت طائرة كيسنجر من خلال الغيوم وهبطت على مطار الرباط الدولي حيث كانت محطته الاولى

في رحلة أربعة أيام الى خمس دول عبر العالم العربي باتجاه الصين واليابان . واضاء المطار عندما نزل وزير الخارجية الاميركية الى أرض المغرب مسجلاً اولوياته الثلاث : زيارته الاولى لأفريقيا وزيارته الاولى لبلد عربي والمرة الاولى التي يستعرض فيهـا حرس الشرف الذي كان هذه المرة مؤلفاً من رجال من البربر طوال القامات يلبسون العباءات الحمراء والبيضاء ويعتمرون الكوفية السوداء ويقفون على جانبي سجادة حمراء امتدت من الطائرة الى ردهة الشرف . واصطف الحرس يحمل بنادقه متأهباً بينما اجتاز صفوفهم وزير الخارجية الاميركية وهو يتحدّث مع وزير الخارجيّة المغربية بتحرّج . وبـدا كأنه خارج سربه . وبعد لحظات امتطى الوزيران سيارة رسمية سوداء الى قصر الملك الحسن الذي يقوم خلف أسوار حجرية طويلة في ضاحية المدينة .

وقام وزير الخارجية الاميركية في محادثات تلك الليلة والصباح التالي بايضاح مهمته في مفاوضات الشرق الأوسط : « اعتبروني الحافز الى تحقيق الحلّ »،« انها لفرصة تتاح لنا كي نخوض حواراً حقيقياً مع العالم العربي ولكي يقام حوار جدّي مع اسرائيل ». وكان أن وصفته صحيفة الرباط الأولى « بالحاج في سبيل السلام » .

وقبل ان يغادر القصر استعرض كيسنجر الحرس الملكـي . وكان مشهداً مثيراً للضحك . كان الجيش يعزف نشيداً ايقاعياً ولكن كيسنجر وجد صعوبة فائقة في الحفاظ على اتساق خطواته مع الرقيب الأول الطويل الذي رافقه وهو شاهر سيفاً يتلألأ . وعندما انتهى العرض توقف كيسنجر وانتظر التعليمات ثم مدّ يده اليمنى للرقيب الأول الذي كانت يده اليمنى مشغولة بالسيف يعلو في وضع التأهب حتى ليكاد يلامس أنفه . فكانت لحظة تعثّر لم يلبث بعدها الرقيب اول ان انتبه من غفلته ومد يده الى المستر كيسنجر . ولعل كيسنجر في تلك اللحظة قد خطر له ان يدوّن ملاحظة ذهنيّة : تعلّم كيف تستعرض حرس الشرف !

ونظراً لأن الأجواء الجزائرية كانت محرّمة على الطيران الاميركي منذ قطع العلاقات بعد حرب ١٩٦٧ فقد كان على طائرة كيسنجر ان تحلّق فوق المتوسط الى شمالي جبل طارق قبل ان تحطّ في تونس حيث قرّر وزير الخارجية الاميركية ان يقوم بزيارة خاطفة للرئيس بورقيبة لم تستغرق أكثر من عشرين دقيقة . ذلك بأنه لم يكن ثمة عمل للانجاز ، بل كل ما في الأمر ان بورقيبة كان من دعاة التفاوض مع اسرائيل وهذا نمط من التفكير في العالم العربي أراد كيسنجر تشجيعه مرتين خلال رحلة الساعات الأربع الجويّة بين القاهرة وتونس، وكان وزير الخارجية الاميركية يتنقل الى الحجرة الخلفية من الطائرة ليتحدث الى الأربعة عشر مراسلاً الذين أذن لهم مرافقته في رحلته لتغطيتها صحافياً . ولا بدّ من الايضاح ان طائرة وزير الخارجيّة ليست بالطائرة العادية بل هي نموذج خاص من البوينغ ٧٠٧ مهيئة على طراز فنـدق ومكتب ومرتبطة

الكترونياً بواسطة البنتاغون باي هاتف في العالم . والطائرة منقسمة الى أربع شقق : الشقة الأمامية تقوم فيها آلات التلكس والتلفون وهي مخصّصة لطاقم الطائرة . الشقة التي تليها مقسّمة بدورها الى غرفتين احداهما غرفة منامة مع حمامها الملاصق ، وهي خاصة بوزير الخارجيّة ، والثانية مكتبه الخاص . اما الشقّة الثالثة فتضم أربعة كراس مريحة ومكتباً على كل جهة ، وهذه لمعاوني كيسنجر الأقربين : سيسكو وأثرتون وايّغلبرغر ومكلوسكي وبانكر وفيست . اما الشقة الخلفية فتضم أربعة وعشرين مقعداً عادياً وهي مخصّصة للمراسلين الصحافيين ورجال الأمن والسكرتيرات. ثم ان شقة الوزير منفصلة عن باقي الشقق على نحو يؤمّن له الانفراد بعيداً عن الصحافيين واحياناً عن معاونيه .

كان سلفه روجرز قد درج ، وهو وزير للخارجية ، على دعوة الصحافيين الى طائرته لتغطية رحلاته ، ولكنهم مع الوقت اخذوا ينفكّون عنه ويلاحقون كيسنجر . الآن بعد أن أصبح كيسنجر وزيراً للخارجية طالما صرف المراسلين عنه مستعيضاً أحياناً بالندوات الصحافية التي يعقدها بمعدل واحدة على الأقل في كل رحلة .

كان كيسنجر يتأمل حصيلة لقاءاته في المغرب وتونس وقد حمل من الملك الحسن والرئيس بورقيبة اقتناعاً بان ثمة زعماء عرباً يؤيدون « التحرّك » نحو تسوية دائمة مع اسرائيل .

ولكن السادات هو الذي يمسك بمفتاح الوضع . فبامكانه القبول بتسوية حول مشكلة انسحاب اسرائيل الى خطوط ٢٢ تشرين الأول فيفتح الباب فسيحاً أمام تسوية الخطوة بعد الخطوة مع اسرائيل كما بامكانه الموافقة على اعادة العلاقات الدبلوماسية بالولايات المتحدة فيكون لذلك أثره المجزي في مركز اميركا في العالم العربي كله . او ، يستطيع من جهة ثانية ، الضغط لاستصدار مجموعة قرارات من الأمم المتحدة تطلب انسحاب اسرائيل الى خطوط ٢٢ تشرين الأول ، واذا ما رفضت اسرائيل فبوسعه طلب استصدار عقوبات من الأمم المتحدة . مثل هذه التصرفات تؤول الى زيادة عزلة اسرائيل في المجتمع الدبلوماسي وتخفض تأييدها في الولايات المتحدة التي بدأت تتحسّس ضغط النفط ووطأته ، كما ان هذه التصرفات قد توهن مركز اميركا في العالم العربي .

رفض كيسنجر الاسترسال في التخمينات والتنبؤات وحرص في حديثه مع الصحافيين على افراغ توقعاتهم من مضمونها ، متحفّظاً في كشف ما يعرفه عما انجز في المحادثات التي أجراها مع كل من فهمي ومئير في واشنطن . ومضى يقول للمراسلين « ان الولايات المتحدة لن تعرض أيّ مشروع الآن . ونحن لا نريد ان نصبح هدف نقمة الجميع . فالحالة بالغة الخطورة ، وخطوط وقف اطلاق النار لا تستند الى أساس منطقي ، فتصوروا ان حرباً تنتهي بأن يطوّق الاسرائيليون الجيش الثالث عبر تطويقهم

مدينة السويس على الضفة الغربية من القناة ، ولكنهم في الوقت نفسه يجدون ان قواتهم التي تقوم بالتطويق باتت هي الأخرى داخل طوق احكمه عليها جيش مصري أكبر يعمل في مواقع أقرب لخطوط تموينه الرئيسية في القاهرة. ذاك هو الأمر الغريب العجيب » . هكذا لخّص كيسنجر الوضع المتداخل للصحافيين .

وجواباً عن سؤال حول عودة العلاقات الدبلوماسية أجاب بأنه لا يستثنيها ولكنه لا يملك جدول أعمال محدّد بصددها . الا ان أحد معاونيه أوضح أن فهمي قد ربط اعادة العلاقات بحل مشكلة الجيش الثالث .

ترأس اسماعيل فهمي وزير الخارجية الجديد العائد الى القاهرة من واشنطن قبل ليلة واحدة فقط مجموعة صغرى من الرسميين المصريين الذين جاءوا لاستقبال كيسنجر في مطار القاهرة . وما ان حطّت الطائرة حتى أسرع المصورون والمراسلون الى مدرجها فأضاءت آلات التلفزيون الظلمة وبرز كيسنجر والأضواء مسلّطة عليه فما ان شاهد فهمي حتى انفرجت اساريره عن ابتسامة عريضة وأسرع يهبط سلّم الطائرة ليعانق الوزير المصري وكأنما قد وجد أخاً طال فراقه . وصعد كيسنجر وفهمي الى المرسيدس الأسود وانطلقا الى فندق هيلتون في القاهرة . وفي الطريق من المطار لمح كيسنجر المدينة المطلية بالظلام والتي تحمي قوات الجيش ابنيتها الرسميّة . وكانت شاحنات عسكريّة تخترق شوارع المدينة شرقاً الى الجبهة . انها العاصمة القلقة من استئناف الحرب . اما الفندق فلم يكن نزلاؤه الا من رجال الأمن والصحافيين وقد هجره ايّ نزيل آخر . ومن غرفته في الطابق الأعلى تراءى النيل لناظريه ، وهو حياة مصر الدافقة وسرّ حضارتها على مدى الوف السنين .

« أود مشاهدة الاهرام غداً » ، قال كيسنجر . « لا تستطيع تجنّب ذلك » ، أجاب فهمي . ثم مضى الوزيران في مشاوراتهما نحو ساعة رتّبا خلالها وأعادا ترتيب برنامج يوم الوزير الاميركي الحافل في القاهرة .

« اهلاً وسهلاً » ارتفع صوت السادات الجهير العميق تنقل أصداءه ردهة الاستقبال الفسيحة في قصر القاهرة الذي كان في السابق ملك احدى زوجات فاروق . واقترب كيسنجر من الزعيم المصري المرتدي بزته العسكريّة وهو يمدّ يده اليمنى للمصافحة . وتصافحا طوال دقيقة ثم جلسا بينما المصورون يلتقطون للرجلين الصور . وتبادل السادات وكيسنجر العبارات التقليديّة : « كيف كانت رحلتكم ؟ » ، « ممتازة سيدي الرئيس » ، « مرحى بكم هنا » ، « شكراً سيدي الرئيس » . ثم انصرف المراسلون والمصورون ليعقدا جلسة محادثات بدأت قليلاً بعد العاشرة صباحاً واستغرقت ثلاث ساعات ونصف ساعة ، وكانا في معظمها وحيدين . فذلك كان أسلوب كيسنجر . اما سائر الرسميين المصريين والاميركيين — سيسكو وفهمي واثرتون وأشرف غربال وهو من مساعدي

السادات المقربين – فقد دعوا الى الحديقة حيث بعد ان تنقلوا بين النوافير وشجر الصفصاف قليلاً انصرفوا الى الجلوس والتحدث حول المشكلات العامة من أزمة الشرق الأوسط . وعلى بعد ثلاثين او أربعين قدماً منهم تحلّق الصحافيون والمصورون في ندوة أوسع . وكان الجميع في حالة ترقّب يقطع عليهم انتظارهم تارة زقزقة عصفور وطوراً نباح كلب . وبين الفينة والفينة تختلس النظرات الى الطابق الثاني حيث السادات وكيسنجر يساومان في السلم والحرب .

نحو الحادية والنصف حدث انتباه مفاجىء اذ قام احد رجال الأمن ثم تبعه آخر نحو القصر ثم لحق بهم زملاؤهم الآخرون . ووقف جميع الحضور ، وقد خرج كيسنجر يرافقه السادات الى الحديقة واقترب رجال الصحافة وعقد مؤتمر صحافي صغير . وبدا كيسنجر على غير عادته حيياً بينما بدا السادات ، على العكس ، منشرحاً ومبتسماً .

« هل انت راضٍ عن المحادثات يا دكتوركيسنجر ؟ » سأل احد الصحافيين. « كان لقاء مثمراً » أجاب بدماثة . « هل ستعود الى القاهرة ؟ » « نعم اذا استدعت الظروف » وخيّم صمت ثقيل . ثم تابع الصحافيون متوجهين الى السادات : « السيد الرئيس، هل ستخفض الولايات المتحدة امداداتها العسكريّة الى اسرائيل ؟ » سأل صحافي اميركي . « عليك بطرح هذا السؤال على الدكتور كيسنجر » أجاب السادات مبتسماً . « من حسن الحظ انني لم أسمع السؤال » جاء جواب كيسنجر الذي أثار موجة من الضحك فاقت المألوف . ثم خيّم الصمت الثقيل مرة أخرى . « دكتور كيسنجر هل ستعاد العلاقات الدبلوماسية بين مصر والولايات المتحدة » . وابتسم كيسنجر وظهر عليه الارتباك ثم لاذ بالصمت . هنا تطوّع السادات ليقول « سنزودكم بالأخبار لاحقاً خلال النهار ، فتذرعوا بالصبر قليلاً » .

وبحسب الوعد ، أعلن ماكلوسكي بعد حين في مؤتمر صحافي حاشد في الهيلتون أن العلاقات قد تقرّر « مبدئياً » اعادتها وانه سيجري تبادل السفراء خلال اسبوعين ، فيمثل القاهرة الدكتور أشرف غربال ويمثل واشنطن هرمن ايلتز احد المتخصصين في وزارة الخارجية الاميركية بالشؤون العربيّة . وبهذا الاعلان أظهر السادات للروس ان بوسعه عقد الصفقة التي يشاء مع الاميركيين . ثم أعلن ماكلوسكي ان سيسكو وهارولد سوندرز ، وهو خبير في شؤون الشرق الأوسط في وكالة الأمن القومي،قد طارا الى القدس . أقلتهما طائرة مصرية الى قبرص حيث تقلهما طائرة اسرائيلية الى القدس .

لم يكشف ماكلوسكي النقاب عن تفاصيل محادثات السادات وكيسنجر ولكن الذي حدث ان كيسنجر سجّل نجاحاً سريعاً باهراً .فقد أقنع السادات بارجاء طلبه بالانسحاب الاسرائيلي المباشر الى خطوط ٢٢ تشرين الأول ليضعه ضمن نطاق اوسع من فك الارتباط بين القوات الاسرائيلية والمصرية . وتخلّل المفاوضات بعض التصلّب الذي أظهره

السادات في اصراره على ان فك الارتباط يحدث بانسحاب الاسرائيليين من ضفتّي القناة لا كما اقترحت غولدا مئير في واشنطن بالعودة الى خطوط ما قبل حرب تشرين . واعلم السادات كيسنجر ان القوات المصريّة لن تتخلّى عن الضفة الشرقيّة ، وانها اذا لزم الأمر تستأنف الحرب لفك طوق الجيش الثالث وان روسيا تساعدها .

فحث كيسنجر على الصبر وامتدح رغبة السادات في اعطاء الدبلوماسية فرصة للمحاولة . وتجنب كيسنجر مناقضة وجهة نظر السادات . فقد قبل في الجوهر منطقه ، اذ كان هو كذلك مقتنعاً بوجوب انسحاب اسرائيل من الضفتين . فضلاً عن ذلك فان الدبلوماسية هي فن استباق الكوارث . انه بإرجائه التصادم حول الانسحاب الاسرائيلي الى خطوط ٢٢ تشرين الأول ، ربح كيسنجر الوقت لتعزيز وقف اطلاق النار وتمهيد الطريق لفك ارتباط القوات .

و عندما يتذكر كيسنجر جلسة محادثاته الاولى مع السادات يعتبر انها كانت احدى انجازاته الدبلوماسية الفذّة . ذلك بأن تلك الجلسة على حد قوله « حققت تحو لاً رئيسياً في سياسة مصر الخارجيّة وبالتالي في التوجيه العام للمنطقة كلّها » . واصبح كيسنجر كله السنة مديح بالزعيم المصري . لقد اظهر السادات على حد تعبيره « حكمة فائقة ولا بد من تقدير فضله الكبير » .

بعد اجتماعه بالسادات انطلق كيسنجر الى اهرام الجيزة في ضاحية القاهرة على مدخل الصحراء ، ولحقته قافلة من المراسلين والمصورين : هنري وابو الهول ! واخذ كيسنجر يتمشى ويداه خلف ظهره على طريقة الامير فيليب باتجاه اكبر الاهرام. فعلق على ذلك احد مساعديه الظرفاء قائلاً : «يحملق اليه لأنه يريد اشارة واحدة من الاهرام لنفسه » . اما كيسنجر فاظهر جزعه : « لقد بنوه دون الاستعانة بالعجلات ! ان الأمر بالنسبة اليّ يكاد لا يصدق » وجعل حديث كيسنجر هذا المراسلين المصريين يتيهون خيلاء فسألوه اذا كان يقرأ تاريخ مصر فاجاب : « لقد أستحوذ عليّ التاريخ المصري دوماً بمعاني الديمومة التي يختزن » فسجّل المراسلون تصريحه حرفياً . ثم تسلق السلم الحجري الى مدخل الاهرام وشخص الى داخله وقال : « هذا يصلح غرفة للمؤتمرات الصحافية في وزارة الخارجية،اليس كذلك» ؟ فانفجر مراسلو وزارة الخارجية ضاحكين . وتطلع كيسنجر من اعلى السلم الى تحت واردف قائلاً : « وهذا يصلح للتمرين على النوبات القلبيّة » وتصاعد الضحك .

وبعد ان عاد الى الرمال شاهد احد الفرسان على ظهر جواد وهو يقوم بالعابه . ثم اقترب من ابي الهول وتساءل « ايّ منا ابو الهول ؟ ! » فانهال عليه المصورون يلتقطون الصورة الشهيرة . هنا وزير خارجية اميركا ، يهودي ولكنه غارق حتى إذنيه في الحضارة العربية ، وهو قد وقف نفسه على حلّ المشكلات العربيّة .

كان اسلوب كيسنجر المميز ان يتملق ويأسر فؤاد خصمه . فمحمد حسنين هيكل رئيس تحرير « الاهرام » ، الذي قضى الليل مع كيسنجر على مائدة عشاء الوزير فهمي تذكر فيهـا بعد ملاحظات كيسنجر في مقـال كتبه لمجلة فرنسية . لقد وضع وزير الخارجية الاميركية الشرق الاسط في نطاق مفاوضاته العالمية . « اعرف انني واجهت أمس هنا مشكلة اكثر تعقيداً من اقامة تفاهم مع الاتحاد السوفياتي » . ولكن كيسنجر كان مصممـاً ، انطلاقاً من اعتقاده بنفسه ، على ان يحل هذه المشكلة الدقيقة التركيب . « اعرف انني قد جمعت رأسمالاً صغيراً من النجاح ولا اريد ان افقده هنـا . ان سمعتي في كفة الميزان » . واعترف كيسنجر بأنه يعاني قليلاً من « الرومانسية العربيّة » ، ذلك بأن السلام ليس قريباً ، فقد يستدعي الأمر ستة اشهر وربما سنة قبل التوصـل الى شيء محدد . ان السياسة العالمية ليست صنعة المشعوزين » . واستخف كيسنجر بمعلومات المخابرات الاميركية في لفتة منه الى الكرامة العربيّة « لقد كانت تقديراتنا وحساباتنا لحشود قواتكم كلها غير صحيحة. كما كانت كذلك توقعاتنا لقدرتكم القتالية» . وفي الوقت نفسه تصدّى بالنقض للزعم العربي الشائع بان الجسر الجوي الاميركي قد « انقذ » اسرائيل . «حتى لو لم يكن لدى الاسرائيليين السلاح الذي ارسلناه لما كانوا في حالة العجز التي تتصورون . فهم قد اعدّوا لهجومهم المعاكس عبر قناة السويس قبـل تلقي مساعدتنا » .

وكان كيسنجر بالغ الصراحة بصدد نقطة واحدة : لن تسمح الولايات المتحدة ، اطلاقاً ، لروسيا ان يفوز سلاحهـا بنصر في الشرق الاوسط . « لا تخدعوا انفسكم » قـال لهيكل مباشرة « ان الولايات المتحدة – لا اليوم ولا غداً – تستطيع السماح للسلاح السوفياتي ان يربح نصراً كبيراً ، حتى لو لم يكن حاسماً ، ضد السلاح الاميركي . هذا امر لا علاقة له باسرائيل » .

طار كيسنجر في ٨ تشرين الثاني بعد عناق فهمي عـلى المطار الى عمـان حيث توقف فترة قصيرة في طريقه الى الرياض . ولم يزر ، بحسب التصميم الموضوع للرحلة ، اسرائيل . ذلك بأنه كـان يريد من رحلته الاولى هذه الى المنطقة الظهور بمظهر الوسيط غير المنحاز . غير ان سيسكو افترق عنه في مهمة ندبه لهـا في اسرائيـل . وقـال للصحافيين «سيلحق بي جو الى عمّان » . فقد كان كيسنجر مهتماً باستطلاع رد فعل اسرائيـل عـلى بنوده الستة لوقف اطلاق النار . وكـان قد حمـل غولدا مئير في واشنطن على التسليم معه بدرس امكان نقل الماء والمأكل والادوية عبر الخطوط الاسرائيلية لمدينة السويس وللجيش الثالث المطوق . وبالنسبة الى اسرائيـل كـان هذا يعني التخلي عن اي خطة لارغام الجيش الثالث على الاستسلام . فضلاً عن ان دايان وجنرالات اسرائيل كانوا يخشون من ان يؤدي هذا الممر الى شق القوات الاسرائيلية عـلى الضفة الغربية للقناة وتركهـا معرضة لهجوم مصري انتقامي .

« هـل ستسمي مشروعك – مشروع البنود الستـة لوقف اطـلاق النار – مشروع كيسنجر ؟ » سأل احد المراسلين مشيراً الى مشروع روجرز في كانون اول ١٩٦٩ الذي طواه الطريق المسدود . . « اذا اقتنع الاسرائيليون بمشروعي قد ادعوه كذلك » اجاب كيسنجر بابتسامة عريضة . « واذا لم يقبل به الاسرائيليون ، فهل يدعى عندهـا مشروع سيسكو ؟ » فازدادت ابتسامة كيسنجر عرضاً وانفراجـاً .

ووصل كيسنجر الى عمان حيث استقبله على رأس حرس الشرف رئيس الوزراء زيد الرفاعي احد تلامذته السابقين في هارفرد . وعلى سقف المطار تمركزت قوات اردنيّة كثيفة التسلح وهي في حالة حذر من عمليات ارهاب قد يقدم عليها الفلسطينيون في هذه المناسبة . وكان هذا هو حرس الشرف الثاني الذي يستعرضه خلال ثلاثة ايام . واخذت جوقة الجيش الموسيقية تعزف ايقاعـاً عسكرياً بريطانيـاً بينمـا كـان تلميذه السابق في هارفرد ورئيس وزراء الاردن الحالي يقود استاذه وضيفه عبر زهرة الجيش الاردني، احد افضل القوات العربية في الشرق الاوسط. ومرة اخرى بدا جلياً ان كيسنجر لا يستطيع متابعة اللحن المعروف في خطواته ولا ان يوازي المسيرة مـع خطوات الرقيب الاول الرشيقة المتسقة .

وبعد تصريحات مقتضبة في المطار انطلق كيسنجر الى احد قصور الملك المشرفة على عمان حيث عقد مشاورات مع الحسين نحو ساعة ثم جلس الوفدان الى مائدة سخيّة . وهناك تلقى كيسنجر من سيسكوانه جابه عقبة لم تكن متوقعة في القدس مما يجعل لحاقه بالوفد الى عمان متعذراً وسيسعى للحاق به في الرياض .

وعاد الجميع الى المطار بالسيارة عدا كيسنجر الذي طار به الملك في هليكوبتر كان يقودهـا بنفسه محلقاً فوق المدينة ثم حطّ على بعد خمسين قدماً من طائرة كيسنجر .وترجـل وزير الخارجية من طائرة الملك وهو يبدو شاحباً ثم قال للصحافيين خلال الرحلة الى الرياض « لولا الشرف الملكي الذي اسبغ عليّ لكنت فضلت الذهاب مشياً على الاقدام » .

كان سيسكو في هذه الاثناء قد عقد دورة محادثات مـع مئير استغرقت اربع ساعات ونصف ساعة وبدا كأنه حاز على موافقتهـا حول مسألة الممر الى القوات المصريّة المطّوقة لمدينة السويس . ولكن رئيسة الحكومة قامت في ذلك الصباح بمشاورات مع زعماء كتلة ليكود المعارضة وانقلب الموقف فجأة اذ طرح بعضهم اسئلة محرجة اضطر مئير الى الاجتماع مع وزرائهـا ثم مـع سيسكو . واستغرق اجتماعهـا هذه المرة نحو ساعتين . وقد انضم دايان والون الى المحادثات . وبعد فترة استطـاع سيسكو تبديد بعض مخاوفهم . فنقاط التفتيش التابعة للامم المتحدة ستقام عـلى محاذاة الممر للتثبت من ان الامدادات المتدفقة غير حربيّة. ثم انّ الممر نفسه سيكون خاضعاً

لسيطرة القوات الاسرائيلية . علاوة على ذلك فان وصول الامدادات الى المدينة يكون من حق الضباط الاسرائيليين تفتيشها للتثبت من انه لم يجر تهريب اي مواد عسكرية في القافلة قبل وصولها الى مدينة السويس . على الاثر اعطت مئير الضوء الاخضر لسيسكو ان يبحث التفاصيل مع المصريين . وعندما خرج المفاوض الاميركي من مكتب مئير ابتسم للصحافيين المنتظرين وتطوع ان يقول لهم « انا متفائل » ثم انطلق مسرعاً الى المطار حيث كانت طائرة تنتظره لتقلع به الى الرياض. غير ان طاقمها اعلم بانه لن يسمح لها بالحط هناك لأن الحكومة السعودية لا تعطي حقوق الهبوط لاي طائرة تنطلق من اسرائيل . وكان ان انقضت بضع ساعات قبل ان سمح استثنائياً لطائرة سيسكو بأن تطير من اسرائيل الى السعودية .

خلال الرحلة من عمان الى الرياض استمر كيسنجر يتنقل في شقة الصحافيين واخذ يطلق اللواذع من النكات ويخفف عن نفسه وطأة القلق من استقبال الملك فيصل في المملكة الزاخرة بالعداء لليهود . واشار مرّة الى ثلاثة صحافيين يعرف انهم من اليهود قائلاً : « انتم الثلاثة ابقوا في الطائرة حتّى الاخير » . وتعليقاً على تعليقاته من هذا النمط قال له احد المراسلين « يا هنري اذا كان بوسعك النزول هنا فان ذلك يكون متيسراً لنا جميعاً » . والواقع ان الحكومة العربية السعودية كانت قد الغت كل القيود على التأشيرات لجميع افراد اعضاء الوفد المرافق لكيسنجر . وكان وزير الخارجية الاميركية حريصاً على تجنب الخوض مع الصحافيين في المواضيع الجديّة اذ كانت تتنازعه هموم رحلة سيسكو وخشيته من ان لا يتجاوب معه الملك فيصل . وختم جو المداعبات في الطائرة بقوله : « كم اود قضاء سهرة ممتعة معكم في الرياض ولكن علمت انها تبدأ في الرابعة بعد الظهر لكنها تنتهي بعد ساعة من ابتدائها ! » .

خيم الغسق على الصحراء عندما هبطت طائرة كيسنجر فوق اكواخ بدائية من الطين — ولم يكن يظهر اي بئر نفط — وحطت في مطار الرياض الرملي . وكان وزير الخارجية السعودية عمر السقاف يرتدي عباءة بيضاء ويعتمر كوفية سوداء مرصعة بعقال ذهبي . تقدم مرحباً بكيسنجر حسب المراسيم اللائقة . صافحه بحرارة وبعد ان قدم اليه عدداً من كبار الرسميين السعوديين رافقه الى صالون الشرف . ولاحظ المراسلون ان السقاف كان ممسكاً بيد كيسنجر . وليس هذا في بلاد المشرق الاسلامي بالأمر غير المألوف الاّ انه في هذه المرة كان اقرب الى اشارة تنمّ عن لياقة خاصة ، لعلها اشارة الى السعوديين الآخرين بان كيسنجر مقبول وموضع عناية خاصة . حتّى عندما جلس السقاف وكيسنجر على ارائك منخفضة ليحتسيا القهوة ويتحدثا الى الصحافيين استمر السقاف ممسكاً بيد كيسنجر ،وكلما افلتت يد كيسنجر من يده بحث عنها ،

حتّى قال كيسنجر فيما بعد على طريقته في المداعبة : « بدأ العجب يخامرني بصدد نفسي ، ففي الرياض يمسك وزير الخارجية بيدي وفي كامب — دافيد قبلّني بريجنيف في فمي » .

وبعد توقف عابر في بيت الضيافة الملكي انطلق موكب كيسنجر الى قصر الحمراء حيث تم لقاؤه الاول بالملك فيصل . دخل وزير الخارجية الاميركية غرفة مستطيلة واسعة استارها داكنة اللون . وخلال سحب البخور شاهد كيسنجر الملك جالساً على عرشه في الطرف الاقصى من الغرفة . وتقدم حارسان طويلان يرتدي كل منهما عباءة سوداء ويعتمران بكوفيتين سوداء وبيضاء ويشهران سيفين كبيرين ، فقادا كيسنجر نحو فيصل . فصافحه كيسنجر. وارتسم ظل ابتسامة خاصة على ثغر الملك فجلس كيسنجر الى جانبه . ثم لاحظ ان على جانبي الغرفة اصطف عشرات الامراء وجميعهم يرتدي العباءات السوداء والعديد منهم يضع على عينيه نظارات الشمس وبعضهم يحتسي القهوة . وبناء على طلب الملك نهض كيسنجر وصافحهم جميعاً . ثم اتفق كيسنجر والملك على الاختلاء بعد العشاء . واستغرق اجتماعهما ساعتين .

حاول كيسنجر أن يترك انطباعاً حسناً في نفس الملك عن جده واخلاصه فبدأ باعلامه بانه قد قرأ جميع مراسلاته مع الرؤساء كيندي وجونسون ونيكسون . وقال إنه يعتقد بناء لهذا السجّل ان من حق الملك فيصل الشعور بالخيبة من السياسة الاميركية . فقد تعهّد جونسون للملك بان اسرائيل ستنسحب من الارضي المحتلّة ، وقد حث القرار ٢٤٢ الصادر عن الامم المتحدة على هذا الانسحاب بل حتّى نيكسون حثّ على ذلك . ولكن شيئاً لم يحدث . يضاف الى ذلك أنه عند اندلاع حرب تشرين اسرعت الولايات المتحدة تغدق المساعدات العسكريّة على اسرائيل ، وهو تصّرف تزامن مع قرار فيصل النهائي بفرض الحظر النفطي على الولايات المتحدة. واعرب كيسنجر عن عطفه على موقف الملك ولكنه لفت الملك الى « بعض الحقائق » . فوصف نيكسون بانه « ملتزم » بتحقيق انسحاب اسرائيل وقال بانه هو شخصياً مقتنع بان التسوية باتت الان ممكنة ، وأخبر الملك ما سبق ان قاله لهيكل من أنه يعتقد انه قادر على حل الخلافات العربية الاسرائيلية سلمياً . وتوجه الى الملك طالباً تعاونه : مثلاً ، هل يؤيد الملك مؤتمر السلام ؟ أجل أجاب فيصل. هل يدعم الملك رفع الحظر النفطي ؟ واخذ كيسنجر يوضح دقة الموضوع لان استمرار الحظر يؤدي الى اذكاء المشاعر المعادية للعرب في الولايات المتحدة فيعقّد هذا مساعيه الدبلوماسية لحمل اسرائيل على انسحاب تدريجي من الارضي العربية المحتلة .

هنا اخذ فيصل يشرح موقفه . فقــال بانه يعادي الشيوعية والصهيونية بضراوة . وهو يقاوم روسيا واسرائيــل . فبالنسبة الى فيصل كان اليهود والشيوعيون من طينة واحدة. فاليهود حسب قوله ، سيطروا على الحركة الشيوعية في روسيا ثم قادوا ثورة ١٩١٧، واخيراً انشأوا الاتحاد السوفياتي. ثم اقام اليهود دولة اسرائيل وعزّزوا سياستها « العدوانية والتوسعيّة » . و قــال فيصــل وهو ينظــر مباشرة الى كيسنجر ان اليهود يحــاولون وضع انفسهــم في مواقــع السلطة في العالم كله . وقــال لكيسنجر ان اليهود يحاولون ادارة العالم ولكنه سيوقف زحفهــم هذا بسلاحــه النفطي .

واصغى كيسنجر بصمت . وتابع فيصل قوله ان على اليهود التخلّي عن جميع الارض العربيّة بمــا في ذلك القدس . بالنسبة اليه ذاك كــان مفتاح المسألة . وهو يريد ان يصلّي في جامــع القدس قبــل موته . وانذر انه بعد توالي خيبــات الماضي سيستخدم سلاحه النفطي حتى يرغم الاسرائيليين عــلى الانسحاب من القدس . فــل عنى بذلك ان الحظر النفطي لن يرفع قبــل استعادة العرب للقدس ؟ جاء جواب الملك يترك انطباعــاً عند كيسنجر بانه يمكن رفــع الحظر النفطي عندمــا يبدأ الأسرائيليون بالانسحاب . وأشرف مؤتمرهمــا على الانتهاء ، فقد بدا التعب يظهر عــلى الملك . ووقف كيسنجر كمقدمة للانصراف يحدّق عبر غمامة من البخور في صورة زيتية عــلى الحائط : « هل هذه الصحراء العربية يا صاحب الجلالة ؟ » فتقلص وجه الملك الصارم الى تكشيرة واجــاب « كلاّ هذه واحتنا المقدّسة ! » فاعتذر كيسنجر من خطأ غير المقصود . وقــال « اعتقد انني ارجأت رفــع الحظر النفطي شهراً على الاقل بخطأ دقيقة » .

بعد اجتماعه المطوّل بالملك فيصل ، عاد كيسنجر الى بيت الضيافة وكان سيسكو قد وصل لتوه . فاراد وزير الخارجية الاميركية مراجعة اتفاق البنود الستة لوقف اطلاق النار ولكن الوقت لم يكن متسعــاً اذ وصــل ثلاثة وزراء سعوديين لمزيد من التشاور ثم لتناول العشاء معــاً . وكــان الوقت قد تجاوز منتصف الليل عندمــا استطاع كيسنجر وسيسكو الجلوس معــاً وجمــع اطرا ف القضية . وهذا اشتمــل على ارسال برقيات الى واشنطن والقاهرة والقدس وموسكو ــ حتى استتب الأمر قبل الفجر قليلاً وسارت الامور في مجراها الطبيعي، عدا الموافقة النهائية من الوزارة الاسرائيلية التي جاءت بعد اقلاع طائرة كيسنجر الى طهران واسلام اباد في طريقه الى الصين .

وقد اتخذت اتفاقية البنود الستة التي أدت الى محادثات الكيلو متر ١٠١ بين جنرالات مصر واسرائيل على طريق القاهرة ــ السويس ، شكل رسالة موجهة من كيسنجر الى الامين العام للامم المتحدة فالدهيم واشترطت :

١ ــ ان « يحافظ الفريقان بدقة » على وقف اطلاق النار .

٢ ــ ان يشرعا « فوراً » في محادثات لتسوية « مسألة العودة الى مواقع ٢٢ تشرين

الاول ضمن نطاق الاتفاق على فك الارتباط والفصل بين القوات برعاية الامم المتحدة »

٣ ــ ان تتلقى السويس « امدادات الغذاء والماء والدواء يومياً » .

٤ ــ ان لا تقوم « اية عرقلة » لنقل الامدادات غير العسكريّة الى الضفة الشرقيّة .

٥ ــ ان تقام مراكز تفتيش على محاذاة طريق القاهرة ــ السويس وان يكون للضباط الاسرائيليين حق تفتيش القوافــل المتجهة الى الضفة الشرقية .

٦ ــ واخيراً ، انه فور قيام مراكز التفتيش ، يجري « تبادل اسرى الحرب بما فيهم الجرحى » .

ورغم ان الاتفاق كــان انجازاً كبيراً الاّ انه لم يكن الاّ خطوة ابتداء صغرى في طريق السلام . وقد اكتنف النص غموض مقصود حتّى يستطيع كل من الطرفين الزعم بانه اصاب نصراً دبلوماسياً . لكن الاتفاق كــان في الوقت نفسه واضحاً من حيث اطلاق عمليــة اتصال دبلوماسي مباشر بين مصر واسرائيل والتغلب على بعض المشكلات المباشرة التي كان يمكن ان تتطور الى حرب جديدة في اية لحظة . وأهم من هذا كله فقد بدت مصر مستعدة لتقود العالم العربي الى تسوية مع اسرائيــل . لم يكن احد ، ولا سيما كيسنجر ، يقلّل او يستخفّ بالصعوبات او المخاطر ، غير ان الجميع قدّر الفرصة المتاحة . لقد ربح كيسنجر المزيد من الوقت للتركيز على الخطوة التالية : مؤتمر سلام بين العرب والاسرائيليين .

في الطريق الى جنيف

في الحادي عشر من تشرين الثاني وعلى الكيلومتر ١٠١ الذي كــان حينئذٍ مركز تفتيش اسرائيلي عــلى طريق القاهرة ــ السويس اجتمع جنرال اسرائيلي وآخر مصري في خيمة للامم المتحدة بقصد وضع بنود اتفاقية كيسنجر لوقف اطلاق النار موضع التنفيذ العملي . ومثل اسرائيل اهارون ياريف وهو ضابط مخابرات لامــع ، ومثل مصر محمد عبد الغني الجمسي احد كبار الاستراتيجيين العسكريين المصريين . وكاد الطرفان يصلان الى الطريق المسدود في محادثاتهما . فقد ارادت اسرائيل تفتيش الامدادات « غير العسكرية » الداخلة الى السويس بينما جادل المصريون أن الاتفاق لم يعــط الاسرائيليين مثل هذا الحق . فقد ارادت مصر من جهتهــا تضييق حدود سيطرة اسرائيل على طريق القاهرة ــ السويس . وكانت وجهة نظر الاسرائيليين انه على الرغم من ان الاتفاق دعا الى قيام مراكز تفتيش للامم المتحدة على الطريق غير أن الطريق نفسه واقع تحت السيطرة الاسرائيلية . واستغرق أمر التغلب على هذه القضية ثلاثة ايــام

من المفاوضات التي قام بها كيسنجر من بعيد وهو يزور الصين واليابان . وفي ١٥ تشرين الثاني اتفق الجنرالان على اجراء ينهي خلافاتهما . فما ان تقيم الامم المتحدة مراكز تفتيشها على الطريق حتى تبادر مصر واسرائيل الى تبادل اسرى الحرب ، فتطلق مصر مئتين وثمانية وثلاثين اسرائيلياً وتطلق اسرائيل ما يزيد على ثمانية الاف مصري . وهذا التدبير فتح الطريق الى مؤتمر جنيف للسلام في اواخر كانون الاول .

ثم تابع ياريف والجمسي مداولاتهما مركزين على مشاريع فك الارتباط ، وكان هذا جهداً بالغ التعقيد . واتضح في مطلع كانون الأول ان الجنرالين أبعد ما يكونان عن التوصل الى اتفاق فعلقت محادثات الكيلو ١٠١ . وبدأ المصريون يشتكون من ان كيسنجر قد ضلل السادات وحمله على الاعتقاد ان الاسرائيليين سينسحبون الى خطوط ٢٢ تشرين الاول. فرد كيسنجر انه على العكس كان دوماً يقول ان اسرائيل لا تستطيع الاقدام على اية خطوة رئيسية من هذا الوزن قبل انتخاباتها في ٣١ كانون الاول . وادى سوء التفاهم هذا الى ان يحزم كيسنجر حقائبه للقيام بجولة جديدة الى الشرق الاوسط ، هي جولته الثانية خلال خمسة اسابيع . لقد اراد وزير خارجية اميركا ان يبقى الزخم الدبلوماسي مندفعاً . وكان يعتقد ان الاهمية الحاسمة في هذه المرحلة من المفاوضات هي تزويد مصر واسرائيل ببدائل من الحرب جديدة ومقبولة . وكان البديل الاول مؤتمر السلام . وكان تصور كيسنجر لهذا ان يتخذ طابع اجتماع عمل ويتألف من المحاربين الرئيسيين الاربعة — مصر وسوريا والاردن واسرائيل — والدولتين الداعمتين لهما — الولايات المتحدة وروسيا . وتقوم الامم المتحدة بدور المظلة البيروقراطية ممثلة بامينها العام فالدهايم الذي كان مضيف المؤتمر الرسمي .

ولم يكن انعقاد المؤتمر بعد أكيداً عندما غادر كيسنجر واشنطن في ٨ كانون الاول في طريقه الى بروكسل لمشاورة الحلف الاطلسي . فلم تكن قد وجهت بعد الدعوات ولا وضع جدول أعمال . وكانت مهمة كيسنجر الاولى واضحة وهي ان يتأكد أن المؤتمر سينعقد في ١٨ كانون الاول او قرب ذلك الموعد . وانتدب نفسه ، علاوة على ذلك ، لمهمتين متداخلتين : اولا ، اقناع قادة اسرائيل بان الوقت قد حان للشروع في عملية الانسحاب من معظم الارضي العربية المحتلّة ، وثانياً اقناع ملك العربية السعودية أن الوقت قد حان لرفع الحظر النفطي .

في رحلة كيسنجر الاولى الى الشرق الاوسط لم يستطع حتى التحليق فوق الجزائر . اما في رحلته هذه فقد تلقى دعوة لزيارة الجزائر للاجتماع بالرئيس هواري بومدين ، الزعيم الثوري الجزائري . وكان اللقاء الذي تم في ١٢ كانون الأول في فيلا تشرف على خليج الجزائر والبحر المتوسط ، مؤشراً على الموقف العربي المتبدّل ازاء دور الولايات المتحدة كوسيط في النزاع العربي الاسرائيلي. واستقبل بومدين وزير الخارجية

الاميركية وهو ملتف بعباءة سوداء وفي غرفة متواضعة الفرش .

« هل تتكلم الفرنسية ايها السيد الوزير ؟ » سأل الرئيس بالفرنسية . « انني افهمها واقرأها ولكنني لا اجيد النطق بها » اجاب كيسنجر بالانكليزية . وبعد التقاط الصورة لهما اختلى الرجلان ساعتين بصحبتهما ترجمان ومدون لمحضر الجلسة . فبحثا العلاقات الثنائية وقررا « فتح حوار » يؤدى الى اعادة العلاقات الدبلوماسية كاملة . وكان الطرفان منذ قطع العلاقات في ١٩٦٧ يحتفظان بمستوى ادنى من الاتصالات الدبلوماسية عبر ما يسمي «بأقسام رعاية المصالح » في عاصمة كل من البلدين . وبحثا كذلك امكانات السلام في الشرق الاوسط وفاز هنا كيسنجر بتأييد بومدين لمؤتمر جنيف للسلام . وفي المطار قال وزير الخارجية الجزائرية بو تفليقة ان محادثات كيسنجر مع بومدين كانت « منعطفاً » في العلاقات الجزائرية الاميركية وان الجزائر تدعم مساعي السلام في الشرق الأوسط . وهكذا احسّ كيسنجر بالرضى وهو يطير من الجزائر الى القاهرة .

خلال رحلته الجويّة التي استغرقت اربع ساعات علم كيسنجر ان « الاهرام » قد شنت على صيغه الدبلوماسية الغامضة حملة قويّة . والظاهر انها كانت تعكس خيبة السادات في محادثات الكيلو ١٠١ التي لم ينتج عنها اي انسحاب اسرائيلي . « ان الحلّ لا يكمن في الصيغ الدبلوماسية البارعة التي تحمل المعاني المزدوجة بحيث يفسرها كل فريق لخدمة مأربه » قالت الجريدة . ومضت تقول « ان وقف استخدام النفط العربي او اي سلاح آخر » ، مشيرة الى علاقة النفط بالسلام، «مفروض ان يقترن بانسحاب اسرائيلي من الارض العربية المحتلّة على طريق التسوية الشاملة » . وتضايق كيسنجر من المقال لأنه اوحى بانه يقول للعرب شيئاً مختلفاً عما يقول للاسرائيليين . « مثل هذا النهج لا يصلح ، لأنه يكون ميكافيلية مجردة ان نروي لكل فريق القصة بصورة مختلفة » .

هبط كيسنجر في القاهرة مساء ذلك اليوم نفسه . « انني مغتبط بعودتي » قال لفهمي بعد عناق دافيء . تم انطلق الى الاجتماع بالسادات الذي رحّب بكيسنجر بحرارة فامسك وزير خارجية اميركا بيد السادات اليمنى بينما المصورون يلتقطون لهما الصور . « آمل ان تكون في حالة جيدة » قال الرئيس، « في حالة ممتازة والحمد لله، انني مسرور جداً برؤيتكم » . وجلس الرجلان بعد ان دعا السادات كيسنجر الى الجلوس وانسحب المصورون .

دامت خلوة السادات وكيسنجر ساعتين ونصف ساعة وتجاوزت منتصف الليل . ثم استأنفا اجتماعهما في العاشرة من صباح اليوم التالي . في هذه المرة ايضاً كانا وحيدين بينما كبار معاونيهما يتمتعون بشمس مصر الدافئة في الحديقة . وبعد انقضاء اربع ساعات خرج السادات وكيسنجر يبتسمان وتبدو عليهما امارات الارتياح.

في هذه المرة بادر كيسنجر بالحديث وعبر عن توق السادات الى انسحاب اسرائيلي وقال « لقد اتفقنا على ان فك ارتباط القوات – فصل القوات – سيكون الموضوع الرئيسي للمرحلة الاولى من مؤتمر السلام . وسأذهب الى بلاد اخرى لابحث مع قادتها ارائهم حول الاجراءات » . وكان كيسنجر حريصاً ان لا يذكر اسرائيل في حضور السادات . واضاف السادات « انني فعلاً راض بعد هذه المحادثات الطويلة المثمرة » .

« هل تتوقع حدوث تقدم في مسألة فكّ الارتباط قبل عيد الميلاد ؟ » سأل مراسل .

« فلنأمل ذلك » كرر السادات الجواب مرتين. « هل يبدو واقعياً ترقب اي تقدم قبل الانتخابات الاسرائيلية ؟ » اراد احد المراسلين ان يعرف . فتململ كيسنجر على مضض واجاب السادات عن السؤال : «ان الانتخابات الاسرائيلية ليست مشكلتنا بل مشكلتهم هم ، نحن ذاهبون الى موتمر السلام . فلنأمل ان نذهب وروح السلام تلفّنا » .

« هل ستعقدون محادثات مباشرة مع اسرائيل ؟ » . فقال السادات ان المندوبين المصريين « سيكونون في الغرفة نفسها » مع المندوبين الاسرائيليين ، واضاف « ولكن اذا كنتم تعنون مفاوضات مباشرة فالجواب كلاّ » . وحول رأي السادات في رفع العرب حظرهم النفطي بينما تستمر مهمة كيسنجر ، تدخل وزير خارجية اميركا لانقاذ الموقف بمداعبة حول « اصرار » المراسلين الاميركيين وعنادهم في الحصول على الاجوبة . وانتهى المؤتمر الصحافي .

وأنطلق كيسنجر على الاثر الى المطار بصحبة فهمي . وكان قد تأخر ساعتين عن موعد سفره الى الرياض . وبدا للمراسلين الذين اصطحبوه في الرحلة انه راض عن محادثاته مع السادات . فقد فاز بموافقة مصر على حضور المؤتمر ومقترحات فك الارتباط ، ورغبتها في السعي لحمل سوريا على ارسال مندوبين عنها الى جنيف واستعدادها لبحث امكان رفع الحظر النفطي مع الدول العربيّة . واعترف كيسنجر ان افتتاح المؤتمر قد يتأخر « يوماً او يومين » بسبب غموض موقف سوريا . ولكنه اضاف « في تقديري ان المؤتمر على قاب قوسين » . وتذكر المراسلون تصريحه الشهير في ٢٦ تشرين الاول ١٩٧٢ بان السلام « على قاب قوسين » في فيتنام – وكان ان استمر القصف بعد ذلك ثلاثة اشهر فتذمروا وقالوا « هل كتب علينا ان نستمر في التحليق من عاصمة عربية الى أخرى الى ما لا نهاية ؟ » . « كلا » اجاب كيسنجر بجد « هذا يستمر يوم او يومين » . كانت آماله معقودة على السادات . ففي رأي كيسنجر ان الزعيم المصري « يملك حسّ الاهداف البعيدة المدى ، والاحساس بالواقع . كان بوسعه ركوب الموجة الغوغائية كما فعلت بعض الصحف المصريّة ولكنه آثر الاصغاء الى وجهة النظر الداعية الى التعامل مع الواقع بتعقل . انه لذكي جداً » .

عاد كيسنجر مساء ١٤ كانون الاول الى الرياض حيث استقبله السقاف في

المطار . في المساء اجتمع وزير الخارجية الى الملك فيصل في ديوان الملك حيث تعالى البخور وامتد السجاد يغطي ارض الغرفة . وبدا الملك كالعادة صارم القسمات . وحاول كيسنجر تلطيف الأجواء بتعليقاته ولكن وجه الملك بقي على حاله من الجمود .

ويبدو ان محادثاتهما الخاصة التي استغرقت ساعتين حققت بعض التقدم باتجاه رفع الحظر النفطي ، ، ذلك ان احد المسؤولين الاميركيين قال بعد قليل ان حظ رفع الحظر يفوق الخمسين بالمئة . واشار السقاف عند وداعه لكيسنجر في الصباح التالي الى الجو المتفائل اذ قال : « اعتقد ان بوسعنا ازاحة كل ما يعرقل علاقاتنا » . واضاف « انني اقدر هذا اللقاء مع صديقي الدكتور كيسنجر الذي ادعوه هنري » . بعد لقائه الثاني مع فيصل اخذ كيسنجر يشير الى الملك بانه « رجل بالغ الجديّة ، رجل يقف عند كلمته » . وقال ، وهو الذي يحتاج مساعدة الملك ، انه يقدر موقف فيصل الذي يحكم بلداً متخلفاً ويملك في الوقت نفسه نسبة رئيسية من موارد العالم النفطية . « انه فطن جداً بعد أن تفهم العالم الذي يعيش فيه ويتصرف ضمنه » .

رغم التأخير المتوقع في افتتاح مؤتمر السلام الاّ ان كيسنجر تلقى من موسكو ان وزير الخارجية السوفياتي غروميكو لم يزل مصمماً على الوصول الى جنيف في نهاية الاسبوع ، كما تلقى من الامم المتحدة ان فالدهايم أجل انطلاقه الى جنيف ولكنه تعهّد بان يكون هناك عند الافتتاح. وكان فالدهايم في ذلك الوقت يواجه شجاراً بين العرب الاسرائيليين حول دور الامم المتحدة في المؤتمر ، فالاولون ارادوا الدور ان يكون رئيسياً والآخرون ارادوه ان يكون رمزياً . وارسل كيسنجر رسائل دبلوماسية الى الطرفين فانهى الشجار المحتدم اذ قال للعرب ان فالدهايم هو الذي سيوجه الدعوات الى المؤتمر ويرئس افتتاحه ، وقال للاسرائيليين انه ليس المهم من يرسل الدعوات ويفتتح المؤتمر طالما ان كيسنجر وغروميكو سيقودان هما فعلاً سير المؤتمر .

« ستكون سوريا متصلّبة » هذا كان تقرير كيسنجر عند اتجاهه الى دمشق . وكان اول وزير للخارجية الاميركية يزور سوريا منذ توقف فيها جون فوستر داللس في ١٩٥٣ . وقبل ان تتوقف محركات الطائرة كانت قد احيطت بقوات سوريّة . اطلّ كيسنجر من الطائرة على نسمة هواء قويّة فرحبّت به مجموعة صغرى من المسؤولين السوريين الذين صحبوه بسرعة الى مقر الرئاسة في دمشق . ولعلّه خلال طريقه من المطار لمح مخيم لاجئين فلسطينيين في ضواحي العاصمة او بعض البنايات وبينهما المكتب الثقافي الذي قصف ابان الحرب .

حافظ الأسد القائد السابق لسلاح الطيران والذي قبض على زمام السلطة في ١٩٧٠ استقبل كيسنجر أستقبالا لائقاً . ويعتبر الاسد معتدلاً في الائتلاف الواسع الذي يضمّ متعصبين دينياً وبعثيين متطرفين وشيوعيين ، والذي يسلك خطا متصلباً ضد

اسرائيل وبالتالي ضد الولايات المتحدة .

لم يدم التقاط الصور طويلا. ثم جلس الاسد على طرف الصوفا وكيسنجر على الطرف الآخر . ولم يحاول اي منهما تبادل الحديث العادي والشخصي بل امتد لقاؤهما بعد انسحاب المراسلين والمصورين ست ساعات اي اربع ساعات زيادة على المقرّر سلفاً .

وقد افتتح كيسنجر الحديث مع رجل سوريا القوي الطويل القامة الاسود الشعر ذي الشارب الدقيق باسلوب غير تقليدي ومبتكر : « لقد جئت الشرق الاوسط وكان الجميع يقولون لي ان الحوار مع السوريين مستحيل . قل لي يا سيدي الرئيس لماذا يعتبر الحوار مع السوريين مستحيلاً ؟ » . ومرّت لحظة حار فيها الاسد جواباً ثم انفجر ضاحكاً . وهكذا ذاب الجليد . ولكن الجلسة الطويلة كما وصفها احد شهود العيان كان لها طابع حفلة الشاي التي تروى فيها كل الاحاديث . ذلك بان الاسد كان احياناً يخرج عن مجرى الحديث ، واحياناً كان حاد الانتباه واحياناً كان ينأى بعيداً في نظراته واحلامه . وبالنتيجة فقد تمكن الرجلان من بحث مجموعة واسعة من المواضيع . فقررا تحسين الاتصال بين البلدين وإقامة « اقسام رعاية المصالح » في كل من العاصمتين . ذلك انه منذ ١٩٦٧ عند انقطاع العلاقات انقطع كل اتصال او تمثيل بين البلدين . واستعرضا مجرى مساعي السلام في الشرق الاوسط . هنا أكد الاسد ، كما كان متوقعاً ، الخط المتصلب ضد اسرائيل مطالباً بالانسحاب الكامل من الجولان .

اما كيسنجر فركّز على مؤتمر السلام . فقد اراد التثبت من التزام الأسد بارسال وفد يشارك في المؤتمر . وابرز كيسنجر مسودة الدعوة . فلم يثر الاسد اي اعتراض . فافترض كيسنجر ان الاسد قد قبل الدعوة . وبتهذيب جمّ سأل الاسد اذا كان لديه اي تعليق على الدعوه . قال الاسد « حسناً ان الدعوة جيّدة لولا سطر واحد » . « اه ، اي سطر هو هذا » ؟ سأل كيسنجر شغوفاً .

« ذاك الذي ينص على ان الفرقاء قد وافقوا على حضور مؤتمر جنيف . اننا لم نوافق على اي شيء من هذا القبيل » . فعقلت الدهشة لسان كيسنجر . وخلال استراحة وجيزة طلب من سيسكو الاتصال بالسادات وغروميكو فوراً ليسألهما اذا كان هذا هذا موقفاً سورياً جديداً ام ان الموقف القديم اسيء فهمه وتفسيره ؟

ومضت ساعات . وكان معظم المسؤولين والمراسلين الصحافيين الاميركيين ما زالوا على متن طائرة وزير الخارجية . واكثرهم لم يتصل بكيسنجر منذ وقت طويل فازداد جوعهم وتعبهم . واخذوا في التخمين ما عساه حلّ بوزير الخارجية « لعلّه اصبح الاسير الاسرائيلي المئة والثامن والعشرين » ام لعله « ذهب ليقابل عرفات » ، «لقد اختطفه السوريون » ، « لعله اغتيل » . وكانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة ليلاً عندما سمع صفير الدراجات من بعيد . « حسناً » قال احد المراسلين المتعبين ،

« اما انه ات اخيراً أو انهم اتون بطلبنا » . وخلال دقائق اطلّ كيسنجر من سيارة ليموزين وقال للمراسلين انه قد اجرى والاسد « محادثات مطوّلة ومثمرة » وانّ الاراء قد جرى تبادلها بجو من الصراحة الحقيقيّة . ولوّح للمراسلين السوريين قائلاً « لن تمضي عشرون سنة أخرى قبل ان يعود وزير خارجية اميركا الى دمشق » .

تنقّل كيسنجر في الثماني عشرة ساعة التالية بين ثلاثة بلاد : الاردن حيث حصل على تأكيد الملك حسين من ان رئيس الوزراء الرفاعي سيحضر المؤتمر حتّى لو قررت سوريا عدم الحضور ، ولبنان حيث تزود ببركة الحكومة وتأييدها لمساعيه من اجل السلام — وذلك في قاعدة طيران آمنة قرب رياق على بعد اربعة اميال من الحدود السورية ، وليس في بيروت التي انقلبت الى كابوس بالنسبة لرجال الأمن بالتظاهرات المعادية لكيسنجر ، واخيراً اسرائيل حيث استخدم كل نفوذه الشخصي وجاذبيته الدبلوماسية ليفوز بموافقة مئير على حضور موتمر السلام وعقد محادثات فك الارتباط التي تعهد للسادات بأن تحدث في عقب المؤتمر فوراً .

كانت اسرائيل تطرح مشكلة خاصة بالنسبة الى كيسنجر . فقد كان يدرك انه لا يستطيع اتباع سياسة اسرائيلية في وزارة الخارجية . ولكنه كان يدرك ايضاً انه كيهودي، لا يستطيع اتباع سياسة تؤدي الى هزيمة اسرائيل . ولذلك أعلم اصدقاءه اذا ما حمل على مثل هذا الموقف ، عندها يستقيل . في ١٩٤٧ ، عندما كان طالباً جديداً في هارفرد شارك رأي المؤسسة الجامعية بان خلق دولة يهوديّة منفصلة في الشرق الاوسط سيكون ، كما عبر عنه لاحقاً « امكان كارثة تاريخيّة » . وكان يعتقد في ذلك الوقت أن الصهاينة « كانوا احسن حالاً لو انهم انشأوا دولة اتحادية مع الاردن » . ولكنه ما ان قام بزيارة اسرائيل حتى بدل رأيه . فقد اسسّ اليهود دولة « ضد كل الاحتمالات » . لذلك كان مصمماً على الصعيدين الشخصي والمهني على مساعدة اسرائيل لتبقى وتستمر .

ولكن منذ اطاحة حرب تشرين باوهام عديدة ، بينها اوهامه ، بدأ يتزايد احساس كيسنجر بان اسرائيل تتبع سياسة رعناء قصيرة النظر بتمسكها بالاراضي العربيّة التي لم تعد عليها الاّ بالقليل من الأمن والكثير من الرفض . اما العرب فقد اخذوا يحصلون على المزيد من الاسلحة السوفياتية المتقدمة وبدا أنهم يركبون موجة جديدة من الثقة بالنفس والاعتزاز مصمّمة أكثر من اي وقت مضى على استعادة الارض . ورأى كيسنجر أن استخدام العرب سلاح النفط الذي قد يدمّر اقتصاد الدول الغربيّة ، اخذ في دفع عدد متزايد من الدول المستهلكة للنفط ، ولو على مضض ، الى سلوك سياسة معادية لاسرائيل . وكان مقتنعاً بانه مهما سعت اميركا لتصحيح توازن الاسلحة في الشرق الاوسط ، فان اسرائيل ستزداد عزلتها . وقال مرّة لاحد اصدقائه « انها لمأساة ان هؤلاء الناس الذين خرجوا من الغيتو اقاموا

دولة اصبحت غيتو بحد ذاتها » . حتّى في الولايات المتحدة ستنكمش مساعدة اسرائيل ، حسب اعتقاد كيسنجر ، كلما تزايد عدد الاميركيين الرافضين لاي تورط في اعقاب اثار فيتنام . ورأى كيسنجر ان الوقت قد حان لتعقد اسرائيل سلاماً طيباً مع العرب فتحصل أول مرّة على حدود جديدة معترف بها وآمنة ومضمونة . وانه اذا فاتت هذه الفرصة عندها قد تضطر الدول الكبرى الى فرض الحلّ .

طار كيسنجر الى مطار بن غوريون مساء الاحد في ١٦ كانون الاول فوجد موقف الاسرائيليين منه قد تبدّل . ذلك انه عند زيارته السابقة في ٢٢ تشرين الاول حاملاً اتفاقية وقف اطلاق النار استقبله معظم الاسرائيليين بالترحاب والتحيّة . اما الان (١٦ كانون الاول) فقد تبدّل موقفهم منه بصورة جذريّة . لقد اصابتهم احداث الشهرين الاخيرين برضوض وندوب . ففي مطلع تشرين الاول (اكتوبر) كانوا يعيشون في عالم آمن ، بعيد عن المثال موضوع طموحهم ، ولكنه على الاقل آمن مطمئن . ولكن في اواسط كانون الأول ، ورغم تقدم قواتهم الى « افريقيا » وامتداد سيطرتهم الى أبعد من الجولان باتجاه دمشق ، شعروا بالعزّلة والانكماش . واخذ صديقهم كيسنجر يطوف في العواصم العربيّة معانقاً الزعماء العرب حتّى ساورتهم المخاوف ان يكون قد تورط في عملية بيع معيبة للمصالح الاسرائيلية .

وهكذا تحولت الصحافة الاسرائيلية الى نبرة العداء ازاء وزير الخارجية الاميركية حتّى أن غولدا مئير قالت مؤنبة المحررين الصحافيين في مطلع كانون الاول « لاستفرادهم شخصاً ما على حدة » واضافت انكم « لا تنصفون كيسنجر » . وفي الولايات المتحدة ساورت الشكوك عدد من مثقفي اليهود بصدد كيسنجر حتّى ان نورمان بود هوريتز رئيس تحرير صحيفة « الكومنتري » قال لوزير الخارجية الاميركية في ٦ كانون الاول انه انضم الى عدد من الاسرائيليين في التساؤل ما اذا كان كيسنجر هو تشرشل المثقفين متنكراً بشمبرلن اوالعكس.وحدث في ذلك اليوم أن دعا كيسنجر الى مكتبه عدداً من اليهود الاميركيين ليؤكد لهم انه غيرمتخل عن اسرائيل بل انه على العكس تماماً يحاول انقاذها من «ائتلاف يضم الاوروبيين الجبناء والعرب المتعصبين ورجال الكونغرس الانعزاليين » .

عندما هبطت طائرة كيسنجر في مطار بن غوريون وترجّل منها استقبله ايبان ودنيتز وغيرهما من كبار الرسميين الاسرائيليين . اما الصحافيون فاحتجزوا خلف الحواجز . وعلى بعد مئات الياردات كانت التظاهرات محصورة خلف حواجز أخرى . وجرى اعتقال ثمانية عشر متظاهراً حاولوا اقتحام الحاجز وكانوا يرفعون لافتات كتب عليها « اميركا – وانت ايضاً يا بروتوس ؟ » و « كيسنجر تخلّى عن فرموزا – فهل يتخلّى عنا بالتالي ؟ » . ونقلت صحيفة معاريف احساس عدم

الارتياح الاسرائيلي ازاء وزير خارجية اميركا اذ قالت في افتتاحية رئيسيّة : « ان مؤتمر جنيف لم يبدأ بعد غير ان الثقة التي نوليها للاميركيين هي الان في حالة تصدّع . ذلك بأننا لم نعد نركن لعهودهم . وبتنا نسأل انفسنا ، ما اذا كان في الوضع الجديد ما يجعل عقد اي مؤتمر مجدياً » .

هرع كيسنجر وايبان وسواهما من كبار الرسميين الى امتطاء طائرتي هليكوبتر عسكريتين في رحلة جوية الى القدس استغرقت عشرين دقيقة . وانهمك كيسنجر طوال اثنتي عشرة ساعة في محادثات متوترة ، عاطفية ، صعبة ولكنها اسفرت عن نهاية مثمرة . وقد وصفها فيما بعد بالمنطلق الذي مهّد الطريق الى محادثات فك الارتباط التي انبثقت عن مؤتمر جنيف .

في السادسة مساء وصل كيسنجر الى مكتب السيدة مئير في الكنيست حيث تشاور مع رئيسة الوزراء طوال ثلاث ساعات . في التاسعة والنصف مساء عقدت محادثات طوال ثلاث ساعات ونصف ساعة اخرى على مائدة العشاء الذي ضمّ كيسنجر ومئير وسيسكو وسواهم من كبار الرسميين الاميركيين والاسرائيليين . واخذ كيسنجر يوضح سياسته الخاصة مشدّداً على تزايد عزلة اسرائيل وانكشافها ، مبدياً في الوقت نفسه اهتمامه العميق بامكانات اسرائيل وقدرتها على مواجهة التحديات الراهنة . وقال «ان هذه هي اللحظة الفذة للتوصل الى سلام حتّى لو كان الثمن الانسحاب من الاراضي العربيّة». ذلك ان الاحتلال ، كما مضى كيسنجر يقول ، لم يعزز الأمن . لقد اسقطت حرب تشرين هذه الفكرة . « فاوضوا » كانت دعوته الى الاسرائيليين ، و « بادلوهم الارض بالحدود الجديد المضمونة » . وقاد السفير الاسرائيلي في واشنطن دنيتز التصدي لاحدى حجج وزير خارجية اميركا الرئيسيّة بان اسرائيل في طريقها الى خسارة التأييد حتّى في قلب الولايات المتحدة . قال السفير : ليس الأمر كذلك واخذ يستشهد بآخر الاستفتاءات . لكن رغم ذلك استمر كيسنجر قوي الحجة وفصيحها حتّى بدا انه اخذ يفوز بتأييد أكثرية الوزارة الاسرائيلية .

في الواحدة صباحاً عاد الى فندق الملك داود وقال للمراسلين والسياح « انا متفائل » . وخلال الساعات الثلاث التي عقدت فيها الوزارة الاسرائيلية في مطبخ السيدة مئير كان يتثبّت مما اذا كان قد جرى التغلب على اعتراضات سوريا على المؤتمر . وطار فهمي الى دمشق للتشاور مع الأسد ولم يتلق اي تقرير عن نتائج هذا الاجتماع . كما تشاور مع الاسد السفير السوفياتي . ولم يتلق تقرير عن نتائج هذا الاجتماع ايضاً .

في الرابعة صباحاً جاء الون ودنيتز الى جناح سيسكو في الفندق لإعلان أن اسرائيل ستحضر مؤتمر جنيف وانها فور انتهاء الانتخابات الاسرائيلية ستشرع في محادثات

جديّة وجوهرية مع مصر حول فصل القوات على جبهة السويس . واسرع سيسكو يزّف البشرى لكيسنجر الذي نام على الاثر ملء عينيه الساعتين الباقيتين . فقد تغلّب على شكوك اسرائيل حول وساطته ، وهذا شرط اساسي لاي مفاوضات ناجحة .

في الصباح بحث موضوع المؤتمر مع ايبان وموضوع فك الارتباط مع دايان ، والموضوعين مع مئير . ثم وهو في طريقه الى المطار توقف لحظة في ياد فاشيم حيث يقوم نصب لليهود الذين قضوا في اوروبا في الحرب العالمية الثانية . وصرف المراسلين المرافقين له الى المطار حتى يتسنى له القيام بالزيارة منفرداً بحيث لم يصحبه الا السفير الاميركي في اسرائيل . بعد اضائته شمعة تذكارية صرف كيسنجر نصف ساعة في تأمل صامت ثم انصرف من ياد فاشيم بقلب كسير « حول موقف اسرائيل الموحش مصمّماً تجنيبها نصوباً كهذه» . وعندما ادرك أكثر من ذي قبل كيف تستحوذ فكرة الأمن على ذهن مئير ، « بالالم والنية الصالحة والحظ والصبر — لا تخففوا من قيمة الحظ — لعلنا نستطيع صنع شيء يحوّل السيوف الى محاريث » ، قال كيسنجر .

في المطار أعلم كيسنجر وايبان المراسلين ان « اتفاقاً تاماً » قد تحقق حول « اجراءات وبنود افتتاح المؤتمر ومشكلات فك الارتباط » . وتصافح كيسنجر وايبان مؤكداً احدهما للآخر اللقاء في جنيف في ٢١ كانون الاول ، يوم افتتاح المؤتمر . كما جرى الاتفاق على مجيء دايان الى واشنطن فور انتهاء الانتخابات الاسرائيلية لبحث فك الارتباط بصورة أكثر تحديداً .

في الثالثة صباحاً من يوم الثلاثاء في ١٨ كانون الاول ايقظ سيسكو كيسنجر على نبأ مفاده ان كلاً من روسيا ومصر قد أكدتا انطباعه في السبت الماضي وان سوريا لن تحضر مؤتمر جنيف . فقد فشل فهمي في تبديل رأي الأسد .

بعد ظهر ذلك اليوم أعلن السوريون رسمياً مقاطعتهم للمؤتمر واتهموا اسرائيل والولايات المتحدة « بالمناورات التي تؤدي الى متاهات لا نهاية لها » . اما المصريون فقد اعلنوا من جهتهم ان فهمي سيرئس وفداً رفيعاً الى جنيف . وسارع كيسنجر الى تطويق الحادثين. فلدى توقفه في مدريد قال الناطق بلسانه ، جورج فيست ، ان فالدهايم قد وجه الدعوات الرسمية الى مؤتمر جنيف وان الولايات المتحدة وروسيا قد اعلمتا ، لاحقاً ، من « الاطراف المعنية » بان الجميع ، باستثناء سوريا ، قد قبلوا الدعوة وان المؤتمر سيفتتح في كانون الاول في جنيف . اما سرّاً فقد شجع كيسنجر التخمينات القائلة بان غياب سوريا لأمر حسن لأنه يزيل من جلسة الافتتاح الدولة العربية الوحيدة التي يتوقّع مشاغبتها .

في ٢١ كانون الأول اجتمع وزراء خارجية مصر والاردن واسرائيل والولايات

المتحدة وروسيا في قصر الامم في جنيف الذي كان مركز عصبة الامم وترأس الاجتماع الامين العام فالدهايم. فبدأ عملية صنع السلام في الشرق الاوسط الطويلة . تميّز المؤتمر بحد ادنى من مظاهر الابهة وبحد اقصى من تدابير الأمن . فقد كانت المرة الاولى خلال ربع قرن من التوتر غير المتوقف او الحرب في الشرق الاوسط ان جلس وزراء عرب واسرائيليون في غرفة واحدة ، رغم انهم لم يكونوا مستعدين لمصافحة بعضهم بعضاً او تبادل الكلمات . وحدث تأخير لموعد الافتتاح استغرق نحو ٤٥ دقيقة بسبب مشكلة جلوس، كما جرى تصادم اعلامي بين فهمي وايبان ، ولكن عملية التفاوض رغم هذا كله كانت قد بدأت .

أكد كيسنجر ، الذي نظم المؤتمر لاعطاء الدبلوماسية فرصة اداء دورها السحري ، مهمته كوسيط فقال « ان العدالة قد شملت جميع الفرقاء » ، ونطق بالعربية قائلاً : « ما فات قد مات ». « ان العدالة الاعظم تتأّى من التوصل الى حقيقة تجمع كلّ الامال في تحقيق خير الانسانية المشترك » .

في اليوم التالي انهى المؤتمر اعماله بتوجيه مصر واسرائيل للشروع في مباحثاتهما حول فك الارتباط . وفي مطلع العشية كان كيسنجر في طريقه الى المطار يسلك طريقاً خلفياً مظلماً تجنباً للارهابيين . ذلك انه قبل ايام كان المتطرفون الفلسطينيون قد هاجموا طائرة اميركية في مطار روما وسرت شائعات مفادها انهم متجهون نحو جنيف . وتقدم وزير الخارجية الاميركية امام المذياع في صالون الشرف وقد بدت عليه امارات التعب والحذر وقال : « لقد حققنا جوهرياً ما جئنا الى هنا في سبيله » ، وكان صوته خافتاً. ثم مضى يقول : «بالتأكيد ان الطريق الى السلام في الشرق الاوسط سيكون طويلاً ، واحياناً مؤلماً ». ولم يتلقّ اي سؤال ثم جرى اصطحابه بسرعة عبر الحرس السويدي المدجج بالرشاشات الى طائرته . وعطس مرتين . «لقد أصيب بالرشح » قال احد المراسلين. « حسناً » ، قال الآخر . « لماذا قلت ، حسناً ؟ »، « لأن ذلك يثبت انه بشر » !

رحلة الذهاب والاياب بين اسوان والقدس

واجه حزب العمل الاسرائيلي بقيادة غولدا مئير نكسة في انتخابات ٣١ كانون الأول ، ففقد عدداً من المقاعد في الكنيست بينما تعاظمت قوة كتلة ليكود المعارضة . الا ان حزب العمل بقي القوة صاحبة النفوذ الأولى في البلد فشكلت مئير الحكومة الجديدة بعد مخاض عسير كان بداية مرحلة عدم استقرار سياسي في اسرائيل .

وكانت اولى اوامر مئير الى دايان للتوجه الى واشنطن سعياً وراء عقد محادثات مع كيسنجر حول موضوع فك الارتباط . توجه وزير الدفاع الاسرائيلي على الاثر

الى واشنطن في ٣ كانون الثاني ١٩٧٤ . وكان دايان يعتبر من الصقور في اسرائيل ولكنه كان مقتنعاً بوجوب الانسحاب الاسرائيلي . وفي اعقاب محادثاته الطويلة مع كيسنجر التي جرت في جلستين يومين متواليين واستغرقت الجلسة الواحدة اربع ساعات ، ادلى كيسنجر بتصريح مفاده ان الموقفين الاميركي والاسرائيلي قد تقاربا بصورة جوهرية . الا ان دايان اضاف متحفظاً ان مجرد الاقدام على الخطوة الاولى باتجاه الاتفاق مع مصر لأمر تكتنفه الصعوبات الجمة نظراً لعلاقة العداء المريرة الطويلة بين الدولتين . وختم كلامه يحدوه الأمل بالتمكن من انجاز هذه الخطوة في نهاية الأمر في جنيف .

وكان دايان يعتمد على الأمل الذي عقده على الدعوة الخاصة التي وجهها الى كيسنجر بالعودة الى الشرق الاوسط لرعاية محادثات فك الارتباط . ولقد قبل كيسنجر هذه الدعوة بعد استمزاج السادات في الأمر وموافقته السريعة عليه . فقرر كيسنجر السفر الى المنطقة في ١٠ كانون الثاني لمساعدة الطرفين على بلورة مواقفهما حتى يتسنى لممثليهما التوصل الى اتفاق في جنيف . وكان كيسنجر يتوقع العودة الى واشنطن في ١٦ كانون الثاني كحد اقصى على اساس عقد جلسة محادثات مع كل من السادات ومئير والملك حسين والاسد،مع امكان عقد جلسة محادثات ثانية مع السادات ثم المرور ببروكسل لتلخيص الوضع لحلف الاطلسي. وقال كيسنجر للمراسلين الصحافيين : « اريد تشحيم عجلات جنيف . ذاك هو هدفي » .

بعد توقف الطائرة للتزود بالوقود في اسبانيا ، انطلق كيسنجر في رحلته الى اسوان، جنوبي القاهرة . فقد كان السادات يستجم مستفيداً من مناخ اسوان الدافيء بعد اصابته بالوافدة . وكان لاسوان ذكريات سياسية انعكست على العلاقات المصرية الاميركية . ففي تموز ١٩٥٦ الغى داللس بصورة مفاجئة عرضاً اميركياً للاشتراك مع بريطانيا والبنك الدولي في تمويل السد العالي باسوان ، حلم الرئيس عبد الناصر في ذلك الحين . ونتج عن هذا الالغاء انقلاب السياسة الخارجية المصرية بعد ان اقتنص نيكيتا خروشوف الفرصة السانحة فقبل طلب مصر بتمويل السد وانفتح على الاثر الشرق الأوسط للتغلغل السوفياتي الاقتصادي والعسكري . وعندما زار نيكسون السد وهو بعد مواطن عادي في الستينات قال لعبد الناصر « اليوم اشهد افدح خطأ ارتكبته اميركا » ، وكرر كيسنجر شيئاً من هذا في اليوم التالي لوصوله الى اسوان وزيارته السد . فقد سأله السادات عند اجتماعهما في اليوم التالي « كيف وجدت السد العالي؟ عسى تمتعت بمشهده؟ »،« شيء مدهش. حتماً لم يكن قرارنا في ذلك الحين مما يمكن الاعتزاز به » .

اسوان ١

هبطت طائرة كيسنجر في السابعة والنصف من مساء الجمعة على مدرج قرب قاعدة عسكرية مزودة باسلحة مضادة جواً وبراً وقد اقيمت لحماية السد من هجوم اسرائيلي جوي او من الكوماندوس البري على حد سواء . ولم يسمح الا لعدد قليل من المراسلين والمصورين بالذهاب الى القاعدة . وكان فهمي بالانتظار فرحب بكيسنجر بعناق حار ثم انطلقا الى الفيلا التي يقيم فيها السادات والمشرفة على السد الادنى في اسوان . بعد الترحيب اختلى السادات وكيسنجر في جلسة عمل استغرقت ساعة ونصف ساعة . وقد وصف فيست المقابلة بانها كانت « مفيدة وبناءة » . ثم عاد كيسنجر الى الفندق الذي ينزل فيه . وكانت فنادق اسوان شبه خاوية من السياح بعد ان انخفض عددهم كثيراً بسبب الحرب . الا ان توافد الصحافيين في ذلك الأسبوع انعش الموسم قليلاً .

وعندما ذهب كيسنجر في اليوم التالي لمشاهدة اثار اسوان بعد ان شاهد السد العالي قال له احد المراسلين الصحفيين الذين أعجبوا بالنحت المصري القديم « بعد ان شاهدت هذه الاثار بت اشتهي العودة ثانية سائحاً » ، اجاب كيسنجر «لا تقلق ، سنرى هذه الاثار كلها قبل ان ننهي هذه المفاوضات » .

في الحادية عشر صباحاً انطلق كيسنجر بعد مشاهدته عجائب اسوان الى لقائه الثاني بالسادات الذي استهل الاجتماع بسؤال كيسنجر عن زيارته للسد العالي،ثم امضيا ثلاث ساعات ونصف ساعة في مراجعة « افكار » دايان وافكار السادات حول فك الارتباط . كانت مهمة دقيقة ومضنية استعرضت طائفة من الاسئلة مثل : الى اي خط في سيناء سيكون الاسرائيليون مستعدين للانسحاب ؟ وما هي الاسلحة التي يسمح بها في الاراضي المتروكة ؟ وما عددها ؟ ما هو حجم قوات الامم المتحدة التي ستفصل بين المتحاربين ؟ هل ستوافق مصر على اعادة تعمير المدن القائمة على محاذاة قناة السويس ، وهل سيعاد فتح القناة للملاحة الدولية ؟ ان الاسرائيليين يريدون ان لا تصبح القناة ، ثانية منطقة عمليات حربية . ثم ما هي العلاقة بين اتفاقي فك الارتباط في سيناء والجولان او بين هذه الاتفاقات والتسوية الشاملة ؟

ان الافكار المتنافسة لم تتبلور في مقترحات رسمية ولكن يبدو ان السادات لاحظ ان من السهولة بمكان تحويل هذه الافكار الى مقترحات وانه يمكن تضييق الخلافات بصددها وتخطيها دون قيام صعوبات جمة ولا اثارة متاعب كثيرة . ولكن هذا مشروط ببقاء كيسنجر في المنطقة. ذلك بأن السادات كان يريد عقد صفقة ولكنه اراد ان يعقدها كيسنجر . وقال السادات : « سيادة الوزير لماذا تحصر مطمحك بمجرد الحصول على المقترحات ؟ لماذا لا تحاول انهاء المفاوضات خلال بقائك

بيننا ؟ ». وبعد محادثات كيسنجر مع كل من السادات ودايان شعر أن الطرفين اقتربا من الوفاق . فبات كيسنجر راغباً في اكمال المفاوضات ولكنه لا يعرف السرعة التي يرغب الاسرائيليون التحرك على اساسها . الا أنه كان سيعرف ذلك قريباً .

القدس ١

كان كيسنجر خلال ما تستغرقه الرحلة بين اسوان وتل ابيب يبدو متفائلاً على غير عادته ، ذلك بأن المحادثات مع السادات «كانت اكثر تفصيلاً ونفعاً » مما توقع كيسنجر اصلاً . وكان السادات « بناءً وميالاً الى التسوية ». « قد نبدأ مفاوضات جديّة ، بل بات بامكاننا التوصل الى تسوية بعض المواضيع » قال كيسنجر . وبدا عليه كأنه يعيد النظر في الهدف الاساسي الذي وضعه اذ تكشفت له المرحلة الاخيرة عن امكانات لم يكن يتوقعها .

استقبل ايبان كيسنجر في المطار وركبا الهليكوبتر الى القدس . وجد ان غولدا مئير هي الاخرى مصابة بالانفلونزا فسأل عنها ايبان الذي اعلمه انه يتعذر عليها حضور عشاء العمل المقرّر . فبعد ان قام كيسنجر بزيارة مجاملة لرئيسة الوزراء ذهب الى عشاء العمل مع الون وايبان ودنيتز وغيرهم من كبار الرسميين الاسرائيليين . واخبر هؤلاء ان السادات يقترح اتفاق فك ارتباط بدل مجرد تبادل المقترحات للتفاوض في جنيف . فاعجب الاسرائيليون بفكرة السادات. وفي ساعة متأخرة من الليل فوّضت الحكومة الاسرائيلية كيسنجر « تقديم الاقتراح الاسرائيلي الى السادات حول فصل القوات » .

صباح الاحد الواقع في ١٣ كانون الثاني اجتمع الرسميون الاميركيون والاسرائليون في مجموعات صغرى لصقل الاقتراح . فاخذوا في العمل في خرائط تحدد عليها مواقع القوات الفعليّة . فمثلاً كان أمر خفض القوات المصرية المتمركزة على شرقي القناة شرطاً لانسحاب القوات الاسرائيلية مسافة عشرين ميلاً الى الشرق . وكانت القوات المصرية المشار اليها قد بلغت خمسين الف جندي واربعماية دبابة ، فضلاً عن المدفعية والصواريخ . وكانت هذه المسألة بالغة التعقيد في المباحثات . فاستمر بحثها حتى الغداء ثم الى ما بعد الظهر .

في المساء طار كيسنجر بالهليكوبتر وسط عاصفة ممطرة الى بيت دايان في ضواحي تل ابيب لحضور مأدبة . حتى هناك كان العمل متقدماً على الانشراح واللهو . فقد دخل اليعازر متأبطاً ملفاً كبيراً وقال « ها قد اتيتك بالخريطة التي تريد » ، فاجابه كيسنجر مبتسماً « رويداً، كن حذراً ، فبيننا مراسلون صحافيون ! ». واختلى كيسنجر وسيسكو

ودايان واليعازر خمسة وعشرين دقيقة في مكتبة صغرى وعند خروجهم بدا الاغتباط على الوجوه . ولكنهم رفضوا التعليق امام الصحافيين . واخذ كيسنجر يبدّل الموضوع فيروي كيف قبلّه فهمي وامسك السقاف بيده ويقول متندراً ان السبب الذي يحرم الاسرائليين من معاملة افضل هو ان ايبان لا يقبّلني ! وخلال اقل من ساعة كان كيسنجر في طريقه الى اسوان . وقال سيسكو للصحافيين على متن الطائرة « مرحى بكم على متن رحلة الذهاب والاياب المصرية – الاسرائيليّة ! » .

اسوان ٢

« ان المشروع الاسرائيلي يأخذ وجهة النظر المصريّة بالاعتبار ، واعتقد الان ان هذا المشروع الاسرائيلي والخريطة المرفقة يصلحان منطلقاً للتفاوض». هذا ما صرّح به كيسنجر للمراسلين الصحافيين المرافقين له على متن الطائرة . وعند وصوله بعد ساعتين وعشرين دقيقة الى مطار اسوان الحربي قال للصحافيين المصريين « آمل ان يكون المشروع الذي اجلبه معي من اسرائيل خطوة كبرى نحو اتفاق فصل القوات » . وانطلق بعدها كيسنجر وفهمي الى فندق كاتاراكت الجديد حيث تشاورا الى ما بعد منتصف الليل وهما يراجعان المشروع الاسرائيلي بصورة اولية جداً . ذلك ان السادات وحده هو الذي يتخذ القرار في مصر . ولذلك عندما سأل فهمي كيسنجر اذا كان ينوي زيارة مصر في اليوم التالي ومشاهدة القبور التاريخية فيها قال كيسنجر بحزم انه لن يزور اي شيء قبل انجاز ما جاء بصدده . فرتب فهمي لقاء السادات وكيسنجر صباح يوم الاثنين .

كان السادات لم يزل يرتدي البزة العسكريّة رغم الحرارة المرتفعة في اسوان . وبعد ان خرج المراسلون والمصورون اختلى كيسنجر والسادات اربع ساعات كاملة . قدّم كيسنجر رسمياً المشروع الاسرائيلي والخريطة وشرحا بالتفصيل بنوده كلّها . فقد كان الامر يقتضي الوضوح ولا يتحمل الغموض . وتأمل السادات المشروع بجد ثم رفضه . فقد طلبت اسرائيل ضمانات مصريّة واضحة كتحويل قناة السويس الى ممر مائي تجاري مجرد من الامكانات العسكريّة ، وان يسمح بالشحنات المتوجهة الى اسرائيل وللسفن التي ترفع علم اسرائيل بالمرور عبر القناة ، وان يرفع حصار باب المندب . قال السادات لكيسنجر انه قد يكون مستعداً اعطاء اسرائيل ضمانات شخصيّة حول هذه المواضيع كلّها ولكنه لا يستطيع بوضوح الزام حكومته بمثل هذه التصرفات ، لأن مثل هذا الالزام يبدو انتقاصاً من سيادة البلد . واعرب السادات ايضاً عن اختلافه مع المفهوم الاسرائيلي « للحضور المصري » المخفّض تخفيضاً

كبيراً على الضفة الشرقية للقناة . وقال انه مستعد لخفض القوات المصرية رجالاً وسلاحاً على الضفة الشرقية ولكن ليس الى الحد الذي اقترحه دايان . ووصف كيسنجر مسألة تحديد الاسلحة بانها « مشكلة شديدة التعقيد والصعوبة » . ورغم تشوق السادات الى عقد الاتفاق الا ان كيسنجر استطاع ان يلمس ان الزعيم المصري يواجه صعوبات كبرى — سياسية وبسيكولوجية — في الانطلاق من « مشروع اسرائيلي » . فادرك وزير الخارجية الاميركية ان الوقت قد حان لفعل دبلوماسيته الخلاقة ، فسأل السادات درس الاقتراح التالي : ان الولايات المتحدة التي رفضت في الماضي تقديم « مشروع اميركي » ستتقدم الان بوثيقتين احداهما تكون « مشروعاً اميركياً » للفصل بين القوات على جبهة السويس يشتمل على الملامح المقبولة في مسودتي المشروعين المصري والاسرائيلي ، وتكون الثانية « مذكرة تفاهم » تشتمل على لائحة من الضمانات الشخصية التي تعهد بها السادات لكيسنجر . ويكون من شأن « مذكرة التفاهم » دعم المشروع الاميركي بحيث يشكلان معاً اساس التفاوض او ما يسميه الدبلوماسيون « بنود المرجع » . مثل هذا المشروع ، في رأي كيسنجر ، لا يضمن التزاماً اميركياً من اي نوع كان بينما قد تساعد هذه الصيغة مصر في التغلب على العقبة العاطفية في ان تفاوض على اساس مسودة مشروع اسرائيلي ، والعكس بالعكس . فوافق السادات على اقتراح وزير الخارجية الاميركية وتفاءل بالخروج من المأزق وعقد الاتفاق خلال ايام قليلة . وابدى كيسنجر أمله في التوصل الى ذلك لأنه ينوي ان ينهي رحلة الذهاب والاياب بين اسوان والقدس ليل الخميس . وكان وضع حد زمني للامر تكتيكاً مقصوداً لايجاد الضغط الموصل الى الاتفاق .

بعد الظهر وضع كيسنجر وسيسكو والسادات وفهمي والجمسي « مشروعاً اميركياً » « وخريطة اميركية » . وعند الخامسة تمشى كيسنجر وفهمي على شرفة الفندق وتمازحا مع المراسلين الصحافيين ثم جلسا في تلك الشرفة المطلة على النيل الاعلى وعلى كثبان الصحراء. وحدّق كيسنجر في المراكب الشراعية التي تمخر النيل وقال : « كم احب الصحراء » . في المساء راجع كيسنجر وفهمي « المشروع الاميركي » المشتمل على اقتراح بفصل القوات ومذكرة تفاهم وخريطة ، ثم انطلقا الى مقر السادات لالقاء نظرة نهائية واخيرة الى المشروع قبل عودة كيسنجر الى القدس . و كانت هذه الجلسة مرضية جداً رغم يقين كيسنجر ان ثمة خلافاً لم يزل قائماً في وجهة النظر بين مصر واسرائيل. ولقد تبدل دور كيسنجر من مجرد رسول بين الدولتين ، ولكنه اصر على ان يتولى الدفاع عن وجهة نظر اي منهما تجاه الآخر ، بل ، اكثر ، ان ينقل بامانة وجهة النظر المعنية الى الطرف الآخر دون المساومة من قبله بصددها لأنه اذا فعل ذلك انهارت مهمته كوسيط وسط غيوم الشكوك وعدم الثقة المتلبدة في جو الشرق الاوسط .

القدس ٢

كان الوقت قد قارب منتصف الليل يوم الاثنين عندما عاد كيسنجر الى اسرائيل . واضطر تحت ضغط العاصفة الممطرة ان يذهب من المطار الى فندق الملك داوود في القدس بالسيارة وهي رحلة استغرقت نحو ساعتين مما اتاح له ان يلخّص لايبان محادثاته مع السادات ودور كيسنجر الجديد . وعند وصولهما الى الفندق تولى كيسنجر وسيسكو مراجعة بضع نقاط رئيسية من « المشروع الاميركي » مع ايبان ودنيتز وافرايم افرون ، وهو احد دبلوماسيي اسرائيل الرئيسيين . وبالنتيجة تقرر عقد سلسلة من اللقاءات يوم الثلاثاء في ١٥ كانون الثاني .

في السابعة صباحاً اجتمعت مئير الى كل من دنيتز وآلون ودايان أيبان وغاليلي. وكان رد فعلهم المبدئي لتوجه كيسنجر الجديد ايجابياً — رغم ان رئيسة الوزراء كانت متنبهة للهجوم الذي ستشنه كتلة ليكود المعارضة على اي اتفاقية ترتكز ولو جزئياً على تفاهم غير مكتوب . وفي التاسعة صباحاً اعلن دنيتز لكيسنجر الموقف الاسرائيلي الايجابي. وخلال الساعات الثلاث التالية راجع الرسميون الاميركيون والاسرائيليون المشروع بالتفصيل . وعرض كيسنجر تقريره لما يستطيع السادات قبوله وما ليس بوسعه ان يقبله دون الدفاع عن وجهة نظر السادات . عند الظهيرة انصرف كيسنجر عن المفاوضات الرسمية ليزور المتحف الاسرائيلي المعاصر حيث استقبله مدير الدائرة التربوية في هذا المتحف ، جويل شفتان ، احد اصدقاء الطفولة في فورث — المانيا . وفي الحادية والدقيقة الخامسة عشرة من بعد الظهر التقى كيسنجر وإيبان في غداء عمل استغرق ساعتين ونصف ساعة ثم انصرف لزيارة غولدا مئير التي كانت تتقدم وئيداً الى الابلال من توعكها فشرحت له مخاوفها حول امن اسرائيل وبقائها . فقام بدوره بايضاح ان اتفاق فك الارتباط هو اسلوب حسن لتأمين المطلبين . وفي الخامسة والنصف افتتحت مئير جلسة لحكومتها المصغرة استغرقت خمس ساعات. وجاء عند ارفضاضها في العاشرة والنصف مساءً الزعماء الاسرائيليون جميعاً عدا مئير فأبلغوا كيسنجر آخر تنازلاتهم التي تعتبر من اهم قرارات الحكومة الاسرائيلية والقاضية بالتخلي عن مطلب إعلان مصر الغاء حالة الحرب مع إسرائيل. واعلموا كيسنجر ان الحكومة الإسرائيلية ستتوصل الى قرار نهائي بصدد اتفاق فك الإرتباط بعد عودة كيسنجر من زيارته الثالثة الى أسوان .

وكان كيسنجر إبّان مداولات الحكومة الاسرائيلية يفكر وهو في فندقه في مدى التقدم الذي احرزه ففاق جميع التصورات. ذلك بأنه لم يطلق المفاوضات على أسس ثابتة بين مصر واسرائيل فحسب ، بل بات يعرف ان الطرفين راغبان في

ان يتولى هو إتمام الاتفاق بدل متابعة المفاوضات بواسطة موظفين يمثلون الطرفين على المستوى الأدنى في جنيف. ثم خطر لكيسنجر مدى الفارق الهائل بين الجانبين اللذين يفاوضهما . فمن جهة كان يفاوض في مصر رجلاً واحداً هو السادات يملك حق اتخاذ القرار . ومن جهة ثانية كان يفاوض في اسرائيل البلد كله . ذلك انه من الضروري ان يحصل على موافقة رئيسة الوزراء ولكن ذلك لم يكن كافياً ، فهناك الحكومة والبرلمان والى حد ما المعارضة والصحافة لذلك كان التفاوض في الجانب الاسرائيلي موزعاً ومستنزفاً للوقت .

كان الليل قد انتصف عندما انصرف كبار الرسميين الاميركيين والاسرائيليين لعقد وايضاح مشروع فك الارتباط في صيغته النهائية. واستغرقت جلستهم حتى الثالثة صباحاً عندما قرر كيسنجر أول مرة في رحلته هذه ان يهتف للرئيس نيكسون بعد ان كان المألوف في مثل هذه الرحّلات ان يتبادل واياه البرقيات . اما الان فقد اراد ان يخرج عن المألوف نظراً للسرعة القصوى التي تجتازها المفاوضات ، ولكون الولايات المتحدة باتت مستودع « التفاهم » حول الاتفاق . وهكذا استغرقت مخابرة كيسنجر الدبلوماسية مع نيكسون ثلاثين دقيقة .

كان يوم الاربعاء في ١٦ كانون الثاني غزير الامطار فاضطر كيسنجر وايبان الى ركوب السيارة الى المطار بدل الهليكوبتر. وفي طريقهما توقفا عند غولدا مئير حيث شعر كيسنجر ان الموقف الاسرائيلي بات «معتدلاً» وانه يقترب من عقد صفقة. وفي المطار بعد ممازحة الصحافيين ودعوته إيبان الى السفر معه الى اسوان حيث قضى الاخير مع زوجته شهر العسل في ١٩٤٨ قال كيسنجر ، بينما هو ينتظر دايان ليوافيه بالخريطة موجهاً كلامه الى الصحافيين: « لقد قضيت وقتاً طويلاً انقل وجهة نظر ايبان الى السادات ولكن لعل الآن أصبح دوره في ان يفسر وجهة نظري الى السادات » . فضحك الجميع ومضى كيسنجر يقول بنبرة اكثر جداً إن الخلافات بين الطرفين قد ضاقت كثيراً وهما يقتربان من المفاوضات « بروح من الانصاف والعدل التي اذا استمرت قد نجد اخيراً السلام المنشود » .

اسوان ٣

في الحادية عشر والدقيقة الاربعين قبل الظهر وصل كيسنجر في رحلته الثالثة الى اسوان خلال خمسة ايام . وقال للمراسلين على متن الطائرة ان خمسة وسبعين بالمئة من المشكلات قد حلت ولم يبق امامنا سوى عشرين او خمسة وعشرين بالمئة .

استقبل الرئيس المصري كيسنجر وهو باد الانشراح . وبعد مداعبة قصيرة حول

اي « منهما ملتزم بنظام تخفيف الوزن والحمية» ، انصرفا الى مشاورات استغرقت ساعة ونصف ساعة . تمكن كيسنجر خلال هذه المشاورات من حمل السادات على الموافقة على تخفيض الوجود العسكري المصري على الضفة الشرقية الى الحد الذي بات متأكداً من ان اسرائيل تقبله، وهو كناية عن سبعه آلاف جندي وثلاثين دبابة مع تجريد الضفة الشرقية من الصواريخ المصرية . وبعد مداولات مع فهمي في الفندق حول التفاصيل عاد كيسنجر الى الاجتماع بالسادات في الثامنة مساء ساعة من الزمن وانصرف بعدها الى رحلته الجديدة الى اسرائيل وهو بالغ التفاؤل، حتى انه قال للصحافيين : « لقد اجتزنا معظم الصعوبات ولم يبق سوى عشرة بالمئة منها» . واجاب عن سؤال حول صفقات الاسلحة الاميركية لاسرائيل فقال : «ان صداقتنا لإسرائيل تبقى ولا تمس ولكن اذا ما حل السلام في المنطقة لا تعود صداقتنا لأحد الطرفين عداوةً للآخر» .

القدس ٣

وصل كيسنجر الى القدس قرب منتصف الليل وسط عاصفة ممطرة، وبعد ان لخص لإيبان مفاوضاته مع السادات، اجتمع في فندق الملك داوود الى دنيتز السفير الاسرائيلي في واشنطن لوضع برنامج اليوم التالي . وما ان غادر دنيتز الفندق حتى قام كيسنجر بالاتصال بكل من اسوان وواشنطن وموسكو والامم المتحدة للتثبت من انه لم يعد ثمة مشاكل لا يمكن تجاوزها حول وضع الاتفاق موضع التنفيذ . عند فجر الخميس في ١٧ كانون الثاني استيقظ كيسنجر والثلج يغطي المدينة حتى انه لم يستطع الذهاب بسيارته الى بيت غولدا مئير فذهب بدلاً منه دايان في جيب عسكري مصحوباً بألون وإيبان حيث تلقوا التعليمات النهائية. وعند العاشرة والنصف بلغوا الفندق وعقدوا اجتماعهم مع كيسنجر الذي استغرق ساعتين خرج بعدها ايبان وهو متهلل الاسارير وأخبر الصحافيين ان بياناً سيصدر في المساء. بعد توقف الثلج تمكن كيسنجر من زيارة مئير لتذليل بعض العقبات. ثم عقد مجلس وزاري استغرق ساعتين ونصف ساعة وتغيب عنه خمس وزراء بسبب الثلوج ولكن الحاضرين اقروا بنود اتفاقية فصل القوات بالاجماع . وفي السابعة زف النبأ لكيسنجر . وفي السابعة والدقيقة الخامسة والاربعين هتف سوندرز احد مرافقي كيسنجر الذي تركه في اسوان فأعلمه ان السادات قد اعطى موافقته النهائية على الاتفاق . عندها استرخى كيسنجر في كرسيه وقال ليسيسكو وهو متعب « جو افتح لنا زجاجة شمبانيا » .

في التاسعة مساءً حسب توقيت القدس والثالثة صباحاً حسب توقيت واشنطن

اعلن الرئيس نيكسون انه في الثامن عشر من كانون الثاني سيوقع كل من الجنرال اليعازر ممثلاً اسرائيل والجنرال الجمسي ممثلاً مصر على الكيلومتر ١٠١ اتفاقاً تاريخياً حول فصل قواتهما على جبهة السويس. ومضى الرئيس يقول ان هذه هي الخطوة المهمة الاولى نحو سلام دائم في الشرق الاوسط . ورغم ان بعض المراسلين اعتبر بادرة الرئيس محاولة منه لإلهاء الناس عن ووترغيت الا ان معظمهم وجد ان ما تحقق هو انجاز كبير لدور الولايات المتحدة كوسيط في العلاقات الدولية .

في التاسعة والنصف مساء اقام ايبان مأدبة عشاء صغيرة في فندق الملك داوود على شرف وزير الخارجية الاميركية المتعب . وقال ايبان ان ما قام به كيسنجر هو مثل فريد ونموذجي للوفاق الدولي . اجاب كيسنجر وهو المدرك لابعاد مسيرة التاريخ وتقلباتها وبصوت خافت ان ما يحدث الان بادرة لم يسبق لها مثيل في العلاقات العربية الاسرائيلية ، ولكن علينا الانتظار اشهراً لنرى اذا كان ما هو حادث مجرد شيء عابر او منعطفاً خطيراً في الشرق الاوسط . وقال كيسنجر لاحقاً . « قبل شهرين كنت اوافق الذين يخشون ان تلقي مصر اسرائيل في البحر ، ولكن مصر الان مستعدة ان تجرب حظ السلام » .

نصت بنود الاتفاقية الاساسية على انسحاب اسرائيل من الضفة الغربية من القناة ومن الضفة الشرقية ايضاً حتى خليج السويس الى مدى عشرين ميلاً تقريباً في سيناء . ثم جرى تقسيم هذه المنطقة الى ثلاث مناطق الاقرب منها يسيطر عليه المصريون بقوة لا تزيد على سبعة الاف جندي ، وتليها المنطقة المتوسطة العازلة تحت سيطرة الامم المتحدة ، واخيراً المنطقة الثالثة الى الغرب التي تكون تحت سيطرة الاسرائيليين بسبعة الاف جندي . ويبقى الاسرائيليون محتفظين بممرات جدي ومتلا .

عند توقيع مئير الاتفاق في منزلها كان كيسنجر حاضراً فقالت له « اعتقد صادقة انك قد صنعت التاريخ هذا الاسبوع ». وفي الخارج هتفوا له « كيسنجر ملك اسرائيل ، ليحيا ويدوم ! ». وهكذا تبددت شكوك اسرائيل بكيسنجر وصدرت « الجيروزليم بوست » في ذلك الصباح وصورة كاريكاتورية لكيسنجر تظهره ملاك سلام يجلس على فوهة مدفع صامت .

اسوان ٤

في العاشرة والنصف صباحاً غادر كيسنجر القدس الى اسوان وقال أن العشرة بالمئة الباقية من العراقيل تتعلق بتحديد الاسلحة . وبعد ثلاث ساعات كان كيسنجر يقف الى جانب السادات وهو يوقع الاتفاق الذي يحمل توقيع مئير . (في الواقع

كان السادات قد وقع الاتفاق بالاحرف الاولى قبل ليلة) . ثم ظهر السادات وكيسنجر امام الصحافيين حيث اعلنا التزامهما بعقد اتفاق مماثل على الجبهة السورية . وعند مغادرة كيسنجر المكان رافقه السادات حتى السيارة ثم وضع يديه على كتفي كيسنجر وقال « سيادة الوزير انت لست صديقي فحسب بل اخي » . وقبل الرئيس السادات خدّي كيسنجر .

وفي اقل من شهر عاد كيسنجر الى الشرق الاوسط ، فكانت زيارته الرابعة للشروع في مفاوضات فك الارتباط بين سوريا واسرائيل . وفي لقاء بين كيسنجر والسادات في مؤتمر صحافي سأل احد المراسلين السادات « سيدي الرئيس ما هي نصيحتكم للرئيس الاسد بصدد فصل القوات ؟ » . فوضع السادات يده حول كيسنجر وقال : «انني اثق بصديقي هنري . هذا ما اقول للاسد ، ثق بصديقي هنري » .

خاتمة

عندما وضع هنري كيسنجر اطروحته عن ماترنيخ وكاستلريه لنيل اجازة الدكتوراه قبل ربع قرن تقريباً ، تجاوز مجرد رسم صورة لرجلي الدولة المشار اليهما واللذين تمكنّا في خضم التقلبات الكبرى التّي سادت اوروبا بعد نابوليون من اقامة التوازن بين القوى المتنافسة موفرين بالتالي سلاماً نسبيّاً ؛ ذلك بأنه كان دون ان يقصد يرسم صورة نفسه .

كتب كيسنجر في تلك الدراسة ان « كليهما سيطر على جميع المفاوضات التّي اشترك فيها : الأول ، كاستلريه، بقدرته على التوفيق بين وجهات النظر المتناقضة وبعقلية المتمرس بالسياسة التجريبيّة ، والثاني، ماترنيخ، بطاقته التّي لا تعرف الكلل محققاً بواسطتها السيطرة الشخصيّة على خصومه ومتقناً فنّ رسم اطار مناقبي تبدو التنازلات من ضمنه لا عملية استسلام بل فعل تضحية على مذبح القضية المشتركة » .

وهذا النمط من الاستراتيجية والاسلوب لازم دبلوماسية كيسنجر منذ وضع اطروحته حتى تحوله من مثقف الى رجل دولة . ذلك انه رغم اشتهاره بالافراط في السريّة على صعيد التكتيك الاّ ان توجّهه في الاستراتيجية العالميّة كان جليّاً في ارتكازه على مسعى حافل يستهدف التوصل الى التوازن والاستقرار والنظام . ان احد المعالم الرئيسيّة لسياسته منذ البداية كان اعتقاده الراسخ بوجود علاقة تفاعل وتكامل عضويّة بين السياستين المحلية والخارجية . ففي رأيه أن عمل رجل الدولة فهم هذه العلاقة. فمع تنكبه مهام القيادة على المدى الخارجي كان عليه ارساء سياسته بمرونة ، على تقاليد مجتمعه . وفي رأي كيسنجر ان كاستلريه وماترنيخ اذا كان قد اعتراهما اي وهن او فشل فمرده عجزهما عن ايجاد التوازن السليم بين متطلبات الدبلوماسية السياسية . وهو يعطي مثلين متناقضين لكاستلريه السياسي الذي رغم حكمة سياسته فشل في الحصول على اجماع شعبه ، وماترنيخ السياسي الذي حصر سياسته بخبرة شعبه فحكم على نفسه بالعجز .

ان كيسنجر طالب التاريخ لا يغفل عبر دروسه واستقصاءاته في هذا الحقل . فهو انطلاقاً من ادراكه ان السياسة الخارجية الناجحة تنطلق من محور محلي ، سعى الى تشجيع الشعب الاميركي على اعتماد نظرة جديدة الى العالم في اعقاب فيتنام والى توسيع التأييد المحلي لسياساته . فكان يتنقل بين الكونغرس والصحافة والوسط الدبلوماسي طالباً التأييد . ولقد اشتهر باسلوبه في محاولة ربح اشد الناس انتقاداً لسياسته وجعلهم يشعرون ، خلال محادثاتهم الحميمة معه ، انه يشركهم في صنع السياسة .

تمتع كيسنجر بسلطان لم يعرفه من قبل في تاريخ الجمهورية اي مستشار رئاسي او وزير خارجية، فهو ليس الدبلوماسي الاميركي التقليدي بل الاستاذ الذي اعطي فرصة وضع نظرياته موضع التطبيق لصنع التاريخ . ولقد عرف بوزير الخارجية « الاوروبي » لا من قبيل الاشارة الى نشأته بل الى اسلوبه في الدبلوماسية . ذلك بأنه حاول ان يبتعد عن الرومانسية والانفعال وينهج نهج الواقعية . ولقد استأصل الاوهام الطوباوية من سياسة اميركا الخارجية . فهو على نقيض جون فوستر داللس الذي رفض حتّى مصافحة شوان آن لاي ، كان مستعداً ان يفاوض اي انسان . ان التصنيفات العقائدية لا تعيقه . ولقد ازعج اسلوبه العديد من الاميركيين الذين نشأوا على قيم مثالية تميز بين الحق والباطل في سلوك السياسة الاميركية الخارجية . فهم لا يفهمون براغميته او رغبته في التعاطي مع الشيطان ، اذا اقتضت الضرورة، توصلاً الى اتفاق ملائم . فقد رأى كيسنجر اميركا تتأرجح بين حقيقتين من الإنعزالية والتدخل وهي تضفي دوماً على تصرفاتها برقع المناقبية ، فحاول تثبيت راقوص الدبلوماسية طارحاً جانباً المثالية ، ولم يسع الى بلوغ الكمال بل سعى ، وهو ابن جمهورية فايمر ، الى الاستقرار . فبالنسبة اليه لم يكن في العلاقات الدولية ثمة شكل من اشكال الاخلاقية الاعلى .

كان شديد الاعتداد بمنجزاته في السياسة الخارجية الاميركية دون ان يعميه هذا عن ذاتيته التي تتعايش مع واقعيته. ولقد كان هدفه الثابت الوصول الى الحدود القصوى لما هو ممكن دبلوماسياً ، مدركاً التعقيدات غير المحدودة التّي تعترض هذا المسعى . وقد لاحظ ذات مرّة « ان كل نجاح يشتري بطاقة دخول الى مشكلة أكثر صعوبة » .

كان اغتباطه شديداً بعقده الاتفاق الاول مع الاتحاد السوفياتي في تحديد الاسلحة الاستراتيجيّة ، وهو اتفاق لا ينفك عن مسعى قيام الوفاق ، الاّ انه كان مدركاً صعوبة التوصل الى اتفاق ثان في هذا المجال نظراً لاشتمال مثل هذا الاتفاق على اسلحة اكثر تطوراً من جهة، ونظراً لتعرض الوفاق الان في واشنطن وموسكو الى موجات من الشك .

اعتبر العلاقة بالصين تقدماً دبلوماسياً رئيسياً لم يكن متوقعاً من قبل .

وان مخاوف الصينين والسوفيات بعضهم من بعض لا تقلّل من هذا الانجاز. الاّ انه حقّق هذا الانفتاح بتفاوضه مع زعماء الصين الطاعنين في السن ، ماو الذي تجاوز الثمانين وشو الذي يصغره بضع سنوات فقط . اما خلفاء هؤلاء فلغز كبير عند كيسنجر .

اما في الشرق الاوسط فقد توصل كيسنجر الى انجازات لم تكن تخطر ببال — فك الارتباط بين القوات المصرية والاسرائيلية على جبهة السويس في كانون الثاني ١٩٧٤ ، وخلال انجازه هذه العملية توصل الى اقامة علاقات اميركية جديدة بالعالم العربي . كان ما انجز على هذا الصعيد ضربة المعلم الدالة على الالمعيّة غير ان استمرار هذا الوضع يفتقر الى اي ضمان . ولم يكن وزير الخارجية الاميركية محتاجاً الى مشورة الخبراء حتى يدرك ان ترحيب السادات الحار به انما نبع من اعتقاد الرئيس المصري بانه قد يحقق عبره ما لم يستطع تحقيقه بالسلاح السوفياتي ، اي انسحاب الاسرائيليين من الاراضي العربية . وكان كيسنجر مدركاً ان التوصل الى تسوية في الجولان بين سوريا واسرائيل أصعب بما لا يقاس مما تم تحقيقه في السويس ، وان التوصل الى اتفاق على الضفة الغربية يشمل الفلسطينيين اكثر صعوبة . اما حل مشكلة القدس فيبدو اقرب الى المستحيل .

ان فك الارتباط الاميركي في الهند الصينية اثار الجدل الكبير . فقد هلّل لكيسنجر لبراعته ومرونته في التوصل الى اتفاق غامض في ١٩٧٣ بعد ثلاث سنوات ونصف سنة من التفاوض. ولكن في الوقت نفسه الذي كان يعلن فيه الرئيس نيكسون « السلام مع الكرامة » ، كانت الحرب تستمر في الاندلاع . واستمرت الحرب كما استمر التورط في كامبوديا التي كان كيسنجر يؤكد عدم زج اميركا فيها .

اما الحلف الاطلسي فقد طرح مشكلة مختلفة . وبدا ان كيسنجر يواجه الصعوبات في التعامل مع القارة التي ولد فيها . ذلك ان حقائق جديدة برزت في اطار الحلف خلال ربع القرن الذي مضى على انشائه ، فعمقت التناقضات السياسية والاقتصاديّة بين دوله ، ولم تجد دعوة كيسنجر الى « فعل خلق جديد » في فتح الحوار المنشود . هذه المشكلات كلّها بالغة التعقيدة . وقد انقضت ايام العمل الاستعراضي وباتت الحاجة ماسة الى نمط من المفاوضات الدقيقة الدؤوب لتحويل الانفراجات الى حقائق ثابتة في الدبلوماسية . وكان هذا يستدعي جهداً رئيسياً من كيسنجر لولا شبح ووترغيت ، القضية التافهة التي تحولت الى اكبر الفضائح السياسية في التاريخ الاميركي ، واندفعت تقوض زخم السياسة الخارجية الاميركية وتلاحق الوزير حتى في رحلاته الى الخارج . ففي ليلة من كانون الثاني ١٩٧٤ وبينما كانت الطائرة تحط بكيسنجر في رحلة الذهاب والاياب بين اسوان والقدس فاجأه مراسل صحافي بسؤال عن مدى تورطه في عملية

التلصلص على مخابرات بعض المسؤولين . وانتفض كيسنجر كمن لسعته افعى « كذب ، ما تقول » .

وبعد انقضاء شهرين وجد كيسنجر بريجنيف ابان زيارته الى واشنطن قد بدل موقفه من ووترغيت . فبعد ان كان يقلل من قيمتها ولا يأتي عليها بات يكثر الاشارة اليها حتى ان كيسنجر تذكر لاحقاً ان بريجنيف كان يشير اليها بمعدل اربع مرّات كل ساعة . ولم يتورع رسمي سوفياتي في الكرملين ان فاجأ صحفياً اميركياً بقوله : « هل تترقب زيارة الرئيس فورد ؟ » وبدا على ما قال هلموت سونينفلدت مساعد كيسنجر خلال رحلته الى موسكو ، ان الروس يتوقعون التبدلات ويؤخرون المفاوضات بانتظار حصيلة تحركات الكونغرس ودوائر القضاء ضد نيكسون .

والى كل ما خلفت ووترغيت من تعقيدات في السياسة الخارجية ، فان الفضيحة آلت الى تشويه علاقة كيسنجر بالرئيس. ذلك انه في نهاية ١٩٧٣ لم يظهر اسم نيكسون ، ولأول مرّة منذ رئاسته ، في استفتاء غالوب كاحد الرجال موضوع اعجاب الاميركيين ، بل حلّ محله كيسنجر . وبات التقليد الشائع شرب نخب وزير الخارجية بدل الرئيس حتى ان بعض السفراء هنأوه على نجاحه في حفظ السياسة الخارجية بمعزل عن هشيم الفضيحة المشتعل . واشير اليه في الاشهر الاخيرة بلقب « رئيس السياسة الخارجية الاميركية » .

ولكن كيسنجر كان مدركاً انه يستمد سلطانه الدستوري من الرئيس وانه وزير خارجية نيكسون بقدر ما هو وزير خارجية اميركا . وهو الان يشهد سخرية القدر في ان نيكسون الذي كان يحمل هو عليه وهو بعد استاذ في هارفرد ويشير الى انه غير صالح للرئاسة ، أصبح الرئيس الذي منحه السلطة .

وفي ربيع ١٩٧٤ كان كيسنجر يعلن انه لا يتوقع ان يستقيل الرئيس او يدان ثم يضيف « انه ليس خبيراً بالشؤون الداخلية » . وكان يقدّر موقف الرئيس في الدفاع عن نفسه ومسؤوليات الرئاسة ولكنه كان في الوقت ذاته يشكك في قدرة الامّة على احتمال هزات اخرى كاتهام الرئيس ، دون فقدانها طاقتها على مواجهة التحديات الخارجية . وكان الاوروبي القابع في اعماق كيسنجر يعتقد ان الامم ، كالافراد ، معرضة للمآسي التي لا تطاق ، ثم تنهار من مركز نفوذها .

ان كيسنجر لرجل بالغ التعقيد . فهو مزاجي متقلّب تشوبه مسحة من الحزن ، وهو شديد القلق ، لاسيما على الامّة وقدرتها على الصمود في وجه التمزق الذي يبعثرها ارباً في مسعاها بلوغ الطهر السياسي . وكان كيسنجر يعتقد ان ليس من طهر في السياسة وان هذا المسعى وان يكن مفهوماً ، الاّ انه غير واقعي . وكان شديد القلق على مستقبله لاسيما بعد ان احرز النجاح الذي جعل نجمه يلمع ثم هو الان

يتوقع خيبات مريرة وقد خيم شبح ووترغيت على كل الحياة السياسية الاميركية الى حد انه بات قلقاً من ان يعمد احد خصومه من رجال البيت الابيض الحسودين منه الى محاولة شده ، الى وحلة الفضيحة .

يبدو كيسنجر الان للعديد من الاميركيين شهاباً مفرداً مضطرباً . فهو ، شأن الشهاب ، يسطع ببهاء ولكن ما ان يومض حتى يخبو ، فيفقد سحره. ان العديد من ناقديه يزعمون انهم يشهدون وميضه وهو يخبو . ذلك انه ، في نظرهم ، قد دفع ثمن الوفاق والحد من الاسلحة الاستراتجية مع الروس باهظاً على حساب الحلفاء الاوروبيين واليابانيين ، كما انه فشل في تقدير العلاقة الحميمة بين السياسة الخارجية والاقتصاد العالمي ، فضلاً عن انه استمر رغم وعوده المتتالية يفعل دور الجهاز البيروقراطي لمصلحة الاستقراطية الدبلوماسية لشخصه ، حتى انه اناب نفسه عن المؤسسة . وهم يرون ان كل ما فعله لم يعد الرهان على تعجيل حدوث المحتم اي حاجات اميركا وروسيا والصين في مرحلة الانتقال . ولذلك يقدرون انه متجه الى السقوط .

غير انه مقابل كل منتقد لكيسنجر يقف أكثر من عشرة مدافعين عنه ممن يرون ان شهابه لم يزل وهاجاً يتحدى آفاقاً اظلمت بفضيحة ووترغيت ، بل ان بريقه اكثر لمعاناً من ذي قبل لكأنما ثمة اتجاه يائس اليه على أمل ان تساعد انجازاته في اعادة ثقة الأمة بنفسها . حتى ان حياته الخاصة تابعها العالم باهتمام فاحتل نبأ زواجه في نيسان ١٩٧٤ من نانسي وسفرهما المكتوم الى اكابولكو الصفحة الاولى وطار الصحافيون الى المكسيك لالتقاط صور شهر العسل اوالظفر بحديث من العروس .

كان كيسنجر دوماً يقول انه عندما يغادر الوظيفة يود ان يلقي نظرة الى ما انجز فيشعر ان « ثمة فارقاً قد حدث » . والان كيسنجر لم يزل وسط مدة وظيفته . لقد كان لكيسنجر حظه من الاخطار ولكنه انتج أكثر من نصيبه من النجاح . وبين هذه لا يتقدم عنده شيء على عقد اتفاق الحد من الاسلحة الاستراتجية . ذلك ان الآخرين قد يبهرهم نجاحه في بكين وباريس والقدس ، وهو يقدر ذلك حق قدره ، غير انه في عالم يتصاعد فيه مخزون الاسلحة النووية يصبح التحدي النهائي تكيف المستقبل بمعالجة القضايا الأكثر تفجراً الان . انها مسألة البقاء البسيطة .

استشهد مرة بماترنيخ : « لأنني اعرف ما اريد وما يستطيع الاخرون ، لذلك فانا دوماً متأهب » . مرة ثانية ، وربما عن غير قصد ، كان يتكلم عن نفسه .

كيسنجر الرجل ، والجامعي، والدبلوماسي والسياسي بقلم المحللين مارفن كالب وبرنارد كالب اللذين رافقاه منذ ان بدأ نجمه السياسي يصعد سنة ١٩٦٩ حتى هذا التاريخ .

كتاب يكشف لاول مرة اسرار السياسة الخارجية الاميركية واهمها :

– تطور العلاقات بين الاتحاد السوفياتي واميركا ومبدأ « الترابط » الذي وضعه كيسنجر لهذه العلاقات .

– الانفتاح على الصين. كيف هيئت رحلة نيكسون التاريخية وماذا جرى خلالها .

– مفاوضات باريس لانهاء الحرب الفيتنامية .

– مفاوضات التسلح .

– العلاقات الاميركية – الاوروبية .

– الملك حسين والفدائيون ودور اميركا عام ١٩٧٠

– حرب تشرين ومفاوضات فصل القوات، وتنقلات كيسنجر بين مصر واسرائيل وسوريا. اسرار هذه الحرب والمفاوضات تذاع لأول مرة .

مارفن كالب كبير محللي شبكة « سي بي اس » التلفزيونية يعتبر من اقرب المقربين الى كيسنجر ، وقد لازمه منذ ان جاء كيسنجر الى واشنطن سنة ١٩٦٩ . كان مراسلاً « للسي بي اس » في موسكو وله مؤلفات عن روسيا والصين وفيتنام .

برنارد كالب كان مراسلاً « لنيويورك تايمز » مدة خمس عشرة سنة ثم التحق بشبكة التلفزيون « سي بي اس » .

رافق المؤلفان كيسنجر في جميع رحلاته الى الشرق الاوسط والصين والاتحاد السوفياتي ووضعا هذا الكتاب اعتماداً على بعض وثائق وزارة الخارجية الاميركية وعلى ملاحظاتهما خلال هذه الرحلات والاحاديث التي دارت بينهما وبين كيسنجر.

١٤ ل.ل. او ما يعادلها.